

الجزء الأول

دمشق
١٤١٥ هـ — ١٩٩٥ م

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

١ ـ (اوضاع المشرق)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أصدرت منذ أكثر من عشرين سنة خلت كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية» وكان بنيتي وقتها اتباع هذا المدخل بكتاب عن تاريخ الحروب الصليبية وفق منهج علمي جديد روحه عربية اسلامية ، ومرت الأيام وأنا أقوم بجمع المصادر والمواد لهذا الكتاب حتى كان عام ١٩٧٦ ، ففي تلك السنة أعرت للتدريس في جامعة فاس ، وفي فاس تعمقت معارفي بتاريخ الأندلس والمغرب العربي الكبير ، وتجلت لدي صورة الصراع الاسلامي الصليبي على انها كانت - وما زالت - صورة شاملة ، فالحروب الصليبية قامت على جميع الجبهات في الشرق والغرب والشمال والجنوب في البر والبحر ، ومن ثم إن قصر دراسة تاريخ الحروب الصليبية من حيث المقدمات لا بل حتى من حيث الوقائع على المشرق فيه نقص وتشويه ، وفي ساعة من ساعات الصفاء الفكري رسمت وأنا في فاس صورة مخطط لمشروع كتاب كبير عن تاريخ الحروب الصليبية يتضمن كتابة ـ مدخل آخر للحروب الصليبية أشرح فيه أوضاع المغرب والأندلس قبيل نهاية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

وهكذا تابعت عملي في الدراسة وجمع المصادر ، وهذه مهمة ثقيلة ومكلفة من جميع النواحي على الفرد أن يقوم فيها بدور عدة مؤسسات ، وهكذا يتقسط المشروع ويطول الزمن ، وكان لهذا بعض الفوائد ، من حيث تعميق التصور وتطوير طرائق معالجة

الموضوع ، وخطوت في عام ١٩٨٤ خطوة هامة في سبيل تنفيذ المشروع الذي خططت له وذلك باصدار كتابي « الحروب الصليبية» في جزأين ، ثم تابعت العمل وهنا عقدت النية على إصدار كتاب موسوعي كبير طورت خططه أصدره في عام ١٩٩١ ، وذلك بمناسبة مرور سبعة قرون على طرد آخر محتل فرنجي من أرض الشام إثر تحرير عكا وأرسوف ، غير أنني لم أتمكن من تنفيذ ذلك وأصبت بلعنة رقم ــ ٩١ ــ ويؤسفني القول إن عدة سنوات بعد ١٢٩١ حملت رقم ــ ٩١ ــ كانت سنوات أسى وذل وتراجع للعرب والمسلمين ، ففي عام « ١٤٩١ » انتصرت الصليبية وطرد العرب من غرناطة في الأندلس وفي سنة « ١٩٩١ » ذهب العرب مرغمون الى مدريد لاستجداء السلم من الارهابي الصهيوني شامير ، وذلك في أعقاب وقائع مأساة التاريخ العربي والاسلامي على مر العصور ، وأعني بذلك حرب الخليج ،إثر اقدام صدام حسين بعمالة وصفاقة على احتلال الكويت وتدمير طاقات العراق العزيز وقتل شعبه بمختلف صنوف الافناء.

ومع هذا تابعت العمل بجد في سبيل تحقيق مشروع كتابي وقمت أكثر من مرة بادخال تعديلات على مخططه ، وكان هدفي تغطية مجمل وقائع قرني الصراع ، ولكن لم أتمكن من الوصول الى هذه الغاية حيث لم تتوفر لي مصادر أصلية كافية بغير العربية عما يعرف باسم«الحملتين الخامسة والسادسة» ولهذا إن كتابي سيتوقف في هذه المرحلة مع وقائع الحملة الرابعة ، وأملي كبير في أن أتمكن في المستقبل القريب من الحصول على المصادر المرغوب بها مع المزيد من المصادر العربية الجديدة غير المنشورة .

لم ادخل سوى تعديلات طفيفة على محتويات كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية »وقد استخدمت جميع مواد كتابي الآخر «الحروب الصليبية »لكن لم أعتمد الترتيب التي أقمته عليه ، وبات قوام كتابي الجديد :

أولا : مدخل يأتي في ثلاثة أجزاء ،بحثت في الجزء الاول اوضاع

المشرق في القرن الخامس هـ ـ الحادي عشر م ، وتناولت في الثاني أوضاع المغرب والأندلس حتى غاية الفترة نفسها ، وسيحتوي الجزء الثالث على عرض مختصر موجه للأوضاع في أوروبا في العصور الوسطى والعوامل السياسية والعسكرية والدينية التي أدت الى توجه حشود شعبية هائلة من اوروبا نحو بلاد الشام محدثة ما عرف باسم الحروب الصليبية ، وسأبحث في هذا الجزء باختصار مراحل أحداث الحروب الصليبية وفق تفسير أراه وأعتمده ، وأعتقد أنه يمثل وجهة نظر عربية اسلامية تجاه الموضوع ، ولدى تقديمي لهذا العرض سأوضح مسوغاته ، وسأختتم هذا الجزء بالتعريف بالمصادر التي اعتمدتها وبأصحاب النصوص المنشورة ، وهذه النصوص من حيث الواقع الجغرافي : شرقية وأوروبية، والشرقية : عربية وسريانية ، والأوروبية : أغريقية ولاتينية ، ومن حيث الحجم تحتل العربية واللاتينية الحجم الأوف والأكبر هذا وبالوقت نفسه يمكن اعتبار نصوصنا تنقسم من حيث الواقع الديني الى قسمسين:

إسلامي ومسيحي ، وكتبت الاسلامية بالعربية حصرا أما المسيحية فكتبت بالسريانية واللاتينية والاغريقية وسيكون هناك في مستقبل الأيام عندما اتابع العمل بهذا المشروع بعض النصوص الأرمنية ، ويجمع بين النصوص المسيحية بشكل عام الانتماء الديني والهوى والعاطفة ،وهي تمثل ثلاث كنائس رئيسة ، ومعروف أن تاريخ الحروب الصليبية قد كتب في أيامنا هذه من وجهة نظر الكنيسة الاغريقية ، وكتب أكثر من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، فهذه الكنيسة قد تحملت الوزر الأعظم في جميع وقائع الحروب الصليبية ، وجاء دور الكنيسة السريانية هامشيا ، وحتى الآن لم تجر أية محاولة – فيما أعرف ـ للتأريخ للحروب الصليبية من وجهة نظر هذه الكنيسة ، وفي الوقت نفسه ماتزال محاولات التأريخ للحروب الصليبية من وجهة نظر عربية اسلامية بدائية لم تتبلور لتفرض ذاتها في ميادين التأريخ المحلية والعالمية وأعد جهدي الذي اقدمه للقارىء العربي الآن محاولة جدية لارساء اسس هذا المسعى المنشود والمتوجب أيضا ذلك أن العدوان الصليبي وقع على

العرب المسلمين وعلى ديارهم ، وبفضل الجهود العربية الاسلامية أخفق المشروع الصليبي وتحررت الأرض وتحرر الانسان.

ودوافعي للبحث في الحروب الصليبية دوافع علمية خالصة وهي متأثرة الى أبعد الحدود بواقع الاحتلال الصهيوني القائم في بلاد الشام حاليا وبالحملة الصليبية ضد الأمة العربية والشعوب المسلمة ، وهي حملة شرسة جدا ، ثم ان نشري لعدد كبير جدا من المصادر الاصيلة لتاريخ الحروب الصليبية بعد تحقيق بعضها وترجمة بعضها الآخر فيه إسهام بناء في مشروع كتابة تاريخ الأمة العربية ككل وتاريخ بلاد الشام بشكل خاص ، فالاساس لأعمال التأريخ تأمين المصادر وهذه هي المرة الأولى التي يوضع فيها تحت تصرف القارىء العربي المختص وغير المختص هذا الحشد الكبير من النصوص المتوائمة حينا والمتناقضة أحيانا لكنها جميعا تساعد على رسم صورة متوازنة للأحداث ومتكاملة ورتبت النصوص حسب الانتماء اللغوي والجغرافي ، ولقد وجدت من المفيد جدا بعد تأليفي لكتاب المدخل في أجزائه الثلاثة أن أتولى ترجمة كتاب «السعي وراء الفترة الألفية السعيدة» لنورمان كاهن ، وهو كتاب فريد في بابه ، لا يوجد له مثيل في أية لغة من اللغات ، موضوعه وصف الأوضاع الدينية في أوروبة في العصور الوسطى لا سيما ما تعلق بأحداث الحروب الصليبية ولامسها مباشرة ، وفائدة هذا الكتاب لن تقتصر على التعرف على الحركات السائحية والشخصيات التي أدعى كل منها أنه المسيح المنتظر أو رب من الأرباب ، ومن ثم أدوارهم في صنع أحداث الحروب الصليبية ، بل الفائدة ستتجاوز هذا كله ، إنها ستمتد الى العديد من جوانب تاريخ العرب ، خاصة تاريخ بعض الفرق ٠

لهذا كله وزيادة رأيت أن محتويات هذا الكتاب تصلح كمدخل آخر للكتاب ، أخذا بعين الاعتبار أن وظيفة المدخل هي التمهيد لما يليه ٠

إن ضخامة حجم مشروع كتابي هذا وتنوع مشاربه جعلته يأخذ الشكل الموسوعي ، وبالنظر لاستقطاب أحداث الحروب الصليبية في

الشام قديم وحديثا والانتماء الى بلاد الشام بات أسم الكتاب«الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية».

إن تاريخ بلاد الشام من حيث العمق هو البداية في التاريخ الانساني والحضارة والعطاء وهو تاريخ لم يعرف التوقف أو الانقطاع ، ولهذا ولأسباب أخرى استعصت أرض الشام على القضم والابتلاع بشكل دائم من قبل المعتدين ، نعم لقد احتلت أجزاء من الشام من قبل الغرباء لبعض الوقت وادعى هؤلاء الغزاة أن الأرض ارضهم وأرض الآباء والأجداد ، لكن ما لبث أن زال العدوان ، فهوية الأرض العربية شامية ولم تستطع قوة من القوى أن تغيرها فيما مضى ولن تستطيع فيما لحق ، ذلك أن «الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ».

خلق الله الشام أرضا عربية مقدسة ، فهي أرض الابدال وأرض الابطال الغر الميامين ، أعتادت على أنجابهم خاصة في أيام الأزمات ، فهذه الأرض المعطاء التي أنجبت أيام الحروب الصليبية أبطال التحرير ، ذوي الاصالة والأخلاق والشرف والحضارة ، أنجبت لهذا الجيل ولأزماته الحاضرة البطل الكبير ، العربي الأصيل ، رجل الدولة والحضارة والثقافة والشهامة العربية والكرم والاباء والمروءة والرجولة ، الرئيس حافظ الأسد ، فوجوده ورعايته أعطتني الدافع والأمل لاكمال مشروع هذا الكتاب الكبير والتخطيط لمشاريع أخرى أكبر يتصدرها اخراج تاريخ دمشق لابن عساكر وأنشاء مصرف للمعلومات التاريخية العربية والاسلامية من أجل كتابة كتاب في تاريخ الاسلام سياسيا وحضاريا سيكون فيما لايقل عن عشرين من المجلدات وفق منهج في التأليف جديد ومتطور ورؤية تاريخية عربية اسلامية علمية مؤمنة ، ذلك أن الايمان يصنع المعجزات.

لقد شجع السيد الرئيس على انجاز هذا المشروع وأمر بتأمين كل ما يلزم لطباعته ونشره ، فله الشكر الصادر من القلب ، و الى الله

تعالى أبتهل أن يمد في عمره وأن يمنحه الصحة والتوفيق والنجـاح الدائم ، ففي ذلك وفاء بما تعهد به جل وعلا في قوله«إنا نحـن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون» فحفظ الذكر بالرجال المؤمنين والعلماء وهو حفظه الله عالم مؤمن ، يرعى العلم والعلماء ويرى أن مستقبل بقـاء هذه الأمة مرتبط بتقدمها العلمي والثقافي ، فالنبي صـلى الله عليه وسلم يقول:«طلب العلم فريضة على كل مسلم» وهوأيضا يقـول:«إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه مـن الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء»، وقال الامام محمد بن الحسن الشـيباني:«إن الله تعالى حكم ببقاء الشريعة الى يوم القيامة ، والبقاء بين الناس يكون بالتعلم والتعليم ، فيفتـرض التعليم والتعلم جميعـا» وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الذين لا يعلمون والذين لا يتعلمون ».

اللهم امنحنا العلم النافـع ووفقنا الى مـا فيه منفعـة العـــرب والمسلمين ففي منفعتهـم مـرضاتك «رب أدخلني مـــدخل صـــدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا». يارب يا كريم يا من أمره بين الكاف والنون لك الحمد بلا حدود ، منك أستمد العون وأطلب الهداية يا إله العالمين.والصلاة والسـلام على محمـد النبي العربي وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ - ٤ - ١٤١٣هـ / ١٧ - ١٠ - ١٩٩٢

سهيل زكار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

درج الذين عملوا على دراسة تاريخ الحروب الصليبية على الانطلاق من أوربة الغربية موطن الصليبيين. ولقد فعل هذا الباحثون الأوربيون وجرى على سننهم معظم الباحثين الشرقيين مقلدين إياهم فدرسوا الحياة في أوربة الغربية خلال القرنين العاشر والحادي عشر من كافة الوجوه والجوانب، ثم سايروا نشوء الحركة الصليبية والتبشير بها ، وبعد هذا واكبوا جموع الصليبيين عبر أوربة الى القسطنطينية ثم آسية الصغرى فبلاد الشام.

من الطبيعي أن يقوم أوربي باتباع مثل هذا المنهج ،برغم ما فيه من تضليل وتغافل عن حقيقة الامور ووقائع التاريخ ، ذلك أن الجيوش والجموع الصليبية عندما وصلت الشام لم تكن أول قوات نصرانية ـ دافعها الأساسي ديني ـ تغزو هذه البلاد ، ثم لم يكن الفرنجة ـ خاصة في جيش البارونات ـ يتعرفون لأول مرة على آسية الصغرى وأعالي بلاد الرافدين ، ذلك لأن عددا كبيرا من الفرنجة كانوا قد خدموا كمرتزقة في الجيوش البيزنطية ، وقاتلوا ضد المسلمين في الشرق ، وعرفوا طرائق الحرب وفنون القتال لديهم وما ورد في خطبة البابا أوربان الثاني ـ المبشر الأول بالحروب الصليبية ـ من نصائح قتالية لهو برهان كاف للتدليل على صحة هذا ولا حاجة للتذكير بأن الفرنجي الذي لم يسبق له القتال ضد مشارقة المسلمين ربما كان قد نال حظه في القتال ضد المغاربة .

لاريب أن الحملات الصليبية كانت حلقة من حلقات الصراع بين

الاسلام والمسيحية ، لكن الأوربي مهما تجرد تبقى هـذه الحـروب جزءا من تـاريخه وأمجـاده ـ خـاصة في عصر المناداة بـالوحدة الاوربية ـ ورجالها هم أبطاله نشأ على حبهم واتخاذهم مثلا أعلى لذا قام الباحثون الاوربيون ـ سـواء عن ادراك وقصـد أو بـدون ادراك وقصد ـ بتمجيد رجالات الصليبيين فأضفوا عليهم صورا مـن القدرة والشجاعة والطاقات هي في كثير من الاحيان فوق الصـفات العادية للبشر ، مع أن واقع الحال لم يكن هكذا أبدا ، فـالصليبيون كانوا بشرا أدنى من سواهم ثقافة وحضارة وحتى شجاعة ومعـرفة بفنون القتال ، ولقد انتصروا ، حين وصلوا بلاد الشـام ، لا لأنهـم تمتعوا بصفات التفوق ، بل لأن الخصم الذي واجهوه كان من التفكك والهزال بحال لايستطيع معه أن يصمد لهبات النسـيم العليل. فمـا بالك ببعض الريح العاتية؟!

في نصف القرن الذي سبق مجيء الصليبيين كان العالم الاسلامي يعيش في حالة من الفوضى والدمار لانظير لها ، ولقـد نشـأت هـذه الحالة عن هجرة الغز البداة إليه مع التوسع السلجوقي ، وطالما أن مسرح الحروب الصليبية كان في بلاد الشام والجزيرة فلننظر بإمعان إلى حال هذين البلدين قبيل مجيء الصليبيين ، وإذا فعلنا هذا نجـد الشام والجزيرة مثل الشطرنج فيه رقع كثيرة فيهـا دمـى متفـاوتة الحجوم متصارعة دائما ، ولقد سهل هذا التمزق مهمة الغـز عند مـا دخلوا الشام والجزيرة فاستطاعوا بسهولة الاسـتيلاء عليهمـا ولم يجدوا كبير عناء في تهديمهما ، كما أن هذا التمزق ناسـبهم ووافـق طبيعتهم ، فالغز بالأصل كانوا عشـائر بدوية يكرهـون التـوحد ويمجونه ، ويألفون الفرقة ويحبونها ، ولم يناسـبهم أكثـر مـن أن يجدوا بلدا كالشطرنج فيه مربعات كافية لكل العشائر مع زعمـائها المتفاوتين في الاهمية مثل حال الدمى.

لكن من هم الغز ، ومن أين جاءوا ، ثم مـا الذي فعلوه بـالتحديد حتى كانوا هكذا من أسباب نجاح الصـليبيين ؟ الجـواب على هـذه الأسئلة يتطلب المضي الى سهوب بـلاد ما وراء النهر مـوطن الغـز

الأول ، فمن هذه السهوب ينبغي ان ينطلق دارس الحروب الصليبية وهذا ما صنعته في هذه الدراسة.

ومفيد أن نتذكر هنا بأن البابا أوربان الثاني ، عندما بشر بالحروب الصليبية ودعا لها كان مدفوعا بشكل رئيسي للعمل على اتجاد بيزنطة النصرانية من الغز المسلمين وربما بالتالي ايجاد فرصة لتوحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تحت زعامة خلفاء القديس بطرس ، وجدير أن نذكر هنا أن الصليبيين قد وصلوا الشام جمعا واحدا ، ولكن ما أن توغلوا فيه وانتزعوا بعض أراضيه حتى فرض عليهم طبيعته في التمزق ، فانقسموا الى عدة دويلات ، وبما أن كثيرا من صليبي الحملة الأولى قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديد قد تمتع بصفات خاصة ، ولما كان تدفق الفرنجة من أوربة على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متمايزتين ، هما مجموعة البلديين ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة الى هذا فقد قام بين الصليبين تنظيمات ، غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية. ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن وازدادت الفرقة عمقا والخلافات حدة ، وزالت من بين الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الاولى خاصة بين صفوف الفقراء Tafurs منهم.

وفي الوقت الذي حصل فيه هذا بين صفوف الصليبين كان المسلمون قد أصابهم انقلاب هائل ايضا ، حيث أن الضربة التي تلقوها أفاقتهم من رقدتهم وأثابت العاقلين منهم الى رشدهم ، وزالت القيادات القديمة وتكونت قيادات جديدة ، وخلق انسان مسلم جديد مع روح جديدة ، ولقد ظهر هذا خاصة زمن نور الدين محمود ابن زنكي حيث عاش الناس مع الجهاد ، نبذوا الفرقة ، وجاهدوا من أجل الوحدة ، ولقد استطاعت القيادات الجديدة مع الانسان الجديد المتشبع بروح الجهاد الجديدة احلال الوحدة بين المسلمين وازالة الفرقة ، فاتحدت الموصل مع حلب ، فزالت بفضل ذلك مملكة الرها الصليبية ، ثم انضمت دمشق الى هذا الاتحاد وتبع ذلك انضمام

مصر وازالة الخلافة الفاطمية ، وهكذا استطاع المسلمون نيل النصر في حطين واسترداد القدس ، ثم قامت مصر التي دخلت اليها الروح الجديدة بتحمل تبعات تصفية الصليبيين وقامت مع الشام بالتصدي للخطر المغولي فهزمته في عين جالوت...

إن مهمة هذا المجلد لن تتجاوز الحديث عن قيام السلطنة السلجوقية وبحث حالة الشام والجزيرة ، كجزء من العالم الاسلامي ، و ذلك قبيل مجيء الصليبين ، وسنتوقف مع دخولهم الشام واحتلال بعض أراضيه ، وسأترك أمر دراسة المراحل التالية ، مراحل الاستفاقة ، والتوحد ، والاسترداد الى المجلدات القادمة إن شاء الله.

ولن احاول القيام بتقديم سرد بأسماء المصادر التي اعتمدتها مع وصف لها وتقويم ، لأنني فعلت هذا في كتابي بالانكليزية

The Emirate of Aleppo 1004- 1094 Beirut 1971

كما أن كل من

Barthold في كتابه Turkestan Down to the Mongol invasion و Bosworth,

في كتابه The Ghaznavids

قد قاما باستعراض ودراسة لكل ما هو معروف من المصادر المتعلقة بتركستان مع بداية تاريخ التركمان ثم هجرتهم الى خراسان واستيلاء السلاجقة على هذا الصقع. ثم إن كتاب

Historians of the middle East

يحوي عددا من الأبحاث الجيدة المتعلقة بمصادر الحروب الصليبية خاصة الشرقية منها ، ولقد قام عزيز سوريال عطية في كتابه

The crusade. Historiography and Bibliography, London, 1962.

بتقديم احصاء كامل بأسماء ما كتب عن الحروب الصليبية ولشعوري بأنني لن أقدم الآن شيئا جديدا في هذا المجال ، لم أقم كما ذكرت باستعراض وتقويم للمصادر ، وربما سأفعل ذلك في المستقبل

لان هناك ما يزال يوجد الكثير من المصادر العربية التي لم تستخدم أبدا أو لم يستفد منها كما ينبغي.

وأملي وطيد بأن تقدم هذه الدراسة للقارىء العربي في أيامنا هذه شيئا جديد يرى فيه أنه لايعيش الآن اسوأ حقب تاريخه الطويل لان هذا التاريخ قد مر بفترات أشد قسوة ومرارة.

ومهما يكن الامر فانه ينبغي التنبه الى وجود الفوارق بين العصور ، والى أن وجود فترات ماضية أشد قسوة لايجوز أن تكون إلا دافعا لعدم اليأس ، ثم معلما وحافزا نحو حذو خطا الأوائل وتبني حلولهم في التوحيد والاخلاص وخلق الانسان العربي المجاهد الجديد . والله الموفق.

دمشق ٩ رجب الفرد ١٣٩٢
١٨ آب ١٩٧٢

سهيل زكار

الفصل الأول

الهجرة الغزية واستيلاء السلاجقة على خراسان

تركستان وسكانها. الوضع السياسي في خراسان وبلاد ما وراء النهر في القرن العاشر والنصف الأول من الحادي عشر. الاسرة السلجوقية. الاجتياح السلجوقي لخراسان.

« وعاش الامير سلجوق مائة سنة ، ورأى في منامه ذات ليلة أنه يبول نارا يتلظى. شرارها في مشارق الأرض ومغاربها. فسأل المعبر ، فقال: سيولد من نسلك ملوك يملكون أقاصي الأرض »(١).

« تعلق الامام الأعظم أبو حنيفة الكوفي رضي الله عنه بحلقات الكعبة في حجته الاخيرة – ودعا الله قائلا: إذا كان اجتهادي صحيحا ومذهبي حقا فانصره، فلقد وضحت مسائل الشريعة الاسلامية من اجل وجهك ، فصاح هاتف من الكعبة قائلا: حقا قلت ، مازال مذهبك مادام السيف في يد الاتراك.، وحمدا لله تعالى أن قوى ظهر الاسلام به ، وها هم أصحاب أبي حنيفة هاذون يا عمون ، قريرو الاعين لأن السيف في يد الاتراك في بلاد العرب والعجم والروم والروس ، وقد رسخ سلطانهم في القلوب وهم سلاطين آل سلجوق ، رحم الله الماضين منهم وأبقى الباقين ، فلطالما اختصوا العلماء من أصحاب أبي حنيفة بالعطف والرعاية بحيث استقرت محبتهم في قلوب الناس جميعا شيبا وشبابا »(٢)

« يظهر عز الملك... بثلاثة أشياء : حفظ الأطراف مع دفع العدو عن الحوزة ، وأكرام العلماء واعزازهم ، وحب أهل الفضل ... وإن أجل النعم بعد نعمة الاسلام الصحة والامن ، والأمن إنما يكون من سياسة السلطان ، فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة ، وأن يكون مع السياسة عادلا لأن السلطان خليفة الله ، ويجب أن تكون هيبته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كان بعيدا »(٣) .

عندما يتفحص الباحث تاريخ بلاد الشام والجزيرة ، وذلك كجزء مما يعرف الآن باسم الشرق الأوسط ، يلاحظ المدى الذي تأثر به هذا التاريخ في العصور القديمة والوسطى - حسب المصطلحات السائدة - بتحركات الشعوب البدوية وهجراتها داخل اسية ، وفي الوقت نفسه يرى كيف نعمت بقاع هذين البلدين ، أو عانت ، أو تغيرت عقب وصول كل موجة جديدة من المهاجرين إليها ، ومن المعروف أن البداة الذين عرفتهم بقاع الشام والجزيرة كثر ، جاءوا من اتجاهات وأصول متعددة.

ليس في النية هنا التصدي لدراسة كافة الموجات البدوية التي جاءت في مختلف العصور الى بلاد الشام والجزيرة ، إنما الغرض سينحصر بتبيان بعض ما حدث بعد قيام الفتوحات الاسلامية في القرن السابع للميلاد ، حيث نجد أن العرب والترك كانا أشهر الشعوب البدوية التي هاجرت الى هذين البلدين وأكثرها أهمية ، وكانا أيضا أكثرها تأثيرا في حياتهما من كافة الجوانب.

وعلى الرغم من تفاوت العرب والترك من حيث الأصول العرقية ، واللغة والطبائع ،والوطن الأم ، فان كلا من هذين الشعبين قد ساهم في اقامة الحضارة الاسلامية وتطويرها مع نشر الاسلام والحفاظ عليه ، وليس من المغالاة القول في يومنا هذا: إنه إذا كان فضل نشر الاسلام وإقامة الخلافة الاسلامية يعود للعرب، فان كبير فضل حماية هذا الدين في اوقات المحن ، ثم التمكين من احياء السنة ، واخيرا تثبيت صبغة الدين الاسلامي الحالية يعود كله للترك.

إن الشطر الأول من هذا الكلام بديهي ومعروف بالنسبة للعرب وغيرهم لكن الشطر الثاني يحتاج ـ على الأقل بالنسبة لكثيرين من قراء العربية ـ الى توضيح وتبيان، كما يحتاج الى تقويم علمي وعلماني ، وهذا ما سأحاول صنعه وشرح بعض جوانبه في هذه الدراسة ،واقول بعض جوانبه لأن هذه الدراسة هي مدخل لتاريخ الحروب الصليبية التي كان مسرحها الاساسي الشام والجزيرة، والشام والجزيرة لم تكونا تعدوان اكثر من دارين من ديار الاسلام التي حكمها الأتراك، ثم إنني لن اتعرض ، إلا بقدر ما تمليه الضرورة، لتاريخ اتصال الترك بالاسلام منذ البداية، بل سأركز الجهد على الفترة ما بعد القرن الرابع للهجرة ـ العاشر للميلاد، لأن في القرن الخامس ـ الحادي عشر كان أمر ظهور الغز ـ التركمان ـ وفيه قامت السلطنة السلجوقية.

إن هجرة التركمان الى خراسان والعراق والجزيرة والشام وآسية الصغرى مع الاجتياح السلجوقي هو حدث في غاية الخطورة لأنه قد افتتح مرحلة جديدة متباينة عما سبقها ليس فقط في تاريخ الاسلام ودياره وإنما في تاريخ المسيحية والامبراطورية البيزنطية مع عالم العصور الوسطى، فمنذ هذا القرن بدأت اجزاء من العالم الاسلامي تخضع بصورة متوالية تحت الحكم التركماني السلجوقي حتى جاء وقت وجد فيه حكام أتراك الأصل في مناطق نائية عن موطنهم الأصلي كالجزائر والبنغال واليمن احيانا، ولقد استمر هذا وعاش طويلا وكان له اثاره حتى بات كثير من المسلمين يرون أن الحكم لايصح ولايمكن أن ينجح فيه إلا تركي(٤)، وهذا له ما يسوغه فالشام مثلا حكم من قبل الترك منذ أواخر القرن الحادي عشر وحتى أوائل هذا القرن.

والتغيرات التي احدثها قدوم التركمان مع الاجتياح السلجوقي ـ كما سنرى ـ هي تغييرات هائلة تناولت جوانب الحياة في العالم الاسلامي، وصحيح أن الكثير من التغييرات التي

تمت كان له جذوره التي تعود الى ما قبل القرن الحـــادي عشر ، إلا ان التركمان بقيادة السلاجقة قد عجلوا في قيام التغيير ومكنوا مـــن احداثه واتمامه بنجاح ٠

وبالنسبة للمسيحية والامبراطورية الرومانية الشرقية، لقد تمكن التركمان من تحقيق ما اخفق الفرس والعرب من قبل في تحقيقه ، الا وهو احتلال الاناضول ، ومن ثم التمهيد للقضاء على بيزنطة واحلال تركية محلها٠

لم يكن التركمان اول ترك يتصلون بالعالم الاســلامي وبيزنطـة، فمنذ قرون عديدة مضت قبل القــرن الحــادي عشر كان هناك تــرك كثيرون يعيشون داخل الأراضي الشرقية للخــلافة أو على تخــومها، ومعروف أن حركة الفتوح الاسلامية خاصة في العصر الامــوي قــد اصطدمت بالترك الذين وقفوا في وجه هذه الحركة وحالوا لزمن بينها وبين التقدم، والى أن تحول التــرك الى الاســــلام لم يكن له « دار حرب أشد شوكة من الترك »(١) .

ومعروف انه منذ القرن التاسع اعتمدت الخــلافة العبــاسية على تجنيد العبيد الترك في جيوشها، وأنه قد ظهر من بين صـــفوف هؤلاء العبيد عدد كبير من الحكام والقادة، نجح بعضهم في التحكم بالخلافة، وبعضهم الآخر في إقامة دول مستقلة كمــا فعــل آل طــولون ثـــم الاخشيد في مصر، والغزنويون في افغانستان اليوم الحالي، ولما كان هؤلاء العبيد قد جلبوا الى العالم الاسلامي وهم أطفال ، فــانه مـــن المرجح انهم قد كســبوا عادات وتقــاليد المجتمــع الذي ربـــوا فيه ونشأوا ، وأنهم قد نسوا أو تخلوا عن معــظم ــ إن لم يكن عن كل ــ تقاليد وعادات مواطنهم الأصلية واهليهم، لذا لايمكننا أن نعــدهم ــ حين أسسوا دولهم المستقلة، وحين تحــكموا ببغــداد والخلفــاء ــ ممثلين للعنصر التركي، وإنما ينبغي النظر اليهم مــن زاوية وضـــع الخلافة العباسية ومجتمعها ومشاكله ومشاكل قــومياته وعناصره البشرية، ثم الدور الذي شغله الجند والقوى والجماعات العســكرية

في حياة هذه الخلافة، وهو دور قام بعد الهجرة النبوية حين أذن بالقتال ، وأمر بالاعتماد على الجهاد كاحدى وسائل نشر الاسلام، ولقد بانت بدايات النتائج السلبية للاعتماد على الجند والقتال، منذ زمن الخليفة الراشدي الثالث، وربما قبل ذلك، وتطورت وتعقدت مع تطور الدولة الاسلامية وتعقد نظامها الامبراطوري، وربما مازالت مستمرة حتى يومنا الحالي٠

ولعله ليس من الغريب أن سنجد عند حديثنا عن الهجرة التركمانية مع الاجتياح السلجوقي أن العناصر العسكرية التركية الاصل لدول الخلافة العباسية، وخاصة الدولة الغزنوية هي التي وقفت في وجه هذه الهجرة، وتصدت لهذا الاجتياح، ثم عانت وخيم العواقب من آثاره٠ وينطبق هذا الى حد ما على الامبراطورية البيزنطية، لأنها عرفت الترك قبل القرن الحادي عشر، وكان لها علاقاتها معهم، فاستخدمت الكثيرين منهم كمرتزقة في جيوشها، لهذا كثيرا ماحدث ، أثناء القرن الحادي عشر وبعده، أن كان بعض قادة القوات البيزنطية مع الكثير من العساكر التي كلفت وعملت في سبيل صد التركمان ومنعهم من التغلغل في أسية الصغرى والحيلولة بينهم وبين احتلال الأناضول كانت من أصل تركي٠

لقد أدرك الأوائل هذا الأمر وميزوا بين تركمان القرن الحادي عشر وأتراك القرون التي سبقته، فعندما عبر في عام ١٠٧١ م السلطان السلجوقي ألب أرسلان الفرات في طريقه إلى الشام قال له أحد مرافقيه(١): «يا مولانا أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليك ، فقال: وما هذه النعمة؟ فقال: هذا النهر لم يقطعه قط تركي إلا مملوك وأنتم اليوم قد قطعتموه ملوك »٠

إنه لمن الضروري قبل الشروع في الحديث عن وصول الغز التركمان الى الجزيرة والشام ، ثم عن الاجتياح السلجوقي والدويلات التي قامت بعد هذا الاجتياح، أن نذكر باختصار بعض ما يتعلق بأصل الغز وعاداتهم قبل تبنيهم للاسلام ودخولهم مهاجرين

غزاة لدياره، ثم نبين كيف تم وصولهم الى بغـداد وكيف اجتـاحوا الشام والجزيرة٠

قبل ان يتحول الغز الى الاسـلام كانوا أعدى أعداء هـذا الدين، ولكن ما ان تبنوه حتى أصـبحوا حمـاته المخلصـين، لذلك إن مـن العلامات المميزة لتبني التركمان للاسلام كمـال هـذا التبني، حيث أسلموا انفسهم كليا للاسلام، فتنازلوا عن ماضيهم، وعاشـوا كليا مع الدين الجديد، ومرد هذا ربما بسبب انهم اخذوا الاسـلام وتبنوه في ارض وأجواء الصراع بين الاسلام والكفر على الحـدود الشرقية لبلدان الخلافة العباسية ، وربما ايضا بسبب انهم وجدوا انفسـهم منذ لحظة اعتناقهم للدين الاسلامي ينخرطون بجهاد مرير ضـد بني جلدتهم من كفار الترك، وهكذا نسي التـركمان مـاضيهم واغرقـوا شخصيتهم القـومية في الاسـلام، الأمـر الذي لم يفعله العـرب ولا الفرس.فليس لدى التركمان ذكريات «جاهليةتركية تعدل بأي حـال او تشابه بأي محتوى الذكريات المجيدة لوثنيات الجزيرة العـربية ٠ او مفاخر الامجاد التليدة الماضية للفرس وماعدا بعض المقـطوعات الشعرية الشعبية ، وبعض قصص للأنساب ذات مسحة أسـطورية» فان حضارة التركمان وثقافتهم وآدابهم وديانتهم قبل الاسـلام قـد جبها الاسلام جميعا فنسيت، وليس من الغلو والمبالغة القول بأنه لم يوجد بين الأمم التي اعتنقت الاسلام من عدل التركمان في ايمـانهم المخلص به والذي لم يشبه ريب، لهذا ليس عجبـا كمـا سـنرى أن استطاع التركمان الاسراع في إحياء قوة الاسلام السـني، وإقـامة سيطرته ونشرها الى أجزاء بعيدة، ولقد صنعوا هذا ونجحوا بـه في الوقت الذي هدد الاسلام فيه مـع الحضـارة العـربية الاسـلامية بالزوال كليا من الشام والجزيرة ومصر، وكان التهديد داخليا نجـم عن نشاط بعض الفرق غير السـنية ، وخـارجيا نجـم عن مجـيء الصليبيين الذين قدموا من اوربا الغربية الكاثـوليكية ،ومفيد هنا أن ننبه إلى أن النجاحات التي حققها التركمـان كانت باهظة التكاليف من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والسياسية وحتى الدينية ٠

انهى في عام ٤٦٦هـ ـ ١٠٧٣ م محمود بن الحسين الكاشغري تاليف اول معجم عربي تركي سماه ديوان لغات الترك، وحينما كان الكاشغري يصنف كتابه هذا كانت الدولة السلجوقية تحكم من قبل السلطان الب ارسلان، ثاني سلاطنة السلاجقة، ومن اكثرهم شهرة وعظمة. وقبيل ذلك عندما كان الب ارسلان مايزال اميرا يافعا صنف له كتاب اسمه ملك نامه تحدث بـه صـاحبه عن أخبار التركمان والسلاجقة وذكر « انه استفاد انسابهم واحسابهم من الأمير اينانج بك ، إذ كان أسن القوم واعرفهم بأنسابهم وأحسابهم »(٧) .

ويقدم هذا الكتاب بعض المعلومات شبه الاسطورية عن التركمان قبل تبنيهم للاسلام من ذلك ما يتعلق ببعض العقائد والعادات، فمن العقائد على سبيل المثال أن « الترك تزعم أن أرواح الموتى تجتمع في كل سنة ليلا فتدخل الأمصار التي كانت فيها حياة أجرامها وتزور أهاليها، فمن صادف ذلك الدوي ليلا مات ... والترك تزعم أن الجمعين إذا تلاحما، فقبل ذلك الجن الذي يسكن ولاية هذين الجمعين يتحاربان تعصبا لصاحب ولايتهما من الانس فمن ظفر منهما يكون الظفر لصاحب ولايته غدا، ومن انهزم منهما ليلا تكون الدبرة على الملك الذي يسكن هذا الحزب من الجن في ولايته، وجيوش الترك تتستر في ليلة الميعاد، وتدخل الخيام توقيا عن وقع نبال الجن »(٨) .

ومن بعض الأخبار الأخرى يمكن تلمس اثار عقائد طوطمية وشامانية:
« ذلك أن الترك اخذت اسماء اثني عشر صنفا من الحيوان وسمت به اثنتي عشرة سنة ... والترك تزعم في كل سنة منها حكمه ويتفاءلون بها، فتقول: إذا كانت سنة (أوديلي اي سنة البقر تكثر فيها الحروب لما أن في البقر نطاحا ، وإذا دخلت سنة الدجاج يكثر فيها الطعام ولكن يقع بين الناس التشويب .... وإذا دخلت سنة التمساح يكون الأمطار والخصب لأن مسكنه الماء، وإذا دخلت سنة الخنزير يكثر فيها البرد والثلج والفتن ... » ولقد كانت غالبية

اسماء رجالات التركمان التي وصلتنا هي اسماء حيوانات من جوارح الطير وغيرها من ذلك : جغري اي الصقر، وطغريل وهو طائر اعلى منزلة من الصقر ، وارسلان اي اسد ....

ويبدو ان الغز كانوا في القرن العاشر شامانيين وهذا يمكن استخلاصه من كتابات الجغرافيين والرحالة العرب ومن اخبار بعض المؤرخين(٩) ولعل في طبيعة التطور الذي اصاب الصوفية الاسلامية بعد قيام الامبراطورية السلجوقية دليل على أن هذه الشامانية لم تزل باعتناق الغز للاسلام بل جاءت معهم وقامت بتاثيرها ، فمن المعروف أن الشامان هو كاهن او رجل دين، وهو منجم وطبيب وساحر وله القدرة على القيام ببعض الخوارق ولا تزول هذه القدرة بزوال الحياة بل تنتقل معه إلى القبر، ومعروف أن الصوفي أصبح بعد القرن الحادي عشر ليس فقط رجل دين إنما يفهم السحر ويمارسه وينبيء بالمستقبل ، ويشفي من الأمراض، وله القدرة على فعل الخوارق ـ الكرامات ـ وتستمر هذه القدرة حتى بعيد الوفاة(١٠) .

واخيرا يمكن من الكاشغري تحصيل بعض المعرفة فيما يتعلق بعادات الصيد عند الترك، وامور القتال لديهم مع ايلاء استخدام القوس اهمية خاصة ، ثم ما يتعلق بالخمر وطرق تحضيره الخاصة ، كما أن هناك بعض الأساطير ذات الصبغة الاخبارية العالمية مثل تلك التي تتعلق « بالاسكندر ذي القرنين » وغير ذلك(١١) .

إن الموطن الأصلي للشعوب التركية هو سهوب ما وراء النهر التي هي الآن مناطق تابعة إما للاتحاد السوفياتي سابقا أو للصين الشعبية ، ولقد عرف الجغرافيون العرب هذا الموطن باسم تركستان واعتبروا تركستان جزءا من منطقة بلاد ماوراء النهر، وطبعا عنوا بالنهر نهر جيحون الذي أصبح يعرف منذ العصر المغولي باسم (أموداريا)،وبعرف الجغرافيين العرب شملت منطقة ماوراء النهر جميع الأصقاع الواقعة بين جيحون والصين ، وقد قطنت من قبل البداة الاتراك والمغول(١٢) .

لقد كان جيحون في كثير من العصور اكثر من حد جغرافي ، فهو بالنسبة للفردوسي صاحب الشاهنامه كان حدا تقليديا متفقا عليه بين ايران وتوران، وكما ان هناك تمايزا وعداوة أصيلة بين الماء والنار، كذلك هي العداوة والتمايز بين الايرانيين والتورانيين ، وحديث ووقائع هذه العداوة هو الموضوع المسيطر على الشاهنامه(١٣) .

ولكن على الرغم مما قاله الفردوسي، ومن أن دول ايران قد قامت خلال عصورها التاريخية بالدفاع عن حدودها الشمالية الشرقية ضد غزوات البدو سكان السهوب فان التمايز بين الايرانيين والتورانيين ليس، ولم يكن قط بهذه الحدة نفسها فلقد عرف هذان الشعبان بعضهما بعضا منذ زمن طويل، وأقاما علاقات متعددة الجوانب ومتنوعة الوجوه بينهما ، وهي بلا ريب لم تتسم دائما بالصراع والروح القتالية ، ولقد كان هناك دائما ترك يقطنون إيران حيث إما هاجروا إليها أو جلبوا أو خلفوا بعد كل غزوة قام بها بداة السهوب .

لقد ذكرنا ان معظم سكان السهوب الواقعة في أعالي جيحون وورائه كانوا من أصل تركي أو مغولي ، ولقد قامت في بلاد ماوراء النهر مدن كثيرة ذات نظام يشبه انظمة دول المدينة ، كما قامت فيه عدة امبراطوريات ، وكان من السهل دائما على شعوب ماوراء النهر التسلل والتغلغل في السهول الايرانية أو الهندية او الهجرة إليها ، ولقد كان في أوائل العصور الاسلامية هناك عناصر تركية تسكن ما نعتبره الآن شرقي افغانستان مع قبائل غزية وخلجية تجوب الهضبة الواقعة بين كابل وغزنه، وهكذا كان سكان التخوم الشرقية لخراسان دائما ممزوجين بالاتراك ، ونجد صدى هذا عند الجاحظ في قوله :

« إن الخراساني والتركي اخوان ، وإن الحيز واحد، وإن حكم ذلك الشرق ، والقضية على ذلك الصقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير

متفاوت ، وإن الأعراق في الأصل إن لم تكن راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لم تكن متساوية فانها متناسبة ، وكلهم خراساني في الجملة ، وإن تميزوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعض الوجوه ...وإن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي والزنجي والحبشي، فضلا عما هو أبعد جوهرا وأشد خلافا ، بل كاختلاف ما بين المكي والمدني والبدوي والحضري والسهلي والجبلي ، وكالاختلاف مابين الطائي الجبلي والطائي السهلي ..."(١٤) .

ولقد كان لمراكز الحضارة والحياة المستقرة في بلاد ماوراء النهر صلات وثيقة مع البداة الأتراك سكان السهوب ليس فقط جغرافيا وإنما اقتصاديا وحضاريا وسياسيا، وعند قيام الفتح الاسلامي كانت بلاد ماوراء النهر ممزقة سياسيا ، وكانت المدن ومراكز الاستقرار فيها تحكم من قبل الدهاقين او التجار ، ولقد قاومت هذه العناصر الحاكمة دائما ــ بسبب مصالحها ــ اي تدخل خارجي مباشر واية محاولة لتبديل الأوضاع السائدة ، واهتمت بتأمين سلامة طرق القوافل واستمرار الحركة التجارية وتدفق البضائع والارباح، وحققت هذا باقامة علاقات طيبة مع سكان السهوب البداة وعندما كان يقوم اي تهديد أو عدوان خارجي ، أو عندما كانت تحدث اية مشاكل داخلية كان هؤلاء الحكام من التجار والدهاقين يستصرخون البداة الأتراك ويعتمدون على مساعدتهم، وبامكاننا أن نسوق مثالا يبرهن على هذا كله ماذكره النرشخي صاحب تاريخ بخارى ، اثناء تكلمه عن قيام هذه المدينة وسكناها وتطورها حيث يقول :« واجتمع الناس من كل صوب ، وازدهر ذلك المكان واقبل الناس من ناحية التركستان ، وكان بهذه الولاية كثير من الماء والشجر والصيد، فاعجب هؤلاء الناس بها وأقاموا فيها ، وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون في الخيام والسرادقات فتجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر واختاروا من بينهم واحدا

اسمه « ابروي» نصبوه أميرا عليهم ...وبعد مدة كبر « أبـروي » وسلك طريق الظلم في هذه الولاية ، فلم يستطع الناس الصبر طويلا، وفر الدهاقين والأغنياء منها الى التـركستان ـ أي الشرق ـ حيث بنوا شبه مدينة سموها « حمـوكت » لأن دهقـانا عظيمـا اسـمه « حموك » كان رئيس تلك الطائفة التي ذهبت الى هناك ... ثم ارسل الناس الذين بقوا في بخارى رسولا الى عظمائهم طالبين النجدة من جور « ابروي » فتوجه هؤلاء العظماء والفلاحون (الدهـاقين)الى ملك الترك ... واستنجدوا به فأرسل ...ابنه...مع جيش عظيم ، فلما وصل الى بخارى قبض على « ابروي »...وقيده ثم أمر فملأوا جوالا بالزنابير وادخلوا فيه « ابروي » حتى مات ...وأوفـد رسـولا الى « حموكت » لاعادة هؤلاء الذين هربوا مـن بخـارى مـع نسـائهم واطفالهم ، ثم صدر فرمان باعتبار كل عائد من حمـوكت مـن جملة الخواص ، لأن كل من كان غنيا ودهقانا كبيرا كان قـد فـر، وبقـي المعدمون والفقراء »(١٥) .

لقد كان هناك علاقات تجارية كبيرة بين العالم الاسلامي والترك قبل تحولهم الى الاسلام وبعده، ويعود الى التجار فضل نقـل بعض صور الحضارة الاسلامية مع الدين الاسلامي الى اوسـاط البـداة سكان السهوب. إنما ـكما يبدوـ يعـود فضـل نشر الاسـلام بين سكان السهوب الى جهود عدد من رجال الدين من المتصوفة بشـكل خاص وليس الى جهود رسمية موجهة (١٦) .

ونتيجة لوجود العلاقات الحربية والسلمية والاقتصادية مع الترك فقد توفر لدى المسلمين خاصة منذ القرن العاشر بعض المعلومات عن قبائل وجماعات التـرك الذين كانوا عبـارة عن « عدة اجناس وعدة ممالك ...ولكل جنس مملكة منفردة ، ويحارب بعضهم بعضا ، وليس لها منازل ولا حصون وإنمـا ينزلون القبـاب التـركية المضـلعة ، ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر واغشـيتها لبـود، وهـم أحذق قوم بعمل اللبود، لأنها لبـاسهم ، وليس بتـركستان زرع إلا الدخن، وإنما غذاؤهم البـان الحجـور ، ويأكلون لحـومهم واكثـر

ملياكلون لحوم الصيد، والحديد عندهم قليل، وهم يعملون سهامهم من عظام" (١٧). وأهم المجموعات التركية التي عرفها العرب دعوها باسم التغز غز أو الأغز وبشكل عام باسم الغز، فهم عرب الترك...وهم رماة الحدق: (١٨) ويبدو أن الغز كانوا في القرن العاشر متحدين سياسيا لذلك كانوا اقل شانا من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية •

☆ ☆ ☆

انه لضروري قبل الاسترسال في الحديث عن الغز أن نبين بشكل موجز الوضع السياسي في منطقة خراسان وبلاد ماوراء النهر في القرن العاشر وبدايات القرن الحادي عشر•

عندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد قامت في كثير من المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة ، وإنما كلها دان اسميا بالطاعة لخليفة بغداد العباسي، واهم الدول التي قامت في المشرق في خراسان وبلاد ماوراء النهر هي: الدولة الطاهرية(٢٠٥-٢٥٩ هـ / ٨٢١ -٨٧٣ م)؛ والدولة الصفارية (حوالي ٢٥٣ - ٢٩٨ هـ / ٨٦٧ - ٩١١ -١٠٠٥ م)؛ والدولة السامانية (٢٠٤ - ٣٩٥ هـ / ٨١٩ - ١٠٠٥ م)؛ والدولة الخوارزمية (٣٠٥ - ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ - ١٠١٧ م)؛ والدولة القراخانية(٣٨٢ - ٦٠٧ هـ / ٩٩٢ - ١٢١١ م)؛والدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٨٢ هـ/ ٩٧٧ - ١١٨٦ م)•

والذي يعنينا هنا مباشرة هو الحديث عن الدولة السامانية ثم الغزنوية والقراخانية، دون سواهم • لقد كان سامان خداه جد الأسرة السامانية دهقانا من بلخ، اعتنق الاسلام في مرو- بعد ان فر إليها- على يد اسد بن عبد الله القسري والي خراسان المتوفى في بلخ سنة ١٢٠ هـ - ٧٣٧ م، وقد أكرم أسد سامان خداه " وخماه وقهر

اعداءه واعاد إليه بلخ » ولما رزق سامان خداه بغلام اسماه اسدا لمحبته إياه » ولقد خدم أولاد أسد الأربعة الخليفة المأمون العباسي الذي كافأهم بأن عين نوحا واليا على سمرقند واحمد على فرغانة ويحيى على الشاش والياس على هراة، وبهذا وطد السامانيون انفسهم وحصلوا على مكانة طيبة في منطقة ماوراء النهر، وفي سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٥ م قام الخليفة المعتمد بتعيين نصر بن أحمد واليا على كل بلاد ماوراء النهر، وبهذا التعيين قامت الدولة السامانية فعلا، وغدت منطقة ماوراء النهر الغنية قلبا لها، ولقد اخذ السامانيون على عاتقهم أمر حماية الأراضي الاسلامية من غزوات بداة السهوب الاتراك، وتأمين استمرار التجارة وتدفق البضائع، ونجحوا في تحقيق ذلك بواسطة الدفاع : باقامة الرباطات في الثغور، وبواسطة الهجوم :بالقيام بحملات على مناطق الاتراك داخل السهوب ، وبذلك أضعفوا تجمعات الأتراك ومدوا نفوذهم وهيبتهم الى داخل السهوب ، وهكذاأمن السامانيون الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلادهم مما مكنهم بعد ذلك من الالتفات نحو خراسان، ومنذ القرن التاسع تدفق من اراضي السامانيين سيل من العبيد الاتراك على بغداد وغيرها من مراكز الاسلام وعواصم دياره ، ولقد استخدم غالبية هؤلاء العبيد في جيوش خلفاء بغداد وحكام الدويلات.

ولقد كانت مدينة بخارى مركز الدولة السامانية، وفي بلاط السامانيين في بخارى عاشت الثقافة العربية الاسلامية مزدهرة ، ولكن الأهم من هذا هو أن هذا البلاط شهد بعث اللغة الفارسية مع الثقافة الايرانية واسهم في نموها ، ففي زمن السامانيين بدا الفردوسي بنظم الشاهنامه ملحمة فارس القومية .

في عام ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م ربح إسماعيل بن احمد ثقة سلطات بغداد والخليفة وذلك بعد ان هزم عمرو بن الليث الصفار، لذلك عين واليا على خراسان بالاضافة الى بلاد ماوراء النهر، وبهذا غدا السامانيون قوة هائلة تحكم اراضي شاسعة تمتد من جهة الى الأراضي والممتلكات البويهية في العراق ومن جهة أخرى الى اطراف

افغانستان المتصلة بحدود الهند، ولما كان السامانيون سنة وكان البويهيون شيعة، وبسبب هذا الخلاف في العقيدة مع تضارب المصالح والمطامح بالتوسع فقد كان لابد من أن تصطدم قوى الطرفين ، وهذا أمر لايعنينا الحديث الآن عنه هنا٠

وفي منتصف القرن العاشر بدات علامات الضعف والتفتت تظهر على الامبراطورية السامانية ٠ ولقد بدا هذا في عدد من ثورات وانقلابات البلاط التي قادها بعض القادة العسكريين ٠ لهذا لم يكن صعبا أن انفصلت خراسان عن سلطة بخارى ، ثم لم يكن صعبا على الغزنويين والقراخانيين الاجهاز على الدولة السامانية ووراثتها: القراخانيون فيما وراء النهر ، والغزنزيون في المناطق الاخرى(١٩).

☆ ☆ ☆

لقد احتلت بخارى عاصمة الدولة السامانية وطرد منها أخر امير ساماني من قبل بغراخان هارون (أو حسن) الذي كان يعرف بلقب إيلك خان، ولقد عرفت أسرة هارون باسم الايلك خانية ، ولكن بما أن الكثير من افراد هذه الأسرة استعملوا كلمة قره ــ التي تعني اسود أو شديد القوة ــ رديفا لأسمائهم فقد أطلق المستشرقون اسم « القراخانية » على هذه الأسرة ، وهكذا فان اسم « القراخانية » إذن هو اسم محدث بديل للايلك خانية ٠

لقد ادعى افراد هذه الأسرة انهم من نسل أفراسياب البطل التركي الاسطوري للشاهنامه، ولكن يبدو أنهم كانوا في الواقع عبارة عن البيت الحاكم لاحدى المجموعات التركية المعروفة باسم القرلق، وهي مجموعة قد قامت بدور هام ومؤثر في التاريخ القديم للترك سكان السهوب، ولقد اعتنق القراخانية الاسلام كما يبدو في منتصف القرن العاشر، وتبنوا أسماء ــ وحتى القابا ــ اسلامية ، ويظهر أن بغراخان جد محتل بخارى هو أول من اعتنق الاسلام وتسمى باسم عبد الكريم، ولقد أقام القراخانية بعد قضائهم على

السلطة السامانية امبراطورية واسعة سيطرت على أجزاء واسعة من بلاد ماوراء النهر واقامت هذه الدولة علاقات خاصة بالامبراطورية الغزنوية ولقد شكل نهر جيحون الحد الفاصل بين هاتين الامبراطوريتين.

ولقد كانت الامبراطورية القراخانية عبارة عن اتحاد قبلي ولم تكن قط دولة مركزية متحدة، فعلى الرغم من انه كان على راسها حاكم حمل لقب خان فلقد وجد أحيانا عدد من افراد الأسرة الحاكمة ادعوا لأنفسهم اللقب نفسه أو القابا من الدرجة الثانية، وبسبب انه وجد في الوقت نفسه أكثر من حاكم من الأسرة نفسها حمل الاسم نفسه واللقب، ثم بسبب قيام الخلافات والحروب الداخلية بين امراء الامبراطورية فإنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الوصول الى صورة واضحة يقينة مفصلة حول سلسلة حكام القراخانية(٢٠)

☆ ☆ ☆

لقد ذكرنا بأن الدولة الغزنوية كانت شريكة الدولة القراخانية في الاستيلاء على ميراث الدولة السامانية، وتنسب هذه الدولة الى مدينة غزنة احدى مدن افغانستان الحالية وتقع الى جنوب غربي كابل، ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين الذي كان عبدا تركيا من ضباط الجيش الساماني، ولقد كان استلامه لحكم غزنة في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م.

في الحقيقة إن قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات، ففي عام ٣٥٠ / ٩٦١ توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح، « ولما دفنوه ثار العسكر وتمردوا وطمع كل شخص في الملك وظهرت الفتن»(٢١) « وكان الاسفهسلار (اي القائد) البتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير ..... فقصد الحضرة للقبض على الأمير » الساماني الجديد ومن ثم إحلال نفسه محل الأمير عبد الملك على عرش السامانيين، واخفق البتكين، واجبر على الفرار فذهب الى غزنة واستقر بها، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة، وبعد فترة تصالح البتكين مع الأمير

السامانى الجديد لبخارى وهو منصـور بـن نصر ، ونظـرا لقـرب الأراضي الأفغانستانية من اراضي الهند غير المسلمة ، فقـد شـغل ضباط البتكين وجنده أنفسـهم بـالغارة على هـذه الأراضي، وكان القصد الأساسي من هذه الغارات هو كسـب المغـانم ولم يكن قـط هدفها نشر الاسلام ، مع أن الكثيرين ممن كان يقوم بها لقب نفسـه بلقب غازي ، ولقد ظل البتـكين وضـباطه تـابعين أسـميا للدولة السامانية ، وبعد وفاته خلفه احد ضباطه واسمه سبكتكين ·

وبعدما استلم سبكتكين زعامة الجيش لم تنقطع اعمـال الغـارة على السهول الهندية، واستمر بالاعتراف بالسيادة السامانية ، ولكن عقب وفاة سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م، وعندما اصـبح ابنه محمودا صاحب السلطة في غزنة، غدت الدولة الغزنوية دولة مسـتقلة عن السامانية ، ونظم محمود اعمـال الغـارة على الأراضي الهندية وحولها إلى أعمال توسع وفتوح تحت عنوان الجهـاد ، وبـذلك نال محمود لقب غازي عن جدارة ، واصبح من اكثـر شـخصيات عصره شهرة ، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة ·

ولقد استطاع محمود توسيع رقعـة دولتـه ، فـأوصل حـدودها الشمالية الى جيحون وبعد ذلك تجاوزه فقام بضم واحة خوارزم الى امبراطوريته وحقق الاتفاق مع الدولة القراخانية ، ثم التفـت نحـو خراسان فأخذها ، وبات يتطلع نحو بغداد ونحو القضاء على الاسرة البويهية الشيعية فيها، وأخذ مكانها في التحكم بخلفاء بغـداد ، ذلك لأن محمود كان سنيا شافعيا متعصبا ·

وعندمـا مـات محمـود في سـنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م كانت امبراطوريته من اضخم امبراطوريات عصره ومن أعظـم مـاقام في التاريخ الاسلامي ، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسليح ، وفي زمن محمود وبسبب طبعـه وشـغفه بالابنية تطورت التقاليد الفارسية الأوتوقراطية في الحكم مع الثقافة الايرانية ·

ولقد واجه محمود في أواخر حياته بداية مشكلة التركمان بقيادة السلاجقة فاستطاع أن يتدارك تفجيرها ، وتمكن من أن يؤجل هذا التفجير ، وذلك بما أوتيه من حزم وبصيرة ، ولكن لما كان ابنه وخليفته مسعود لم يكن يتمتع بصفات والده ، فقد أخفق في حل مشكلة التركمان عندما واجهها ، ولقد استطاع التركمان كما سنرى أن يقهروا مسعودا ويستخلصوا منه خراسان ، ولكن هزيمة الغزنويين لم تعن ابدا نهاية الدولة الغزنوية ، بل استمرت هذه الدولة تحكم شرقي افغانستان وشمالي الهند واستمر هذا الحال حتى قيام الدولة الغورية التي استطاعت تصفية الغزنويين والقضاء على دولتهم في سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م(٢٢) .

لقد احتاجت الامبراطورية الضخمة التي أسسها محمود مع قواته العسكرية الكبيرة وبلاطه الضخم الى تكاليف باهظة ومبالغ من المال هائلة ، وما كانت المبالغ التي كانت تحصل من الغارات على الهند لتكفي سد أكثر من جزء من النفقات ، لهذا فرض الغزنويون ضرائب ثقيلة على خراسان ، وحصلوها دون تهاون وبأعنف الوسائل ، ولقد أفقرت هذه السياسة المالية خراسان وجعلت الحكم الغزنوي غير محبوب على كافة المستويات ، كما ان هذه السياسة سببت تدهورا في اقتصاد خراسان وفقرا عاما ، مما ادى الى هجرة بعض التجار والدهاقين من خراسان الى بلاد ماوراء النهر حيث دولة القراخانية ولاشك أن هذه الحالة كانت من اسباب نجاح السلاجقة ـ فيما بعد ـ في انتزاع خراسان لأنفسهم ، ورغم سوء الاحوال الاقتصادية وثقل الضرائب فقد كانت غالبية عامة الخراسانيين ساكتة عن الحكم الغزنوي أو راضية عنه ، لقوة هذا الحكم ولاستطاعته تأمين الحماية الخارجية مع الأمن الداخلي ، ولكن ما أن مات محمود حتى بدا بأن خليفته مسعود لايستطيع ، ولن يستطيع أن يؤمن هذه الأمور ، لذلك تطورت الأمور بسرعة ولغير صالح الغزنويين .



لم يكن جديدا بالنسبة لخراسان أن تتعرض لهجرات وغارات البدو الترك من سكان السهوب، والذي كان يحدث عادة إما أن تصد الغارات، أو أن المغيرين يحدث أن تمتصهم بعد فترة الحضارة والحياة في خراسان، لذلك لم يول الغزنويون في البداية أهمية كبيرة لبعض جموع الغز عندما أخذوا يعبرون نهر جيحون ويدخلون خراسان مهاجرين أو مغيرين(٢٣) علما بأن نشاط الغز على أطراف جيحون أقدم من الدولة الغزنوية.

يبدو أن الغزوا كانوا حتى القرن الثامن ــ عندما أصبح لهم نوع من الزعامة الخاصة ــ عبارة عن قبائل تابعة للامبراطورية الخزرية وفي نهاية القرن الثامن قام هؤلاء الغز ، وقد أصبح لهم زعامتهم الخاصة ، فتحركوا غربا عبر سهوب سيبيريا نحو بحر الأرال والى الفولغا وجنوبي روسيا ، وأغاروا في عهد الخليفة المأمون على أشروسنة ، وهكذا وصلت أخبارهم الى أسماع العلماء والكتاب المسلمين فأخذوا بالاهتمام بذكرهم، ومنذ ذلك الوقت أخذ الغز يتحركون الى قرب الأراضي الاسلامية وباتجاهها، وعندما قام الرحالة العربي ابن فضلان في ٣٠٩ ــ ٣١٠ هـ ٩٢١ ــ ٩٢٢ م برحلته نحو الفولغا قابل ورأى جماعات من الغز ، ولقد وصف ابن فضلان حالة الفقر والتعاسة التي كان يعاني منها هؤلاء القوم كما ذكر بأن زعيمهم كان يحمل لقب يبغو في حين أن القائد العسكري عندهم كان يعرف بسباشي ــ أي صاحب الجيش ــ وكان هناك قائد ادنى مرتبة منه دعي باسم ينال (٢٤).

إن حمل زعيم الغز اللقب يبغو له دلالاته لان يبغو أو « يغفو لقب من كان بعد الخاقان بدرجتين » ، و« الخان هو الملك الاعظم منهم ــ الترك ... وهو الخاقان »(٢٥) .

وهذا يعني ليس فقط أن الغز لم يتطلعوا آنذاك نحو تشكيل امبراطورية ، بل لم يكونوا قد وصلوا بعد الى مرحلة من التطور

السياسي والحضاري تساعد على ذلك. ولقد كانوا في القرن الثامن مؤلفين من تسع قبائل (٢٦) وكان لكل قبيلة أمير أو مقدم ـ بك ـ دعاه المسلمون « دهقان » (٢٧) . ويصف صاحب كتاب حدود العالم وهو جغرافي فارسي مجهول من القرن العاشر ، بلاد الغز بقوله :« يقع الى الشرق منها بلاد الصين والى جنوبها تقع أجزاء من التيبت ... وهذه البلاد هي أوسع دار في موطن الترك ، ولقد كان الغز أكثر الأقوام التركية عددا ، ومنهم كان في الأيام الخالية ملوك جميع تركستان ، إنهم رجال حرب ، في حوزتهم الكثير من السلاح ، وهم يرحلون في الشتاء والصيف من مكان الى آخر طلبا للمرعى وحسب الطقس الملائم» (٣٨).

ودعا العرب الغز أحيانا باسم التركمان ، ونلحظ في البداية ـ في القرن العاشر ـ تمييزا بين الاسمين (٢٩) . ولكن منذ أواخر هذا القرن أخذ بالاكثار من استعمال كلمة تركمان كبديل أو مرادف لكلمة غز ، ويقول محمود كاشغري :« اغز قبيلة من الترك وهم التركمانية » ويقول ايضا :« تركمان هم الغزية » ويبدو ان اسم تركمان كان اسما سياسيا شمل عددا من القبائل التركية ، لذلك كان ـ كما يبدو ـ بين التركمان عناصر غير غزية ، ويقول الكاشغري متحدثا عن القبيلة التي جاء منها القراخانية :« قرلق جيل من الترك اهل الوبر سوى الغزية وهم التركمانية ايضا» (٣٠).

ويذكر الكاشغري بأن« التركمانية هم اثنان وعشرون بطنا لكل بطن منها علامة وسمة على دوابهم يعرف بعضهم بعضا بها ، وعندما عدد اسماء هذه البطون بين بأن قِنِق هي القبيلة المتقدمة بين كل القبائل » ومنها السلاطين » السلاجقة الذين يبدو أن اسرتهم لم تكن في الأصل اكبر اسر القنق او اكثرها قوة وشهرة ولكنها غدت كذلك بفضل بعض الشخصيات التي ظهرت منها (٣١) عندما جاءت الى أراضي الدولة السامانية.

إن مصدرنا الأساسي بالنسبة لأخبار واصل الأسرة السلجوقية ـ

كما ذكرنا من قبل ـ هو كتاب ملك نامه ، وعلى ما جـاء فيه اعتمـد المؤرخون العرب مثل ابـن الأثير في كتـابه الكامـل في التـاريخ والحسني في كتابه أخبار الدولة السلجوقية ـ او زبـدة التـواريخ ـ وابن العديم في كتابه بغية الطـلب في تاريخ حلب وغيرهم ، ولعل مـا نقله ابن العديم أوضح النقول وأكثرها أمانة ، ويقول ابن العـديم :« ذكر صاحب كتاب ملك نامه الذي صنفه لألب ارسلان محمد بن داوود انه استفاد أنسابهم وأحسابهم من الأمير اينانج بـك اذ كان أسـن القوم وأعرفهم بأنسابهم وأحسابهم ، قال كان الأمير سـلجوق بـن دقاق من أعيان ترك خزر ، وكان دقاق يلقب بتمر بـالغ اي شـديد القوس.

قال اينانج بك :« لما مر زمان على الأمير دقاق ولد له مولود مبارك سماه سلجوقا ، وكان يلقبـه بسـباشي يعني مقـدم الجيش، وكان لسلجوق أربعة أولاد : ميكائيل وموسى وارسلان الملقب بيبغـو اكلان وآخر توفي في زمان شبابه ، وكان للأمير ميكائيل بن سـلجوق ولدان طغرلبك وداود جغري بك » (٣٢).

لقد قدم ابن العديم نصه هذا عرضا أثناء ترجمته للسـلطان الب ارسلان ، لذلك جاء قصيرا لايفي بالغرض ، وما أورده ابن الاثير في الكامل أوفى بكثير مما جاء عند ابـن العـديم ، لكن ابـن الاثير على عكس ابن العديم لايصرح باسم مصدره ولعله نقـل بتصرف عن ملك نامه وأضاف الى معلومات هذا الكتاب معلومات من مصادر أخرى ، يقول ابن الاثير :« فأما تقاق فمعناه القوس الحديد، وكان شـهما ذا رأي وتدبير وكان مقدم الأتراك الغز ومرجعهم إليه لايخالفون له قولا ولا يتعدون أمرا ، فاتفق يوما من الأيام أن ملك الترك الذي يقـال له يبغو جمع عساكره وأراد المسير الى بلاد الاسلام فنهـاه تقـاق عن ذلك وطال الخطاب بينهما فيه ، فأغلظ له ملك الترك الكلام فلطمـه تقاق فشج رأسه فأحاط به خدم ملك الترك ، وأرادوا أخذه، فمانعهم وقاتلهم وأجتمع معه من أصحابه من منعه فتفرقوا عنه.

وأقام دقـاق عنده وولد له سـلجوق ، فإنه لما كبـر ظهـرت عليه امارات النجابة ومخايل التقدم ، فقرّبه ملك التـرك وقـدمه ولقبـه سباشي ، ومعناه قائد الجيش ، وكانت امراة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من تقـدمه وطـاعة الناس له والانقياد اليه ، واغرتـه بقتله وبالغت في ذلك ، وسمع سلجوق الخبر فسار بجمـاعته كلهـم ومـن يطيعه من دار الحرب الى ديار الاسلام وسعد بـالايمان ومجـاورة المسلمين ، وازداد حاله علوا وامرة وطـاعة واقـام بنواحـي جند ، وأدام غزو كفار الترك » ، ولقد حدث هذا ربمـا في حـوالي سـنة ٣٨٢ هـ/ ٩٩٢ م وهذا ما يمكن استنتاجه من بقية سـياق الخبـر لأنه في هذه السنة كان أرسلان بن سلجوق يساعد السامانيين ضـد البغراخان هارون الذي أخذ في هذه السنة بخـارى فـأزال الحـكم الساماني وأحل محله الدولة القـراخانية ، هـذا ويقـدم الراوندي سببا أكثر اقناعا لتحرك السلاجقة نحو الأراضي الاسلامية فيقول :« وقد اضطر هؤلاء السلاجقة العظماء بسبب ازدحام ديارهم وضـيق مراعيهم أن ينزحوا من تركستان الى ما وراء النهر ». وواضـح أن خبر سبب الخلاف بين تقاق واليبغو ثم سـبب نزوح سـلجوق قـد لايعدوان أكثر من اختراع قـد صـنع بعـد قيام الدولة السـلجوقية لتحسين سمعة السلاجقة واعطائها نوعا من أنواع الهالة الاسلامية الروحانية ، ويستنتج مما نقله ابن العديم عن ملك نامة قول صاحبها « وأرسلان الملقب يبغو » أن السلاجقة مع أتباعهم عندما انفصـلوا عن الغزية ادعوا لأنفسهم نفس الألقاب التي كانت لدى أمراء الغـز الذين كانوا يدينون بالطاعة لهم.

ونتابع مع ابن الاثير رواية قصته :« وكان لسـلجوق مـن الأولاد ارسلان وميكايل وموسى وتوفي سلجوق بجند وكان عمره مائة وسبع سنين ، ودفن هناك ، وبقي أولاده ، فغزا ميكايل الكفـار الاتـراك ، فقاتل وباشر القتال بنفسه فاستشهد في سـبيل الله، وخلـف مـن الأولاد يبغو وطغرلبك محمد وجغري بك داود ، فأطاعتهم عشـائرهم

ووقفوا عند أمرهم ونهيهم، ونزلوا بالقرب من بخـــارى على عشرين فرسخا منها ، فخافهم امير بخارى فأساء جوارهم واراد إهـــلاكهم والايقاع بهم ، فالتجأوا الى بغراخان ملك تركستان واقاموا في بلاده واحتموا به وامتنعوا ، واستقر الأمر بين طغر لبك واخيه داود أنهما لايجتمعان عند بغراخان ، إنما يحضره أحدهما ويقيم الآخر في اهله خوفا من مكر يمكره بهم ، فبقوا كذلك ، ثم ان بغـــراخان اجتهــد في اجتماعهما عنده فلم يفعلا ، فقبض على طغر لبك واسره ، فثار داود في عشائره فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم وخلص أخاه من الأسر وانصرفوا الى جند وهي قـــريب بخـــارى فـــأقاموا هناك».



إذن عندما اصبح السلاجقة مع اتباعهم في منطقة بخارى تورطوا في الأعمال والاضطرابات التي أدت الى تصفية الدولة السامانية ، كما وجدوا انفسهم طرفا في النزاعات بين امراء القراخانية ، كل هذا يعني أنهم كانوا دائما جاهزين لتقديم خدماتهم لمن يطلبها ويدفع اكثر ، ومع ازدياد الفوضى التي رافقت زوال الدولة السامانية كان هناك دائما حاجة ماسة الى المقاتلين ،وكان هناك دائما من يدفع بسخاء سواء في مناطق ما وراء النهر أو الجهة الأخرى حيث محمود الغزنوي ومشاريعه التوسعية التي كانت تحتاج الى أعداد كبيرة من المقاتلين ، ونمضي مع ابن الأثير في رواية قصته:« فلما انقرضت دولة السامانية وملك إيلك الخان بخارى أعظم محل ارسلان بن سلجوق عم داود وطغر لبك بما وراء النهر ، وكان علي تكين – من أمراء القراخانية – في حبس أرسلان خان وهو إيلك خان ، فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع ارسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما إيلك أخو ارسلان خان وقاتلهما فهزماه وبقيا ببخارى ، وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين فيما يجاوره في بلاده ويقطع الطريق على رسله المترددين الى ملك الترك ، فلما عبر محمود جيحون ... هرب علي تكين من بخارى وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود ، فرأى محمود قوة السلجوقية وما لهم من الشوكة وكثرة العدد فكاتب ارسلان بن سلجوق واستماله ورغبة ، فورد اليه فقبض يمين الدولة عليه في الحال ولم يمهله وسجنه في قلعة ، ونهب خركاهاته – خيمه – واستشار فيما يفعل بأهله وعشيرته ، فأشار أرسلان الجانب ، وهو من اكبر خواص محمود ، بأن يقطع اباهمهم ، لئلا يرموا بالنشاب ، أو يغرقوا في جيحون ، فقال له : ما أنت إلا قاسي القلب ، ثم امر بهم فعبروا نهر جيحون ففرقهم في نواحي خراسان ، ووضع عليهم الخراج ، فجار العمال عليهم وامتدت الأيدي الى أموالهم وأولادهم» (٣٣).

ويقدم لنا الراوندي صاحب راحة الصدور وآية السرور رواية

أخرى حكى فيها كيف تم الاتصال بين محمود والسلاجقة وقدم بعض التفاصيل الاضافية الجديرة بالاعتبار ، ولكنه اعتبار ينبغي أن يرافق بالحذر ، يقول الراوندي :« فلما اقبل اسرائيل بالغ محمود في اكرامه واجلسه على العرش الى جواره وعني بتقريبه والترحيب به ، والاهتمام بأمره ، ثم قال له في اثناء الحديث : عندما نذهب الى بلاد الهند لغزو الكفار يلزمنا جيش جرار نسير به الى هذه الديار ، وينتج عن ذلك أن بلاد خراسان تبقى معطلة مهملة ، ولي رغبة في ان اعقد معكم ميثاقا وتحالفا على انه اذا خرج علي عدو او ثار ثائر واحتجت الى مدد استعنت بخيلكم وفرسانكم » وأجاب اسرائيل قائلا : « لن يكون منا تقصير عن خدمتكم ، وقال محمود :واذا عرضت لنا حاجة فبأي امارة يصلنا المدد ، وما مقدار عدده ؟. وكان اسرائيل يعلق قوسه في ساعده ، ويتدلى من رباط ردائه سهمان ، فأخذ سهما منهما وأعطاه لمحمود وقال له : أرسل هذا السهم الى جندنا اذا عرضت لك حاجة الينا يأتك منا مائة الف فارس ، قال محمود : واذا لم يكف هذا العدد فماذا نفعل ؟ فتناول اسرائيل السهم الآخر وقدمه الى محمود وقال : أرسل هذا السهم الى جبل بلخان يأتك على الفور خمسون الف فارس غيرهم . قال محمود : فاذا لم يكف هذا العدد ايضا فماذا نصنع؟ عند ذلك ناوله اسرائيل قوسه وقال : ارسل هذا الى امارة تركستان يأتك اذا شئت مائتا الف فارس ، وتدبر محمود هذا الحديث وشغل باله فاحتجز اسرائيل عنده ... وطلب محمود الطعام ، فلما تهيأ المجلس طعما وشربا وظلا يشربان ثلاثة ايام بلياليها، وخلع محمود على اسرائيل وفرسانه أطيب الخلع والهدايا ، ثم امر كل واحد من أمراء جيشه أن يستضيف في معسكره واحدا من أمراء فرسان اسرائيل وأن يسقيه شرابا قويا ، حتى اذا لعبت الخمر برؤوس الضيوف قيدهم بالقيود الثقيلة وفعل محمود باسرائيل مثل ذلك ، وحمله في اثناء الليل الى بلاد الهند وحبسه في قلعة كالنجر .. فأما الرؤساء الآخرون من جيش اسرائيل ممن قبضوا عليهم فإن محمود قد أرسلهم الى القلاع الأخرى وأمنهم على حياتهم...

وبقي اسرائيل أسيرا في قلعة كالنجر مدة سبع سنوات ، ثم جاء اثنان من التركمان من فرسانه واشتغلا بالسقاية وحمل الماء الى هذه القلعة ، حتى اذا حانت لهما فرصة في احد الأيام قابلاه ودبرا معه حيلة لكي يقوما بخطفه واخراجه من القلعة في اثناء الليل ، ولكن الطريق كانت ملأى بالغابات والأحراش ، فلما فعلا ذلك ضلوا جميعا الطريق .. فلما كان اليوم التالي وتنبه حارس القلعة للأمر سار في اثره ، وتمكن من القبض عليه ، وكان اسرائيل عندما أحس بأن الجيش يقترب منه قد قال للتركمانيين : اقطعا الأمل في تخليصي واذهبا الى اخوتي وقولا لهم : اجتهدوا في طلب الملك ولا تيأسوا ولو اصبتم بالهزيمة عشرات المرات ، وحذار أن تتراجعوا فإن السلطان محمود ما هو الا ابن عبد لانسب له ، وهو رجل غدار لن يبقى الملك له وستئول دولته على ايديكم... وكان قتلمش بن اسرائيل يطوف متخفيا حوالي القلعة ، فلما بلغه الخبر بوفاة أبيه خرج .. حتى أتى الى بخارى وحكى لاعمامه سائر الأحوال ، وكان أعمامه يتأهبون لطلب الملك ويتحينون الفرصة للانتقام ... ثم ارسلوا الى السلطان محمود رسولا زودوه برسالة فحواها: إن مقامنا أصبح يضيق بنا ،

وإن مراعينا اصبحت لاتفي بحاجة مواشينا ،فاذن لنا ان نعبر النهر وأن نجعل مقامنا بين نسا وباورد ، ولكن ارسلان الجانب حاكم طوس ...قال للسلطان : ليس من الصواب أن تسمح لهم بالعبور الى

خراسان ، فإنهم فرسان كثيرون ويملكون العدة والعتاد، واني أخشى ان يكونوا سببا في متاعب لايمكن تلافيها وتداركها .. ولكن السلطان محمود لم يلتفت الى قوله وقال: انني لاأهتم بأمرهم ولاخشية لي

من أمثالهم ثم سمح لهم فعبروا النهر » (٣٤). إن هذه التفاصيل التي قدمها كل من ابن الأثير والراوندي لايمكن قبولها لغلبة الخيال والمبالغة عليها ، على أنه رغم ذلك فانها تدل على قيام علاقات متقلبة

بين محمود والسلاجقة وعلى ازدياد اضطراب الأحوال في بلاد ما وراء النهر مما اضطر قسما من التركمان الى عبور النهر الى بلاد خراسان.

ويبدو أن حادث العبور هذا قد وقــع حــوالي ســنة ٤١٦ هــ/ ١٠٢٥ م ، وسواء أكان عبور التركمان قد تم بالاكراه او بالاذن ، فإن التركمان ــ كمــا يبــدو ــ كانوا منذ تحــولهم الى الاســـلام ، يحاولون ــ وهم تحت الضغوط المعاشية والسياسية الشديدة التــي كانوا يحيونها ــ أن يجدوا مخرَجا وارضا يهاجروا اليهــا ، ويروي عدد مـــن المؤرخين أنه في ســـــنة ٤٠٩ / ١٠١٨ او ٤١٢ / ١٠٢١ قاد جغري بك فرقة من التركمان وقطع معهــا المســافة الشاسعة نحو ارمينية وازربيجــان ، ولعــل الهــدف مــن ذلك كان التحضير لاعمال غزو أو كان مجرد محاولة اكتشاف مكان مناســب يقدم اليه الغز مهاجرين (٣٥).

لقد كان التركمان الذين عبروا النهر هم جماعة أرســلان فقــط وكان عددهم يقدر بأربعة الاف أسرة ، ولقد عبــروا مــع حــوائجهم واغنامهم وجمالهم وخيولهم وبغالهم ، وبعد عبورهم أسكنهم محمود داندانقان ، وهي « بلدة مــن نواحــي مــرو الشــاهجان على عشرة فراسخ منهــا بــالرمل .. وهــي بين سرخس ومــرو » (٣٦). ويروي المؤرخ الفارسي الراوندي بأن هؤلاء التركمان « قــد لزمــوا جــانب الهدوء والسكينة طوال حياة السلطان محمود ، وفي هذه الاثناء نشأ ولدان لميكائيل بن سلجوق احدهما « جغري بك ابــو ســليمان داود » والآخر « ابوطالب طغرلبك محمد » وفاز كلاهمــا بمــكان الصــدارة والتقديم في جيوش السلاجقة (٣٧) ويبدو أن هذا لم يكن حقيقة مــا حدث فالذين عبرو النهر كانوا جماعة اسرائيل فقط وامــا جمــاعة ميكائيل فقد بقوا في منطقة ما وراء النهر ، وبسبب أن اتباع اسرائيل قد حرموا من قياداتهم باعتقال محمود لها وبسبب تكوينهم البــدوي وحالتهم المعاشية فقد تحولوا الى عصابات شغلت أنفسها بــأعمال الاغارة على مدن وقرى خراسان ونهبها ، ممــا أدى الى اضــطراب حبل الأمن في خراسان وجعل الكثيرين من اهــالي مــدن خــراسان يتوجهون بالشكوى الى محمود ويطلبون منه القيام بعمل حازم يضع حدا للاضطراب ، ويقول مصدر معاصر لمحمود :« فلما وصلت ســنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) الى نهايتها خرج أهــل نســا وبــاورد الى

الحضرة (أي مدينة غزنة) وشكوا الى السلطان فساد التركمان ، فأمر السلطان محمود بكتابة رسالة الى أمير طوس ابي الحارث ارسلان الجاذب وامره أن يعاقب التركمان... فنفذ أمير طوس حكم السلطان واغار عليهم فتجمع التركمان وتقدموا اليه وحاربوه وقتلوا كثيرا من الخلق ، واغار عليهم امير طوس ، بعد ذلك عدة مرات ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا ...وتراسل السلطان محمود مع أمير طوس فأجابه الأمير قائلا : لقد قوي شأن التركمان ، ولايستطاع دفع فسادهم الا اذا خرج اليهم السلطان بشخصه ... فلما قرأ محمود هذه الرسالة ضاق صدره وجرد الجيش، ثم خرج من غزنه في سنة ٤١٩ (١٠٢٨) فذهب الى بست ثم سار منها الى طوس وهنالك استقبله اميرها وبين له حقيقة الحال ، فأمر محمود بأن يخرج أمير طوس ومعه فوج كثيف من الجيش لمحاربة التركمان ، فلما وصلوا الى رباط فراوة تقابل الجيشان ... وكانت الغلبة لجيش محمود فأعملوا سيوفه في رقاب التركمان وقتلوا منه اربعة الاف من خيرة الفرسان ، واسروا عددا كبيرا منهم وفر الباقون الى بلخان ودهستان ».

ويستلخص من ابن الأثير أن أعمال محمود وولاته العسكرية ضد التركمان والنجاحات التي حققت مع الانتصارات التي تمت لم تكن حاسمة ، فلقد سببت فقط تمزق التركمان وتوزعهم في مناطق خراسان مما زاد من اضطراب حبل الأمن ، ويبدو أنه خلال هذا الوقت لم ينقطع سيل تدفق التركمان وعبورهم لنهر جيحون الى خراسان في مجموعات متفاوتة الحجوم ولقد حدث أثناء تمزق التركمان أن جماعة من حوالي «ألفي خركاه» توجهوا الى أصبهان باتجاه العراق العجمي وأصبحت منطقة نشاطهم أصبهان والري وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الوقت باسم العراقية (٣٨).

عندما عاد السلطان محمود من حملته ورجع الى غزنة ابقى ابنه مسعودا وراءه في خراسان ، ولقد قام مسعود أثناء وجوده في خراسان باستخدام بعض التركمان في قواته ، وفي سنة ٤٢١ هـ/

١٠٣٠ م توفي السلطان محمود الغزنوي ، ولقد كانت العلاقات بين السلطان محمود في سنواته الأخيرة وبين ابنه الأكبر مسعود سيئة الى حد أن محمودا حاول اكثر من مرة أن يلقي القبض على مسعود وقام محمود ايضا في أخريات أيامه فعين ابنه محمدا وليا للعهد، وعندما توفي محمود كان مسعود في خراسان ، لذلك سارع اخوه محمد الى غزنه وأعلن نفسه سلطانا جديدا على الامبراطورية الغزنوية ، وهنا قرر مسعود الزحف على غزنة ، واثناء مسيره نحو غزنه أدخل مسعود عددا لابأس به من التركمان في قواته ، وطبعا استطاع مسعود دونما صعوبة كبيرة أخذ غزنه ونفى اخاه عن السلطنة وعنها (٣٩).

واثناء الصراع على العرش الغزنوي عاد التركمان الذين كانوا قد « ذاقوا حلاوة غنائم خراسان ... سيرتهم الأولى من النهب والسلب » وبعد أن أصبح مسعود سلطانا على الامبراطورية الغزنوية تتابع تدفق التركمان على خراسان وازداد نشاطهم فيها ، ويذكر البيهقي انه في صيف سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م « جلس السلطان مسعود ذات يوم للاستقبال ، وكانت رسالة من صاحب بريد الري قد وصلت وفيها ان التركمان لايقر لهم قرار ... وانهم على وشك أن يفسدوا في الأرض». وحاول بتصرف صبياني أن يحل مشكلة التركمان بالري وغيرها، وذلك بأن يدبر أولا بنوع من التآمر امر القبض على التركمان الذين كانوا في هراة ، ومن ثم ينقلون الى غزنة، وبعدها تتابع الخطة مع غيرهم من تركمان مدن خراسان ، ولقد بدت صورة مستقبل الأمور في خراسان للذين كانوا على بينة ومعرفة ببواطن الأمور وهم رجال السياسة والخبرة في الدولة الغزنوية الذين وجدوا أنفسهم يقادون من قبل سلطان « مستبد برأيه عن غير روية » ، بدت هذه الصورة سوداء لاتبشر بالخير لا في خراسان ولا في غيرها من أراضي الغزنويين ، ويروي البيهقي ــ الذي شغل وظيفة نائب رئيس ديوان الرسائل في عهد السلطان مسعود ــ في كتابه صحائف مسعودي الذي ترجم الى العربية باسم تاريخ البيهقي ، بأنه عندما خطط مسعود للقضاء على تركمان الري

كما ذكرنا اعلاه قال له استاذه ابو نصر مشكان رئيس ديوان الرسائل :« اكتب الى وكيل جوزجان وكروان رسالة مني لكي يعرض للبيع ، بمجرد قراءة هذه الرسالة عشرة الاف من غنمي كباشا ونعاجا ، وان يبيعها بسعر اليوم ويرسل ثمنها ذهبا وفضة الى غزنة ، فكتبت الرسالة فذيلها بخطه ثم اودعت ظرفا ووضعت في بريد جوزجان ، ثم وضعت الحلقة في كيس البريد واغلق وارسل. واسترسل استاذي في تفكير عميق ، وكنت احدث نفسي بأن السلطان اذا كان قد امر بالقبض على التركمان في الري ، فما معنى بيع غنم رباط كروان بسعر اليوم؟! وقال لي استاذي : اراك قد استغرقت في التفكير في حديث التركمان والقبض عليهم ، ورسالتي لوكيلي لبيع الغنم ؟ فقلت : والله وحياة مولاي اني افكر في هذا . فقال : اعلم ان القبض على التركمان امر مخالف للصواب ، لأن من المحال ان تقبض على ثلاثة آلاف او اربعة آلاف فارس ، ولم يأت كتاب للسلطان يبين الحيلة في القبض على التركمان ، ولكنه يسارع ويأمر بالقبض على نفر منهم في هراة وبأن تجلى خيامهم وامتعتهم وبهذا يثيرون هؤلاء القوم الذين جاءوا مع رحالهم وتصل الاخبار الى الري فيثيرون تركمانها ويجيء ابن يغمر – احد قادة تركمان خراسان – من بلكان كوه مع فرسان آخرين أقوياء فينضم التركمان بعضهم الى بعض ويدخلون خراسان ويسلبون كل ما يجدون من الماشية ، لقد تنبأت بهذه الأمور فأمرت ببيع غنمي لأنها لو بيعت بأقل من ثمنها الأصلي فاني سأحصل من ثمنها على شيء ، ولاتذهب أموالي سدى» (٤٠).

لقد كانت أوضاع خراسان سيئة بقدر كبير ، لكن ليس بسبب التركمان وأعمالهم فقط وانما – اكثر – بسبب سوء الادارة الغزنوية وسياستها المالية فقد كان حاكم خراسان زمن مسعود اسمه سوري ، وسوري هذا « كان رجلا مشهورا بالظلم ، فإنه حين اطلقت يده في خراسان استأصل شأفة اعيانها ورؤسائها واستحوذ على أموال لاتحصى ، وامتد ظلمه الى الضعفاء ، وكان يقاسم السلطان ، يعطيه خمسة من كل عشرة دراهم يغتصبها ، اما الاعيان

فقد تقطعت بهم الأسباب فكتبوا الرسائل الى وراء النهر ، وأوفدوا رسلهم شاكين لأمراء الترك كي يغروا التركمان بالغزنويين ، وأما الضعفاء فإنهم بثوا الله آلامهم» (٤١).

☆ ☆ ☆

واذا ما عدنا الى منطقة بلاد ما وراء النهر حيث بقية السلاجقة اتباع موسى وميكائيل ولدي سلجوق نجدهم في خدمة علي تكين خان بخارى ، ويبدو ان موسى كان قد اصبح اليبغو لهؤلاء التركمان ، ولكن القيادة الفعلية والزعامة الحقيقية لم تكن له انما لولدي أخيه ميكائيل:جغري بك وطغرل لبك ، ويبدو مما رواه ابن الاثير أن العلاقات بين علي تكين والسلاجقة لم تكن دائما سليمة وذلك بسبب طبيعة التركمان البدوية ثم لتدفق أعداد كبيرة من الغز من السهوب على أراضي الدولة القراخانية والانضواء تحت راية السلاجقة،ومهما تكن الحال فإن علي تكين كان « ذكيا فذا محنكا يعرف كيف يعمل المداراة مع الجانبين ، وكان يتخذ له عدة من التراكمة والسلاجقة ويكسبهم لجانبه بالقول الطيب والمال فقد كان يرى انهم لو ابتعدوا عنه ضعف مركزه ». وفي سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٥ م توفي علي تكين « ولما مات انتقلت أمور ـ ولايته ـ الى ولدين ضعيفين ... وساءت العلاقات بين السلاجقة من ناحية وبين هذين الولدين وقودش سبسهلار ـ قائد قوات ـ علي تكين من ناحية أخرى »، ولم يعد باستطاعة السلاجقة البقاء في بلاد القراخانية ، ولم تكن لهم القوة الكافية للذهاب لخوارزم واحتلالها ، ولم يكن من المعقول عودتهم الى السهوب ،أو الهجرة نحو دربند لوجود دولة الخزر ، لذلك لم يكن « لهم مأوى في غير خراسان » فقد الجأتهم « الضرورة اليها » ، وخاصة بعدما سمعوا عما حصل عليه اتباعهم « الذين عبروا قبلهم من المكانة (٤٢) لذلك قام « التركمان والسلاجقة مع جمع كبير من الرجال » قدر « بعشرة آلاف فارس تركي مع كثير من القادة ». فعبروا النهر وساروا الى مدينة نسا ، وبعد عبورهم كتبوا الى سوري حاكم خراسان الغزنوي كتابا نصه :« الى حضرة الشيخ الرئيس الجليل السيد مولانا أبي الفضل سوري . من العبيد يبغو وطغرل وداود موالي امير المؤمنين ، لقد استحالت علينا الاقامة في

بخارى ، في بلاد ماوراء النهر ، فقد كانت صلتنا بعلي تكين إبان حياته صلة مجاملة وود وصداقة ، واليوم وقد مات وال الأمر الى ولديه ، وهما طفلان طائشان قد استولى عليهما وغلى الدولة والجيش السبهسلار قونش قائد والدهما ، وقد عادانا حتى استحال علينا العيش هناك ، وإن خوارزم مضطربة احوالها ... مما يجعل مسيرنا اليها متعذرا ، ولذلك جئنا نلوذ بسلطان العالم ولي النعم ليكرمنا الشيخ سوري .... والسلطان يقبلنا عبيدا له ، فيقوم احدنا بالخدمة في الدركاه وينفذ الآخران ما يأمر به السلطان من خدمات ، فنستريح في ظله الوارف ، ويمن علينا بولايتي نسا وفراوة ، وهما على حدود الصحراء حتى نستقر فيهما ويهدأ بالنا ، ولن ندع مفسدا يخرج على الدولة من بلخان كوه ودهستان وحدود خوارزم وجوانب جيحون ، وسنطارد تركمان العراق وخوارزم.

ولاندري إذا رفض السلطان ، والعياذ بالله ، التماسنا كيف تصير الأمور ، فليس لنا على وجه الأرض مكان نقيم به ».
ويستخلص من هذه الرسالة عدة أمور خطيرة ، فقد اعتبر السلاجقة انفسهم جماعة مستقلة ، وذلك حين ذكروا بأنهم موالي امير المؤمنين وليس موالي السلطان مسعود ، ثم انهم لجأوا الى التهديد وطالبوا بالقبول بما كان قد حدث كأمر واقع ، وباختصار لقد قدموا الى خراسان لا كرعاة ابل بل كأمراء « ممن يلون الولايات ».

ولقد كتب سوري في رسالته التي ارسلها الى مسعود يخبره فيها بأمر عبور التركمان « أن عشرة الاف فارس من السلاجقة والينالين قد جاءوا الى نسا ». كما أن السلاجقة في رسالتهم الى سوري قد تعهدوا بمطاردة تركمان العراق ، ولقد كنا قد تعرضنا مسبقا لتركمان العراق فأشرنا الى انهم كانوا جماعات التركمان الأولى التي توغلت نحو العراق العجمي ، وهؤلاء العراقية كانوا ــ كما يبدو من البهيقي وابن الاثير ــ مؤلفين من عصابات مستقلة من التركمان وقد بقوا هكذا فلم يعترفوا فيما بعد بسلطان الأسرة السلجوقية ، ويمكن أن يكون لهم صلة بالناوكية ، جماعة التركمان الأولى التي

دخلت بلاد الشام ، والتي سنأتي على دراستها ودراســة الدور الذي قامت به في الفصول المقبلة ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي نســمع بها بجماعة الينالية .

للوهلة الاولى توحي رسالة سوري بأن « الينالية » كان عبارة عن اسم اطلق على احدى اسر او قبائل التركمان ، ولكن واقــع الحــال ليس كذلك ، فالينالية إســم اطلق على اتبــاع ينال أو إينال ، وينال عبارة عن لقب اطلق على « ولي عهد » اليبغو إذ كان « لكل رئيس من رؤساء الترك من ملك أو دهقان ينال ،«أي ولي عهد » . وابراهيم كان هو اسم زعيم الينالية الذين عبروا النهر ، وتجعله المصادر اخا لطغر لبك من امه ، وسيقوم ابــراهيم ينال ــ كمــا ســيمر معنا ــ بعــدة حركات تمرد وثورات ضد طغر لبــك خــاصة ســنة ٤٥١ هــ/ ١٠٥٩ م حيث أخفق ولقي حتفه ، وعلى هذا الاســاس ، وبســبب المكانة التي احتلتها الجماعة الينالية بين الســلاجقة ، لايجــوز ان تفسر الاعمال التي قام بها ابراهيم ينال حركات تمرد وإنما حركات هدفت لاستعادة حقه في السلطة التي اغتصبت من قبــل طغــر لبــك .(٤٣)

عندما وصلت اخبار عبور التركمان مع رسالتهم ورسالة ســوري الى السلطان مسعود قامت في بلاطه مشاورات طويلة حــول أنجــع الوسائل وافضل السبل لمعالجة هذه القضية الخــطيرة ، ويقــدم لنا البهيقي وصفا شاملا ودقيقا لما حدث من مناقشات ، فقد دعا مسعود اليه أركان دولته من مدنيين وعســكريين وخــاطبهم شــارحا لهــم الوضع بقوله :« ليس هذا أمرا هينا ، لقد جــاء عشرة الاف فــارس تركي مع كثير من القادة ، واقاموا وسط بلادنا ويقولون لم يبــق لنا من مكان نأوي اليه ، والحق انهــم اســتضعفوا بلدنا ، لن نمهلهــم ليجدوا في بلادنا مستقرا يترعرعون فيه ، انظروا ماذا كان من هؤلاء التراكمة من البلاء والازعاج بعد أن جاء بهم أبي ، واتاح لهم عبــور النهر واقامتهم في خراسان ، كانوا رعاة إبل ، وهم الآن ... طــالبوا إمارة ، فيجب ألا ندعهم يتنفسون في بلادنا ، والصــواب أن نســير

بأنفسنا لطردهم ... مع غلمان السراي وجند مختارين ... وان نزحف الى ذسا زحفا قويا حتى ذستأصل شأفتهم ».

لقد كان مسعود عندما وصله خبر عبور التركمان في مدينة جرجان « فلما قرأ رسالة سوري توجه الى نيسابور »، ولقد وجد بعد مناقشات طويلة واستعراض للأحوال ان مسعود « لايستطيع أن ينهض الى السلاجقة بشخصه » لأن « جيشه كان قد أصيب بوهن شديد بسبب السفر ... وفسد سلاحه بسبب الرطوبة فعلاه الصدأ ، وضعفت دوابه لأنها لم تأكل علف الربيع » لذلك اختار مسعود « جملة من أمراء جيشه ،زودهم بالعدة والعتاد وارسلهم لقتالهم ». لقد كان عدد هؤلاء الأمراء عشرة على راسهم الحاجب بكتغدي الذي كان مسنا لكن صاحب تجربة وحنكة عسكرية ، وكانت جملة الجيش « خمسة عشر الف فارس من كل صنف في أهبة تامة والفين من غلمان السراي »، ومنذ البداية وقبل ان يتحرك الجيش كان بكتغدي يتوقع في رايه « القدر لاينضج اذا كثر الشركاء » و« ينبغي أن يكون القائد الأعلى واحدا ».

وعرض الحال على السلطان مسعود فقال بعناد « لابد من أن يذهب بكتغدي » وهكذا تحركت الحملة في يوم الخميس التاسع من شعبان سنة ٤٢٦ هـ / ١٩ حزيران ١٠٣٥ م صوب ذسا ، وارسل معها عدد من الفيلة ، ولقد كان معسكر السلاجقة وتركمانهم قرب ذسا ، وفي رمضان ـ سنة ٤٢٦ هـ أشرف الجيش الغزنوي على هذا المعسكر ، واعمل الغارة عليه دون أن يأخذ بالحيطة ويحذر طرائق البداة في القتال ، فلقد ترك التركمان قبيل دنو الجيش الغزنوي منهم معسكرهم شبه خال من المقاتلين ، وانسحب المقاتلون الى حافة الصحراء ، وهناك أعدوا المكامن ، وادى هجوم الجيش الغزنوي على المعسكر التركماني الى افلات زمام القيادة فيه واختلاط الحابل بالنابل واختلال نظام تعبئته ، الفرصة التي أعدلها السلاجقة فاغتنموها بالانقضاض على أعدائهم » وكان اليوم شديد القيظ ، واشتعلت الرمضاء وجفت شفاه

الجند والدواب من العطش » ولقــد كان الماء وراء الجيش الغــزنوي فحاولت بعض فرقه التراجع نحو الماء « رويدا رويدا بالكر والفــر » فلم يستطيعوا تدبر ذلك ، فولى الجيش مدبرا وتفــرق أيدى ســبأ ، وهكذا حقق السلاجقة أول انتصار رائع لهــم بشر بــأن خــراسان ستكون لهم ، ولقد غنموا كل مــا كان لدى الجيش مــن آلات وعدد ، ويقول الراوندي :« واستولى السلاجقة على ما قيمته عشرة مــلايين من الدنانير من الألبسة والأسلحة والأمتعة والدواب».

لقد كانت « هذه أول هزيمة جدية وقعت » على السلطان مسعود « وتوالت الهزائم بعدها وهنا على وهن » ولقد تملكت التركمان الحيرة ودهشوا للنصر المؤزر الذي نالوه ، ولكثــرة الآلات والنعــم والدواب والذهب والفضة والألبسة والسلاح والعدد التي وقعــت في أيديهــم ، ولم يصدقوا أن هذا كله قد حدث فعــلا ، لهــذا « حين امنوا عقــدوا مجلسا وجلس الأعيان والمقــدمون والشــيوخ في خــركاه وأخــذوا يتشاورون ، قالوا: إننا قد ظفرنا بهذا كله دون تفكير أو تمهيد ، وان من المحال الوقوف عند هذا الحــد ، ولســنا نحــن الذين غلبنا هــذا الجيش العظيم ، ولم يتجاوز الامر اننا حافظنا على انفسنا وانهم لم يحسنوا تدبير امرهم ، وقد اراد الله سبحانه وتعــالى وقــوع هــذا وحتى لاتذهب هباء دفعة واحدة ، فغنمنا بغير قصد كل هذه الالات ، وكنا فقراء فاصبحنا بفضــل الله اغنياء ، والســلطان مســعود ملك عظيم ، وليس له في بلاد المسلمين نظير ، وقد حلت الهزيمة بجيشــه لسوء التدبير وضعف القيادة ، ولكن له جندا وقــادة كثيرين ، فعلينا ان لانغتر بنصرنا ، وعلينا ان نوفد اليه رسولا يتحدث اليه عن ولائنا له ، ويلتمس العذر ، ويبين ان راينا هو دائما ما كنا عليه من قبــل ، وانه لم يكن لنا مــن حيلة ســوى المقــاومة حين قصــد الجند بيوتنا ومتاعنا ، ولنرى ما سيكون جوابه حتى نســتطيع ان نتبين طــريقنا بعد ذلك ».

على هذا الاساس ارسل السلاجقة رسولا الى السلطان مســعود مع رسالة ترجو العفو والاعذار ، ولقد وجدت الرسالة اذنا صــاغية

لدى السلطان ، وادت الى تهدئة خاطره ومنعته مـن ارسـال حملة اخرى ، لهذا قام ـ ردا على رسالتهم ـ بـارسال رسـول مـن قبله يفاوضهم ، ومضى هذا الرسول الى معسكر السلاجقة وامضى فتـرة من الزمن لديهم ثم عاد الى السلطان ومعه ثلاثة رسل مـن مقـدمي السلاجقة ، احدهم يمثل طغر لبك ، والاخر جغري بك والثالث الييغو (٤٤) .

ان ارسال السلاجقة لهـذا العـدد مـن السـفراء يدل على ن التركمان ، على الرغم من ان الييغو كان مـن المفـروض، ولو على الاقل نظريا ، أن يكون المقدم عليهم جميعا ، لم يكن لديهـم في هـذه المرحلة قيادة موحدة ، او بالحري انهم لم يكن يدينون فعليا في هـذه المرحلة بالولاء لزعيم واحد ، بل لأكثر من زعيم ، وأن هؤلاء الزعماء كانوا مستقلين الى حد ما عن بعضهم بعضا ، وليس لهـم سـياسة وهدف واحد يجمعهم ، ولنتذكر أن زعماء السلاجقة عندما ارسـلوا اولى رسائلهم الى سوري عنونوها» من العبيد ييغو وطغرل وداود».

إن التمزق هذا ـ كما سنرى ـ سيكون وسـيبقى احـدى مـزايا التركمان ، وسنجده من الاسـباب الكبـرى التـي اعاقـت قيام الامبراطورية السلجوقية ، ثم اعاقت تطورها الى دولة مركزية ، كما سيؤدي الى الانهيار السريع لهذه الامبراطورية ، وهذا التمـزق قـد لاءم خير ملائمة وضع العالم الاسلامي الذي كان في القرن الحـادي عشر ممزقا ، وسنرى كيف عمل عمله في بلاد الشام والجزيرة وكيف كان من الأسباب الرئيسـة التـي أدت الى نجـاح الحملة الصـليبية الأولى ، ثم كيف ساعد في انجاح الفرنجة في البقاء في بـلاد الشـام حتى زال أخيرا بفضل قيام الدولة الأتابكية التي نجحـت في تـوحيد الشام والجزيرة ثم في ضم مصر الى هذه الأجزاء الموحدة.

☆ ☆ ☆

لقد كانت نية السلطان مسعود آنذاك التوجه نحو الهند ، ولهذا استجاب لمطالب رسل التركمان واعطى ، متنازلا ، لمقدمي السلاجقة ولايات نسا وفراوة ودهستان وارسل لكل منهم خلعة ومنشورا ولواء كما أعطى كل واحد منهم رتبة غزنوية « ووجهت اليهم رسائل منه ، خوطبوا فيها بلقب « الدهقان » واعدت لهم ثلاث خلع كما هو الرسم في خلع الولاة ، تشتمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة (برسم الدولة الغزنوية) وسرج وكمر من ذهب (برسم التركمان) وثلاثين ثوبا غير مخيطة لكل واحد منهم .

يروي ابن الأثير بان مراسلة السلاجقة للسلطان مسعود كانت مخادعة ، ويتضح من البيهقي ان رجال دولة مسعود كانوا مدركين لهذا الأمر ، ولكن عناد السلطان وطغيانه ثم فراره من مواجهة الواقع المر بالحزم والجد قد حال دون القيام بعمل مجد (٤٥) . على ان مصادر اخرى توحي بان السلطان قد حاول أن يفتت السلاجقة ويخلخل صفوفهم بأن يفصل البيغو عنهم ، وبالوقت نفسه اراد أن يؤمن لنفسه بعضا من النفوذ عليهم باقتراح قيام علاقات زواج بين الزعماء الثلاثة والسلطنة ، فاقترح زواج البيغو من ابنة سوري عميد خراسان وزواج طغر لبك من ابنة أحد أمراء الغزنويين ، وجغري بك من امراة اخرى حرة ، وقبل البيغو الاقتراح بينما رفض الآخران وازدادا جراة وثقة بالنفس (٤٦) . واخذا يثيران الفتن ويخيفان الناس ويسلبان كل ما يجدانه ، ولقد اخفقت كل جهود والي خراسان في اخضاعهما (٤٧) وتقديرا منهما لقوة مركزهما ولضعف السلطنة عن نيلهما باذى ارسلا في أول سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م بعثة الى السلطان مؤلفة من رسولين احدهما كان فقيها من اهل بخارى ، وكان الثاني تركمانيا يمت الى السلاجقة بصلة القرابة ، وكان مع الرسولين رسالة نصها « إننا الى الآن لم نتجاوز حدنا بشيء ، ولكن في خراسان ــ كما لايخفى ــ تركمان آخرون ، وهم لايزالون يفدون عليها لأن طريق جيحون وبلخان كوه مفتوحين امامهم ، وهذه الولاية التي منحها إيانا السلطان قد اخذت تضيق علينا ، واصبحت لاتكفي لسكنى من معنا من الناس، وكان يرجى

أن ... يمنحنا ـ السلطان ـ بعض المدن الصغيرة مثل مرو وسرخس وباورد ، على أن يكون صاحب البريد والقضاة وصاحب الديوان فيها من قبل السلطان ، فيجبوا الأموال ويصرفوا أرزاقنا ونكون نحن جند السلطان ، فنطهر أرض خراسان من المفسدين ، ونؤدي ما يوكل الينا من خدمات في العراق ، أو أية ناحية أخرى ، طائعين ، ونقدم على أخطر الأعمال بأمره ، ومن الجائز ان يرابط الحاجب سباشي بجيشه في نيسابور وهراة ، ولكن اذا قصدنا بسوء فسنضطر الى الدفاع عن انفسنا فتزول الهيبة من بيننا ، هذا هو ملتمسنا والأمر للسلطان » (٤٨).

لقد عاد السلطان مسعود الى غزنة في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م قادما من الهند ، ومن غزنة تحول الى بلخ ، والذي سبب تحوله هذا هو أخبار خراسان ونشاط التركمان فيها ، فوجه جيشا عظيما مع الحاجب سباشي، وكان رد السلاجقة على تحرك مسعود وارساله جيش الحاجب سباشي حازما: المطالبة بالتخلي لهم عن أجزاء جديدة من خراسان ، وتجميد وايقاف الأعمال العسكرية ضدهم، وعندما وصلت رسالة السلاجقة الى السلطان مسعود أثرت به واغضبته وقال لوزيره :« لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد في تعديهم وتحكمهم فقد دمروا خراسان من جهة ، بينما يتحايلون بالمكر وزخرف القول من ناحية أخرى ، فيجب صرف هذين الرسولين بعد افهامهما بأن الحكم سيكون السيف وأن الجيوش قد سيرت للقتال »·

لقد كانت ردات فعل السلطان مسعود آنية ، ولم يكن لديه القدرة على مواجهة الأمور كما ينبغي ثم الأخذ بالحزم والتسلح بالمعاناة والصبر ، فما أن رجع رسولا السلاجقة من عنده حتى انصرف مسعود الى لهوه وخمره وصيده وتركت خراسان للقدر·

وفي مطلع سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م وصلت السلطان مسعود اخبار تفيد بمجيء دفعات جديدة من التركمان الى خراسان ونهبها لبعض مدن الاقليم مثل الطالقان وفرياب والري ، ومرة أخرى ثار مسعود للأخبار ولام الحاجب سباشي ووصمه بالتخاذل والتقصير وكتب إليه

أمرا بأن يلتحم بالعدو في معركة فاصلة ، وحاول سباشي أن يدافع عن نفسه ويدفع أمر السلطان ويؤجل تنفيذه إلى ان تقوم الفرصة المواتية لانزال ضربة قاصمة بالتركمان ، ولقد ارسل سباشي الى السلطان وصفا للتركمان واحواله معهم قال فيه .انهم « قسموا رجالهم الى عشرين او ثلاثين فرقة، وهم يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والأم منهم ، كما هو حال المدن بالنسبة لنا، وإني سباشي لاازال في الحرب معهم حتى الآن، وواليت ارسال الطلائع ومواصلة القتال ، وقد تعرفت بحقيقة أحوالهم وإساليبهم في الحرب ، وقد حفظت الذخيرة ، ولم دستطيعوا تثبيت أقدامهم في أي بلد في خراسان حتى الآن ...وليس من الممكن أن يصمد جيش السلطان بغير مدد يعينه فإن خطة هؤلاء الخوارج من طراز خاص ...و حرب التعبئة – ضدهم – ليست من الصواب ، والراي مايرى السلطان ، وإني منتظر جوابه وانا على اهبه تامة ، ولو راى السلطان ضرورة ضربهم ضربة قاضية والحملة عليهم حملة رجل واحد ، فليأمر ...بوجوب المبادرة بالقتال ، إذ حين تصلني – الاوامر– لن ابقى يوما واحدا في نيسابور بل سأزحف فورا الى سرخس ومرو وابادر بالقتال ».

وبعد مشاورات طويلة خرج أمر السلطان مسعود: على الحاجب سباشي « أن يبادر بقتال العدو حتى نرى مايقدره الله لنا ، وإن رجاءنا في الله عز وجل أن ينصرنا والسلام ».

لقد كانت مرو قد غدت مركزا للسلاجقة آنذاك ، وكانت نيسابور كبرى مدن خراسان واشهرها مركزا للجيش الغزنوي بقيادة سباشي ونفذ الحاجب سباشي أوامر السلطان مسعود والتحم بالسلاجقة « ولم يكد يبدأ المعركة حتى اصابته الهزيمة .ولذسمع سباشي، يصف ماحدث بنفسه:« لقد قامت حرب مع العدو لم أر أصعب منها ، وظلت المعركة من الصباح حتى صلاة العصر ... – لقد خان السلطان – المنهون – للأخبار – حين حدثوه عن الأعداء ، فهونوا من شأنهم وكنت أعمل في صبر يؤدي الى فرارهم ، ولكن المنهين ضللوا

السلطان حتى اوغروا صدره علي ، فـأمر جـزما بـوجوب حـرب المصاف ، فلما لقيت الأعداء وجدتهم نخبة من المحـاربين المعـدين ، وقد اراحوا أنفسهم من اثقالهم ، وجرت موقعة ليس أشد هولا منها

لقد كانت قوات التركمان خفيفة مرنة ليس معها أثقال ولا مـؤن ولانساء بينما كان الجيش الغزنوي جيشـا نظـاميا يتحـرك بثقـل وحسب النظم العسكرية ، يتحرك فيتحرك بحركته الكثير من الأثقال والنسـاء والحـاجيات (٤٩) ، لذلك كان حين يدخـل المعـركة كان لايستطيع التحرك بمرونة ولايستطيع ان يقاتل وهو خالي البال ، بل كان يقاتل وخاطره مشغول بما لديه من نخائر وأهل اكثر ممـا هـو مصروف لربح المعركة والانتصار على الخصم ، يضاف الى هـذا أن التركمان كانوا يفضلون الجيش الغزنوي ليس بهـذا فقـط بـل في الروح المعنوية مـع المرونة والبـراعة في القتـال وايضـا في نوعية الأسلحة ، لقد كان الفارس التركماني يعتمـد بـالدرجة الأولى على قوسه ، يقوم بالهجومات الخاطفة على خصـمه فيصرع فـرسه أولا بأنه يرميه ، ثم ينقض بعد ذلك على هذا الخصـم المثقـل بـدرعه أو سابغته وأسلحته الثقيلة الخاصة التي يصعب استخدامها عليه وهو مترجل فيجهز عليه بسيفه أو دبـوسه ، واذا مـا حـدث وكان جيش الخصم مؤلفا من فرسان ومشاة لحماية الفرسان ، كان التـركمان يجهدون في البداية لفصل المشاة عن الفـرسان ومـن ثـم كان يتـم الاجهاز على كل سلاح على حدة، وفنون التـركمان القتـالية هـذه سنراها في معركة دندانقان ثم بعد ذلك في معركة منازكرد ، وستظهر خلال جميع معارك الحروب الصليبية وخاصة في معركة حطين •

يعتبر ابن الأثير النصر الذي ناله السلاجقة ضـد جيش سـباشي نصرا حاسما فالمعركة التي خاضوها ضد هذا الجيش الضخم « هي الواقعة التي ملك السلجوقية بعـدها خـراسان ، ودخلوا قصـبات البلاد » فدخل طغرلبك مدينة نيسابور بعـد أن تخلى عنهـا سـوري حاكم خراسان ، وبعد أن هجرتها الحامية الغـزنوية ، ودخـل داود جغري بك مدينة هراة ، وبعيد دخـول طغـرلبك الى نيسـابور أعلن

نفسه سلطانا واصبح يعرف باسم ـ السلطان المعظم ركن الدنيا والدين ابو طالب ـ واستقبل مع أخيه واليبغو وفادة أرسلها الخليفة العباسي من بغداد مع رسالة ينهاهم فيها عن النهب والقتل والاضرار ويعظهم ، وربما يمنيهم بالاعتراف بهم كسلطة شرعية لخراسان ، ويرى مدى قوتهم ويتعرف بها على ماهية مشاريعهم واهدافهم بالنسبة للمستقبل ٠

ويذكر ابن الأثير وغيره بأن جغري بك أراد أن ينهب مدينة نيسابور فمنعه طغرلبك ، واحتج عليه بشهر رمضان الذي تم فيه اخذ نيسابور ، فلما انسلخ رمضان صمم جغري بك على القيام بعملية النهب ، ومرة أخرى منعه طغرلبك» واحتج عليه برسل الخليفة وكتابه ، فلم يلتفت داود إليه وقوى عزمه على النهب ، فأخرج طغر لبك سكينا وقال له : والله لئن نهبت شيئا لأقتلن نفسي، فكف عن ذلك ».

لقد حدث هذا سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٤٨ م ، ويدل هذا الخبر على الروح البدوية التي كانت تمتلك السلاجقة وتتحكم بهم انذاك ، هذه الروح التي كانت تحب النهب ولاتتخلى عنه ، كما ان هذا الخبر يشير الى ان طغر لبك كان قد اصبح الشخصية الاولى بين السلاجقة والى انه كان يعمل ويخطط من اجل بناء دولة سلجوقية كبرى ، عليها منذ البداية اقامة علاقات طيبة مع الرعية ومع الخليفة في بغداد ، واخيرا لاحاجة للتذكير على ان هذا الحدث يدل ايضا على مدى نفوذ الروح الاسلامية بين السلاجقة .

ويقدم لنا البيهقي وصفا وثائقيا دقيقا لاحتلال السلاجقة مدينة نيسابور ودخول طغر لبك اليها فيه :« بعد ان جاءت الاخبار بما حل بالحاجب سباشي اقبل ابراهيم ينال بعد اثني عشر يوما على حدود نيسابور ومعه مائتا رجل . وابلغ انذارا مع رسول له : بأنه يمثل مقدمة جيش طغر لبك وداود ويبغو ، فاذا كنتم ستحاربون فانه يعود ليخبركم بالامر ، واذا كنتم مسالمين فليدخل المدينة وليغير

الخطبة ، فان جيشا كبيرا يسير في اثره » . انزل اهــل نيســابور رسول ينال في مكان لائق ، واخذ اعيان المدينة المؤلفين من القاضي والتجار وسواهم يناقشون ماالتاهم وتذكروا قول السلطان محمــود غزنوي لجماعة مثلهم واجهوا الحالة نفســها وقــرروا المقــاومة :« ماشأن الرعية بالقتال . . فان كل ملك يتسلط عليكم ــ ايتها الرعية ــ ويلزمكم بــالخراج ويؤمنكم ، عليكم ان تــدفعوا له الخــراج وتحافظوا على انفسكم » (٥٠) لهــذا قــر رأي اهــل نيســابور على الاذعان بالطاعة وتسليم مدينتهم ، فنادوا رســول ابــراهيم ينال وسلموه جواب رسالته : « باننا رعية ولنا ســلطان ، والرعية ليس من شأنها ان تحارب ، وللامراء السلاجقة ان يدخلوا المدينة فانها مفتوحة لهم ، فاذا كانت لازمة للسلطان فانه سيأتي للمطالبة بهــا او سيرسل قائدا لهذا الامر ، ولكن عليكم ان تعــرفوا ان الناس قــد خافوا لما حدث منكم في بلاد اخرى من النهب والمثلة وقطع الرقــاب ، ولابد من انتهاج سبيل اخر ، فان هناك اخرة غير هذه الدنيا ، وقــد رات نيسابور كثيرا مثلكم ، وسلاح اهــل هــذه البقعــة هــو دعاء القوامين منهم بالليل ... فلما اطلع ابــراهيم ينال على الجــواب ... ظهر ... مع اكثر من مائتي فارس وكان معه لواء وجنبيتان وكان في زينة ذابلة وبسيطة ... وكان شابا جميلا الطلعــة ، حلو الحــديث ... وبلغ طغرل نيسابور بعــد ثــلاثة ايام ، وخــرج الاعيان جميعــا لاستقباله ... كان مع طغرل ثلاثة الاف فارس اكثرهم مدرعون (٥١) وكان له قوس بنشاب معلق في كتفه ، وفي وسطه ثلاث ســهام ، وكان مدججا بالسلاح ... وكان السلاجقة كانهم من الغوغاء لانظام لهم ، وكان من يريد التحدث لطغرل يتجرأ عليه ويتحــدث اليه » ؛ وبعــدما دخل طغرل لبك قصر نيسابور « اعتلى سرير السلطان » ، وهكذا اعلن نفسه سلطانا جديدا لخراسان (٥٢)

كان السلطان مسعود قد عاد الى غزنة عقــب هــزيمة الحــاجب سباشي ، وفي غزنة تكونت لديه صورة كاملة عما تم في خراسان وبعد مناقشات تقرر ان يتحرك السلطان بنفسه على راس جيش كبير من اجل استرداد خراسان وطرد التركمان منها ، وكان اول مــا فعله إن

ارسل الى خراسان بالتصريح التالي : « إنا زاحفون مـع خمسـين الف فارس وراجل وثلاثمائة فيل ، ولن نعود الى غزنة مهمـا تـكن الظروف حتـى نخلص خـراسان » ، وفي الأيام الأخيرة مـن سـنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م « استعرض ـ السلطان مسـعود ـ الجيش، وكان جيشا كثيفا ، قيل انه ضمَّ اكثر من خمسين الف فارس وراجل كلهم مجهزون بالخيول القوية والسلاح التام » ، وفي الرابـع مـن محرم سنة ٤٣٠ هـ/ ٧ تشرين الأول ١٠٣٨ م سار السـلطان مسعود من غزنة ، وفي الرابع عشر من صفر / ١٥ تشرين الثاني وصل مع قواته الى مـدينة بلخ ، واطـال السـلطان الأقـامة في بلخ وقامت عصابات من التركمان بقيادة بعض أمراء السلاجقة بالاغارة على أطراف بلخ حيث قوات مسعود ، وفي منتصـف مـايس تحـرك مسعود نحو سرخس « وكان معه جيش كامل الأهبـة وقـد أجمـع الناس على انه قادر على غلبة اهل تـركستان اجمعين لو واجهـوه» وتجمع السلاجقة مع قواتهم التي قدرت بعشرين الف فـارس قـرب منطقة سرخس ، ويبدو انهم كانوا يخشون الالتحـام مـع مسـعود وقواته لذلك عقدوا مجلسا ناقشوا فيه الوضع وحاولوا ايجاد مخرج.

ولقد تشعبت آراؤهم حول هذا المخـرج ، فـكان رأي طغـر لبـك والينالين التوجه غربا نحو العراق وهجر خـراسان ، ولم يكن ذلك صعبا « لأن ـ كمـا قـالوا ـ حفنة مـن المرتـزقة والديلم والكرد سيقابلوننا هناك ، والصواب أن نذهب ونغتنم الفـرصة لأن ثغـور الروم ليس فيها مقاتلون ، وأن نترك خراسان وهذه النواحي مع هذا السلطان العظيم القوي صاحب الجيوش الجرارة والرعية العديدة ، ورفض جغري بك هذا الراي قائلا : « ما افدح مـا وقعتـم فيه مـن الخطأ ، لو انكم تزحزحتم عن خراسان ، فلن يقـر لكم على الأرض قرار لغارات هذا السلطان علينا ، ولما سيثيره من كل جـانب أعداء أشداء علينا ولقد رايت حرب ـ هذا السلطان وجنده في ـ الميدان ... لقد كان له كل ما يريد من رجال وعتاد ، ولكن الأحمـال الثقيلة ليس في وسعهم أن يكونوا بعيدين عنها فبغيرها لاعيش لهم ، هي سـبب عجزهم لأنهم مضطرون الى حماية انفسهم وحماية متـاعهم ، امـا

نحن فخفاف لامتاع لنا ، وقد حلت الهزيمة ببكتغدي وبسباشي بسبب ثقل متاعهم ، ومتاعنا خلفنا على مسيرة ثلاثين فرسخا ، ونحن بهذا قانعون ، فينبغي أن نمضي في الحرب كالرجال حتى نرى تقدير الله عز وجل ».

إن رأي جغري بك هذا كان فيه الصواب كله، وهو يدل على فهم عسكري ممتاز ، فيه تقدير لمزايا الصديق ومعرفة بمساوىء ونقاط ضعف العدو وكيفية استغلالها.

لقد قدر عدد جند السلاجقة في هذه الأونة ـ كما اسلفنا الذكر ـ بعشرين الف فارس وهناك إشارات إلى أن هذا العدد في الواقع لم يتجاوز الستة عشر الفا، ولقد حافظ هؤلاء التركمان ما امكنهم على تقاليدهم في القتال ، فكانوا فارغي البال ـ كما ذكرنا ـ من الأثقال والأمتعة لهذا عمدوا الى عدم الالتحام بقوات مسعود في اشتباك مباشر بل أخذوا، بعد أن تخلوا عن نيسابور وغيرها من المدن ، يجرون جيش مسعود المثقل هنا وهناك ، ويعملون الغارة عليه فيتعبون افراده جسديا ومعنويا . وهكذا كان الحال الى ان جاء صيف عام ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م، حيث سار السلطان من نيسابور فسار الجند وراءه متخاذلين ،« كأنهم حقا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، وكان اليوم شديد القيظ ، والمؤن قليلة، والعلف لاوجود له، والدواب هزيلة، والناس صيام، وقد مر السلطان في الطريق على كثيرين يجرون جيادهم ويبكون فامتلأ قلبه حسرة، وقال: ما أسوأ حال هذا الجيش » . لقد كانت وجهة مسعود نحو مرو ، وفي الطريق لم يتركه السلاجقة يتحرك بحرية ، بل كانوا يعملون الغارات المفاجئة على أطراف قواته، يقتلون ويأسرون ويعودون بالغنائم ، وأكره جيش مسعود على التوجه حسب مشيئة السلاجقة والتحرك والتصرف حسبما أرادوه أن يفعل ، وهكذا سيق هذا الجيش العرمرم نحو حواف صحراء الدندانقان، وجعل يعسكر في مكان قليل الماء كثير الرمال لاكلأ فيه ولاحوله، وكان التركمان قد القوا الجيف في كافة آبار المنطقة ، ولم يبق هناك سوى آبار حصن دندانقان فأخذ

الجند يتخاصمون على شربة ماء ويتصارعون من اجل الوصول الى بئر داخل الحصن ، وهكذا انعدم النظام داخل صفوف الغزنويين وفر الكثيرون نجاة بأرواحهم ، أو انضموا الى صفوف التركمان الذين اخذوا يغيرون غارات شعواء : ويحملون حملات منكرة على من بقي مع السلطان ، واستمرت المعارك عدة أيام كاد السلطان مسعود نفسه أن يفقد حياته فيها ، لذلك لاذ حفاظا على حياته بالفرار ، وتوجه نحو غزنة ليخلع ثم يلقى حتفه ـ وهكذا تخلى نهائيا عن خراسان للسلاجقة(٥٣). ولقد آذن نصر الدندانقان هذا بقيام امبراطورية اسلامية جديدة، وبانحسار ظل واحدة، وتعتبر هذه المعركة من كبريات المعارك الفاصلة في تاريخ الاسلام ، ولم تنحصر نتائجها في حدود عالم الاسلام، إنما تعدته فأثرت على عالم العصور الوسطى كله.

لقد كانت الغنائم التي كسبها الغز في معركة دندانقان اكثر من أن تحصى ، وليس هذا بالمهم ، إنما المهم أن طغرلبك عاد بعد نصره الى نيسابور ودخلها مع جموعه في آخر سنة ٤٣١ هـ او اوائل سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م ولم تنج نيسابور هذه المرة من النهب ، ويقول الراوندي :« فلما أحرز السلاجقة النصر في هذه المعارك ازدادوا قوة ولحقت بهم جيوشهم المتفرقة في أطراف خراسان ، فاشتد وقعهم في القلوب، وتقرر الملك لهم ، وسخرت الدنيا لامرتهم، واستحقوا السلطان عن جدارة واستحقاق ...واجتمع بعد ذلك الاخوان :جغري بك وطغر لبك مع عمهما موسى بن سلجوق(٥٤)الذي يطلق عليه اسم « يبغو اكلان » ومع ابناء أعمامهم وكبار قومهم وقواد جنودهم ،و تعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم، ولقد سمعت أن طغرلبك اعطى لأخيه سهما وقال له: اكسره ، فتناول أخوه السهم ، وكسره في هوادة، ثم جمع له سهمين فكسرهما أيضا في هوادة، ثم أعطاه ثلاثة فكسرهما بصعوبة فلما بلغ عدد السهام اربعة تعذر عليه كسرها، فقال له طغرلبك: إن مثلنا مثل ذلك ، فاذا تفرقنا هان لأقل الناس كسرنا ، وأما إذا اجتمعنا فلا يستطيع احد أن يظفر بنا. فاذا نشأ خلاف بيننا لم يتيسر لنا فتح العالم، وتغلب علينا الأعداء

وذهب الملك من أيدينا »(٥٥)٠

أرسل السلاجقة بعد ذلك رسالة الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله(٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م-٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥م) يخبرونه بها بما تم في خراسان، ويسوغون حربهم ضد السلطان مسعود ويعلنون تعلقهم بالخلافة العباسية والاسلام السني ، ومما قالوه في رسالتهم كما رواها الراوندي:« إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائما الحضرة النبوية المقدسة واحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائما في غزو الكفار واعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة، وكان لنا عم مقدم محترم بيننا اسمه اسرائيل بن سلجوق ، قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جناية، وارسله الى قلعة « كالنجر » ببلاد الهند، فبقي في أسره سبع سنوات حتى مات٠ واحتجز كذلك في القلاع الاخرى كثيرا من أهلنا واقاربنا ، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب...فلا جرم إذا طلب منا اعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم ٠ ولكن مسعودا وجه إلينا جيشه ، فوقعت بيننا وبينه معارك تناوبنا فيها كر وفر وهزيمة وظفر.حتى ابتسم لنا الحظ الحسن ...وظفرنا بالغلبة بمعونة الله عز وجل وبفضل اقبالنا على الحضرة النبوية المقدسة المطهرة، وانكسر مسعود وأصبح ذليلا، وانكفأ علمه وولى الأدبار تاركا لنا الدولة والاقبال...وشكرا لله على ماأفاء علينا من فتح ونصر، فنشرنا عدلنا وانصافنا على العباد، وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقا لتعاليم الدين ولأمر امير المؤمنون » (٥٦)٠

بعد هذا قام السلاجقة بتقسيم خراسان بينهم ، بحيث اخذ جغري بك جزءا منها وترك لليبغو وبقية الأمراء بقية الأجزاء، وكانت الخطة تهدف الى احاطة الدولة الغزنوية والحيلولة بينها وبين محاولة استعادة خراسان ، ثم تهدف الى ترك طريق جيجون مفتوحا من أجل قدوم مهاجرين غز جدد من أجل العمل على اكمال احتلال

اراضي الخلافة العباسية وغيرها من ديار الاسلام ، والأراضي البيزنطية، لقد اوكل لطغرلبك تحقيق هذه المهمة الأخيرة وترك معه ابراهيم ينال وأتباعه، وابن عمه قتلمش (قطلمش) بن ارسلان بن سلجوق وأتباعه، وياقوتي بن جغري بك، وتيسر لطغرلبك احتلال الري ـ قرب طهران الحالية ـ فاتخذ منها قاعدة لملكه، ومنها اخذ يبث قواته لاكمال احتلال الهضبة الايرانية•

إن ما أوكل الى طغرلبك ، ثم ما حققه من نجاحات في الوصول الى بغداد واقامة الامبراطورية السلجوقية هي أعظم منجزات السلاجقة وأخطرها وابعدها تأثيرا ليس فقط بالنسبة للتاريخ الاسلامي وإنما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية أيضا•

لقد كانت مهمة طغرلبك ذات شقين، أو بالحري كان عليه تأمين غرضين أساسين : الأول الوصول الى بغداد وبالتالي تأمين طريق الحج الى مكة ، والثاني تأمين الطريق نحو ارمينية فممتلكات بيزنطة في آسية الصغرى وممتلكات الخلافة الفاطمية في الشام وغيره، ويدل هذا على مطامح واضحة لطغرلبك ثم على فهم سياسي جيد ، وبين ٤٣٢ ـ ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٠ ـ ١٠٤٤ م استطاع طغرلبك احتلال المناطق الواقعة على شواطىء البحر القزويني، وبعد ذلك مد سلطانه على باقي اجزاء الهضبة الايرانية ، فاحتل بعد الري همذان ثم اذربيجان وقضى على كل مقاومة، خاصة من قبل الكرد والديلم، وأصبح الآن الطريق مفتوحا أمامه نحو بغداد وكذلك الطريق نحو ارمينية•

أن يهتم طغرلبك ويعمل للسيطرة على بغداد ذلك أمر مفهوم ، فكل الذين سبقوه في السيطرة على خراسان كان دائما هدفهم السيطرة على بغداد والتحكم بالخلافة العباسية، وفي تاريخ الدولة السامانية والدولة الصفارية وأعمال محمود الغزنوي أمثلة كافية للبرهان على هذا ، ولكن لماذا اهتم طغرلبك بطريق ارمينية؟

لقد كان طغرلبك يقود جماعة من البداة الغز، وكان هناك سيل غير منقطع من المهاجرين من بلاد ماوراء النهر الى خراسان ، والبداة الغز كغيرهم من بني جلدتهم من البداة كان ما يهمهم دائما هو تأمين المراعي والقيام بالسلب والنهب ، ومن الصعب السيطرة على البدوي ووضعه تحت سيطرة سلطة مركزية، أو ضمن انظمة محددة معينة، وكان طغرلبك بعد معركة دندانقان بصدد اقامة امبراطورية سنية ذات سمعة طيبة فيها أمن ونظام وكان من المحال والحالة هذه أن يترك بداته ينهبون، ولكن بداته كانوا اقوى منه ، لهذا وجد طغرلبك أن افضل الحلول للتخلص من بداته هو توجيههم نحو فتوح خارجية في بلدان غير اسلامية أو بلدان لاتدين بالاسلام السني، ولقد كانت أرمينية وبيزنطة البلد الكافر، وكانت الجزيرة والشام البلد الذي لايدين بالسنة، والتوجه نحو الفتوح الخارجية لم يخلص فقط طغرلبك من مشاكل البداة ، واشباع رغبات هؤلاء في السلب والنهب والحصول على الغنائم، بل كان توجيههم بالنسبة لطغرلبك عملا في سبيل مد رقعة دار الاسلام ، وكانت اعمالهم جهادا في سبيل الله لذا كان كل واحد من التركمان يطلق على نفسه لقب « غازي »!

يروي سبط ابن الجوزي وغيره من المؤرخين انه في سنة ٤٣٣ هـ/١٠٤١ م « قصد الغز نيسابور ، فقال لهم ابراهيم ينال: هذه البلاد خربت وما تحملكم، اطلبوا بلاد الروم فهي أحمل لكم ، فساروا الى الروم ...فاوغلوا في بلاد الروم فقتلوا وأسروا ونهبوا أشياء كثيرة ، وعادوا الى اطراف ارمينية• وقيل انهم بلغوا الى خليج القسطنطينية ، وكان معهم محمد بن ابراهيم ينال، فغنم ابن ينال وحده مائة الف رأس ، وأخذوا من السلاح والمال ماحملوا على عشرة آلاف عجلة ، وقيل بل كان ابراهيم ينال بنفسه معهم »(٥٧)

في هذه السنة تعرضت أراضي الجزيرة لاول مرة لغارات التركمان واصطدمت دولها بهم ، وإنه لمن الضروري قبل القيام بدراسة ذلك ان نتعرف أولا على الوضع السياسي والديني والاجتماعي الذي

كان سائدا آنذاك في الجزيرة والشام ، وبنفس الوقت نتعرف الى أوضاع بغداد والخلافة العباسية في هذه الآونة التي كان طغرلبك يجهد نفسه للسيطرة عليها ، وهذا سيكون موضوع الفصل التالي.



الفصل الثاني

قيام السلطنة السلجوقية

أوضاع بلاد الشام والجزيرة واحوالهما قبل السلاجقة . تأسيس السلطنة السلجوقية من قبل طغرلبك

كأني بالترك قد اتتكم على براذين مخذمة الآذان حتى يربطوها بشط الفرات . (عبد الله بن مسعود) .

اتركوا الرابضة ما تركوكم ، فانهم سيخرجون حتى ينتهوا الى الفرات فيشرب منه اولهم ، ويجيء أخرهم فيقولون قد كان هـا هنا ماء

(معاوية بن ابي سفيان)(١)

☆ ☆ ☆

الشام عند الجغرافيين هو صقع يحده من الشرق الفرات ومن الغرب البحر المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل طويلا حتى ما بعد طرسوس في تركية اليوم ، وقد جعل العرب المسلمون، بعد فتحهم للشام ، هذه البلاد خمسة اجزاء او مناطق عسكرية اطلق على كل

منطقة منها اسم جند وهي جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص، وجند قنسرين ، ومن حيث الواقع العملي كان عمر هذا التقسيم قصيرا واستمر نظريا ليس اكثر (٢).

سكن الشام قبل الفتوحات الاسلامية من قبيل عدد من القبائل العربية كان اكثرها - تبعا لروايات النسابين العرب - منحدرا من اصل يماني ، ومن اشهر هذه القبائل قبيلة كلب ، ولقد استقرت كلب جنوب بلاد الشام وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي ، كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل الى شمالي بلاد الشام ، ولقد كانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من اصل قيسي، وكان من اشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة ٦٤ هـ /٦٨٣ م بعد وفاة الخليفة الأموي ، يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط ، ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن ، وكانت قبيلة كلاب اكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فر زعيمها زفر بن الحارث شمالا واعتصم في قرقيسيا (البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور مع الفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة ، ولم يستطع مروان ان يقسره على مثل هذا الاعتراف(٣).

ولعل من اهم نتائج هذه المعركة انها قسمت بلاد الشام الى قسمين شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية ، وخاصة كلب وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعيا عبارة عن دارين دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال ،وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة وهمية تقع جنوب حمص وغالبا ما كانت عند الرستن على نهر العاصي.

لقد كانت كلاب كما ذكرنا قبيلة قيسية وكلب يمانية وتبعا للنسابين العرب ، انحدر العرب من ابوين : واحد جنوبي وآخر

شمالي ، ومن العجيب ان تقطن القبائل ذات الأصل الجنوبي جنوب بلاد الشام وتقطن القبائل الشمالية شمالي بلاد الشام ، متبعين هكذا نمط التقسيم الذي كان موجودا ، في الجزيرة العربية — الوطن الأم — قبل الاسلام ! ويتساءل المرء أحدث هذا بعامل الصدفة ، ام تم عن قصد وعمد ، أم أن القضية كلها عبارة عن جزء من اسطورة الانساب العربية المخترعة ؟

إن قضية الانساب العربية مع تشكل القبائل قبل الاسلام ، وتأثر هذا التشكل بالهجرة بعد الفتوحات الاسلامية بحاجة الى دراسة علمية حديثة على ضوء الدراسات الاجتماعية الحديثة وقوانينها ،

انما يبدو أن من الاسباب التي ساعدت على تركز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد الشام واستقروا في جنوبيها قبل الفتوحات الاسلامية ، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه الى الشام عن طريق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام.

المهم اننا لم نسمع بعد معركة مرج راهط بسكنى اية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام والعكس هو الصحيح ايضا ، ومع مرور الزمن اعتبرت قبيلة كلاب شمالي بلاد الشام ديارا لها واعتبرت اي تحرك قبلي من الجنوب هو عملا عدائيا موجها ضدها ، ويلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما اقام الكلابيون الدولة المرداسية في حلب ، فقد دخلت الدولة المرداسية في صراع مستمر مع الخلافة الفاطمية ، واستعان الفاطميون بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب ، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية لأن جنودها كانوا كلبيين وليس لسبب حماية حلب فقط ، ويمكن ايجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصينة ، شاعر المرداسيين ، وفي ما عمله المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي حينما أرسل من القاهرة في سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م لمساعدة البساسيري في ثورته ، فبعدما وصل المؤيد في الدين الى دمشق جاءته التعليمات من الوزير في القاهرة بتجنيد قوة كلبية واصطحابها معه والتوجه شمالا الى حلب

ومنها الى الرحبة حيث كان البساسيري ، ولقد تجاهل المؤيد اوامر القاهرة ، وراسل ثمال بن صالح أمير حلب ليسمح له بدخول أراضيه ، لأنه كان يعلم بأن اصطحاب قوة كلبية وادخالها الى ديار كلاب سيؤدي الى إخفاق مهمته .

ويلحظ المرء انه منذ القرن الخامس ـ الحادي عشر ان اسم الشام بات يطلق احيانا ليعني القسم الشمالي منه ، وكلمة الشام الأعلى لتعني القسم الجنوبي ، روى غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء في تاريخه بأن السلطان ملكشاه كتب في سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م الى اخيه تتش «ان لا يتعرض الى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب» (٤) .

لقد كانت مدينة حلب دائما مركزا لشمالي بلاد الشام وفيها قام عدد من الدويلات المستقلة ، ولقد كانت دمشق كبرى مدن جنوبي بلاد الشام ، واقول كبرى وليس مركزا لأن الجنوب انقسم الى قسمين : قسم فلسطيني ومركزه الرملة والنفوذ فيه كان لقبيلة طيء ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقي لقبيلة كلب ، ولقد كان الصراع دائما بين دمشق وحلب ، وكانت بلاد الشام ممزقة دائما سياسيا ، ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها ابدا ، وغالبا ما تورطت طيء بمشاكل ذات صلة بمصر وسياستها .

☆ ☆☆

في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد كانت اجزاء كبيرة من سواحل شمال بلاد الشام وشمالها الغربي خاضعة للحكم البيزنطي . ولقد كانت انطاكية ، واللاذقية وجبلة اهم المدن في هذه الأجزاء . وكانت هذه الأجزاء قد دخلت تحت الحكم البيزنطي في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد زمن الصراع مع الدولة الحمدانية بحلب بزعامة سيف الدولة .

وكان الجزء الجنوبي من بلاد الشام مع سواحله رغم وجود طيء وكلب فيه خاضعا في القرن الخامس هـ لحكم الخلافة الفاطمية ، وهذه الخلافة كانت اسماعيلية لها سياستها الخاصة تجاه هـذا الجـزء . وكانت هذه السياسة جزءا من السياسة الخارجية العـامة للخـلافة الفاطمية تجاه بلاد الشام ككل والعالم الاسلامي بأسره . وقد نبعت هذه السياسة من مصدرين اساسيين :

واحد نظري والآخر عملي ، وقد قام النظري على عقيدة هـذه الدولة التي هدفت للسيطرة على العالم الاسلامي – لا بل على العـالم كله – ولاسقاط الخلافة العباسية وازالتها من الوجود . ولتحقيق هـذا الهدف ، وحتى تصل القوات الفـاطمية مـن مصر الى العـراق كان عليها ان تبسط سيطرتها اولا على بـلاد الشـام . وفعـلا مـا أن استولى الفاطميون على مصر وسيطروا عليها حتى تابعت جيوشهم سيرها نحو بلاد الشام ، وبعد صعوبات جمة اسـتطاع الفـاطميون احتلال دمشق مع القسم الجنوبي مـن بـلاد الشـام (٥) . ولكنهـم اخفقوا في بسط نفوذهم بشكل دائم على شمالي بلاد الشـام ، وذلك بسبب مواجهتهم لعدة عقبات لم يستطيعوا تجـاوزها ، وكان اهـم هذه العقبات : أولا بعد شمالي بلاد الشام عن مصر . ثـانيا ضـعف الطاقات العسكرية والموارد الحربية للخلافة ، ثالثا وهو اكثر اهمية وجود بيزنطة في جوار شمالي بلاد الشام ، فهذه الامبـراطورية لم ترض ابدا بوجود الفاطميين على حدودها ، وحـالت بينهـم وبين احتلال حلب وشمالي بلاد الشام ، ولقد رغبت بيزنطـة بـوجود دولة اسلامية صغيرة مستقلة او شبه مستقلة تقـف حـائلا بينهـا وبين الخلافة الفاطمية ، وأخيرا لقد قاوم اهالي بلاد الشام مثلهـم مثـل اهل الجنوب ـ رغم ان غالبيتهم كانت تدين بالتشيع ـ محـاولات التوسع الفاطمي ، ورفضوا وجود الفـاطميين في بـلادهم ، وكانوا يبغضون الحكام الفاطميين بسـبب السـياسة المالية والاقتصـادية والادارية للخلفاء والولاة الفـاطميين الذين اعتمـدوا على العناصر البربرية التي جلبوها معهم من شمالي افـريقيا ، ولقـد كان بـداة شمال بلاد الشام ، كجزء من السكان ملكت قبائله خاصة كلاب قوة

مؤثرة ، لايكرهون ويرفضون الحكم الفاطمي فقـط بـل كانت لهم مطامحهم الخاصة في اقامة دولة خاصة بهم ، وعندما اقام صالح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب ــ كما سنتحدث بعد قليل ــ تحالف مع حسان بن المفرج امير طيء وسـنان بـن عليان زعيم كلب ، على طرد الفاطميين من الشام ومن ثم اقتسامه بين قبائلهم بحيث تقام دولة طائية في فلسطين مركزها الرملة ودولة كلبية في دمشـق وثـالثة كلابية في حلب ، ولقد حقق هذا الحلف الثلاثي بعض النجاحات وطرد الفاطميين لفترة من الشام ، ولكن الخلافة الفاطمية استطاعت بعـد فترة في سنة ٤١٩ هـ ــ ١٠٢٨ م هـزم قـوات الحلفـاء واعادت سيطرتها على جنوبي بلاد الشام ، ولكن ليس على الشمال .

في الواقع كانت السياسة الفاطمية تجاه بلاد الشام ، وان اتخذت من العقيدة الاسماعيلية لبوسا ، هي في الحقيقة امتـدادا للسـياسة الخارجية لمصر الاسلامية المستقلة التي سعت دائما للسـيطرة على الشام ، ذلك ان مصر كما هـو معلوم ليس لهـا حـدود طبيعية مـع سورية وقد غزيت دائما عن طريقها لذلك عمل حكام مصر المسـتقلة دائما على احتلال سورية ومـواجهة الغـزاة بعيدا عن ارض مصر . ومعروف أن هذه السياسة التي تبنتها مصر المستقلة في كل أدوارها التاريخية وما حققته من نجاحات قـد أثـارت الرغبـة في اقـامة أمبراطورية مصرية تحكم سوريا وغيرها .

ولقد أدى اخفاق الفاطميين في احتلال شمال بلاد الشـام بشـكل دائم إلى تعديل سـياستهم النظـرية وإلى تبني واحـدة عملية تقنع بالولاء الاسمي في شمال بـلاد الشـام ، ولكن لا تتسـاهل مـطلقا باستقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاسـتقلال كان تهـديدا مبـاشرا وخطيرا للوجود الفاطمي كله في مصر ، ويكفي أن نسـوق هنا كدليل وصية يعقوب بن كلس أعظـم وزراء الدولة الفـاطمية ، وهـو على فراش الموت ، للعزيز الفاطمي وفيها يقول : «سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبق على دغفل بن جـراح إن عرضت لك فيه فرصة (٦) .

لقد استولى الفاطميون على سواحل جنوبي بلاد الشام ، وكان للفاطميين اسطولهم القوي الذي مكنهم ، لفترة ، مع حامية دمشق وقوات فلسطين من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا الساحل التي كان اهمها طرابلس ، وصور ، وصيدا ، وعكا ، وفي النصف الثاني للقرن الخامس هـ -الحادي عشر للميلاد ضعف الفاطميون وبدا نفوذهم ينحسر ، وقد أفسح هذا المجال لقيام بعض من أنواع «الجمهوريات» المستقلة في كل من طرابلس وصور .

تولى عين الدولة بن ابي عقيل قاضي صور عليها ، وامتنع بها عن الاعتراف بالنفوذ الفاطمي ، وعقب موته ولي صور أولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م حيث جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم وأعادتها للحظيرة الفاطمية (٧) .

لقد كانت الدولة التي قامت في طرابلس أطول عمرا وابعد شهرة واكثر اهمية من دولة صور ، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي ابو طالب الحسن بن عمار الذي كان من شخصيات الشام البارزة ، ومن المرجح انه استقل بحكم طرابلس بعد سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٩ م وبعد وفاته في سنة ٤٦٤ هـ /١٠٨٢ م ، استبد ابن اخيه جلال الدولة ابو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس وظل يحكمها حتى سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م ويعد جلال الدولة اعظم أفراد آل عمار الذين تولوا حكم طرابلس ، وفي عهده ازدهرت طرابلس ، ولقد استطاع جلال الدولة الحفاظ على استقلال طرابلس وحماها ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة . بعد وفاة جلال الدولة خلفه أخوه فخر الملك ابو علي الذي ظل محتفظا بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م (٨) .

وكما ضعف النفوذ الفاطمي في القرن الحادي عشر وانحسر عن مناطق الساحل الجنوبي لبلاد الشام ، كذلك حصل بالنسبة للنفوذ البيزنطي في بقية مناطق الساحل الشامي ، الفرصة التي استغلها

البعض لاعلان الاستقلال ، كما فعل منصور بن صليحة قاضي جبلة ، وعقب وفاة منصور خلفه ابنه عبيد الله في حكم جبلة ، ودافع عبيد الله عن جبلة ضد آل عمار حكام طرابلس وضد الصليبيين ، واخيرا تنازل عنها الى طغتكين اتابك دمشق وذلك في سنة ٤٩٤ هـ/١١٠١م (٩) .

☆ ☆ ☆

هكذا كانت اوضاع جنوب بلاد الشام وساحله في القرن الخامس الهجري الحادي عشر للميلاد اما الشمال حيث كانت حلب مركزه فقد حكم معظم الوقت من قبل الدولة المرداسية التي اسسها صالح ابن مرداس أمير قبيلة كلاب ، ومفيد قبل اعطاء تاريخ موجز لهذه الدولة أن نقف قليلا لننظر بشيء من الامعان أكثر مما فعلنا من قبل سابقا الى القاعدة القبلية لهذه الدولة ، هذا وبسبب طبيعة أصل هذه القبيلة ، وبسبب علاقاتها بغيرها من القبائل خاصة في الجزيرة ، فإننا سنضطر هنا الى توسيع هذه النظرة لتشمل الوضع القبلي ليس في شمال الشام فقط بل في الجزيرة أيضا .

كانت قبيلة كلاب قبل قيام الاسلام إحدى مشاهير القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية ، وكانت تقطن في منطقة المدينة ، وبعد قيام الأسلام هاجر جزء من كلاب مع من هاجر من القبائل العربية ، وقطن هذا الجزء شواطىء الفرات الشامية (١٠) ومد نفوذه وسيطرته على شمالي بلاد الشام كما سلف البيان ، لكنه لم يعمل لاقامة حكم دولة مستقلة تحكم شمال بلاد الشام حتى جاء القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ،ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى أوضاع الخلافة العباسية وقوتها أنذاك ، ثم إلى التأثيرات الحضارية التي لابد وقد أثرت في الكلابيين ، إنما أصاب قبيلة كلاب منذ مجيء القرن العاشر للميلاد تغييرات كبيرة ، ففي هذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاطها في شبه الجزيرة العربية

والشام والعراق والجزيرة وصل إلى شمالي بلاد الشام واعالي الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة وهي : كلاب وعقيل ونمير وقشير وخفاجة ، وبعد فترة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها ، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل ، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها ، حيث استطاعت بعد أمد وراثة الدولة الحمدانية في الموصل وإقامة الدولة العقيلية مكانها ، وسنتعرض بعد قليل لتاريخ هذه الدولة ، أما نمير فقد اتخذت من منطقة حران والرها ديارا لها ، واتخذت من حران مركزا لنفوذها ، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسر التي تبدل اسمها الى قلعة جعبر نسبة إلى جعبر بن سابق احد شيوخ قشير الذين حكموها ، ويقول ابن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة واصفا حال الجزيرة في ايامه :

«وبالجزيرة براري ومفاوز وسباخ بعيدة الاقطار تنتجع لامتيار الملح والاشنان والقلي ، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، أهل خيل وغنم وابل قليلة ، واكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة ، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل وبني نمير كلاب ، فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلها ، وملكوا غير بلد واقليم منها ، كحران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة في ايديهم يتحكمون في خفائرها ومرافقها»(١١) .

وكما استقرت قبائل عقيل ونمير وقشير في الجزيرة فقد استقر الكلابيون الجدد في شمالي بلاد الشام مع اخوانهم الكلابيون القدماء لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر بسلام ، بل أن هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعض الدمار لأراضي شمالي الشام والجزيرة ، وقد هيأت الفوضى السياسية التي نشأت الفرصة لظهور عدد من المغامرين مثل المتنبي الشاعر والاصفر الغازي . كما اكرهت عددا من القبائل القديمة في الجزيرة وخاصة بقايا قبيلة تغلب على الهجرة إلى الأراضي البيزنطية

ويتحدث ابن حوقل عن خـــروج بني حُبيب «بــذراريهم وعبيدهـــم ومواشيهم وخفهم الذي يمــكن بمثله النقلة ، ومـــن ســاعدهم مـــن جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من العصــب لعقــارهم في نحـــو عشرة الاف فــارس » إلى الأراضي البيزنطية حيث اسـتقروا ثـم » تنصروا بأجمعهم واوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد أن أحسن لهم»
ذكر ابن العــديم أن قبيلة بني نمير وصلت الجزيرة في سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م كمــا روى انه في ٣٢٠ هــ / ٩٣٢ م وصـــلت كلاب الى شمالي بلاد الشــام ، وبين أن قبيلتين مـــن هؤلاء الكلابيين الجـــدد وهما سبيعة وذؤيبة قد أغارتا في سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م على معرة النعمان وذلك بعد ان نخروا الشام الشمالي

لقد تالفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجــوم ولابــد أن قـــدوم المهاجرين الجدد واختلاطهم بالقدماء قد اثر عليها فغير من تركيبها ، إنما على العموم تميزت هذه القبيلة مثلها مثل بقية قبائل عامـــر بـــن صعصعة بتحكم روح الفوضى والفرقة بينهـــا ، فلقـــد آثـــر الكلابيون وغيرهم دائما التمزق ولم يدينوا باخلاص لقائد واحد ، ولقـــد كانت لديهم «مثلهم» الخاصة في الأخلاص السياسي .

وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية ، ونحن لا نعرف مدى التعلق الجدي بهذا المذهب ، ســـوى أن بعض الأسماء الشـــيعية ، مثـــل علي ، عليان، علوان ،و جعفـــر قـــد تبناها بعض افراد هذه القبائل ، وفيما خلا هذه الأسماء التي كانت قليلة جدا فإن أسماء الكلابيين والقشيريين والنميريين والعقيليين كانت عربية صرفة وغير متأثرة بالاسماء التي عم انتشـــارها بعـــد قيام الاسلام خاصة الأسماء المركبة التي تبدأ بعبد وتنتهي باسم أو صفة من صفات الله(١٢)

استولى في سنة ٣٩٩ هـ /١٠٠٨ م صالح بن مـــرداس على بلدة الرحبة (الميادين الحالية في سورية) على الفرات ، وبعدما فعل هذا ، اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القـــاهرة(١١٣) ولقد كانت الرحبة من اكثر مـــدن الشـــام اهمية نظـــرا لموقعهـــا

الاستراتيجي الخطر ، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات ، وهـذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية ، كما كانت قريبة من العراق غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضا ، ثـم إن البـادية كانت وثيقـة الصلة بها ، وفي البادية اقامت العشائر البدوية التي شـغلت أعظـم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام ، وبايجاز لقد كانت الرحبـة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العـربية ، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام واجـزاء من الجزيرة ، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس .

ولقد حافظت الرحبة على اهميتها هذه ومـكانتها حتـى أواخـر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م حيث حلت محلها مدينة الموصل ، التي كانت احدى كور الجزيرة الثلاث : ديار بـكر وديار مضر وديار ربيعة ، والجزيرة كانت أصلا تشـتمل على البـلاد التـي بين دجلة والفرات Mesopotamia ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب قسما من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات مـن بـر الشام إلى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها.

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة(١٤ وكانت دائمـا متـورطة في مشاكل العراق السياسية وغيرها ، وقلما كان لها دورها في مشـاكل الشام ، وظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الحادي عشر م عندمـا أزداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغـز مـن اتجـاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وكانت الموصل أول محطة لهـم نحـو الشام ، وسبب هذا تحولا هاما في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف وغدت هذه المدينة بـالتدريج جزئا من الشام ، وتـورطت في مشـاكله ، واصـبح الاسـتيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بـلاد الشام وربما على الشام بأسره ، وسـنرى في تـاريخ الدولة العقيلية والدولة الاتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

وبعدما احتل صالح بن مرداس الرحبة اخذ يتطلع بمطامحه نحو

حلب ، فتورط من اجلهـــا في صراع طـــويل اثمـــر في ســـنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٥ م عن احتلال حلب وإقامة الحكم المرداسي فيهـا . ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام بل إنتـزع بعض اجزاء الساحل الشامي من الفاطميين وساهم في العمـل مـن اجل طرد الفاطيين من الشام ، فذهب ضحية مطامحه حيث قتـل في سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م في معركة الأقحوانة ، في وادي الأردن قرب طبرية(١٥) ومقتل صالح لم يزل من الوجود الدولة التي اقـامها ، فقـد احتفظ اولاده بحكم حلب فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوالي وهم : نصر ثم ثمال ثم عطية ، ثم حكم بعد عطية حفيد صالح محمـود بـن نصر ، ثم نصر بن محمود ، واخيرا سابق بن محمـود الذي ســقطت الدولة المرداسية في زمنه .

بعد وفاة ثمال في سنة ٤٥٤ هـــ / ١٠٦٢ م دخلت أول جمـاعة غزية بلاد الشام وسندرس هذا في الفصـول المقبلة بشـكل مفصـل وسنوضح آثاره وكيف أنه سبب سقوط الدولة المرداسية وعمل على إزالة القوة العربية من الشام .

لقد كانت الدولة المرداسية دولة بدوية . تطبعت بالأخلاق العربية ، وبالمفهوم العربي البـدوي في الحـكم ، لذلك إزدهـرت في ظـلالها الحضارة العربية وثقافتها ، ففي زمن المرداسـيين وفي ظلهـم عاش المعري وكتب نثره وشعره ، وكذلك فعل ابن ابي حصـينة الشـاعر وابن سنان الخفاجي الكاتـب الشـاعر ، وأخيرا ابـن حيوس كبير شعراء الشام في أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م.

ولقد كانت علاقات الدولة المرداسية بـالخلافة الفـاطمية سـيئة بشكل عام ، برغم ان المرداسيين قد اعترفوا رسميا بسلطان خليفـة القاهرة ، ولم يكن لهم اية علاقـة ـ حتـى مـا قبـل ١٠٧٠ م ـ بالخلافة العباسية ، ولكن بنفس الوقت الذي اعترف فيه المرداسيون بسلطان الفاطميين كانت علاقتهـم بـالامبرطورية البيزنطية جيدة

بشكل عام ، وغالبا ما وضع الامــراء المرداسـيون انفسـهم تحـت الحماية البيزنطية ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية

أعتادت بيزنطة أن تقيم دولا على حدودها ، لحماية هـذه الحـدود من غارات البدو بشكل عام ، ولتكون هذه الدول حاجزا بين بيزنطـة وقوى كبرى أخرى . وعلى هذا فقد عمدت بيزنطة للعمل على حمـاية الدول البدوية التي أقامتها وعلى مسـاندتها بـالمال وغير ذلك مـن الأسباب ، أما أن تدفع دولة بدوية الجزية لبيزنطة . فـلا بـد أن ذلك حالة شاذة لها أسباب غير اعتيادية !ويعود سبب دفـع المرداسـيين الجزية للامبراطورية البيزنطية إلى وجود التهديد الفـاطمي الدائم . ثم إلى طبيعة قبيلة كلاب من فوضى وتمزق وعدم اخلاص وعدم انقياد لزعيم واحد



لقد عاش مع كلاب في شمال بلاد الشام قبائل أقــل شــأنا منهــا وقوة .إنما ينبغي التعرض لها لأن بعضها قد قام بدور سياسي هام ، لقد كان هناك بنو أسد الذين عاشوا في منطقة معرة مصرين ، وجبــل السماق ، ونقرة بني أسد بين خناصره والأحص وفي أطــراف وادي بطنان كجيران لبني عبس الذين سكنوا هــذا الوادي مــع حيار بني القعقاع ، ولقد قطن قسم من عبس في حــاضر قنسرين ، وفي معــرة النعمان عاشت بقايا تنوخ

ويهمنا اكثر من هؤلاء جميعــا بنو منقــذ الذين ســكنوا المنطقــة الشمالية الغربية لمدينة حماة ، وكان مركزهم بلدة كفر طــاب ، وذلك حتى سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م عندما تمكنوا من احتلال قلعة شيزر وخرائب كفر طاب ، ما تزال قائمة وهي على بعد حوالي ٣ كم إلى الغرب من خان شيخون الواقعة على الطــريق العــام الواصــل بين دمشق وحلب . وقد زرت موقع هذه البلدة وشــاهدت مــا بقــي مــن أثارها .

ولقد كان لبني منقذ من القوة والعدد ما مكنهم من شغل دور هــام في تاريخ الشام في أواخر القرن الخامس هـ /الحادي عشر م ثــم في القرن السادس هـ /الثاني عشر م. ومن أشهر رجالات بني منقــذ في القرن الحادي عشر علي بن مقلد الذي كان اخا بالرضاعة لمحمود بن نصر بن صالح بن مرداس أمير حلب ، وقد قــام علي بــدور هــام في امور حلب السياسية وفي أمور مدينة طرابلس وكان هو الذي احتــل قلعة شيزر وأقام حكم الأسرة المنقذية فيها ، وفي القرن الثــاني عشر اسامة بن منقذ الفارس الشاعر صاحب كتاب الاعتبــار وغيره مــن الكتب (١٦) .

كان غالبية سكان بلاد الشام في القرن الخامس هـ -شيعة معظمهم من اتباع المذهــب الاثني عشرية ، وكان بين الشــيعة بعضــا مــن الاسماعيلية في الشمال والجنوب ، وبعضــا مــن الدروز في شــمالي

غربي حلب ، وكان هناك النصيرية في جبل بهـراء – العلويين الآن – وكان السنة يقطنون في المدن الكبرى وكانوا في جنوب بلاد الشام اكثر منهم في الشمال ، وكالعـادة وجـد نزاع حـاد بين الجمـاعات الأسلامية وكان هذا النزاع من الأسباب التـي زادت تجـزؤ بـلاد الشام عمقا وقوته ضعفا ، وبالاضافة للمسلمين وجد في المدن الكبرى كدمشق وحلب طائفة لا بأس بحجمها من اليهود ، وكان النصـارى منتشرين في ريف الشام ومدنها الكبـرى ، وكانوا كثـرة مـؤثرة في شمالي البلاد وغربها وكان بعض هؤلاء النصارى من أصل ارمني ، ولم تكن العلاقات بين النصارى واليهود والمسلمين دائما سليمة بـل غالبا ما توفرت اسباب الخلاف ووجد النزاع ، إنمـا كانت الحـرية الدينية على العموم متوفرة ، وكانت أحوال النصارى المعاشية جيدة وكانت معظم اعمال الادارة في ايديهـم ، ويمـكننا أن نعـد القـرن الخامس هـ / الحادي عشر م العصر الذهبي لنصـارى الشام ، ذلك أن قدوم الصليبيين إلى الشام ادى إلى بعض ردات الفعـل العنيفـة ضد النصارى الشاميين (١٧) .

☆ ☆ ☆

لقد عرف مجتمع مدن بلاد الشام في القرن الخـامس وقبله بعض التنظيمات الشعبية البلدية ، ويمكن تقسيم هذه التنظيمات مـن حيث الأطر العامة إلى قسمين رئيسيين : واحد صغير مثـل القشرة العليا من المجتمع من تجار وأثرياء واشراف وبعض من شغلوا الوظـائف الدينية من قاضي ومحتسب ، وقسم كبير مثل الجزء الاكبر من الناس وعرف باسم الأحداث ، ولقد قام التعاون والتآلف أحيانا بين هذين القسمين ، ولكن نظرا لطبيعة القسم الأول الخاصة وبالتالي بسـبب مصالحه الذاتية المتميزة فإن دوره كان في الغـالب سـلبيا ، اتسـم بالمداهنة للحكام والاعتدال في المنهج .

وفي التاريخ الاسلامي إذا كان من السهل تصور قيام اتحاد بين اغنياء وتجار واشراف مدينة ما ، وبالتالي تكوين شريحة إجتماعية وتنظيم جامع ، فإنه لمن الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، التعرف إلى بداية نشوء منظمة شعبية ثم كيفية تطور هذا التنظيم وتكامله . والسبب الرئيسي لهذا هو أن المؤرخ المسلم كان غالبا من الشريحة العليا ونادرا ما أولى المحكومين اهتمامه ، فلقد تحدث فقط عن الأمراء والملوك ذوي المؤسسات الظاهرة التي كانت تميز الدول .

وينطبق هذا على أصل منظمة الأحداث في بلاد الشام ، حيث إنه من الصعب تحديد تاريخ لقيامها ، ثم أسباب هذا القيام ، وبعد ذلك المراحل التي اجتازها التنظيم حتى تكامل واخذ شكله . ويقترح المستشرق الفرنسي كلود كاهن بأن من الممكن أن تكون منظمة أحداث الشام ذات صلة ، أو بالحري هي امتداد للمنظمات التي عرفتها الأمبراطورية البيزنطية التي كانت تحكم الشام قبل الفتح الاسلامي

ليس هناك شواهد مادية تؤيد هذا الاقتراح ، وبتصوري : إن منظمة الاحداث قد ولدت في بلاد الشام المسلمة ونمت في إطار هذه البلاد ونبعت من مشاكلها الخاصة السياسية والاجتماعية الاقتصادية ، ولم يكن لمنظمة الأحداث أية علاقة بمنظمات الامبراطورية البيزنطية ، فلقد نشط الأحداث أكثر مانشطوا في حلب ودمشق، وكانت هاتان المدينتان ، وخاصة حلب، مدنا من الدرجة الثانية زمن البيزنطيين، لأن القدس وأنطاكية كانتا تحتلان مركز الصدارة ، ولقد قلل الفتح الاسلامي من مكانة القدس وأنطاكية وزاد من أهمية دمشق وحلب، ثم إنه ليس من الضرورة أبدا أنه عندما تتحكم امبراطورية أجنبية بأمة من الامم أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة، يضاف الى هذا أن بلاد الشام كانت دائما المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي وخاصة النواحي الاجتماعية والدينية منها، ثم إن بلاد الشام كانت مشغولة قبل الفتح الاسلامي بالمشاكل الدينية التي كانت ناجمة عن

الانقسامات داخل الكنيسة ، علما بأنه لم يرد في أي مصدر من المصادر إشارة الى وجود منظمات محلية سياسية أثناء الفتح الاسلامي وزمن الحكم الأموي٠

بعد سقوط الخلافة الأموية كان ظل الحكم العباسي في الشام دائما ضعيفا ولما ازداد ضعف الحكم العباسي تعرض الكثير من مدن الشام لعديد من المخاطر، وربما لما وجد أهالي هذه المدن أن العباسيين ليس بمكنتهم درء هذه المخاطر ، قام بعضهم بانشاء بعض التنظيمات الدفاعية، وإليك مثالا موضحا لهذا : في سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ ـ ٩٠٢ م، أخفق جيش عباسي عداده عشرة آلاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار المدينة ، ولما رأى الحلبيون اخفاق الجيش العباسي ووقوعهم تحت الحصار كونوا قوة محلية لم تتول فقط الدفاع عن المدينة ، إنما قامت بهجوم مفاجىء على القرامطة نتج عنه هزيمتهم وفك الحصار عن حلب٠

☆ ☆ ☆

عقب قيام الدولة العباسية وجعلها من العراق مركزا لها ثم لانشغالها بمشاكل الشرق ، اعتمدت هذه الدولة على النظام الدفاعي في علاقاتها مع بيزنطة ، فأقامت عددا من الحصون والقلاع التي وضعت فيها الحاميات العسكرية للتصدي لأي هجوم بيزنطي ، وبات اسم خط الحدود الأول مع بيزنطة يعرف باسم العواصم ، ولقد تطور في هذه العواصم نظام دفاعي خاص، كان ذا اسس عسكرية تعتمد على سكان كل ثغر من الثغور، ومن حسن الحظ انه وصلنا جزء كبير من كتاب اسمه سير الثغور كتبه ابو عمرو الطرسوسي

المتوفى في حوالي سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م، وذلك ضمن المجلد الأول من كتاب بغية الطلب لابن العديم (الذي قمت أخيرا بتحقيقه) .

لقد قدم أبو عمرو في كتابه سير الثغور وصفا رائعا مفصلا للحياة العسكرية في الثغور وكان أروع وصف ذاك الذي تناول به هذه الحياة في مدينة طرسوس، كبرى مدن الثغور وابعدها شهرة: لقد كان غلمان طرسوس يدفعون قبل بلوغهم الحلم الى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من اهل المدينة، فيقوم هؤلاء بتصنيف الغلمان الى فئات ثم يأخذون في تدريبهم على الشؤون العسكرية، ويستمر ذلك حتى يبلغ هؤلاء الغلمان سن الرجولة حيث يلتحق انذاك كل فتى منهم بسرية من سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر(١٨) .

إنه لمن المتصور والحالة السياسية كما وصفت من حيث الاضطراب ، وتجارب العواصم العسكرية كما بينت، ان قام اهالي كل مدينة و بلدة في الشام بتشكيل منظمات عسكرية شعبية لأغراض الدفاع ، ثم إن الاضطراب السياسي مع التبدل السريع في الدول الذي شهدته المنطقة لابد وقد جعل بعض العسكريين الذين فقدوا مناصبهم مع قيام كل دولة جديدة يلتحقون بمثل هذه المنظمات، وهكذا أعاروها خبراتهم وساعدوا على تطويرها وزيادة صبغتها العسكرية ، إلى أن غدت نوعا من « الميليشيا الشعبية »، ثم إن ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام منذ ماقبل القرن العاشر لابد وأن جعل الحكام لايتغاضون فقط عن نشاط هذه « الميليشيا » بل يستخدمونها من اجل مآربهم واغراض حكمهم الخاصة، وهذا لابد ايضا قد اثر في تطور منظمة الأحداث وساعد على توطدها، وإن في بعض الأمثلة التي سأقدمها عن نشاط الأحداث مايكفي للتدليل على صحة جميع ماافترضته .

إن الفترة المحصورة مابين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري العاشر الميلادي واواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م قد شهدت ذروة نشاط الأحداث ، وتجلى هذا بصورة واضحة بشكل

رئيسي في مدينتي دمشق وحلب، وخلال هذه الفترة خضعت اجزاء كبيرة من الشام للحكم الفاطمي، ولما كان الفاطميون قد قام مذهبهم في الحكم على اطاعة الامام بشكل مطلق، فانهم لم يسمحوا بوجود اي هيئة أو تنظيم الى جانبهم، لهذا اصطدموا عندما حاولوا الاستيلاء على جنوبي بلاد الشام بالأحداث ولم يتمكنوا من دمشق إلا بعد القضاء بشكل مبرم على غالبية افراد منظمة الأحداث، وبرغم ذلك فقد بقي للأحداث قوتهم في شمالي بلاد الشام وخاصة في حلب، وعندما قدم السلاجقة الى الشام والحقوه بامبراطوريتهم التي اتخذت من الأوتوقراطية العسكرية قاعدة لحكمها قاموا بتصفية الأحداث ، لذا عندما جاء الصليبيون الى الشام وجدوه خاليا من جميع القوى والتنظيمات الشعبية المحلية فاستطاعوا انتزاع اجزاء كثيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء.

بعيد ان استولى الفاطميون على مصر زحف في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م جيش فاطمي على راسه القائد البربري جعفر ابن فلاح، نحو بلاد الشام كي يعمل على ضمها الى الحكم الفاطمي ولقد لقي هذا الجيش اثناء زحفه في فلسطين مقاومة من الجيوش الاخشيدية، لكنه تغلب عليها، وتابع سيره نحو دمشق ، وقبيل وصوله إليها فر حاكمها الاخشيدي منها، فخلت المدينة « من السلطان، فطمع الطامع وكثر الذعار وحمال السلاح ». ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم بأن أغلقوا ابوابها ، وأوقفوا الرماة على شرفات الأسوار، وأقاموا الحواجز داخل المدينة، وكسروا قني الماء،وحفروا الخنادق.ولقد اشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق، وكاد اهالي دمشق ان يتمكنوا من صد قوات الفاطميين عندما هاجمت مدينتهم لولا ان جماعة من التجار والأشراف قامت فشكلت وفدا قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح، واخذ يبث التخاذل بين المدافعين مما سبب إيقاف المقاومة وفتح أبواب دمشق لجيش ابن فلاح.

لقد كان القائم بامر الدفاع عن دمشق رجلا من اهلها اسمه ابو

اسحق محمد بن عصودا، وبعدما دخل جعفر بن فلاح دمشق هرب محمد بن عصودا الى الأحساء فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم، فحضه على مساعدة دمشق، فلقي الاستجابة منه، وجاء جيش قرمطي نحو دمشق فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة• وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي، وعين القرامطة عليها من يحكمها وتابعوا سيرهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي، ولكنهم اخفقوا وهزموا، وجردت الجيوش الفاطمية مجددا في إثرهم لملاحقتهم ولاعادة جنوب الشام الى حظيرة الخلافة الفاطمية•

وحدث هذا كله سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يحكم في القاهرة لذا قام بتعيين ظالم بن مرهوب (أو موهوب) العقيلي حاكما على دمشق ، وحاول ظالم العربي الأصل اخذ دمشق بالحديد والنار فأوقع الحرائق بعدة اماكن من المدينة، لكن ذلك لم يفت من عضد الدمشقيين بزعامة الأحداث، وأخيرا تم الوصول الى تسوية غادر بموجبها ظالم بن مرهوب المنطقة ، وسمح الأحداث لحاكم فاطمي أخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلا مؤقتا وغير ناجع، إذ حالما عادت الاضطرابات الى دمشق ، وهنا تدخل المعز لدين الله بالأمر فأوعز إلى واليه على طرابلس بالقدوم الى دمشق لحل مشاكلها فقام هذا بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق ، وهكذا تم الوصول الى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق الذين احكموا قبضتهم على المدينة وأمورها، ولقد كان زعيم الأحداث في هذه الآونة عاميا عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة باب الصغير هي نقطة تمركز الأحداث أو مكان تكتلهم •

حدثت في هذه الآونة مشاكل سياسية كبيرة في بغداد ادت الى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ / ٩٤٦ ـ ٣٦٣ / ٩٧٤) واستخلاف ولده الطائع ودفع هذا بعض العسكريين الأتراك الى القيام بهجر بغداد• وكان من بين هؤلاء البتكين الحاجب، الذي ترك

العراق وجاء نحو دمشق، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها، فخرج إليه شيوخ المدينة وأشرافها فرحبوا بـه، وسـألوه" الاقـامة عندهم، والنظر في احوالهم ، وكف الأحداث الذين بينهم، ودفع الأذية المتوجهة عليهم منهم "• وقبل البكتين العرض ودخل دمشق فـرتب امورها، إنما بالاتفاق مع الأحداث الذين كانت علاقته بهم جيدة ولم تتاثر اوضاعهم بدخوله دمشق ولم يضعف نفوذهم بهـا، لأنه اهتـم بالمشاكل الخارجية وترك أمـور المدينة الداخلية لزعمـاء الأحـداث ومقدميهم، وكان اكبر هؤلاء رجل عرف باسم قسام التراب، وقسام هذا كان أصله من احدى قرى دمشق من قوم من العـرب كان يقـال لهم الحارثيون، وقد نشأ في دمشق وكان يعمل في التراب، ثم انضـم الى الأحداث فتزايد امره بينهم حتى غدا اول رجل فيهم•

وهكذا سارت أمور دمشق بشـكل جيد لكن الخـلافة الفـاطمية ماكانت لتسمح باستمرار الأوضاع هكذا، لما قـد يسـبب لهـا مـن مشاكل ، لهذا جرد الخليفة العزيز قواته بإمرة جوهر الصقلبي فاتح مصر ، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن ، واخفق جـوهر واسـتطاع البكتين صد الفاطميين وهزمهم في أكثر مـن معـركة، ممـا اضـطر العزيز الى الخروج بنفسه لحربه، واستطاع العزيز إيقاع الهـزيمة بـــالبكتين، واخـــذه اســـيرا وعاد بـــه الى مصر في سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م• لكن ماحل بـألبكتين لم يؤد الى سـقوط دمشق ، بل حافظت المدينة على استقلالها، واستبد قسام واحـداثه بأمورها فضبطوها ضبطا جيدا، وكاجـراء احتياطـي قـام قسـام بمراسلة الخليفة العزيز فـاعترف اسـميا بسـلطانه، ودافعـه عن دمشق، وتظاهر العزيز بـالرضى، إلا انه قـام في السـنة التـالية ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م بارسال جيش قوامه اربعة الاف مقاتل من اجـل استعادة دمشق ، وقدم هـذا الجيش نحـو دمشـق ، لكنه اخفـق في دخولها، واضطر الى الانسحاب راضيا بتعهد من قسام واحداثه أن لايسلموا البلاد لحاكم يدين بالطاعة للعبـاسيين، ودام الحـال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م، حين جهز جيش فاطمي جديد لاعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعد ما اخفقت محـاولات

أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها، وإثارة الأعراب ضدها في اسقاط حكم قسام·

ووصل الجيش الفاطمي إلى اسوار دمشق، واخذ بحصارها، وطال الحصار واشتدت مقاومة قسام واحداثه، وفي ذروة المعركة قام اشراف وأثرياء دمشق بالاتصال بقائد القوات الفاطمية، ثم أخذوا بتثبيط الناس عن قسام ، و ضغطوا عليه كي يوقف المقاومة ويسلم المدينة، وفي لحظة إعياء نفسي وجسدي شديد وخوف قبل قسام بتسليم دمشق للفاطميين على شرط الأمان له ولأصحابه، و هكذا فتحت دمشق أبوابها ودخلت القوات الفاطمية واخذت بمقاليد الأمور بها، ولكن سلطتها لم تتعد الواقع النظري، فقد احتفظ الأحداث بسيطرتهم الفعلية وبنفوذهم المؤثر، ودام الحال هكذا حتى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م زمن الخليفة الحاكم بأمر الله ، حين ثار أحداث دمشق على واليهم الفاطمي وطردوه من مدينتهم·

ويبدو ان مدن الشام الأخرى قد وجدت فيها في هذه الفترة تنظيمات مشابهة للأحداث لها قوتها، ففي صور تزعم الأحداث رجل اسمه العلاقة الملاح، وثار هذا الملاح أيضا بالفاطميين وطردهم من صور، وأعلن استقلال صور، وضرب نقوده الخاصة به، وهنا كانت ردة فعل الدولة الفاطمية شديدة ، حيث جهزت قواتها البرية والبحرية من أجل القضاء على أحداث جنوب الشام، واستطاع الاسطول الفاطمي اخذ صور، وأوقع الهزيمة بالعلاقة واخذه اسيرا، حيث تم حمله الى القاهرة، وهناك سلخ هذا الثائر حيا وصلب بظاهر القاهرة، ولانعرف بالدقة موقف أحداث دمشق من ثورة العلاقة، كما أنه ليس لدينا مايشير الى ان هناك صلات وتعاون وتنسيق بين احداث مدن بلاد الشام·

ويبدو أن هذه الضربة القاسية التي حلت بأحداث صور قد اثرت على معنويات أحداث دمشق، لذلك عندما وصل الجيش الفاطمي الى دمشق لم يقاوموه، بل استقبلوه بالطاعة المشروطة، ورضي الجيش الفاطمي بذلك، أو على الأقل تظاهر بالرضا، ولم يدخل المدينة

وعسكر خارجها، واخذ يحضر لضربة قاصمة ضد دمشق واحداثها وأرسلت القاهرة واليا جديدا لتولي شؤون دمشق مع خطة غدر للقضاء على الأحداث، وكان اسم الوالي الجديد بشارة الاجشيدي الذي وصل دمشق في سنة ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م، لكنه لم يدخلها بل اقام خارجها في إحدى قراها، واخذ يقيم علاقات الود والصداقة مع مقدمي الأحداث الذين كانوا الآن اثنا عشر رجلا، على راسهم زعيم اسمه الدهيقين، وكان بشارة يدعوهم دائما الى ولائمة حتى اطمأنوا له، ووثقوا به.وفي شتاء هذا العام دعا بشارة مقدمي الأحداث مع حوالي مائتي رجل منهم الى وليمة، وكان بالوقت نفسه قد اعد قواته مع أوامر بالاستعداد للهجوم على دمشق، وعين لكل قائد من قادة جيشه حيا من أحياء المدينة كي يبطش به وبـأهله ، وعندما فرغ الأحداث من تناول الطعام ودخلوا الحمام من اجل غسل ايديهم ، أغلقت عليهم الأبواب ، وفتك بهم جميعا بطريقة ليس من الصعب تصورها(١٩) حيث تكرر وقوع مايشابهها مرارا في تاريخ الاسلام • سواء حين جرى ذبح الأمويين من قبل العباسيين أو اخيرا حين فتك محمد علي بالمماليك في قلعة القاهرة•

لقد كانت ضربة مروعة قضت على احداث دمشق واخمدتهم ، فلم نعد نسمع بوجودهم المؤثر فيها، ورزحت دمشق تحت الحكم الفاطمي حتى انتزعها اتسز الزعيم التركماني كما سيمر معنا بالتفصيل ، وكانت الحامية الفاطمية في دمشق مؤلفة من جند من أصل بربري• وإن وجود حكم مكرو ومع حامية شبه اجنبية ، ثم خلو المدينة من التنظيمات المحلية كان من اسباب تعثر دمشق واخذها دورا سلبيا في بداية تاريخ الحروب الصليبية ، وهذه مسألة ستنال حظا أوفى من البحث في المستقبل ، على اننا إذا ماتركنا جنوب بلاد الشام وتوجهنا نحو شماله ، نجد الأحداث يشغلون في حلب دورا هاما جدا، فالأحداث هم الذين ساعدوا صالح بن مرداس على الاستيلاء على حلب ، وكانوا إذا ماقام صراع بين اميرين من آل مرداس انتصر الذي ساندوه، ولقد وقف الأحداث من التركمان موقف المعادي، وسيمر معنا بالتفصيل ما قاموا به من اعمال

ضدهم، ثم كيف أن قيام اول حكم تركماني في حلب قد أذن بـانتهاء وجودهم ونفوذهم فيها·

لقـد كان الأحـداث يتقـاضون أحيانا بعض المرتبـات، وكانوا يقومون بوظائف الشرطة البلدية ، يسهرون على الأمـن ويراقبـون النظافة والنظام العام في المدينة (٢٠) ·

إن القضاء على الاحداث في بلاد الشام يمكننا مـن الاجـابة على احدى مشاكل تاريخ هذا البلد الاجتماعية والعمـرانية ، فلو نظـرنا الى مدن الشام وخطط البناء الفوضوي بها ثم تطور عمـران هـذه المدن، وقارنا تطور الحياة الاجتماعية في المدينة الشامية باحدى مدن أوربة لشاهدنا فوارق ضخمة، وحين نبحـث عن السـبب نجـد أن المدينة الأوربية قد عرفت منذ زمن التنظيمات البلدية ونجـد أن هـذه التنظيمات التي رافقت تطور المدينة في اوربـة وأشرفـت عليه كانت معدومة حتى اواخر القرن الماضي في بلاد الشام·

إن القضاء على الاحداث وإزالتهم من مدن الشام قد حـرم هـذه المدن من هيئة اجتماعية كان ـ ربما لو كتب لها الحياة والاسـتمرار ـ وضع المجتمع والمدينة في الشام مخالف لما عليه الآن بشكل كبير ·

☆ ☆ ☆

حكمت الجزيرة في اوائل القرن الرابع للهجرة -العاشر للميلاد من قبل الدولة الحمدانية في الموصل ، وأيام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عقيل الى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بـن صـعصعة كما أسلفنا الحديث ، وعندمـا ضـعفت الدولة الحمـدانية بعـد سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م سهل القضاء عليها وورثتها دولتان واحدة كردية في الشمال عرفـت بـاسم الدولة المروانية، وأخـرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية ·

استولى في سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م محمد بن المسيب العقيلي على نصيبين وبلد ، ثم ضم بعد سنة الموصل الى املاكه وذلك بعدما قتل الأمير الحمداني أبو طاهر بن ناصر الدولة الحمداني (٢١). واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب ، لكن ما لبثت أن عزلته في سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، وباشر البويهيون حكم الموصل بانفسهم ، لكنهم فقدوها في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م حين تمكن المقلد بن المسيب اخو محمد من الاستيلاء عليها واقامة الدولة العقيلية فيها(٢٢). وظل المقلد بن المسيب يحكم الدولة العقيلية حتى اغتيل في سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م(٢٣) وخلف عقب اغتياله من قبل ابنه قرواش الذي ظل يحكم حتى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حين سجنه اخوه بركة.وحكم بركة قرابة السنة، ثم توفي ، وهنا اجمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران اميرا جديدا، فاخرج قريش عمه قرواش بن المقلد من السجن ودبر قتله.

ولقد كان قرواش بن المقلد من اعظم شخصيات عصره البدوية ، فقد كان اديبا شاعرا، نهابا وهابا على دين الأعراب وجاهليتهم، وقد جمع بين اختين في الزواج، فلامته العرب على ذلك لأنه محرم بالاسلام ، فقال لهم:" خبروني بالذي نستعمله مما تبيحه الشريعة، وكان يقول في مجالسه : ماعلى رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم، وأما الحاضرة فلا يعبأ بها الله " وقد استطاع قرواش أن يقيم علاقات شبه متوازية بين الخلافتين العباسية والفاطمية(٢٤) وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لاول غارة غزية،الأمر الذي سنأتي على ذكره بالتفصيل بعد قليل.

حكم قريش بن بدران حتى سنة ٤٥١هـ / ١٠٦١ م حيث خلفه ابنه مسلم بن قريش اعظم شخصيات الأسرة العقيلية، وعقب مقتل مسلم خلفه اخوه ابراهيم في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ولم يطل حكم ابراهيم فقد قتل في الصراع مع السلاجقة ، وتوزع إمارة الموصل ولدا اخيه محمد وعلي ، وبقي الحال هكذا حتى ازال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائيا في سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م .

ان تاريخ الدولة العقيلية منذ ان استلم امارتها قريش بن بدران حتى يوم سقوطها هو جزء من تاريخ هجرة التركمان الى الجزيرة والشام ، جزء من الصراع العربي السلجوقي للسيادة على هذين البلدين . ولكن قبل ان ناخذ في دراسة هذا الصراع علينا ان نكمل حديثنا عن الوضع السياسي في الجزيرة .

لقد ذكرنا بأن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالاضافة الى الدولة العقيلية الدولة المروانية الكردية ، فلقد سكنت المناطق الواقعة شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الكردية ، وغالبا ماكانت هذه القبائل تغير على الاراضي البيزنطية ، ولقد ظهر بين افرادها عدد من الغزاة الذين تجمع حولهم عصابات خاصة ، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع هـ/ العاشر م ، ولقد استغل باذ ضعف الدولة الحمدانية ثم ضعف السلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي (٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م) فأخذ يقيم لنفسه دولة ، فاستولى على اهم بلدان منطقة ديار بكر ، مثل آمد ونصيبين وميافارقين « ودخل باذ الموصل واستولى عليها ، وقويت شوكته ، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وازالة الديلم عنها ، وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد اصحاب الاطراف » واثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل ، وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان من اهمها واحدة في سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية (٢٥) .

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن اخته الحسن بن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م ، وفي زمن حسن توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر ، وبعيد مقتله خلفه اخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة ، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١١ م وهنا خلفه احمد الذي عرف باسم نصر الدولة .

ويعد نصر الدولة المرواني من اشهر حكام الاسرة المروانية ، وقد

استمر حكمه لمدة زادت على الخمسين عاما ، استطاع خلالها ان يرفع من مكانة الدولة المروانية ، وبالتالي ان يبسط نفوذها حتى على بعض من اجزاء جورجيا الحالية (في الاتحاد السوفياتي) ، ولقد احسن استغلال الموقع الاستراتيجي لديار بكر الذي كان يتحكم بطرق المواصلات والتجارة بين العراق وبلاد المشرق الاسلامي من جهة وبلاد الشام والاناضول من جهة اخرى .

كما تمكن ببراعته السياسية وحكمته الدبلوماسية من المحافظة على دولته وعلى استمرار حكمه بين قوى متعادية قوية كان كل منها يطمح ويسعى للتوسع والسيطرة ، ولقد كانت علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد جيدة ، وكذلك كانت هي الحال مع الامبراطورية البيزنطية، وأيضامع الخلافة الفاطمية حيث كانت العلاقات طيبة مع أن آل مروان كانوا سنة وكانت رعيتهم على العموم شوافع·

لم تكن العلاقات بين الدولة المروانية والدولة العقيلية في الموصل على العموم جيدة ، ومع ذلك فقد جهد نصر الدولة في تجنب الاصطدام المباشر او المستمر مع عقيلي الموصل فتنازل لهم سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م عن مدينة نصيبين كما دفع لهم الجزية لفترة من الزمن · وكانت علاقة نصر الدولة بالدولة المرداسية في حلب طيبة بشكل عام وكذلك كان الحال بالنسبة لعلاقاته بالقوى البدوية الأخرى التي كانت موجودة في الجزيرة كقشير اصحاب قلعة جعبر، وقبيلة نمير أصحاب حران ، ولقد استطاع نصر الدولة التخفيف من أثار مضار هجرة التركمان على بلاده ، فقام بمراسلة طغرلبك واعترف له بالسلطة والسيادة واقام الخطبة باسمه·

وكانت آمد وميا فارقين وحصن كيفا اشهر بلدان الدولة المروانية، فازدهرت في عهد نصر الدولة ازدهارا كبيرا ، وشهدت قيام نهضة ثقافية وتطور اقتصادي عظيم ، ويقدم لنا المؤرخ ابن الأزرق الفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافارقين) صورة جيدة عن هذا الرفاة الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح وأصول عربية واسلامية·

وبعد وفاة نصر الدولة في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م قسمت اراضي دولته ـ كما سيمر معنا ـ بين اولاده ، وبدات قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار والضعف واستمرت أخذة بالاضمحلال شيئا فشيئا حتى تمكن السلاجقة أخيرا من القضاء عليها نهائيا سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م(٢٦) .

☆ ☆ ☆

لقد أتينا في الفصل المتقدم على ذكر التركمان العراقية، كما ذكرنا أن السلاجقة قد فوضوا لطغرلبك ـ بعد نصرهم على مسعود ـ أمر الوصول الى بغداد ،وان طغرلبك عمل على تأمين الطريق الى بغداد والطريق الى ارمينية، وعندما نجح طغرلبك في تأمين هذه السبل أخذت جموع التركمان تتدفق باتجاه العراق وباتجاه أرمينية ، وقد ضغط هذا التدفق على التركمان العراقية ودفعهم نحو الولوج الى ارمينية والتفتيش على مواطن واراضي جديدة ، لهذا توجه بعضهم نحو الجزيرة إما للاستقرار بها أو للذهاب منها نحو الشام ، ويقول ابن الاثير :« في سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ ـ ١٠٤٢م) فارق الغز اذربيجان ، وسبب ذلك ان ابراهيم ينال ـ وهو اخو طغرلبك ـ سار الى الري، فلما سمع الغز الذين بها خبره اجفلوا من بين يديه ، وفارقوا بلاد الجبل خوفا، وقصدوا أذربيجان، ولم يمكنهم المقام بها لما فعلوا بأهلها، ولأن ابراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه... فأخذوا بعض الاكراد وعرفهم الطريق ، فأخذ بهم في جبال وعرة ... وخرجوا الى جزيرة ابن عمر »، ويذكر ابن العميد ان عدد هؤلاء الغز كان « الفا وستمائة وخمسون فارسا ومعهم أربعة أمراء »، وعندما وصلوا الى الجزيرة اتصلت بهم الدولة المروانية وتم بينها وبينهم الاتفاق « في المصالحة والمقام بأعمال الجزيرة الى ان ينكشف الشتاء، ويسير... الغز الى الشام »، لكن المروانيين حاولوا الغدر بالغز ، ونجحوا فقط في أسر أحد مقدميهم واسمه منصور ، وهنا تفرق الغز في انحاء الجزيرة مغيرين على املاك المروانيين واراضي العقيليين ، وتجمعت قوات عقيلية عربية مع قوات كردية مروانية ضد الغز واشتبكت معهم في معركة انجلت عن نصر الغز ،

فازداد عيثهم في الجزيرة ، وتوجهت القبائل العربية البدوية نحو العراق كي تشتوا به» فأخربت الغز ديار بكر ونهبوا وقتلوا ، فأخذ نصر الدولة منصورا أمير الغز...وراسل الغز وبذل لهم مالا واطلاق منصور ليفارقوا عمله، فأجابوه، فأطلق منصورا وارسل بعض المال.

فغدروا وزادوا في الشر، وسار بعضهم الى نصيبين وسنجار والخابور فنهبوا ••• فدخل قرواش الموصل خوفا منهم »، ويبدو من حديث للعظيمي حول هذه الحادثة ان حكم قرواش لم يكن شعبيا في الموصل وان بعضا من أهالي الموصل قد راسلوا الغز وشجعوهم على غزو الموصل وامتلاكها:« فلما راوا ذلك تقدموا الى الموصل فأرسل اليهم يستعطفهم ويلين لهم ، وبذل لهم ثلاثة الاف دينار ، فلم يقبلوا فأعاد مراسلتهم ثانية، فطلبوا خمسة عشر الف دينار، فالتزمها• واحضر اهل البلاد ، واعلمهم الحال، فبينما هم بجمع المال وصل الغز الى الموصل ونزلوا بالحصبا ، فخرج اليهم قرواش وأجناده والعامة • فقاتلوهم عامة نهارهم، وادركهم الليل ، فافترقوا.

فلما كان الغد عادوا الى القتال ، فانهزمت العرب وأهل البلد ، وهرب قرواش في سفينة نزلها من داره ، وخرج من جميع ماله إلا الشيء اليسير ، ودخل الغز البلد فنهبوا كثيرا منه ، ونهبوا جميع ما لقرواش من مال وجوهر ، وحلي وثياب واثاث ونجا قرواش في السفينة ، ومعه نفر، فوصل الى السن واقام بها ، وارسل الى دبيس ابن مزيد والى غيره من أمراء العرب والأكراد يستمدهم ويشكو مانزل به ، وعمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من القتال ، وهتك الحريم ونهب المال ••• فلما استقروا فيها قسطوا على اهلها عشرين الف دينار واخذوها، ثم تتبعوا الناس، واخذوا كثيرا من أموالهم بحجة أموال العرب، ثم قسطوا اربعة الاف دينار أخرى »، وهنا لم يعد باستطاعة اهالي الموصل التحمل اكثر فثاروا بالغز فقتلوا بعضا منهم وقذفوا ببعضهم الآخر خارج مدينتهم ، وعندما حصل هذا جمع الغز جموعهم التي كانت متوزعة في الجزيرة ، ودخلوا الموصل عنوة « ووضعوا السيف في اهله ، واسروا كثيرا ، ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثني عشر يوما يقتلون وينهبون وبقي القتلى في الطريق فأنتنوا لعدم من يواريهم » وطال هذا

الحال بالموصل اكثر من عامين»، وهنا كتب جلال الدولة البويهي الى طغرلبك حول هذا البلاء وكتب اليه نصر الدولة المرواني يشـكو اليه منهم ، فأجاب طغـرلبك بـالاعتذار ووعد بـالعمل على طـردهم وملاحقتهم حتى تنتهـي اذيتهـم وقـال في صـدد ذلك:« إن هؤلاء التـركمان كانوا لنا عبيدا وخـدما ورعايا وتبعـا يمتثلون الأمـر ويخدمون الباب ، .ولما نهضنا لتدبير خطب آل محمود بن سـبكتكين، وانتدبنا لكفاية أمر خـوارزم ، انحـازوا الى الري فعـاثوا فيهـا وأفسدوا ، فزحفنا بجنودنا من خراسان اليهم مقدرين انهم يلجئون الى الامان، ويلوذون بالعفو والغفران ، فملكتهم الهيبة ، وزحزحتهم الحشمة ولابد أن نردهم الى راياتنا خاضعين ونذيقهم مـن بـأسنا جزاء المتمردين ، قربوا ام بعدوا ، أغاروا أم انجدوا »٠

في هذه الآونة كان قرواش قد تمكن أخيرا من جمع جيش عربـي من قبيلة عقيل وامده ال مـزيد وحـكام اسـفل وادي الرافـدين وعشائرها العربية ، فتوجه نحو الموصـل ، فـانسحب الغـز منهـا وجمعوا جموعهم المتفرقة في الجزيرة ، ويبدو ان هذه الجموع كان قد زاد عددها الى درجة كبيرة حتى ان ابن الأثير يروي بانهم اصبحوا ـــ نيفا وثلاثين الفاـ واشتبكت القوات العربية بالغز«فاستظهرت الغز ، وانهزمت العرب حتى صار القتـال عند حللهـم ، ونسـائهم يشاهدن القتال ، فلم يزل الظفر للغز الى الظهر، ثـم انزل الله نصره على العرب،وانهزمت الغز واخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وقتل ثلاثة من مقـدميهم ،وملك العـرب حلل الغـز وخـركاواتهم وغنموا أموالهم » ٠ ولوحق الغز في الجزيرة حتى اضطر مـن نجـا منهم الى الهـرب نحـو الأراضيالارمينية او الأراضيالبيزنطية(٢٧) وسيمر ما يزيد على العشر سنوات قبل أن تطرق الجزيرة مرة أخرى من قبل جماعة كبيرةمن الغـز.وسـيكون الذين سـيطرقون اراضي الموصل من اتباع طغرلبك وذلك أثناء دخول طغرلبك بغداد وسعيه من أجل اقامة الامبراطورية السلجوقية المتحكمة بالخلافة العبـاسية ، والوارثة للاسرة البويهية٠

☆ ☆ ☆

كانت بغداد مع خليفتها في هذه الآونة تحت سلطان امير الأمـراء البويهي وكان اسمه ابو كاليجار، وكان أبو كاليجار هـذا قـد وقـع تحت تأثير الدعاية الفاطمية الاسماعيلية بعد أن اتصل بـه المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بـن مـوسى بـن داود الشـيرازي (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)، ولاعتبارات كثيرة اضطر أبو كاليجـار الى نفي المؤيد في الدين الى ماوراء الفرات حيث تابع سيره نحو القاهرة وفي سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م ــ بعدما توفي ابو كاليجار ــ خلفـه في إمرة الأمراء في بغداد اكبر اولاده أبو نصر خسرو الذي حصـل مـن الخليفة القائم على لقب الملك الرحيم ، ولم يصف الحال للملك الرحيم ونازعه سلطانه في كرمان اخوه فولاستون وفي البصرة اخوه ابو علي، ولايهمنا هنا التبسط بالحديث عن نزاعات البيت البويهي هذه[٢٨] إنما مايهمنا هو أن نلتفت نحو بغداد كي ندرس أحوالها والأسباب التي ادت الى مجيء طغرلبك اليها ، ومن ثم إزالتـه للدولة البـويهية واقامته السلطنة السلجوقية.

من الناحية السياسية لم تكن السلطة في بغداد والمناطق التـابعة لها والمحكومة من قبلها مباشرة في يد أمير الأمراء البويهي فقـط او في يد الخليفة ، بل وجد في بغداد عدةقوى تصارعت على السلطة فيها، ويمكن ــ على العموم ــ تقسيم القوى التي كانت تتصارع في بغداد الى قوتين رئيسيتين ، واحدةعسكرية والأخرى مدنية ، ولقـد مثـل الجانب العسكري ضابط اسمه البساسيري ، ومثل الجـانب المدني ابن المسلمة وزير الخليفة القائم ، ولقد كان البساسيري شيعيا مـن الاثني عشرية وكان ابن المسلمة سنيا حنبليا ، وهكذا ايضا كان اهل بغداد مقسمين بين شيعة اكثرهم اثني عشرية وسنة اغلبهـم حنابلة.

والبساسيري هو ابو الحارث ارسلان التركي ، نسب الى بسـا بلدة بفارس « والعرب تسميها فسا، وينسبون اليها فسوي، واهـل فارس يقولون بسابين الباء والفاء وينسـبون اليهـا البسـاسيري، وكان مولاه رجل من أهل بسا، فنسب الغلام اليه ، واشـتهر بهـذه النسبة »، ولقد بدأ البساسيري حياته كعبد تركي في خدمة الحـاكم

البويهي بهاء الدولة فيروز (٣٨٨ ـ ٤٠٣ هـ / ٩٩٨ ـ ١٠١٢ م) وتدرجت به المناصب حتى أصبح ـ ربما ـ في سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٣٣ م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد ، وفي سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م كان قد أصبح من كبار شخصيات بغداد وهكذا ومع الأيام « عظم شأنه واستفحل أمره ، وقويت هيبته وانتشر ذكره »·

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه مكانة البساسيري ترتفع وسلطته تقوى قام الخليفة القائم بتعيين رئيس الرؤساء ابو القاسم بن المسلمة كاتبا له، وكان هذا سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م،وكان ابن المسلمة « عنده ـ أي القائم ـ في منزلة عالية »، وفي السنة التالية « خلع الخليفة علي ابي القاسم علي بن الحسن بن المسلمة واستوزره، ولقبه رئيس الرؤساء » وكان طبيعيا أن يمارس ابن المسلمة سلطاته ويشارك ـ إن لم يأمر ـ البساسيري، ولاختلاف طبيعة الرجلين وطبيعة منصبيهما وعقائدهما ثم لكونهما من أصحاب المطامح والأهواء كان لابد من حصول اصطدام بينهما ، خاصة وأن الخلافة مع الأسرة البويهية كانتا قد وصلتا الى درجة من الضعف عجزتا فيه عن ان تقيما توازنا بين الطرفين او تسخرهما حسب مصلحة الدولة، ومما ساعد على اتساع رقعة الخلاف بين ابن المسلمة والبساسيري ، الأوضاع السياسية الخارجية التي كانت محيطة ببغداد ، فقد كانت هناك قوة الدولة الفاطمية ومطامحها والمؤيد في الدين داعي الدعاة في القاهرة ، ثم من جهة اخرى كانت هناك القوة النامية الطموحة لطغرلبك السني·

وأثناء الصراع اتهم كل من المتصارعين خصمه بالاتصال بدولة خارجية : اتهم البساسيري ابن المسلمة بالاتصال بطغرلبك والعمل لجلبه لبغداد، وهذا طبعا كان يعني الخروج عن السلطة البويهية وخيانتها ، واتهم ابن المسلمة بدوره البساسيري باتصاله بالقاهرة سرا والتمهيد للاطاحة بالخلافة العباسية ، وفي أثناء أزمة الصراع هذه فتش كل من المتخاصمين عن حلفاء محليين وغير محليين ، فتحالف ابن المسلمة مع قريش بن بدران صاحب الموصل ، لما ملكه

من قوة ، ولما تمتع موقع الموصل بـه مـن اهمية ، ذلك ان اي عمـل فاطمي ضد بغداد كان بامكان الموصل اضعافه إن لم يكن إحبـاطه ، واخذ البساسيري يسعى لايجاد حلفاء لنفسه ، وتوجه بأنظاره نحو بني أسد وزعيمهما دبيس بن علي بن مزيد·

وفي شعبان سنة ٤٤٦ هـ/تشرين ثـاني ١٠٥٤ م« حصر الأمير ابو المعالي قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحهـا ، وخطب لطغرلبك فيها وفي سائر اعمـاله، ونهـب مـاكان فيهـا للبساسيري وغيره ، ونهب حلل اصحابه بالخالص وفتحوا بثـوقه ، فامتعض البساسيري من ذلك »، وفي رمضان من السنة ذاتها قـدم بعض من أصحاب قريش الى بغداد فانزعج البساسيري مـن ذلك ، وقال :«هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل اصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا في اهلاك الناس ، واراد اخذهم ، فلم يمكن منهم »·

وبدا البسايري ينتقم ويعد العدة للتخلص من ابن المسلمة وللتفرد بالتحكم في بغداد ، فكان أول ماقام به ان احتجز سفينة كانت لأحـد أقرباء ابن المسلمة ثم قام بعد فترة وجيزة بـاسقاط « مشـاهرات الخليفة ـ اي رواتبه ـ من دار الضرب ـ اي مركز الخـزانة وكذلك مشاهرات الرؤساء وحواشي الدار »·

وبالطبع لم يقف ابن المسـلمة مـكتوف اليدين تجـاه تصرفـات البساسيري هذه، ولم يلق سلاحه بل تابع صراعه معه ، ففي السـنة التالية ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ م سافر البساسيري الى واسط ، فاستغل ابن المسلمة تغيبه عن بغداد وبدا يعمل على اثارة اهالي بغداد السنة وسواهم ضده ، وقام « جماعة من أهل السـنة ، واظهـروا الامـر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحضروا الديوان وطلبوا ان يؤذن لهم في ذلك وأن يتقدم الى اصحاب الديوان بمسـاعدتهم ، فـأجيبوا الى ذلك »، واخذت هذه اللجنة تمارس عملها ، وصدف « ان ابـا سـعد النصراني صاحب البساسيري حمل في سفينة ستمائة جـرة خمـرا ليحدرها الى البساسيري بواسط »، وسمع جماعة الامر بـالمعروف

والنهي عن المنكر بهذا فتوجهوا فورا في مظاهرة كبيرة مثيرة نحو السفينة ، فكسروا جرار الخمر ، وبصرف النظر عن إراقة ٦٠٠ جرة من الخمر كانت تكلف مبلغا كبيرا من المال وتحبط الكثير من مشاريع الطرب والمتعة، فان هذه الحادثة قد اضرت بالبساسيري وزادت سمعته سوءا،وزادت شقة الخلاف بينه وبين ابن المسلمة اتساعا ، ولم يكتف ابن المسلمة بهذا القدر بل اخذ يعمل على اثارة الجند ضد البساسيري واخذ يتدخل في شؤون العساكر ـ رغم كونه رجلا مدنيا ـ ، فقد اغتنم تأخر وصول بعض ارزاق حامية بغداد ، فنسب ذلك الى عمل متعمد من البساسيري ، واخبر وفدا من الجند جاء يشكو اليه أن البساسيري هو السبب في ذلك وأنه هو الذي يقف وراء مشاكلهم التي يعانون منها ، وقال لهم : إن اموالكم قد اخذها الباسيري وهي محجوزة في داره ، واذا اردتم اخذها فنحن معكم ، فطمع الجند « واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها ، فأذن لهم في ذلك ، فقصدوها ونهبوها واحرقوها ، ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد».

وفي هذا الجو المشحون عزم ابن المسلمة على توجيه ضربته القاضية ضد البساسيري ، فأطلق « لسانه في البساسيري وذمه ونسبه الى مكاتبة المستنصر صاحب مصر » وذلك امام الخليفة القائم ، و« صح عند الخليفة سوء عقيدته ، وشهد عنده جماعة من الاتراك أن البساسيري عرفهم ـ وهو اذ ذاك بواسط ـ عزمه على نهب دار الخلافة ، والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة ابا طالب محمد بن مكيال المعروف بطغر لبك أمير الغز ، وهو بنواحي الري ، يستنهضه على المسير الى العراق »، « وارسل الى الملك الرحيم يأمره بابعاد البساسيري فأبعده »، « وانفض اكثر من كان مع البساسيري ، وعادوا الى بغداد ... ومضى البساسيري على الفرات الى الرحبة » ،« واقبل ... طغر لبك في مائة الف وعشرين الفا من الترك والغز والاعاجم والكرد والديلم وغيرهم من الأجناس فوصل بغداد وهاجمها وقتل منها خلقا عظيما ونهبها » « ولم يترك الترك وردا الا شفهوه ، ولاحسنا الا شوهوه ولانارا الاارشوها ، ولادارا

الا شعثوها ، ولاعصمة الا رفعوها ، ولاوصمة الا وضعوها»، وكان دخول طغر لبك بغداد في أواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ / أواخر كانون الأول سنة ١٠٥٥ م وفر جند بغداد الترك والديلم منها ، وتلاحق خلق كثير بالبساسيري في الرحبة (٢٩).

عندما لحق البساسيري بالرحبة «لقيه معز الدولة ـ يعني ثمال ابن صالح ـ (أمير حلب الذي كانت الرحبة احدى بلدان امارته) وأكرمه ، وحمل اليه مالا عظيما ، وكان قد وصل في قلة » ، ولم يكن اختيار البساسيري لبلدة الرحبة قد تم عن عبث ، فقد كان بامكانه البقاء في العراق في بلاد « نور الدولة دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما» لكنه آثر المضي الى الرحبة لما تمتعت به هذه البلدة من مزايا كنا قد أتينا على ذكرها ، ومن الرحبة اتصل ـ او ربما جدد اتصالاته ـ البساسيري بالخلافة الفاطمية في القاهرة ، ووعد الخليفة المستنصر أنه اذا أرسل اليه مالا كافيا ، فسيقوم بطرد الغز من العراق وبازالة الخلافة العباسية واحلال الدعوة الفاطمية مكانها ، ويذكر المقريزي أن البساسيري قد طلب من الخليفة المستنصر أن يسمح له بالقدوم الى القاهرة لشرح خططه ، لكن أشير على الخليفة المستنصر رفض طلبه هذا ، كما أشار رجال دولته عليه أن يرسل اليه الأموال اللازمة ، وفي سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م « جهز الوزير اليازوري خزائن الأموال على يد المؤيد في الدين لأبي الحارث البساسيري ، بحيث لم يبق في بيوت الأموال بالقصر شيئا الا أخذ لفتح بغداد ». ويذكر المقريزي بأن ٠٠٠ر ٣٠٠ر ٢ من الدنانير هو قيمة ما جهز للبساسيري وأرسل اليه من عين ومتاع ، ولنستمع الى المؤيد بالدين يصف رحلته من القاهرة الى حلب :« وسرت في جلبة عظيمة قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البالغين والحمالين عسكر لو لم يمسني غير عذابهم عذابا لكان فيه مايغني ويكفي ، وكان الناس يتعجبون من أمري ، وقد كان موضع العجب لعمري كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتي من دون أن يتبعني من شيء يسمى العسكر اثنان ... فكان

فيما مثل لي انني استتبع ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين أطأ بهم بلاد ابن صالح وأبلغ بهم الى الرحبة ، فكنت طول المسافة ما بين مصر ودمشق ارتأي في هذا الباب ، فحدثتني نفسي بمنافاته للصواب ، فلما وصلت الى صور واجتمعت مع ابن عقيل ، وجرى بيني وبينه الحديث في مثل ذلك ، وجدت عنده من تهجين ذلك الرأي مثل ما عندي ، ووجدت قصده في التدبير ، بغير ذلك التدبير ، قصدي ، وبلغت الى دمشق ، وعرضته على والي الموضع اخذا بفضل الاستظهار ، فلم يكن الراي واقعا موقع الاختيار ، فحينئذ كاتبت ابن صالح اشعره بالنصبة التي انا مامور بها ، وذكرت انني متوقف عنها تصونا من ان اوطىء اقدام خصومه بلاده ، وامتطي مطية امر ربما ضمن فساده ، واقول له : هل لك في خدمة سلطانك بما يكشف عن اخلاصك غاشية التهمة والظن ، ويغشي عيناك وسن الامان والامن ، وذلك اني اسلم نفسي وهذه الاموال والخزائن كلها اليك ، ولا استظهر الا بمروتك وانسانيتك في حفظي وحفظها عليك ... وكتبت الى الوزير انكر توجهي الى ابن صالح غير مستتبع من الكلبيين احدا ، وان العدول عن نصبة ما مثل من استصحابهم اقرب الى الصواب رشدا ، فقامت قيامته في هذا الباب ، وكاتبني يحذرني من تبديل قوله وتعدي حده ورسمه ، فلم يجد كلامه مني اذنا سميعة ولا نفسا مطيعة »، «وتردد من المكاتبات الكثيرة والمخاطبات الطويلة بيني وبين الوزير نهيا عن المسير الى ابن صالح على غير المثالة التي مثلها ، وابـاء مني له وامتناعا عنه ... وسرت بما صحبني من الاموال العظيمة والسلاح والخيول ، ولقد شققت العصا بالخلاف عليه ، وانا على تخوف مما ينتهي الحال اليه اخشى اكل لحمي ونهش عظمي في سقيفة كلب وكلاب من قبل دخول ترك وتركمان ، فلا ادري بأيهما انا اكثر فرحا بالسقيفة ام بالدار ، وكلاهما محيط به سرادق من نار

وتواعدنا انا وابن صالح على ان يلقاني الى موضع يلي حمص يقال له الروستان (الرستن) على جسر نهر العاصي ، فما زلت اسير عن دمشق مرحلة ، وهو يسير عن حلب مرحلة ، ومعي صليبة

عسكر الشام ، ومعه جمهرة بني كلاب الى ان التقت الفئتان منا ومنهم في المكان المذكور ، فضرب عسكرنا مصافهم على شاطىء الوادي من العدوة الغربية ، ووقف عسكرهم من العدوة الشرقية ، وكان الموقف موقفا عجيبا حسنا ، والناس يظنون الظنون ، ويحسبون حساب ماكان وما يكون ، فسقت جمال الخزائن والاموال والسلاح امامي وسرت في اعقابها على هون وسكينة ووقار ، وسكون ، وابيت ان يمشي بين يدي الا اثنان من الشاكرية (المرافقين) لايحملون بايديهم حديدة ، حتى التقيت بوجه ابن صالح بوجهي ، والقيت عليه السلام في نفسي ، وما يشتمل عليه صحبي ..

ومن الرستن انطلق موكب ثمال بن صالح برفقته المؤيد في الدين ، انطلق هذا الموكب شمالا نحو حلب ، وعند وصوله الى معرة النعمان التقاهم وفد من رجالات البساسيري ومن جنده ، فطلب منهم المؤيد التوجه الى الرحبة لاخبار سيدهم بوصول الامداد ، وما ان وصل المؤيد الى حلب حتى بدا نشاطاته في تأليب جميع حكام وامراء الجزيرة ضد التركمان وتجميع قواهم الى صف قوى البساسيري ، فراسل نصر الدولة المرواني ، وراسل مانع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران وامير قبيلة نمير ، وبعد هذا انحدر الى الرحبة وبرفقته ثمال بن صالح وجموع قبيلة كلاب ، وفي الرحبة التقى المؤيد بالبساسيري واوصل اليه كل ما جلبه من القاهرة ، وهنا اخذ البساسيري بمساعدة المؤيد في تجنيد جيش من العرب البدو والكرد والديلم مع اتراك بغداد ، ويذكر المؤرخ العظيمي ان الجيش الذي جمعه البساسيري قد بلغ خمسين الفا ، وعوضا عن ان يعبر هذا الجيش الفرات نحو العراق فقد لزم شاطىء الفرات مصعدا شمالا ، وبدأت هذه القوات بالضغط على ثمال بن صالح واخذت بتهديده ، فسلم ثمال الى البساسيري بلدة الرحبة وتنازل له عنها ، فاتخذها البساسيرى مقرا وجعل فيها ماله واهله .

ويتساءل المرء هنا لماذا قبل ثمال بن صالح بالبساسيري وسمح له بالدخول الى اراضيه ، ثم لماذا قام بعد ذلك باستقبال المؤيد في

الدين ورافقه الى الرحبة ؟ او لم يرى ثمال في حركة البساسيري تهديدا لوجوده ودولته ؟ يبدو ان ثمال الذي كان بدويا من قبيلة كلاب قد راى في حركة البساسيري ضمانا لحكمه وعونا لدولته ضد الخطر التركماني ، وهذا يعطي تعليلا لما رواه ابن العديم من ان بعض رجالات بني كلاب قد ارادوا القاء القبض على البساسيري عندما جاء الرحبة فارا من العراق فمنعهم ثمال من ذلك ، ولكن لماذا اراد الكلابيون القاء القبض على البساسيري ، هل لمسوا فيه خطرا على سلطانهم ، ام انهم ارادوا القبض عليه باعتباره شخصية سياسية هامة يمكن بيعها للخلافة في بغداد او لطغر لبك بمبلغ كبير ؟ لعل هذا هو السبب وان الكلابيين ارادو تحصيل مبلغ من بغداد ، فان لم يكن منها فمن القاهرة التي كان يمكن ان تساوم على حياة البساسيري . يضاف الى كل هذا ان كون ثمال كان شيعيا وحركة البساسيري كانت شيعية ضد التركمان السنة يمكن ان يكون من الاسباب الهامة التي دفعت بثمال للتورط في الثورة واعمالها .

تابع المؤيد في الدين نشاطه واتصالاته ، فكاتب دبيس بن مزيد امير بني اسد الذي كان قد سافر الى بغداد ، وحاول ان يقيم تسوية مع طغر لبك ، ذلك انه كان يخشى تحريك طغر لبك وتركمانه باتجاه الشام ، لان مثل هذا التحرك كان سيسبب الكثير من المضار ولقد اقنع المؤيد في الدين دبيس بالتخلي عن اتصالاته بطغر لبك وبان ينضم الى معسكر البساسيري . وفي الوقت نفسه انضم بعض امراء عقيل ، وخاصة مقلد ـ الاخ الاصغر لقريش ـ بن بدران ، الى معسكر البساسيري ، والذي دفعهم الى هذا هو خصوماتهم مع قريش الذي اعترف الان بسلطان طغر لبك ، متابعا بذلك السير على محور تحالفه القديم مع ابن المسلمة ، والتصدع الذي اصاب صفوف قبيلة عقيل قد اضعف من مركز قريش واثر على قوته ، خاصة وان العقيليين تابعوا التخلي عنه والانخراط في معسكر البساسيري حيث وجدوا اموالا طائلة وجوائز ثمينة ، واموالا زاهية في مغانم كثيرة ستاتي عند اخذ بغداد ونهب دار الخلافة (٣٠).

يقدم لنا المؤيد في الدين في سيرته لنفسه وصفا مفصلا لكل الحوادث التي وقعت في أراضي الدولة المرداسية أثناء ثورة البساسيري وبزهد شاذ وصوفية غريبة كتب المؤيد رواياته ، فلقد حرص دائما أن يظهر أنه هو ولا أحد سواه كان وراء كل حادث ، وأنه فعل كل شيء بدون تكلف أو مشقة بل كل ما حصل كان بسبب التوفيق الرباني لمبعوث الامام الذي أكرمه بكرامة صنع المعجزات ، كما ألان لنبيه داود الحديد ، ونظرا لهذا الشذوذ وهذه البساطة والسذاجة المتكلفة ينبغي أخذ روايات المؤيد بعين الحذر ومعارضتها على سواها من الروايات قبل قبولها .

بعد أن أكره ثمال بن صالح على التنازل عن الرحبة للبساسيري أكره مرة أخرى على التخلي عن مدينة الرقة لمانع بن شبيب بن وثاب أمير نمير ولقد أغضب هذا التنازل قبيلة كلاب وسبب بعض التصدع بين صفوفها تصدعا سيتطور الى انشقاق القبيلة وتصارعها مما سيؤدي الى إزالة الحكم المرداسي وقطعه مؤقتا من حلب.

بعد ما دخل طغرلبك بغداد ألقى القبض على الملك الرحيم آخر أمير للأمراء من الأسرة البويهية ، ونفاه الى حيث لقي حتفه ، وهكذا زالت الدولة البويهية من الوجود ، وقام مكانها السلطنة السلجوقية ، لكن اركان هذه السلطنة ماكانت لتثبت قبل القضاء على حركة البساسيري ، لهذا تقدم الخليفة في سلخ ربيع الأول ٤٤٨ هـ/١٨ حزيران ١٠٥٦ م «الى السلطان بالمسير الى الشام ، ويبدأ بالرحبة ، ويأخذ البساسيري ، ويعبر الفرات ويقيم الدعوة على منابر الاسلام ، فأمر السلطان العساكر بأن يتجهزوا ويبعثوا ليحضروا خركاواتهم وأولادهم وأهلهم يكونوا بالعراق ويتوجهوا معه الى الشام ، فقالوا : هذه بلاد خربة وليس بها أقوات ولا علوفات ، ولم يبق معنا نفقات ونحن عاجزون عن المقام على ظهور خيولنا ، فكيف إذا جاء أهلنا وخيولنا ودوابنا ، وقد طالت غيبتنا ولا بد من الالمام بأهلنا ونحن نستأذن في العود اليهم ، ونعود حيث يرسم لنا ، فقبض السلطان على جماعة منهم وضربهم وقيدهم

ايامـا ، ثم شفع فيهم فاطلقوا ، وضمن عليهم انهم بعـد المهـرجان يسيرون الى الشام». وفي هذا الخبر دليل على وضع بغداد وعلى ان سلطة طغر لبك على عساكره لم تكن متمكنة او فعالة ويعـود سـبب ذلك الى ان هذه العساكر كانت عبارة عن افراد العشـائر البـدوية الغزية الذين لم يتعوّدوا – ولن يتعودوا –على النظام والأوامر التي ينبغي أن تنفذ دونما مراجعة ، «وقل العسكر ببغداد ومضى اكثـرهم الى خراسان... وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة من العـرب الى البساسيري...وانهم على عزم قصد بغداد». وزادت احـوال بغـداد اضطرابا ونزل الكثير مـن جند طغـر لبـك في بيوت اهـالي المدينة واغتصبوها مع اشياء اخرى ، وقد سبب هـذا وقـوع اصـطدامات كثيرة بين الغز واهالي بغداد مما جعل موقف طغر لبك والخليفـة في غاية التحرج لذلك "استدعى الخليفة رئيس الرؤساء واظهر التنمـر والامتعاض مما عليه الرعية وقال: قد انهـي إلي مـا سـمعته اذني وشاهدته عيني ومن ارتفاع الدعاء ما أنا به مطالب ، هـذا الى مـا اخافه من سريع المكافاة ، وأنا مـن ركن الدين بين قسـمين: إمـا اعتماد الحق واستعمال العدل وانصاف الرعية واعفائهم من كل اذية واعادتهم الى مساكنهم وصيانتهم في معايشهم وأمانتهم في نفوسهم وحراسة اموالهم ، او المساعدة على مفارقتي لهذا البلد وبعـدي عن هذه البدع ، ولا أقل من اعتزالي عنها والتبري عند الله منهـا" وابلغ طغر لبك بقول الخليفة وغضبه فقال: «إن هذا العسكر كثير لا قـدرة لي على حفظه ، وربما بدت منهم أفعال لا أرضاها وسـأتقدم فيمـا يبين أثره ويحسن موقعه».

في هذا الوقت الذي كانت فيه احوال بغداد تزداد سـوءا ، وبنفس الوقت تصبح اكثر ملاءمة للبساسيري قام الأخير بـالاصعاد نحـو الموصل ربما كي يدخلها تحت نفوذه فيحمـي ظـهره عندمـا أحس قريش بن بدران بدنو الخطر منه «بعث الى بغداد...يطلب نجدة ومالا يفرقه في العشيرة» ، «وعزم السـلطان على الخـروج بنفسـه إلى البساسيري فمنعه القائم وقال : اقم وابعـث العسـاكر »، «وجـرد السلطان ابن عمه قتلمش والحاجب الكبير وغيرهما في الفي فـارس

من الأتراك والغز والتركمان ، وعشرة آلاف دينار ومائتي ثوب ليفرقها قريش في بني عقيل ، وخلعه جميلة لقريش وفرس بمركب ذهب ومنجوق ، ولمسلم بن قريش مثل ذلك » ، وسار قتلمش « من بغداد بالغز فنهبوا بلاد العرب وسبوا نساءهم فمالوا إلى البساسيري .... وراسل دبيس بني عقيل الذين مع قريش وبذل لهم العطاء ، وخوفهم ما يؤول إليه أمر العرب مع الغز » فاستجاب العقيليون لدبيس وأخذوا بالتخلي عن قريش والانضواء إلى معسكر البساسيري أولاً وقليلا حتى « بقي قريش في عدد يسير من أصحابه وحاشيته » . وعندما وصلت الحملة الغزية إلى سنجار اشتبكت بقوات البساسيري « فحمل البساسيري ودبيس ومن معهم عليهم حملة واحدة فهزموهم » بعدما «نهلت السيوف من دمائهم كما ينهل العطشان من الماء البشيم ، وقتل منهم الخلق الذي لا يحصى عددا ، ولم يسلم إلا بقية يسيرة أصبحوا شعاعا بددا ، ولولا هجوم الليل لأحاط بصغيرهم وكبيرهم سرادق الويل » ، وكان من جملة من «قتل الحاجب الكبير ، وهرب قتلمش ومن - بقي - معه وغنم البساسيري وأصحابه غنائم كثيرة . وهرب قريش بن بدران ونجا بنفسه نحو الموصل وبعد هذا سار «إلى دبيس ونزل عليه فتكفل بأمره وإزالة الوحشة بينه وبين أخيه والبساسيري ، ولبس قريش خلعة آتية من مصر وأخذ مالا بعث به إليه»(٣١) .

وفي بغداد جاء الخبر الى السلطان طغرلبك بهزيمة قتلمش ومقتل أكثر قواته و« بأن البساسيري دخل الموصل وخطب لصاحب مصر بها » وهنا قرر السلطان أن يقود قواته بنفسه نحو الموصل «وراسل الخليفة في الخروج إلى الموصل فما أمكنه دفعه لأنه دفعه مرات فقال: « افعل ما تراه فنحن ما نؤثر بعدك عنا ، ثم بعث إليه رئيس الرؤساء وهو بالمخيم وقال : إن أمير المؤمنين ما يؤثر خروجك ، واذا أقمت وبعثت العساكر كان أكثر للهيبة ، فقال : قد كان الصواب ان اخرج الى هؤلاء وعسكري متوفر والهيبة قائمة فمنعت فأشير علي بانفاذ العساكر إليهم والمقام ، فجرى ما جرى ، وقد قووا وكثروا ولابد من سيري اليهم قبل أن يتفاقم الأمر » ، وتحرك طغرلبك على رأس

قواته نحو الموصل ، ولم يصلها قبل انقضاء سنة ٤٤٨ هـ ودخول سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٤ م وقبل أن يصل الموصل انسحب منها البساسيري مع قواته وابتعد عنها مقدار عشرة فراسخ ، وعندما وصل طغرلبك الموصل هرب أكثر أهلها منها وعبر إليها «فنزل دار الامارة ، ونزل أصحابه دور الناس وكانت قد خلت منهم ، وكتب السلطان إلى الخليفة يخبره بنزوله الموصل » ثم غادرها « فطالبه العسكر بنهبها – فتمنع – ... فقالوا : إما أن تاذن لنا في نهبه وإلا انصرفنا ، وسأله هزار سب – أحد شخصيات دولته – في حريم المسلمين وأموالهم ، فقال : قد دافعت عنهم وما أطقت ولا بد لهم من اقامة أو عطاء وما معي مال فتمضي الليلة وتخرج من في البلدة إلى معسكرك ليحرزوا نفوسهم ، فأرسل إلى اهل البلد واخبرهم فارتاعوا وخرج من قدر منهم ، وأصبح العسكر فدخلوا البلد فما امسى إلا وهو خراب دارس ».

وقربت قوات طغر لبك من عساكر البساسيري وعسكر الجيشان مقابل بعضهما ، وخشي كل من الفريقين الالتحام في القتال ، وقام الوزير الكندري وزير طغر لبك بمراسلة زعماء القبائل العربية في جيش البساسيري ومعسكره وأخذ « يدس الى القوم دسائس المكر وينصب لهم شرك الغرور بما يؤدي الى تفريق الشمل وتعكيس الأمر ، ويضمن لواحد منهم ولاية الموصل ، و الآخر ولاية البصرة وواسط فأصاب سهم مكره المقتل ، وضرب سيفه منهم المفصل ، ولعب بعقول القوم فعصفت بها عاصفات التفريق والتمزيق » و «جاءت رسل قريش ودبيس الى السلطان يسألان العفو والصفح ويدخلان في الطاعة » ، واراد هؤلاء الرسل أن يساوموا السلطان على البساسيري وعلى حياته فأجاب السلطان « اما البساسيري فالعفو فيه راجع الى امير المؤمنين فإن عفا عفونا » ، وقد أزعجت هذه الاتصالات البساسيري وأخافته فرحل « إلى الرحبة ومعه الغلمان البغدادية ومن تبعه من بني شيبان والأكراد ومقلد وجماعة » .

وعندما أحس طغرلبك بزوال البساسيري خيل إليه أن قضيته باتت بحكم المنتهية ، لذلك قرر أن يهاجم أراضي الدولة المروانية ويخضعها لسلطانه ، لذلك انساح الغز في أراضي نصر الدولة ، فما كان منه إلا أن راسل طغرلبك عارضا اعترافه بسلطانه واستعداده لدفع المبالغ التي تفرض عليه ، ووصل إلى طغرلبك في الموصل « ابراهيم ينال من همذان في عشرين ألف رجل ، فخرج الناس للقائه ولم يتخلف إلا السلطان ، ولما وقعت عينه على عميد الملك ـ الكندري وزير طغرلبك ـ قال له بالتركية : صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلا لذلك ، وإنما يكون الصلح بين النظراء ، ومن هؤلاء الكلاب حتى لايقلع أصلهم ؟ » بعد هذا رضي ابن مروان أن يدفع مبلغ ، ١٠٠ ، ألف دينار للسلطان ، لذا سار السلطان طغرلبك نحو سنجار في طريقه إلى بغداد « ففتحها عنوة وسبى نساءها وأطفالها ونهب أموالها وأحرق جامعها ، ونقضت أخشابها ودرست آثارها ، وقيل أن القتل أتى على أربعة الاف نفس وأكثر وجاف المنزل فارتحل السلطان » نحو بغداد عائدا إليها وقبل عودته « سلم إلى ابراهيم ينال الموصل وأعمالها » .

وبعيد وصول طغرلبك إلى بغداد بقليل طلب أن يسمح له بمقابلة الخليفة ، وبعد فترة قبل الخليفة القائم بمقابلة عبده وسيده الجديد والتعرف إليه لأول مرة ، ويقدم لنا غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء الذي عاصر هذه الأحداث وعاش تفاصيلها وصفا حيا لهذه المقابلة يقول فيه : وجلس « الخليفة جلوسا عاما مشهودا ، وجلس رئيس الرؤساء في صحن السلام واستدعى النقباء والقضاة والشهود والأعيان ... وعميد العراق وحواشي السلطان وبعث إلى السلطان ... واستدعاه إلى دار الخليفة ، فنزل في طيار ـ قارب ـ الخليفة وكان قد زين وأرسل إليه ، وانحدر خواصه في الزبازب ، وعلى الظهر فيلان يسيران بازاء الطيار والعساكر والناس من جانبي بغداد ، ثم قدم له مركب من مراكب الخليفة ، فنفر من الفيلين ، فقدم له من خيله فرس أشهب فركبه وعليه قباء ديباج أسود ، وعمامة مثلثة مذهبة ، ودخل الدار وبين

يديه أولاد الملوك ... وقتلمش ابن عمه واشراف القواد والديلم ونحو من خمسمائة غلام من غلمان الترك والكل بغير سلاح ، فلما بلغ باب دهليز صحن السلام وقف طويلا على فرسه إلى ان فتحله الباب فنزل ودخل ماشيا وتلقاه رئيس الرؤساء ، وكان الخليفة في بيت في صدر البهو وعلى بابه ستور ديباج ، فرفعت وإذا بالخليفة جالس على سرير ارتفاعه من الأرض سبعة أذرع في دست ديباج منقوش وعليه العمامة والقميص المصمتان وعلى منكبه بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب ، فلما رآه السلطان قبل الأرض دفعات كثيرة ، ونصب له كرسي دون السرير لطيف ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : أصعد ركن الدين إليه ، وأصعد معه محمد بن منصور الكندري مفسرا له معبرا عنه ، فصعدا ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل لركن الدين امير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفعلك ، زائد لشغفه بك وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد اليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته في ذلك واجتهد في عمارة البلاد وصلاح العباد ويسر العدل وكف الظلم » ، ثم افيضت بعد هذا عليه الخلع وتوج وخوطب بملك المشرق والمغرب ومنح لقب سلطان فكان أول من منح هذا اللقب رسميا في تاريخ الاسلام ، وبعد أن قبل طغرلبك الأرض عدة مرات سمح له بتقبيل يد الخليفة والمغادرة ، ولكن قبل أن يغادر قيل له : « إن الله تعالى أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك من بعضها » وقصد من هذا أن تزاد أعطيات الخليفة ومخصصاته وصلاحياته ، لكن طغرلبك تجنب أن يعد بأي شيء جديد ملزم .

ولم تطل إقامة ابراهيم ينال في الموصل حيث تركها وقدم إلى بغداد في مطلع سنة ٤٥٠ هـ/آذار ١٠٥٨ م وقد اغضب هذا السلطان وأزعجه فأراد القاء القبض عليه لولا توسط الخليفة واصلاح الحال بينهما حيث عاد ابراهيم أدراجه الى الموصل ، وفي نفسه الحقد والاستعداد للثورة ضد طغرلبك .

ولقد عرف البساسيري مع المؤيد في الدين بوجود خلافات بين ابراهيم ينال وطغر لبك فعملا على استغلال هذه الخلافات

وتوسيعها ،وكان البساسيري قد استغل عودة طغرلبك الى بغداد ثم سفر ابراهيم ينال إليها فجمع قواته قبل سفر الأخير وتحــرك مــن الرحبة شمالا نحو بالس (مســكنة الحــالية) على الفــرات وأعاد الاتصال بقريش بن بدران الذي كان قد فقد الموصل ، فانضم قريش مع قبيلة عقيل اليه ، وكان القصد من تحرك البساسيري نحو بالس الاستيلاء عليها وذلك ضمن خطة مرسومة لتصفية الدولة المرداســية وضم أملاكها إلى الأراضي التي كانت تحكم حكما مباشرا من قبــل الفاطميين في القاهرة.

يروي المؤيد بأن القاهرة قد قــامت أنذذ بــارسال بعض المبــالغ الجديدة الى حلب ، وان ثمال بن صالح قد أعطى هــذه المبــالغ الى اخيه عطية بــن صــالح وطلب منه حملهــا الى الرحبــة ، لكن عطية عوضا عن أن يوصل هذه المبالغ كما كلف قام باحتجازها لنفسـه ، وقد كان لصنيعه هذا اثراً خــطيراً على المؤيد في الدين والبســاسيري واتباعه ، لهذا قرر المؤيد مغادرة الرحبــة والتــوجه الى حلب ، وفي طريقه الى حلب وقبل أن يصلها لقي عطية بن صالح فأصلح أمــوره معه ــ أو هكذا تظاهر ــ ووعده بــاستصلاح شــأنه مــع الخليفــة الفاطمي ،ويقول المؤيد :« ولما كان ثاني يوم التقــائي بــه صــادفت أخاه ثمال بن صالح وقد حشد من حشود عشيرته الكلابية مــن كان استنهضهم الي حلة عطية ليحملها حملا ويلهــب النار فيهــا فتــكا وقتلا ، فتناولته بلسان وعظ صادق موقعا من قلبه ومنطقه ، ونهيته عما هم به نهيا كثر من الصلاح موقعه ودفعت به عن حمى الفريقين دفعا احتمت به حلب واعمالها من الهلكات وأمنت من بغتــات الأذى بمشيئة الله » ، ويستطرد المؤيد في قصــته فيقــول :« ولحــق ابــو الحارث ــ البساسيري ــ على إثــري فنزل ببــالس ٠٠٠٠ ومعــه قريش بن بدران ونخبة وجوه عقيل » ، ويعطي المؤيد سببا لتحــرك البساسيري هذا بأنه قد سبق له ــ أي البســاسيري ــ وطلب مــن نصر الدولة المرواني أن يمنحــه ملجــأ في مملكتــه ، وقبــل أن يأتيه الجواب« قصر باع صبره » فتحرك شــمالا ، ومــا كانت بــالس إلا محطة في طريقه.

عندما يقوم المرء بفحص قصة المؤيد في الدين هذه فحصــا نقــديا يجد بأن المؤيد قد جافى فيها الصدق وقارب التزييف ، فلقد كان هدف البساسيري هو بغداد، وكانت الرحبة احسن قــاعدة له للنجــاح في مهمته ، ذلك انها كانت غير بعيدة عن بغداد ، قريبة مــن الصــحراء الشامية التي كان يمكن استخدامها ملاذا، واهم من هذا كانت نبعا لاينضب من الرجال البداة المستعدين للقتال إذا ما حضر الذهــب ، وكان الذهاب الى الدولة المروانية يعني التخلي عن الثورة ، ولو انه كان فعلا قد قرر التخلي عن ثورته لما صحب معه جنده مع قريش بن بدران وقواته العقيلية ، لهذا يبدو ان تحرك البســاسيري هــذا كان تنفيذا لخطة مرسومة.

يذكر غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء بأن بالس قــد كانت من أملاك عطية بن صالح ، أو بالحري كانت اقطاعا له، ويقدم هــذا سببا موضحا لتحرك البساسيري، وهو : لقد تحــرك البســاسيري وعساكره مع قريش بن بدران وشيوخ عشيرته واتباعهم نحو بالس للاستيلاء عليها ولانتزاعها من الرجل الذي اســتولى على الأمــوال التي أرسلت إليهم من القاهرة، وهنا لابد مــن التســاؤل : لكن لماذا قابل المؤيد في الدين عطية وصالحه وطمأنه ، ثم قابل ثمال ومنعه من القيام بأي عمل ضد أخيه؟ والجواب على هذا السؤال نجده في سياق الحوادث التي تمت بعد الاستيلاء على بالس وادت الى فقدان ثمــال لملكه في حلب

ويتحدث المقريزي عن خطة وضعها الوزير اليازوري لانهاء حــكم ثمال ويقول في ترجمته لثمال في كتابه المقفى التي استقى مادتها كما يبدو – رغم عدم تصريحه – من كتاب بغية الطلب لابن العديم مــؤرخ حلب الكبير ذلك ان المقريزي كان احد رواة هذا الكتاب وممن حاذوا نسخته الأصلية بخط المؤلف :« فلما ولي الوزير الناصر للدين ابــو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المســتنصر لم يرض مــن معــز الدولة بمــا رضــيه منه الوزراء قبله ، ورأى ان الحيلة والخديعة أبلغ فيما يريده ، فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير،

وندب لذلك رجلا من ثقاته ، فسار الى حلب وساس الأمر واحكم التدبير مع كاتب معز الدولة بكثرة ما وعدوه به ومناه الى نزل معز الدولة من القلعة وسلمها الى الامير مكين الدولة أبي علي الحسن ابن علي بن ملهم بن دينار العقيلي نائب المستنصر».

ولاريب في معرفة المؤيد بخطط اليازوري هذه ويبدو انه اراد حين قابل عطية ثم ثمال واجتمع بهما ان يخفي ملامح هذه الخطة مع خبر تحرك البساسيري ذلك ان كشفها كان بدون شك سيزيل الشقاق بين الأخوين ويوحدهما ويوحد جهديهما وقواتهما ضد العدو المشترك ، وبعد ان قابل ثمال المؤيد في الدين عاد ادراجه الى حلب دون ان يتصالح مع اخيه ، وعند عودته تفرقت قواته البدوية كما ان قوات عطية كانت قد تفرقت ايضا ، ومما لاريب فيه ان هذا قد افسح الطريق امام البساسيري لتحركه شمالا ومكنه من الاستيلاء على بالس دونما مقاومة ، ويروي المؤيد في الدين بانه عندما دخل الى حلب وجد الأمير ثمال كان لايزال غاضبا «لما اتفق عليه ما اتفق من خروج اخيه عليه وخيانته له في المال الذي سلمه اليه ، وتقاعد عشيرته عنه لما ارادهم في ساعة العسرة ، وتبرمه بالعسكر العراقي الذين جاوروه لما لقيه منهم من سوء العشرة ، ودعته هذه الدواعي كلها الى ان يورث سلطانه خلد الله ملكه ارضه ودياره ، ويتفيأ ارضه ويسكن جواره ، فكاتبه يستدعي شحنة يشحن بها قطر حلب، ويقضي بها من تسليمها وتسليم قلعتها كل ارب » .

غالبا ما تكون كثرة السذاجة وشدة البساطة في رواية اخبار الأمور السياسية مدعاة للشك والريبة لأنه ليس في التاريخ من تنازل عن حكمه دونما إكراه فعلي وتحت ضغط ظروف ليس فيها امل للمقاومة ، وهكذا ما اظن امر تنازل ثمال عن ملكه تم بهذه البساطة التي رواها المؤيد في الدين الذي كان كبير المسؤولين عن العقيدة الفاطمية التي استخدمت التقية بكثرة وكان لديها لكل ظاهر باطن.

لقد كانت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م سيئة ، لهذا ارسل الخليفة

المستنصر الى الشام جيشا لجبا على راسه الحسن بن علي بن ملهم، ولقد اشتبك هذا الجيش في عدة مواقع مع القوات البيزنطية لانطاكية ، وفي هذه الاثناء جهد ثمال بن صالح في اصلاح ما بين الخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية وايقاف القتال بينهما، فاخفق فعسكرت قوات ابن ملهم في افامية قرب الحدود البيزنطية وليس بعيدا عن حلب

لقد كان لثورة البساسيري وتحركات الغز اثر بالغ السوء على الوضع الاقتصادي في شمالي بلاد الشام ، يضاف الى هذا ان سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ – ١٠٥٨ م كانت سنة جفاف ذات مواسم رديئة، ويعتبر الذهبي هذه الحالة السبب الرئيسي الذي اجبر ثمال بن صالح على التخلي عن امارته . اذن القضية : جفاف ومواسم في غاية السوء مع تدمير للأرض ولما جاء من المحاصيل ، وتوقف للتجارة وحركة القوافل ، والبساسيري وقواته تضغط على حلب من المشرق وابن ملهم وجيشه من المغرب ، وقبيلة كلاب ممزقة منقسمة على نفسها ومتوزعة في البادية وسواها . هذه هي الظروف التي عاش تحت كابوسها ثمال بن صالح عام ٤٤٩ هـ ويمكن ان يضاف اليها سبب اخر هام وهو ان الامبراطورية البيزنطية كانت مشغولة في تلك الأوقات بمشاكلها الخاصة التي نجمت عن هجرة التركمان ، وتوغلهم في الأناضول .

عندما غدت الامور على هذه الصورة التي شرحتها ، سارع الوزير اليازوري لاقتناص فرصة ما أعد له من خطط وما ساعدته الاقدار على انجاحه فارسل ابن عقيل قاضي صور الذي كان انذاك من شخصيات الشام المرموقة وسبق له أن توسط بين ثمال بن صالح والخليفة المستنصر ، أرسله الى حلب للاجتماع بثمال لمحاولة اقتناعه بالتخلي عن حلب مقابل اقطاعه بيروت وعكا وجبيل ، ونجح ابن عقيل في اقناع ثمال ، وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني لعام ١٠٥٨ م ترك ثمال حلب متوجها نحو القاهرة ودخل ابن ملهم مع قواته الفاطمية الى المدينة ، وهكذا دخلت حلب مع شمالي بلاد

بلاد الشام تحت السلطان الفاطمي وحققت حركة البساسيري خطوة نجاح هامة نحو القضاء على الخلافة العباسية ومنع السلاجقة من اقامة امبراطوريتهم ومد السلطان الاسماعيلي على العالم الاسلامي.

ويبدو ان مجيء جيش ابن ملهم الى الشام قد خدم اكثر من غرض ، فبالاضافة لاشتباكاته مع بيزنطة وأخذه لحلب ، لاشك ان وجود هذا الجيش في شمالي بلاد الشام كان يقدم حماية ومساندة لحركة البساسيري ، وكان بامكانه تقديم النجدة والمساعدة حين الطلب وأثناء الحاجة ، هذا وكان في تحرك البساسيري شمالا فوائد كثيرة اضافة للقضاء على الدولة المرداسية اذ كان يجعله قريبا من ابراهيم ينال لاستعادة الموصل منه ، ولتوسيع الخلافات بينه وبين طغرلبك .

ويبدو مما رواه الخطيب البغدادي الذي عاش هذه الأحداث أن ابراهيم ينال عندما ترك بغداد راجعا نحو الموصل تبعه اخوه طغرلبك « وكان البساسيري راسل ابراهيم يشير عليه بالعصيان لأخيه ويطمعه في الملك للتفرد به ، ويعده بمعاضدته ومضافرته عليه ، وارسل ابراهيم ينال... رسولا من الموصل الى... ابي الحارث البساسيري وقريش بن بدران... وهما يومئذ في ... بالس بأن أسوق ـ انا المؤيد في الدين ـ اليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية الفاطمية من الأموال الجزيلة والخلع والالقاب والالوية حتى يبطش بطغرلبك البطش الشديد الذي يهد قوته ويطفي نائرته ، فتصير جميع ممالكه في قبضته وحوزته ويكون هو ملكها ، وعلى أن تكون الخطبة لنا بالخلافة والامامة مقدمة على خطبته.

وأثناء سير السلطان خلف ينال نحو الموصل القي القبض على أحد الجواسيس الذي كان يحمل رسائل متبادلة بين ينال والبساسيري ، وعلم ينال الخبر فتحرك لفوره مع « قطعة عظيمة

من الجيش الى همذان ، ولم يشعر السلطان لانه كان بعيدا عنه ، ولما علم سار فعدا خلفه خوفا أن يسبقه الى همذان وبها حال التركمان فيملكها ويأخذ من همذان ما بها من خزائن السلطان وأمواله وسلاحه.



اما وقد خلت الجزيرة الآن من التركمان فقد تحرك على الفور قريش بن بدران يسانده البساسيري نحو الموصل فاستعادها، «ولما تمهد امر قريش بالموصل رجع البساسيري الى مركزه بالرحبة» ، وفي الرحبة «علم ان بغداد فريسة لمن طلب وقبضة لمن رغب فزحف اليها بالرايات المستنصرية ، وصادف منها ارضا تعج الى الله تعالى من ظلم التركمانية» ، ودخلت طلائع البساسيري بغداد يوم الجمعة السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ /٢٥ كانون اول ١٠٥٨ م ، «ثم دخل البساسيري بغداد يوم الاحد ثامن ذي القعدة ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطئ دجلة ونزل هناك والعسكر معه ، واجمع اهل الكرخ (وكانوا شيعة) والعوام من اهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري، وكان قد جمع العيارين واهل الرساتيق وكافة الذعار واطمعهم في نهب دار الخلافة ، والناس اذ ذاك في ضر وجهد قد توالت عليهم سنون مجدبة والاسعار غالية والاقوات عزيزة» ، وحالما دخل البساسيري بغداد امن لنفسه السيادة على نصفها الغربي حيث كان اكثرية سكانه شيعة ، وحتى يكمل فتحه لبغداد والسيطرة عليها كان عليه ان يجتاز دجلة الى الجانب الشرقي حيث قامت دار الخلافة التي كانت عبارة عن شبه مدينة ، وقد قام الخليفة القائم بترميم آسوار هذه المدينة وبتحصينها ، وشحنها بالرجال والسلاح ، ولمدة عشرين يوما حاول البساسيري العبور الى الجانب الشرقي ولكن دونما نجاح وكان «القتال في كل يوم يجري بين الفريقين في السفن بدجلة» ، واخيرا ضعف اعوان الخليفة وتمكن البساسيري واتباعه من العبور الى الجانب الشرقي «واحاطوا بدار الخلافة فنهب ما لايقدر قدره» ، واثناء سقوط دار الخلافة ونهبها ارسل الخليفة الى قريش بن بدران كيما يقوم بتسليم نفسه اليه ثم قرر ان يتوجه بذاته اليه «فركب وعليه السواد وعلى كتفه البردة وبيده سيف مجرد ، وعلى راسه اللواء والهاشميون حوله والجواري حاسرات ناشرات الشعور معهن المصاحف على رؤوس القصب وبين يديه الخدم بالسيوف المسللة» ، وعندما وصل الى

الساحة الكبرى لدار الخليفة وجد قريش بن بدران هناك ، فنادى رئيس الرؤساء ابن المسلمة قريش وصاح ،» يا علم الدين امير المؤمنين يستدنيك ، فدنا...فقال: قد آتاك الله رتبة لم ينلها امثالك وأحللك منزلة لم يحلها اشكالك ، فان امير المؤمنيين يستذم منك على نفسه واهله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العرب ، فقال قريش قد اذم الله له ، قال: ولي ولمن معه ، قال: نعم وخلع قلنسوة من تحت عمامته واعطاها ذماما للخليفة ، واعطى مخصرته لرئيس الرؤساء ذماما...ونزل الخليفة ورئيس الرؤساء الى قريش وحصلا معه ، فقبل قريش الأرض دفعات...وبلغ البساسيري ، فأرسل اليه يقول: أتذم لهما وقد استقر بيني وبينك ما استحلفتك عليه ، وكانا عند انحدارهما قد تحالفا ان لا ينفرد أحدهما عن الأخر بشيء ، ويكون العراق بينهما نصفين فقال قريش: ماعدلت عما أستقر بيننا ، عدوك ابن المسلمة ، يعني رئيس الرؤساء، فخذه وأنا أخذ الخليفة ، فرضي بذلك" ، «وخرج الخليفة معه – قريش – من الدار راكبا وبين يديه راية سوداء ، وعلى الخليفة قباء أسود وسيف ومنطقة ، وعلى راسه عمامة تحتها قلنسوة...وضرب قريش للخليفة خيمة...فدخلها...وماشى البساسيري وزير الخليفة أبا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري قابضة على كم الوزير «وهو يقول له: «مرحبا بمدمر الدول ، ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد » ، واعتذر أبن المسلمة للبساسيري وسأله العفو والغفران لكن البساسيري رفض قبول معاذيره وقال له :« قد قدرت فما عفوت وانت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبق على الحريم والأطفال والأموال ، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف وقد اخذت أموالي وعاقبت حرمي ونفيتهم الى البلاد والقلاع واعتقلتهم فيها وقتلت أصحابي ودرست دوري وسبيتني وابعدتني وفعلت تلك الأفاعيل » وحاول الناس (العامة) تخطف ابن المسلمة ليقتلوه فمنعهم البساسيري ونقله الى حيث سجنه.

أما الخليفة الذي انزله قريش في خيمة بين اتباعه فقد لحقه «ذرب عظيم فامتنع من الطعام والشراب ، فسأله قريش وألح عليه حتى

اكل وشرب وفي يوم عرفة (٩ ذي الحجة سنة ٤٥٠ هـ) «أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به، وحمل الى الانبار ومنها الى حديثة عانه على الفرات، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي» العقيلي الذي كان ابن عم لقريش بن بدران.

وعندما استقرت الأمور للبساسيري في بغداد قام بايقاف الخطبة للخليفة العباسي واحل محلها الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي، وضرب دنانير جديدة باسم المستنصر، وبهذا كان البساسيري قد قام بالغاء الخلافة العباسية وازالها من الوجود، وبذلك حققت الدعوة الفاطمية الاسماعيلية غاية امانيها ووصلت رقعة دولتها الى اقصى حدودها، ولقد كانت فرحة القاهرة بماتم لاتوصف، وفي بغداد لم تتوقف احتفالات البساسيري ايضا وذلك في سبيل اظهار سطوة الحكم الجديد وقوته فبعد نفي الخليفة بايام جيء بابن المسلمة واخرج من تحت العذاب فوضع «على جمل وطيف به في محال الجانب الغربي – من بغداد، ثم صلب حيا ... وجعل في فكيه كلوبان من الحديد وعلق على جذع فمات»

ولم يزل الخليفة في محبسه بحديثة عانه الى ان ظفر طغرلبك باخيه ابراهيم ينال وقتله، وقد تم هذا على النحو التالي: فعندما لاحق طغرلبك ابراهيم ينال وصل قبله الى همذان وكانت القوات التي معه قليلة لذلك عندما وصل ينال الى همذان اخذ بحصار هذه المدينة وطال الحصار وامتد، وفي هذه الأثناء كانت زوجة طغرلبك قد تمكنت من جمع بعض القوات التركمانية وتوجهت بها نحو همذان لفك الحصار عن زوجها، وفي الوقت نفسه استنجد طغرلبك بألب ارسلان ابن أخيه جغري بك، فخف بما لديه من قوات نحو همذان، والتقى ابراهيم ينال بهذه القوات واشتبك بقتال مرير معها نجم عنه هزيمة قواته ووقوعه بالأسر، وجلب ينال بعد أسره الى طغرلبك فقام بخنقه بوتر قوسه، وحالما حصل هذا قرر طغرلبك التوجه بقواته نحو بغداد لطرد البساسيري منها ولاحياء الخلافة

العباسية . وكاتب طغر لبك مهارش وطلب منه ان يجلب الخليفة اليه ووعده وتوعده ، فقام مهارش بأخذ الخليفة معه وتوجه به نحو طغرلبك الزاحف بجيوشه نحو بغداد ، ويبدو أن البساسيري كان قد أراد أن يبعث بالخليفة الى مصر لكن سجان الخليفة العقيلي رفض تسليمه اياه لارساله الى مصر .

وعندما وصلت اخبار انتصار السلطان طغرلبك على أخيه ومن ثم زحفه نحو بغداد ، الى البساسيري، قام بترك بغداد والتحق بحلة دبيس بن مزيد أمير بني أسد وأخذ يحضر نفسه للعبور الى الرحبة ، لكن ما أن وصل السلطان طغرلبك بغداد حتى أرسل بعضا من قواته لمطاردة البساسيري ومنعه بنفس الوقت من العبور الى الشام ، ونجحت قوات طغرلبك في مهمتها هذه حيث لحقت بالبساسيري فقتلته وعندما جيء بجثته الى السلطان وجد «في جيبه خمسة دنانير فدفعها السلطان الى من قور رأسه واخرج مخه ، ...فترك على قناة وطيف به – في بغداد – وضربت بين يديه الدبادب والبوقات وعلق مدة ثم حمل الى خزانة الرؤوس.

لم تتجاوز الفترة التي سيطر بها البساسيري على بغداد ايام سنة هجرية واحدة ، وعاد الخليفة الى داره المشعثة وعاصمته المهدمة بعد سنة سجن (٣٢) ، وبالقضاء على حركة البساسيري تم لطغر لبك ارساء قواعد الامبراطورية السلجوقية ، ولقد نجم عن اخفاق ثورة البساسيري وقيام العهد الجديد نتائج على غاية من الخطورة ، فقد طويت الآن صفحة من تاريخ العرب والاسلام وبدأت واحدة جديدة ، وهكذا يمكن اعتبار سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م سنة فاصلة في تاريخ الاسلام ، ويمكن ايضا اعتبار مقتل البساسيري من الأحداث ذات الأثر الحاسم بالنسبة للدين الاسلامي وخاصة الجانب الفكري والحضاري منه ، وليس من المغالاة أن يطلق المرء على الفترة التي سبقت مقتل البساسيري وقيام الامبراطورية السلجوقية بكل ما لها وما عليها اسم «فترة الحرية» والفترة التي تلتها اسم «فترة الحتمية».

لقد كان السلاجقة سنة متعصبين لسنتهم وكان لهم طرقهم الخاصة للدفاع عن السنة ولجلب الناس إلى حظيرتها ، وغالبا ما اعتمدت هذه الطرق على العنف والقمع والتهديد بالموت ، ونادرا ما اتخذت من الحجة والاقناع وسيلة ، وقبل الاستطراد بهذا مفيد أولا أن نتذكر بأن القسم الأعظم من العالم الاسلامي كان حتى وفاة البساسيري يدين معظمه إما بإحدى عقائد الشيعة او كان يخضع لحكم او لنفوذ إحدى الدول الشيعية ، ولقد كانت الدولة الفاطمية هي اعظم القوى العقائدية والسياسية للشيعة وكان القضاء على ثورة البساسيري انحسارا للمد الشيعي وبداية حاسمة للعودة نحو السنة ، ولا تكمن القضية في أمر انتصار السنة على الشيعة وإنما في الطرائق التي استخدمت ومكنت من هذا الانتصار

وأمر الصراع بين الفكر السني والعقيدة السنية من جهة والحركات الشيعية من عقائد وافكار من جهة أخرى هو ليس بالجديد في التاريخ الاسلامي ، وقيام الثورات الشيعية والقضاء عليها امر عادي ايضا في تاريخ الاسلام ، إنما الجديد هو نوع الملاحقة المستمرة التي لقيتها الحركات الشيعية منذ الآن فحولتها من حركات ذات أهداف توسعية ، وبرامج ذات نظرة شاملة ، إلى طوائف همها المحافظة على ماالديها من مكاسب ، وغدت الأفكار والعقائد التي كانت جزءا من برامج للنشر على الناس قاطبة عبارة عن أشياء محاطة بأطواق من السرية المميتة ، ولعل ما أصاب العقيدة الاسماعلية بعيد القضاء على ثورة البساسيري بفترة وجيزة كاف للتدليل على هذا، فلقد قامت حركة جديدة بين الاسماعيلية اسسها حسن الصباح الذي اتخذ من قلعة الموت مركزا له ، ولقد تبنت هذه الحركة ـ للانتصار والانتشار وللقضاء على اعدائها ـ عقيدة الاغتيال السياسي بواسطة المدية ، وعملية الاغتيال السياسي هي وسيلة دفاعية لاتلجأ إليها الحركات ذات الاهداف الثورية التوسعية ، وكل حركة ذات طابع دفاعي هي حركة منكمشة تزول بزوال خط الدفاع وبتحطمه .

ولقد أنتج الصراع بين السنة والشيعة في السابق نتاجا ثقافيا له

قيمة حضارية كبيرة ، ولكن السلاجقة الآن تخلوا عن قرع الحجة بالحجة واتخذوا السيف ، وبنفس الوقت اقاموا المدرسة النظامية في بغداد وكان لهذه المدرسة فروعا في اغلب اصقاع وبلدان الامبراطورية السلجوقية ، ولقد ارتبطت المدرسة النظامية بالدولة ووجهت من قبلها ، وقامت بتخريج علماء بثوا افكارها ونشروها ، وطبيعي أن هذا شيئا خطيرا جديدا في تاريخ العقيدة الاسلامية ، فقد اعتادت هذه العقيدة منذ قيامها على إقامة الدول وتوجيهها ولم تحتج قط إلى مساندة حاكم او صاحب نفوذ كي تنتشر ، اما الآن وقد أخضعت لتوجيهات الدولة (دولة اوتوقراطية عسكرية) بشكل منظم ومنهج ومدعم بقوة السلاح فهذا امر خطير ، صحيح انه مكن من جعل معظم الشيعة سنة (وكان هذا سيتم حتما إنما بوقت أطول) لكنه الآن وقد تم بهذه الوسيلة فإن ماجره على السنة كان فادح الثمن ، لقد تحولت السنة نفسها بعد حين إلى طائفة كبيرة أغلق فيها باب الاجتهاد ، فزال الابداع من بين صفوفها واختفى أعلام الفكر الكبار ، وكم كان الامر خطيرا أن تفقد السنة حيويتها وإبداعها وتنقلب إلى محافظة وقياس بحت وتتحول كتبها إلى شروح وحواشي ليس أكثر .

القضية بالغة الخطورة فمازال العالم الاسلامي يعيشها ، لذا يكفي هنا للبرهنة سوق المثالين التاليين فقط : في سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م ، اي قبل أن يدخل طغرلبك بغداد ، « وقف طغرلبك السلجوقي على مقالات الأشعري ... فأمر بلعن الأشعري على المنابر » ، « فضج من ذلك ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وعمل رسالة سماها شكاية اهل السنة لما نالهم من المحنة ، وقال فيها : ايلعن إمام الدين ومحي السنة ؟ ! وحاول عدد أخر من علماء المسلمين إيقاف عملية اللعن هذه فأخفقوا» (٣٣) .

عاش أبو العلاء المعري قبل وفاته سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م في معرة النعمان التي كانت من أملاك المرداسيين الذين اعترفوا

بالخليفة الفاطمي ، وبشر المعري في المعرة بفلسفته وأفكاره ، وكتب وقال ما أراد دون خشية أو خوف ، ولم يحاول واحد من معاصريه الضغط عليه أو تهديد حياته باستخدام العقوبة أو السيف ضده ، حتى المؤيد في الدين داعي الدعاة (أي السكرتير الأول للحزب الفاطمي) الفاطمي فإنه رغم معرفته بأن أفكار المعري تعارض آراء العقيدة الفاطمية لم يحاول أبدا استخدام العنف معه ، ولم يوح به ، رغم أنه كان يستطيع فعل ذلك ، والذي فعله المؤيد هو اتباع الوسيلة الجدلية وقرع الحجة بالحجة بالمناقشة ، ولقد وصلنا العديد من الرسائل التي تبادلها المعري والمؤيد بينهما ، هذا وإن جميع الذين قالوا بتكفير المعري او زندقته لم يكونوا من معاصريه بل كانوا جميعا ممن جاء بعده ، أي كانوا من نتاج عصر الحتمية عصر النصر السلجوقي والمدرسة النظامية) (٣٤).

ويجدر بنا أن ننهي هذا الفصل بنهاية سلطنة طغرلبك فبعد أن عاد إلى بغداد وأعاد إحياء الخلافة العباسية ، شعر أنه لم يبق أمامه من القوى مايخشى ، وأن ما بقي عليه هو التوجه إلى الشام لاخضاعه ومن ثم إلى مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية ، لكنه قبل أن يقوم بهذا أراد أن يرفع من مكانة نفسه ، ويزيد من نفوذه وسيطرته ، فبعد أن قابل الخليفة العباسي طلب من الخليفة الزواج من ابنته ، والخليفة العباسي ذلك الانسان المتحضر كان مهما علت نظرته إلى طغرلبك ومهما خافه وهابه ، كان يعتبر طغرلبك بدويا شبه متوحش وحديث عهد بالنعمة ، ولايعدو عبدا من عبيد الخلافة العباسية وجندها ، وهو قبل كل شيء كان أعجميا لايمت إلى العرب وقريش وبني هاشم بصلة ، لذا كان زواجه بابنة الخليفة أمر لايكاد العقل يتصوره ، ورغم كل هذا فلقد استجاب الخليفة ـ بعد ضغوط شديدة ومعاتبات وتهديدات واسعة ووعود ـ مكرها لطلب طغرلبك الذي كان قد جاوز السبعين من عمره فوافق على زواجه من ابنته التي كانت لم تكن تتعدى بعد العشرين من عمرها ، وليت أن الأمور قد توقفت عند هذا الحد ، فالخليفة الذي وجد أن الزواج أمر لابد منه أراد أن تتم مراسيم هذا الزواج حسب التقاليد الاسلامية العباسية

وفي مدينة بغداد ، لكن طغرلبك رفض ذلك واصر على ان يتــم الزواج في أصفهان وحسب الأعراف والتقاليد التركية ، ومرة أخرى رضخ الخليفة وأذعن لرغبة سيده « وعبده » طغرلبك فــأرسل ابنتــه إلى أصفهان ، ولم ينجم عن هذا الزواج شيئا فقد كان طغرلبك بالاضافة إلى تقدمه بالسن عقيما ، كما أنهُ كان وقت الزواج عليلا لذا لم ينعم بابنة الخليفة طويلا ، فبعد ثلاثة او اربعة اشهر توفي طغــرلبك وكان ذلك سنة ٤٥٥ هـ /١٠٦٣ م ، دون أن يتــرك وراءه ولدا يخلفــه في السلطنة ، وبموت طغرلبك برزت مشكلة خلافته إلى الوجــود ، غير أن هذه المشكلة حسمت بتولي الب ارسلان ابــن أخيه جغــري بــك السلطنة ، ويعد الب ارسلان من أعظم الحكام وأشهرهم في التاريخ الاسلامي وهو مع ابنه ملك شاه كانا أعظم ســلاطنة بني ســلجوق على الاطلاق (٣٥) .



الفصل الثالث

الاجتايح السلجوقي للجزيرة والشام

ابن خان . الناوكية . حملة الب ارسلان على الشام والجزيرة . اتسز . تتش بن الب ارسلان . مسلم بن قريش وسقوط الدولة المرداسية . حملة ملك شاه على الشام والجزيرة

وكان من عجائب الزمان أن انطاكية خربتها زلزلة عظيمة قبل فتحها (من قبل الفرنجة) بمدة أربع سنين ، وسقط من سورها عدة أبرجة .

حكى القاضي حسن بن الموج الفوعي قال : كنت قد هربت من المجن (بركات بن فارس الفوعي رئيس أحداث حلب في زمن رضوان ابن تتش) ووصلت إلى انطاكية وخدمت بها الأجل مسعود وزير يغي سغان (أمير انطاكية) فتركني على العمارة ، قال : فعدنا إلى ما قد أخربته الزلزلة من السور فعمرناه ، فعاد أحد الأبرجة هبطا وعاب ، فأشير علينا بنقضه ، وأن يقرر أساسه ، فهدمناه ، ونزلنا على آخر دمس في أساسه ، فوجدنا جرنا قد انكسر عليه طابق عظيم فكشفناه ، فوجدنا فيه سبعة أشخاص من نحاس على خيل من نحاس على كل واحد ثوب من الزرد معتقلا ترسا ورمحا، قال : فعرفت الأجل مسعود بذلك ، فنفذ ثقته فأخرج الأشخاص وكشف ما تحت

الجرن فلم يجد شيئا سواها ، فحمل الأشخاص إلى الوزير ، فأخذها واحضرها إلى مجلس الامير يغي سفان ، فقال بعض الحاضرين : لو أحضر الأمير من مشايخ المدينة من يكشف له حقيقة هذا الأمر ، فتقدم بأحضار جماعة وابرزت إليهم الأشخاص ، وقيل لهم : تعرفون ما هذه الأشخاص ؟ قالوا : ما نعرف بل إننا نحكي للأمير ما يقارب هذا الأمر ، لنا دير يعرف بدير الملك واسع الهواء غاب علينا في سنة سبع وسبعين واربعمائة ، فتكسر اكثر خشبه ، فنقضناه وتطلبنا له خشبا بمقداره فلم نجد بأنطاكية وبلدها شيئا ، فأشار علينا بعض الصناع بتقديم الحائط فحفرنا اساس الحائط الجديد ، فلما انتهينا إلى أسفله وجدنا أشخاص اتراك من نحاس في اوساطهم القسي والنشاب فلم نحفل بذلك ، وعمرنا الحائط ، فما مضى لنا غير مدة قصيرة حتى سرق المدينة سليمان بن قتلمش في أول شعبان سنة سبع وسبعين واربعمائة في اربعمائة غلام أو دون ، وملكنا كما سمع الأمير ، وهذه الأشخاص ربما كانت من أمة هذه اشكالهم من العرب أو غيرهم من المسلمين ، ووروا عن خبر الفرنج وكان قد وصلهم عنهم اخبار شاذة وما يجسر احد يفوه بها ، فشتمهم يغي سفان اقبح شتم وقال : يا كفار في الأرض غير الأتراك وامر بإخراجهم ، فما حال الحول حتى قيل الفرنج قد نزلوا القسطنطينية (١).

عندما تعرضت الموصل لأول غارة غزية في تاريخها ، وصلت اصداء هذه الغارة إلى حلب التي كانت تحكم أنذاك من قبل ثمال ولقد سجلت هذه الأصداء في شعر ابن ابي حصينة شاعر ثمال بقوله

أموا وهموا بالورود فراعهم
من دونه هذا الهمام الأروع

من مبلغ الأتراك ان امامهم
بحرا يغرق موجه من يشرع

وتيقنوا ان الشام واهله
أحمى بلاد الخافقين وامنع (٢)

كان الغزاة الجدد بالنسبة لابن أبي حصينة أتراكا فكروا بغزو الشام ، لكنهم تراجعوا عن القيام بذلك بسبب قوة ثمال ومتانة حكمه وطبعا الشعراء كما هو معروف «يتبعهم الغاوون» ، فقد سقط ثمال وزال حكمه كما رأينا نتيجة لدخول الغز بغداد وتسلمهم زمام الأمور بها .

بعيد مقتل البساسيري قام عطية بن صالح بالاستيلاء على بلدة الرحبة وحاز على جميع ما تركه البساسيري فيها ، وتمكن في تلك الأثناء محمود بن نصر بن صالح من الاستيلاء على حلب

وطردا لنائب الفاطمي منها ، ولما عجزت الدولة الفاطمية عن استعادة حلب طلب الخليفة المستنصر من ثمال بن صالح مغادرة القاهرة وعينه مرة جديدة أميرا على حلب ، وعينه مرة جديدة أميرا على حلب ، ولقد استطاع ثمال بعد عناء دخول حلب يوم الاثنين ٢٩ ربيع الأول عام ٤٥٣ هـ ٢٣ نيسان ١٠٦١ م ، فأستأنف أمارته فيها وجدد حكم الأسرة المرداسية في شمالي بلاد الشام . لكن حكمه هذه المرة كان قصيرا ، ففي ١٣ ذي القعدة من العام التالي ٤٥٤ هـ ١٨ تشرين ثاني ١٠٦٢ م توفي ثمال ، وخلفه - بناء عل وصيته - أخوه عطية بن صالح في إمارة حلب (٣) . لكن ذلك لم يرض محمود بن نصر فقام ينازع عمه على الأمارة .

تبعا لابن العديم لم يدخل أحد من الغز بلاد الشام حتى بعد وفاة ثمال بن صالح ، وذلك اثناء الصراع الذي تبع وفاته من أجل حكم حلب بين أخيه عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر الذي ثار ضد عمه مدعيا بانه أحق من عمه في حكم حلب ، وقام محمود بجمع قبيلة كلاب حوله وتوجه على راسها نحو حلب ، وفي رجب سنة ٤٥٥ هـ/تموز ١٠٦٣ م حاصر محمود وقواته الكلابية مدينة حلب في محاولة لاستحواذها وانهاء حكم عطية واحلال نفسه محله .

ويبدو أن عطية بن صالح كان اقل مكانة من سواه من اخوانه في قبيلة كلاب ، لذلك أيد الكلابيون ابن اخيه ضده ، ولكن عندما حاصر الكلابيون حلبا هذه المرة ، كان الزمان الذي احتجزت فيه قبيلة كلاب القوة المؤثرة والكلمة الفصل في المنازعات من أجل سيادة شمال بلاد الشام قد ولى إلى غير عودة ، فقد كانت المنطقة وما جاورها تموج بقوى الغز الجديدة ، وستكون الكلمة الفصل منذ الآن لهذه القوى ، وكان الآن بإمكان عطية وسواه الاستغاثة باحدى مجموعات الغز ودعوتها لمساندته ، وهذا ما حصل .

عند اشتداد الحصار على عطية وجه الدعوة الى احد زعماء التركمان الذي عرف باسم ابن خان ودعاه للقدوم إلى حلب ، وكان ابن خان مقيما في الجزيرة ، وما أن وصلته دعوة عطية حتى تحرك مع اتباعه نحو حلب ، لكن ما أن وصلت أخبار تحركه هذه الى محمود بن نصر واتباعه الكلابيين حتى سارع معهم للعمل على فك الحصار عن حلب ، وتحرك عطية بسرعة فطلب من ابن خان عدم متابعة سيره نحو حلب ، كما قام بصنع نوع من المصالحة مع ابن اخيه محمود بن نصر ، وهكذا لم يدخل أحد من التركمان حلب هذه السنة .

ولقد كانت هذه التسوية التي تمت بين عطية ومحمود تسوية مؤقتة تمت تحت ضغط ظروف استثنائية ، ففي الأسبوع الأول من شهر أيار للعام التالي (١٠٦٤ م) تحرك محمود من جديد ضد عمه واستولى على حماة ومعرة النعمان مع حصن كفر طاب ، ثم قاد قبيلة كلاب نحو حلب ، ولقد اخفق عطية في صد محمود وقواته ، ووقعت حلب تحت الحصار ، وكان الحصار حصارا قاسيا أجبر عطية على تجديد استغاثته بابن خان واتباعه من الغز ، واستجاب ابن خان لطلب عطية وجاء نحو حلب ، ودخلها ، ولقد سبب قدومه ودخوله إلى حلب انسحاب محمود مع قواته الكلابية ، وهكذا تحرر حكم عطية من الخطر الكلابي ولكنه وقع في الوقت ذاته تحت خطر جديد اشد مما تقدمه سيكون حتفه على يديه .

وما ان دخل ابن خان حلب حتى بدا على الفور يباشر سلطانه عليها وعلى جميع شؤون الامارة ، ولم يسترح اهالي حلب للسادة البداة الجدد ، وكره احداث حلب الغز الذين بداوا ينازعونهم سلطانهم التقليدي ويعملون لازالتهم من الوجود ، وعطية نفسه وجد انه اخذ يفقد سلطته كأمير ، لذلك سارع لاقامة صلح جديد مع ابن اخيه محمود ، تقاسم على اساسه معه اراضي الامارة ، ، وبدا عطية بعد هذا يعمل للتخلص من ابن اخيه واتباعه وتوجه نحو الاراضي البيزنطية فأعمل الغارة فيها ، ثم توجه عائدا نحو حلب ، وكان يخيل له بأن ابن خان لن يعود معه ، لكنه عاد ووجد عطية نفسه امامه بلا حول ولا طول فقبله مرة اخرى في حلب .

وبدا عطية يفكر في طريقة جديدة مجدية للخلاص من ابن خان واتباعه ، وفي احدى ليالي كانون الثاني لعام ١٠٦٥ م وجد عطية الفرصة للخلاص من الغز ، فقد كان ابن خان انذاك خارج حلب ، وهنا امر عطية الأحداث ان يغيروا فجاة على محلات الغز ، ونفذ الأحداث الأوامر ، فنهبوا خركاوات الغز وقتلوا عددا من رجالهم واسروا بعضا من النساء ، واستولوا على خيول واسلحة الغز ، واجبروا من بقي حيا منهم على الفرار إلى خارج اسوار حلب ، وعندما سمع ابن خان بما حدث ورای ما حل باتباعه جمع فلولهم ، واراد التوجه بهم شرقا نحو اعالي الجزيرة ، لكن القبائل البدوية التي كانت قاطنة حول حلب تخطفتهم وحالت بينهم وبين الوصول إلى غايتهم ، وهنا اتخذ ابن خان قرارا خطيرا بأن قام بالسفر إلى سرمين حيث كان يعسكر محمود بن نصر فالتجأ اليه ووضع نفسه ومن بقي معه من اصحابه تحت تصرفه .

ولقد شجع هذا محمود بن نصر كثيرا ، فقام بجمع قواته الكلابية وتوجه على رأسهم نحو حلب فحاصرها لمدة ثلاثة اشهر ، ولقد كان الحصار قاسيا ، وكان ابن خان والغز من اكثر الناس تأثيرا به ، ولما شعر عطية بأنه لن يستطيع متابعة المقاومة ، تنازل عن حلب وسلمها لابن اخيه الذي دخلها في التاسع من اب ١٠٦٥ م (٤) .

بعدما دخل محمود حلبا لم يدخل ابن خـان واتبـاعه إلى المدينة لأنهم كانوا يخشون الاصطدام بالأحداث ، ولقد سافر ابن خان نحو الجزيرة والعراق وعاد الى أمـارة حلب في العـام التـالي ١٠٦٦ م ومعه فوجا جديدا من الأتباع كان مؤلفا من اصول مختلفة فيه بـالاضافة إلى التـركمان كرد وديلم واوج (الأوج اسـم اطلق على سكان الحدود الأسلامية البيزنطية) ، ولقد اقطع محمود ابن خـان بلدة معرة النعمان ، فدخلها مع اتباعه واستقر بها (٤) .

بعد هذا الحديث لابد للمرء أن يتساءل من هو ابن خان هذا ؟ وسأحاول الاجابة على هذا السؤال ، ثم اتابع بعـدها الحـديث عن الأعمال التي قام بها هذا التركماني في بلاد الشام ، لكن قبل البدء في الاجابة ينبغي التنبه إلى الأمر التالي وهـو أنه عند قيام اي هجـرة بدوية يكون في العادة من أصعب الأمور على الباحث التعرف بشـكل يقيني على زعماء الهجرة فردا فردا وبالتالي تبيان أعمال كل واحـد منهم ، وعلى هذا الأساس يمكننا ان نقول منذ البدء بأنه قد يكون قد وجد بين التركمان اكثر من ابن خـان أي ان ابـن خـان الذي دعاه عطية أول مرة قد يكون غير ابن خان الذي دخل حلب لأول مرة ، ثـم إن الأعمال التي سننسبها إليه قد تكون صنعت من قبل غيره.إن أوفى معلومات وصلتنا عن ابن خان هي التي أوردها ابن العديم (هذا وإن لفظة ابن خان توحي بمكانة صاحبها ، كما لو نقـول ابـن الأمير او ابن الملك). ويروي ابن العديم بأن ابن خـان كان ابنا لملك التـرك ، وانه غاضب اباه وهجره نحو الأراضي المروانية في أعالي الجـزيرة ، وفي الوقت الذي لا يبين فيه ابن العديم مـن كان ملك التـرك هـذا ، يبدو كأنه ينقل بلا شعور كلمة ابن خان إلى العربية ، وعلى كل حال نحن نستخلص من ابن العديم بأن هارون كان هو الاسم الأول لابن خان ، واتباعه كانوا عبارة عن الف من الرماة من أصـول مختلفـة كان التركمان العنصر الغالب بينها .

لقد ذكرنا بانه نتيجة لمؤامرة عطية اضطر ابن خان مـع الناجين من اتباعه للالتحاق بمحمود ، ثم ذكرنا بعد ذلك توجه محمـود نحـو حلب وحصاره لها ، واشرنا بان الغز أتباع ابـن خـان كانوا الأداة

الفعالة و والمؤثرة التي ادت إلى سقوط حلب بيد محمــود وبــالتالي إلى انهاء حكم عطية ، ومعلوم ان اعمال الحصار وفتح المدن كانت في العادة تحتاج إلى عدد كبير من الجند ، ولما كان اتباع ابن خان الذين نجوا من حلب كانوا لايتجاوزون حفنة من الرجال فإن هنا غمــوضا يحتاج للجلاء .

يحدثنا كلا من العظيمي وابن القلانسي بانه بعد أن التحــق ابــن خان بمحمود قام كلاهما بالسفر الى طرابلس ، وبعد أن مكثا هناك بعض الوقت عادا وتوجها مع قواتهما نحو حلب فحاصراها حصارا كان ابن خان واتباعه من الغز السبب الكبير الذي ادى الى ســقوط المدينة الى محمود بن نصر ، ان هذا الخبر يفيد بان محمــودا وابــن خان ربما قاما ـ عندما كانا في طرابلس ـ بتجنيد جيش غزي ، واذا صح هذا ففيه اشــارة ودليل الى وجــود تــركمان آنذاك في منطقــة طرابلس ، وهذا بدوره يعني أن بعض الغــز كانوا قــد دخلوا جنوب غربي بلاد الشام قبل دخولهم حلب .

تتحدث مصادرنا وعلى الاخص كتاب مرآة الزمان (القسم الذي يحوي تاريخ غرس النعمة محمد بــن هــلال الصــابيء الذي عاصر الاحداث التي نحن بصددها فسجلها بشكل مفصل) عن مجمــوعات من التركمان اطلق عليها اسم الناوكية ، وتروي هذه المصــادر بــأن معظم الناوكية قد هاجر الى الاراضي البيزنطية ، وجنوب غربي بلاد الشام مع فلسطين ، ويبدو أن الناوكية كانت أول جماعات التركمان التي دخلت بلاد الشام ونشطت فيهــا ، وانهــا جــاءت الى الجنوب الغربي من بلاد الشام قبل سواها من المناطق ، ويبدو انهــا ســلكت الطريق الساحلي عن طريق انطاكية .

لقد كان زعيم الناوكية سنة ١٠٧١ م في جنوبي غربي بلاد الشام يدعى قرلو ، ويتحدث ابن العديم عن قرلو هذا كابن أخ لابن خــان ، ولقد هجر ابن خان حلب سنة ١٠٧٠ م ، وتوجه نحو صــور حيث دخل في خدمة قاضيها ابن عقيل الذي كان حاكمها ايضا ، ، ولقد دبر ابن عقيل في السنة نفسها أمر اغتيال ابن خان بواسطة احد اتبــاعه

التركمان ، ويمكن الأستنتاج من كل هذا بأن ابن خان كان من جماعة الناوكية ، وربما كان زعيم جميع الناوكية الذين دخلوا بلاد الشام في أيامه .

ويبدو أن كلمة ناوكية لم تكن اسما لاحدى عشائر التركمان ، ولكنها كانت اسما اطلق على جماعات محددة من المرتزقة الذين لم يدينوا بالطاعة للسلطان السلجوقي ، ولقد كان التركمان يشكلون الأكثرية العددية في هذه الجماعات ، وحوت الأقلية عناصر مختلفة من السكان المحليين لخراسان والعراق والجزيرة ومن بقايا جند الدول التي زالت مع انتصار السلاجقة وقيام امبراطوريتهم ، هذا ولقد مر معنا كيف أن ابن خان ذهب بعد فتح محمود بن نصر لحلب . ذهب شرقا نحو الجزيرة والعراق ثم عاد بعد قرابة سنة ومعه الف من الرماة من غز وكرد وديلم واوج .

لم تقدم الناوكية الطاعة للسلطان السلجوقي ، فلقد هجر ابن خان مدينة حلب سنة ١٠٧٠ م عندما سمع بتوجه السلطان الب ارسلان نحوها للاستيلاء عليها ، ذلك انه خاف على حياته لذلك هرب ناجيا بها نحو صور حيث لقي حتفه ، وعندما وصل السلطان الب أرسلان إلى حلب قام بحصارها لفترة من الزمن (هذه قضية سنتعرض لها بالدراسة بعد قليل) ثم تصالح مع محمود بعدما اخفق في الاستيلاء عليها ، ولقد أتهم الب أرسلان ابن خان بأنه كان السبب الذي جعل محمودا يقاتل ضد السلطان ويرفض الخضوع له .

هذا ويبدو أن الناوكية كانت لهم علاقة بالتركمان العراقية ، او هم انفسهم بأسم جديد (٦) هاجروا تحت ضغط السلاجقة وتركمانهم من العراق إلى بيزنطة والجزيرة ، وعندما تدفق هؤلاء على الأراضي البيزنطية توغل الناوكية اكثر فاكثر داخل بيزنطة وجاء بعضهم إلى بلاد الشام ، وظلوا في هذه البلاد حتى ذابوا في جسم التركمان اتباع السلاجقة الذين جاؤوا الى الشام بعد عام ١٠٧٠ م كما سنرى ، ومع اننا سنتحدث عن اعمال الناوكية في جنوب

الشام وشماله بكثير من التفصيل إلا انه من المفيد أن نذكر هنا بانه على الرغم من أن الناوكية لم تخضع للسلطان السلجوقي إلا أن أعمالهم في بلاد الشام قد مهدت للاستيلاء السلجوقي وساعدت على انجاحه (٧) .

ولقد كان ابن خان واتباعه أداة فعالة في يدي محمود بن نصر ، فبوساطتهم نال منصب الامارة ، وبقوتهم استطاع تدعيم نفسه في منصبه كما تمكن من إخضاع كافة القبائل البدوية التي كانت تسكن في إمارته ، وفي عمله هذا كان محمود - ربما بدون شعور - يمهد السبيل لتبديل سياسي هائل في بلاد الشام ، الا وهو إزالة القبائل العربية من على مسرح السياسة وإحلال التركمان محلها .

يروي ابن العديم أن محمودا تحرك في عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م جنوبا نحو مدينة حماة ، وكان على راس قوة مؤلفة من بعض اتباعه من الكلابيين ومن ابن خان واتباعه ، ولقد كان هدف محمود اخضاع جميع البدو القاطنين في منطقة حماة اذذاك ، حيث أن هؤلاء البدو حاولوا خلق فتنة بينه وبين عمه عطية بن صالح الذي كان موجودا اذذاك في مدينة حمص (٨) .

لقد كان مركز عطية بعد تركه لحلب كما جرت عادته إما في الرقة أو في الرحبة (٩) . هذا ولا يوضح ابن العديم حين روى خبره هذا لماذا كان عطية سنة ١٠٦٧ م في مدينة حمص التي كانت اذذاك تحت الحكم الفاطمي !

ويقدم كلا من غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء وابن تغري بردي شرحا للسبب الذي دعا عطية للوجود في حمص ، فقد رويا بأن المستنصر الخليفة الفاطمي كتب سنة ١٠٦٧ م إلى محمود بن نصر طالبا منه : أن يرسل خراجا سنويا عن إمارة حلب إلى القاهرة ، وأن يقوم بغزو الأراضي البيزنطية ، وأن يقوم بطرد ابن خان واتباعه من إمارته ويتوقف عن استخدامه في أعماله ، ولقد رد محمود على المستنصر موضحا له بانه كان لا يستطيع تنفيذ واحد من مطالبه

الثلاثة هذه ، ذلك لأنه كان لا يملك اي فائض من المال حتـى يرسـله إلى القاهرة ، حيث انه أنفق مبالغ كبيرة اثناء عمله لانتزاع حلب من عمه عطية ، وكان القسم الاكبر من هذه المبالغ قد استدين من بعض الناس ومن الأمبراطورية البيزنطية التي عقد بينه وبينهـا معـاهدة صداقة واودعها احد اولاده رهينة من اجل الوفاء بـالمعاهدة ومـن اجل تسديد الديون ، لهذا كان من غير المعقول الأغارة على الأراضي البيزنطية ، ثم لم يكن هناك اسباب مسوغة للحرب ، وفيمـا يختص بابن خان واتباعه قال محمود في جوابه للمستنصر :«واما ابن خـان والغز الذين معه فيدهم فوق يدي ، وإنما أستخدمتهم مصـانعة لهـم وكفا لفسادهم فإن رؤي صرفهم فينفذ إليهم من هو أقوى عليهم مني وانا أساعده »، ولما وصل جواب محمود إلى المستنصر كتب إلى بدر الجمالي واليه على دمشق : «إن ابن الزوقلية (أي محمود بن نصر) قد خلع الطاعة وإنه مال الى الجهة العراقية ، فتسير وتقاتله ».

ولما كان بدر غير قادر على تشـكيل اية حملة او قيادة اية قـوات ضد حلب فقد كتب « إلى عطية وهـو بـالرحبة ان يسـير إلى حلب ووعده بالمساعدة ».

وعندما استلم عطية رسالة بدر تـرك الرحبـة وجـاء إلى حمص حيث بدأ يجند جيشا من بين قبيلة بني كلاب وغيرها من القبـائل ، وعندما وصلت اخبار تحركات عطية هذه واعماله إلى محمـود تـرك مدينة حلب و«اتى حماة ووطىء جميع العرب واذلها » ومرة أخـرى كاد محمود أن يصـطدم بعـطية لكن عطية لم يجـرؤ على القتـال « لمعرفته بغدر االعرب به مرة بعد أخرى وأراد أن لا ينهـدم مجـد ال مرداس » ، ومع ذلك كان لا بد من إيجاد مخرج يعـود على أسـاسه محمود إلى حلب ، ويتوقف به عطية عن أعمـاله ، وبـالوقت نفسـه ترضى به القاهرة ونائبها في دمشق ، وهنا تدخل ابـن عمـار قـاضي طرابلس وحاكمها «بينهم وأصلح الحال ، واستحلف محمـود وعطية لصاحب مصر ، وحلف كل واحد منهمـا لصـاحبه على أن الرحبـة وبالس والرقة والبلاد الفراتية لعطية وحلب لمحمود ، وسار عطية إلى دمشق فأقام في خدمة صاحب مصر» (١٠).

ليس لدينا معلومات عن الأسباب التي جعلت قسما كبيرا من قبيلة كلاب مع غيرها من القبائل تتجمهر في عام ٤٥٩ هـ /١٠٦٧ م في منطقة حماه، ذلك أن اماكن تجمهر كلاب كانت في العادة في أطراف حلب ومعرة النعمان او في مناطق الرقة والرجبة، وبرغم ندرة المعلومات فانه من المتصور أن ما كانت تتعرض له الجزيرة مع شمالي بلاد الشام آنذاك من ضغط بسبب هجرة التركمان اليهما وتوغلهم فيهما جعل الكثير من القبائل تترك ديارها غربا وجنوبا، ولقد كانت أعالي الجزيرة وخاصة منطقة الموصل في هذه الآونة معرضة للضغط المباشر الناجم عن الهجرة، ولقد تأثرت قبيلة عقيل التي كانت تحكم الموصل تأثرا كبيرا بسبب تدفق التركمان، وكان مسلم بن قريش هو أمير الموصل، ولقد وجد مسلم مع قبيلته أنفسهما مكرهين على الانزياح تدريجيا عن ديارهم والتحرك غربا، ولقد كان التركمان يشعرون أن الموصل والدولة العقيلية هما العقبة الرئيسية في طريقهم لمد نفوذهم على الشام والجزيرة، ولكن لما كانت هجرة التركمان عبارة عن تدفق بشري له هدف، ولكن ليس له ناظم واحد، فإن الكثير من التركمان توغلوا في الشام وغيره قبل الاستيلاء كليا على الموصل، ومع ذلك ما كانت الشام والجزيرة لتصفو مشاربهما للغز قبل إنهاء قوة العقيليين وتحطيمها مع غيرها من قوى البدو العرب.

وأخذت عقيل تتحرك تدريجيا نحو الغرب، ولقد كانت الدولة المرداسية هي العقبة الرئيسية التي اعترضت سبيل هذا التحرك، لذا كان لا بد من احتلالها والقضاء عليها وهذا ما حصل، والأمر الذي يعجب منه الباحث هو كيف سعت القبائل العربية في الجزيرة والشام إلى «حتفها بظلفها» حيث انها ليس فقط لم تستطع إقامة تعاون ووحدة بين صفوفها ضد الغزاة التركمان بل صرفت معظم قواها وبددتها في نزاعاتها الداخلية فمكنت خصمها من رقابها وأعطته بحماقتها وجهلها ديارها وسيادتها.

لقد اوردنا أعلاه بأن عطية بعدما تصالح مع ابن اخيه محمود سار إلى دمشق، وأثناء وجوده في دمشق قام مسلم بن قريش سنة

١٠٦٨ م بغزو بلدة الرحبة فاحتلها وضمها إلى املاكه ، كما قـــام بعد هذا بعامين في سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ - ١٠٧١ م بغـــزو بلدة الرقة فاحتلها ايضا وضمها إلى املاكه .

الآن وقد خسر عطية جميع املاكه طلب مـــن الخـــلافة الفـــاطمية مساعدته من أجل استعادتها ، ولكن هذه الخلافة ما كان بإمـــكانها تجنب مشاكلها الداخلية فما بالك بمد يد المساعدة الخـــارجية ؟! لذا ترك عطية دمشق وهجر الشام إلى بيزنطة ، وقدمت بيزنطـــة ، بعض المساعدات له ، فقام في عام ١٠٧١ م بغزو اراضي حلب ، لكنه اخفق في تحقيق اي شيء لوجود التركمان ، ولما كانت بيزنطة أنذاك تعـــاني من التركمان فإنه لم يكن بإمـــكانها مســـاعدة عطية بقـــوات كبيرة ، فاضطر هو الى السفر الى القسطنطينة حيث توفي فيها في حـــزيران عام ١٠٧٣ م(١١).

ويبدو أن بيزنطة كانت تستهدف حين قبلت عطية بـــن صـــالح في أراضيها واستخدمته ضد أراضي إمارة حلب أن تحـــد مـــن نشـــاط تركمان محمود أو تطردهم من بلاد الشام وأن تحتـــل حلب ، ولقـــد كانت حلبا قبل عام ٤٦٣ هـــ ١٠٧١ م - وايضـــا بعـــد ذلك - مركزا هاما بالنسبة للتركمان الذين كانوا يتوغلون داخـــل الأراضي البيزنطية في آسية الصغرى ، فبعض من التـــركمان اســـتقر في حلب كما رأينا وبعضهم الآخر قد عد حلبا مركزا هاما من أجـــل بيع مـــا كانوا يحتاجونه من مؤن ومعـــدات ، ولقـــد كانت كميات المؤن التـــي حصل عليها التركمان من الأراضي البيزنطية هائلة ، ويكفي أن نسوق هنا مثلا ما ذكره ابـــــن العـــــديم في حـــــوادث ســـــنتي ٤٥٩ - ٤٦٠ هـ ١٠٦٦ - ١٠٦٧ م ، ففي هـــاتين الســـنتين : «طلعت طائفة كبيرة مـــن التـــرك ، فنزل بعضـــها على دلوك - مـــن نواحي حلب - وتقدم منهم نحو ألف نهبوا بلد أنطاكية عن آخـــره ، وأخذوا نحو أربعين الف جاموس ، وقيل أكثر ، حتى أن الجـــاموس كان يباع بدينار ، وأكثره بدينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجواري فلم يقع على ذلك احصاء مـــن الكثـــرة ، وكانت

الجارية تباع بدينارين ، والصبي بتطبيقه نعال للخيل ، وخرب بلد الروم خرابا لم يسمع بمثله ، وبقيت الغلات في البيادر ما لها من يرفعها منهم ، حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضي الواحد منهم ويأخذ ما يريد ، فلا يجد من يدافعه عن ذاك ، لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغاير . وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئاً ، لأن الترك اتوهم على غفلة .... وكان مقدمهم أفشين بن بكجي .... قطع الفرات إلى بلاد الروم ، ثم خرج إلى أعمال حلب وباع الغنائم التي كانت معه ... وقيل أن أصحاب مؤونة السوق بحلب حصل في دفاترهم نحو سبعين ألف مملوك ومملوكة سوى ما بيع بغير مؤونة في بلد الروم وسائر البلدان . واخذ من أصحاب انطاكية مائة الف دينار ومثلها من ثياب الديباج والآلة »(١٣).

وأمام أعمال التركمان هذه جهدت بيزنطة التي كان امبراطورها الآن رومانوس دايجينوس لايقاف التركمان ومنعهم من غزو اراضيها وارادت اغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الاستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الاسلامية ، ولما كان التركمان ينفذون الى داخل الأراضي البيزنطية ويخرجون منها من ثلاثة مناطق كانت هي : ثغور شمالي بلاد الشام وثغور اعالي الجزيرة وبلاد أرمينية ، فقد وضع رومانوس كما يبدو خطة تستهدف اغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل ، وفي هذا السبيل قام بنفسه بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود ارمينية وذلك في السنوات ٤٦١ - ٤٦٣ هـ/١٠٦٨ - ١٠٧١ م ، ولقد وجهت الحملتان الاول ضد اراضي امارة حلب في الشام والجزيرة وكانت معركة مناز كرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة وطبعا كانت اهمها على الاطلاق لان نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الاسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، ولناخذ قبل دراسة معركة مناز كرد بدراسة حملتي الامبراطور رومانوس اللتين قادهما قبلها ضد امارة حلب .

لم يكن لهاتين الحملتين نتائج خطيرة وكل ما حصله رومانوس

منهما هو اعمال الغارة في اراضي حلب واحتلال مدينة منبج ، وليس من الواضح بشكل اكيد في المصادر العربية فيما اذا كان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الاولى أم اثناء الحملة الثانية ، هذا وان مخائيل بسللوس المؤرخ الفيلسوف البيزنطي ، الذي كان يعمل في القصر الامبراطوري في القسطنطينية والذي عاش هذه الاحداث وشارك فيها ، لايساعدنا كثيرا فيما كتبه على حل هذه المسالة وكان كل ما قاله حول الحملة الاولى هو : « ترك (رومانوس) مدينة (القسطنطينية) يصحبه جيشه كله ، وزحف ضد البرابرة ، دون ان يعرف الى اين سيمضي او ماذا سيعمل ، لقد جاب الفيافي يخطط ليمضي في طريق لكنه كان يزحف على آخر ، توغل في اراضي سورية والجزيرة ، والنجاح الذي حققه كان فقط قيادة جيشه داخل هذه الاراضي ، والقيام بمركزة بعضا من رجاله في اعالي بعض الهضاب ثم احدارهم وتقطيعهم في ممرات ضيقة ، ومن ثم معاناة فقدان عدد كبير من الجرحى خلال هذه التحركات ، ومهما يكن الحال فلقد عاد وعليه مظاهر النجاح مع انه لم يجلب لنا اية غنائم لامن اهل الجزيرة والشام ولا من الفرس ، وكان كل ما قام به هو انه زحف ضد العدو » ، وبسللوس متحامل في حديثه هذا على رومانوس ومع ذلك يستخلص من روايته هذه بان هدف رومانوس كان مطاردة التركمان وتعقبهم في أراضيه ولايمكن لاية عملية تعقب ان تخضع لنظام مناورة محدد تبعا لقواعد عسكرية ثابتة بل ذلك يسير في العادة حسب الوضع وما يحتاجه ساعة ساعة : وعلى كل حال يبدو ان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الثانية ، لان المؤرخين العرب يروون بان المدينة عندما سقطت سقط معها الكثير من اهلها في الاسر ، وهذا ما يؤيده بسللوس — الذي اشترك في هذه الحملة — بقوله : «وقد أخذ حفنة من رجال الأعداء أسرى » .

ويبدو من روايات المؤرخين العرب بأن رومانوس قد قام في الحملة الأولى بغزو امارة حلب من منطقة انطاكية ، فاستولى على بعض حصون الامارة وهزم محمودا وقواته العربية التركية ، لكنه اكره على الانسحاب بسبب ورود اخبار اليه بأن احد مقدمي

التركمان و اسمه افشين فداستولى على مدينة عمورية وانه على نية متابعة توغله داخل الاراضي البيزنطية نحو القسطنطينية ،ويبدو أن رومانوس غزا امارة حلب في الحملة الثانية من اراضي الجزيرة فاستولى على بلدة منبج وهدمها وعمر فيها حصنها القديم حيث ترك فيه حامية ثم اخذ طريقه عائدا نحو القسطنطينية بسبب قلة المؤن في المنطقة (١٣) . .

لم ينجم عن حملتي رومانوس مع هجرة التركمان حتى الآن اي خطر حقيقي على الدول التي كانت قائمة في الشام والجزيرة ، ولكن الخطر جاء مع الحملة الثالثة ، لكن ليس بسببها ولا من الاراضي البيزنطية ، انما من خراسان وبسبب ما كان يجري في مصر ، او بالحري في القاهرة انذاك ،فلقد كانت القاهرة تعيش في هذه الآونة فترة من المنازعات السياسية من أجل السلطة فيها وبغية التسلط على الخليفة المستنصر ، وكان ناصر الدولة الحمداني (أحد احفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل والاخ الاكبر لسيف الدولة ممدوح المتنبي وامير حلب) أبرز اطراف النزاع في القاهرة وكان قد « قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقية ابا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب ، وبعثه رسولا الى السلطان الب ارسلان أبي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان يساله ان يسير اليه عسكراً ليقيم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى ابو جعفر الى خراسان ، وبلغ السلطان الب ارسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان في عساكر عظيمة » . وتحرك الب ارسلان على راس قواته غربا ، وكان تحركه بطيئا ، وعلى كل حال لم يكن بامكان الب ارسلان بسبب طبيعة قواته وطبيعة الحواجز التي اصطدم بها الوصول الى مصر ، فلم يتجاوز اسوار حلب .

ولقد كانت الرها اولى العقبات التي اعترضت سبيل تقدم قوات هذا السلطان ، وكانت هذه المدينة انذاك تحت الحكم البيزنطي ، وقد وصلها الب ارسلان في خريف ١٠٧٠ م واخذ بحصارها وشدد

الهجوم عليها من جهة الشرق » وكان فيها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن اسار بن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية آلاف أرمني وعشرون الف سرياني ، وستة آلاف رومي والف افرنجي »، واخذ السلاجقة بقطع اشجار الحدائق وبطمر الخنادق بجانب الأسوار الشرقية ، واخذت مجانيقهم بقذف الأسوار مع من كان عليها ، وشرع النقابون في فتح فجوات في السور والأبرجة ، ودام ذلك خمسين يوما (وفي روايات اخرى ثلاثين يوما) « وكان يقاتلهم بالافيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد ، فاذا دنوا ليقربوا الحصن طرحوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم ...ثم انه زحف اليها بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحم وزفت ونفط ، وطرحوا عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها ، وقتلوا كل من كان فيها .

ثم أمر الملك العادل بقطع الاشجار والاخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن حتى يمشي الخيل والرجال عليهم إلى الحصن ، فتوصلوا اليها من داخل المدينة من الذقوب واطلقوا فيها النيران فتأججت النار حتى صار الخندق نيران تلتهب ، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فانفذ اليهم رسولا يقول لهم : ما يحسن بي أن ارحل عنكم بعد قتالكم ، وقد اطاعتني جميع البلاد ، الا بعد ان يستقر لي عليكم مال يسير ، وانا ارحل عنكم ، لئلا يصير علي فضيحة » ويبدو ان اتفاقا ما قد تم عقده بين اهالي الرها والسلطان الب ارسلان ، على اساسه اوقف القتال ضد المدينة وسحب قواته غربا نحو حلب ، وعند وصوله إلى الفرات قدم له جميع امراء دويلات الجزيرة واصحاب السلطة فيها الولاء وفروض الطاعة ، وفي الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ التاسع عشر من كانون الثاني /١٠٧١م عبر الب ارسلان وقواته الهائلة نهر الفرات ، وقبل عملية العبور هذه ارسل الب ارسلان وراء محمود بن نصر يدعوه اليه كي يقدم اليه الطاعة ويفتح ابواب حلب لاستقباله ، ولقد رفض محمود ـ بتحريض من ابن خان ـ الاستجابة لطلب السلطان وآثر الاعتصام بحلب واتخاذ موقف

الدفاع ، وذلك بعدما شحن مدينة حلب بالرجال الذين هبوا للدفاع عنها من سائر انحاء بلاد الشام . وزحف الب ارسلان بقواته نحو حلب ، وكان تحركه في غاية البطىء ، لذلك احتاج الى اكثر من مدة شهرين حتى وصلها ، وجدد الب ارسلان في هذه المدة مراسلاته مع محمود بن نصر ، وارسل له اكثر من بعثة تدعوه لترك حلب والقدوم إلى معكسر السلطان «لخدمته ودوس بساطه» ، وكان كلما اقترب السلطان من حلب كلما ازداد إصرار محمود على المقاومة ، ولما كان الب ارسلان هو سلطان الاسلام ، وقد فوض الخليفة العباسي إليه امر اخضاع بلدان الأسلام وردها الى حظيرة السنة ، فقد قرر عندما وصل حلب ووجد الأمير محمود بن نصر مصرا على عدم الخضوع، قرر أخذ المدينة بقوة السلاح ، لذلك قامت قواته بمحاصرتها .

وكما حدث من قبل في الرها حاصرت قوات التركمان مدينة حلب لمدة تزيد على الشهر ، وبذلت كل جهد ممكن لاقتحام اسوار المدينة فأخفقت ، وتعود الأسباب الرئيسية لهذا الاخفاق إلى : المقاومة العنيدة والدفاع المستميت الذي بذله اهالي حلب ، والى متانة اسوار حلب وقوة ابراجها وحصانتها ، ثم إلى الطبيعة البدوية للجيش السلجوقي وإلى نوعية تكوين اسلحته ، فقد كان التركمان معتادين على المعارك المكشوفة لمهارتهم الفائقة في استخدام القوس والنشاب ولم يكونوا قد اتقنوا بعد استخدام أسلحة دك الأسوار أو تسلقها ، ثم إنه كان ضد مزاجهم النفسي البقاء في مكان واحد لفترة طويلة ، من أجل اخذ مدينة واحدة مهما ضخمت غنائمها فانها لن تعدل تكاليف الاقامة والبعد عن الأهل ، ثم لماذا تحاصر المدن واراضي بيزنطة وريف الشام والجزيرة فيهما من الغنائم السهلة التناول الشيء الكثير ؟!.

وبرغم كل هذا فقد شعر السلطان الب ارسلان أن اخفاقه في اخذ حلب بعد إخفاقه في الاستيلاء على الرها سيحط من سمعته ، وسيكون له نتائج غير محمودة ، على امبراطوريته الناشئة ، لذلك أصر على اقتحام المدينة مهما كلف الثمن ، وقامت – بناء على

هذا – قواته بعدة زحوف على المدينة ولكنها كانت كل مرة تصد خائبة مع خسائر كبيرة ، ولقد كانت معنويات المدافعين عالية جدا ، وكانوا واثقين من موقفهم وقوة دفاعهم ، ولقد عبر أهالي حلب عن ذلك بأسلحتهم وبطرائق خاصة أخرى فيها نوع من الغرابة إن لم نقل الشذوذ .

لقد كان أقوى ابراج اسوار المدينة برج يدعى برج الغنم وقد ركزت القوات السلجوقية معظم جهودها على هذا البرج وعملت من أجل أخذه او خرقه ، وكانت مجانيق السلاجقة تقذف هذا البرج بلا انقطاع ، ولقد استطاع الحلبيون رد جميع الهجمات التي وجهت ضد هذا البرج ، ثم قاموا في أحد الأيام فعصبوا هذا البرج» بشقة أطلاس وكان السلطان نازلا بميدان باب قنسرين ، فسأل عن ذلك فقيل : هؤلاء الحلبيون يقولون على سبيل المزاح ، قد صدع البرج راسه من حجارة المنجنيق فقد عصبوه ، فغضب ، وفرق في تلك الليلة ثمانين الف فردة نشاب .... غير ما رماه بقية العسكر . وأصبح وأمر بالزحف ، فجد الناس في قتال البلد ، وحمل السلطان بنفسه في ذلك اليوم ، فوقعت يد فرسه في خسف كان هناك ، وأصاب في الحال فرسه حجر المنجنيق فركب غيره ، وعاد وصرف الناس عن الحرب .... وكان عسكره دائرا بالبلد من جميع وجوهه » ، وعندما أدرك السلطان صعوبة اخذه لحلب بالقوة «راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرية فوصلوا إليه ، وعول على تقليد بعضهم وتركه في مقابلة محمود ».

عندما وصلت اخبار هذا العمل إلى محمود بن نصر الذي كان يعرف جيدا أخلاق افراد قبيلته ، لاحظ مدى الخطر الذي هو فيه ، لذلك بادر من طرفه بالتحرك بسرعة ، وسعى للتوصل إلى مصالحة مع السلطان يصون بها ملكه في حلب مع كرامة السلطان وسمعته ، لذلك كتب إلى إيتكين السليماني الذي كان من حاشية السلطان والذي كان قد جاء إلى حلب رسولا أكثر من مرة ، فأخبره بأنه على استعداد للخروج من حلب «للدوس بساط السلطان وخدمته»، وأشعر

محمود بالايجاب وشجع ، وعلى هذا الأساس خرج سرا من حلب في ليلة الأول من شعبان ٤٦٣ هـ/ ٤ أيار ١٠٧١ م ، مرتديا زيا تركمانيا ومعه امه التي كانت تعرف باسم السيدة ، وتوجه وهي معه الى معسكر السلطان فقابلاه وتم بينهم الأتفاق على : بقاء محمود في إمارته ، وعلى أن يخرج في اليوم التالي علنا فيقدم فروض الطاعة للسلطان الذي بدوره يعلن رضاه وموافقته على بقائه اميرا لحلب ، وفعلا تم اعداد الترتيبات لذلك « فخرج - محمود - إلى السلطان بنفسه ، ومعه والدته علوية ، المعروفة بالسيدة .... وأخذ مفاتيح البلد معه ، فدخلا والعسكر سماطان بين يديه فخدماه ، وسلما عليه ، فأكرمهما وأحسن إليهما .... وأطلق له البلد ، وشرفه ، وخلع عليه ، وكتب له توقيعا بحلب ، وتردد خروج محمود إلى خدمته مرة بعد أخرى و قرر معه السلطان أن يخرج بعسكره ، ويضيف إليه السليماني وأن يتوجها إلى بلاد دمشق والأعمال المصرية لفتحها ، ففعل ما أمر به ، وعاد السلطان إلى بلاده » .

ولكي يعلل السلطان إخفاقه في احتلال حلب بالقوة ، ولكي يسوغ انسحابه صرح قائلا : «أخشى أن افتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم » وطبعا إن هذا تسويغ تافه ومرفوض فبيزنطة كانت تعرف حلبا وتعرف مدى قوتها وكان في الغالب من سياستها إبقاء هذه المدينة مستقلة ، وفي الحقيقة نحن لسنا متأكدين فيما إذا كان السلطان الب ارسلان قد قال هذا حقا ، أو أنه كان نوعا من الدعاية الرسمية ، أم أن القضية كلها كانت اختراعا من قبل أحد المؤرخين ، وليس لدينا أيضا ما يقص تفاصيل اتفاقية محمود مع السلطان ، وكل ما نعرفه أن السلطان لم يدخل حلب كما لم يدخل أحد من جنده إليها ، وأنه بعد تصالحه مع محمود قرر العودة إلى خراسان وعدم متابعة سيره إلى مصر .

وعندما عبر الب ارسلان الفرات مرة ثانية وصلته (كما هو مرجح) الأخبار بتحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الاسلام بقيادة الأمبراطور رومانوس دايجينوس، لهذا غير الب ارسلان وجهته

وانحرف شمالا لمواجهة هذا الجيش الزاحف ، ولقد تصدى الب ارسلان لقوات بيزنطة واشتبك معها في ارمينية عند موقع اسمه منازكرد (قرب بحيرة وان في تركية الآن) فهزمها ، ولولا هذا النصر الخطير والبعيد التأثير لكانت حملة الب ارسلان كلها بلا ثمرات .

ونظرا للأهمية القصوى لهذه المعركة ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، ولأنها تعدل - إن لم تفق - معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الاسلامية البيزنطية فلا بأس ان نوليها الاهتمام ، ثم نعود بعد ذلك لمتابعة دراسة التركمان واعمالهم في بلاد الشام والجزيرة .

لقد مثل بيزنطة في هذه المعركة الأمبراطور رومانيوس دايجينوس الذي تحدثنا عن حملتيه على بلاد الشام ، ويعود رومانوس في اصله إلى عائلة ارستقراطية عريقة اصلها من اسر اسية الصغرى ، ولقد وجد دايجينوس نفسه منذ اصبح امبراطورا في سنة ١٠٦٨ م يواجه عدة مشاكل داخلية وخارجية ، فأولى معظم وقته وطاقات امبراطوريته للمشاكل الخارجية حيث انها كانت اكثر الحاحا ، ولقد تمثلت المشاكل الخارجية في الخطر الذي ابرزه التركمان في هجرتهم وفي أعمال اجتياحهم للأراضي البيزنطية ، ومن أجل إيقاف التركمان ووضع حد لتغلغلهم وتخريبهم للأناضول قاد رومانوس الحملتين المتتاليتين اللتين تحدثنا عنهما ، ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جدا أراد أن يجتث بها التركمان من بلاده ويكتسب بعض المواقع داخل الأراضي الاسلامية ليشحنها بالجند حتى يقفوا للتركمان بالمرصاد ، ولقد قاد رومانوس قواته التي اعدها تجاه ارمينية في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، ويبدو انه أراد أن يستغل فرصة غياب السلطان الب ارسلان في بلاد الشام .

وبلغ الب ارسلان خبر تحرك القوات البيزنطية بعد فراغه من امر حلب واثناء عودته - او اعداده العدة للعودة - شرقا ، هذا ويروي غرس النعمة بأن السلطان استقبل قبيل مغادرته منطقة حلب بعثة

بيزنطية أرسلها الامبراطور رومانوس ، وأن هذه البعثة عادت إلى الأمبراطور اثناء تحرك السلطان شرقا بعد ما سايرت جيوشه مسافة كبيرة .

ولا يخبرنا غرس النعمة بالتفصيل عن مهمة هذه البعثة البيزنطية التي جاءت من اجلها ولا عن نوع المباحثات التي اجرتها مع السلطان الب ارسلان ، إنما يذكر فقط بأنها حملت عرضا « برد منبج وأرجيش ومنازكرد إليه وبحمل الهدية »(١٤) لكن مقابل ماذا ذلك مالا يوضحه .

ويذكر المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس ما يفيد بأن الامبراطور بعد أن تحرك من القسطنطينية تابع سيره حتى وصل إلى قيسارية وهناك توقف عن التحرك وبدأ يفكر بالتراجع إلى القسطنطينية ، لكنه حاول - قبل تراجعه - أن يتوصل إلى اتفاقية مع عدوه ربما بهدف وضع حد لغارات التركمان على بلاده ، هذا ولا يوضح بسللوس الوسيلة التي اتبعها الأمبراطور البيزنطي من اجل هذه الغاية ، إنما يبدو مما رواه غرس النعمة أن الامبراطور ارسل بعثة إلى السلطان وصلته وهو في منطقة حلب وعرضت عليه عرضه الذي ذكرناه قبل قليل ، ولئن لم يقدم لنا كلا من غرس النعمة وبسللوس - وهما ممن عاصر هذه المعركة - تلميحا او تفصيلا لشروط الأمبراطور فإننا نجد عند ابن العبري الذي ذكر - خلافا لما رواه غرس النعمة - بأن الامبراطور عندما راسل السلطان اقترح عليه أن يتنازل له عن ملكية منازكرد وارجيش مقابل تخلي الأمبراطور عن منبج ودفعه جزية سنوية اذا ما أوقف السلطان غارات التركمان ضد الأراضي البيزنطية ، ولقد ذكر ابن العبري بأن السلطان قد قبل بمقترحات الأمبراطور وتنازل له - تنفيذا للاتفاق - عن جميع الأراضي حتى بلدة اخلاط .

لم يتابع تنفيذ هذا الاتفاق (هذا ان كان قد نفذ في الواقع منه اي شيء) إذ انه من المتصور ان يكون السلطان ألب أرسلان قد قبل

بمقترحات الامبراطور ووعد بالتنازل له عن الأراضي حتى اخلاط، ولكن هل كان لديه القدرة على إيقاف التركمان ومنعهم من الاغارة على الأراضي البيزنطية ؟ هذا أمر مشكوك به ! على كل حال ان تسارع الأحداث لم ييسر الفرصة لتنفيذ شروط الاتفاق، واصطدمت قوات الب ارسلان بقوات رومانوس.

وقبل الحديث عن اسباب عدم تنفيذ الاتفاق ثم عن الحرب التي وقعت لابد من الاشارة الى ان السلطان الب ارسلان قد قبل بمقترحات الامبراطور البيزنطي لاخشية من الاصطدام معه، ولاتقديرا بان قواته لن تستطيع منازلة القوات البيزنطية ، ولكن كان هدف هذا السلطان وهمه أنذاك مد نفوذه وسيطرته على بلدان العالم الاسلامي ، ولم تكن لديه مطامح بالتوسع داخل بيزنطة او سواها من البلدان غير المسلمة ، ويبرهن على هذا انه بعد نصره الساحق في منازكرد لم يحاول استغلال هذا النصر ، وانما جهد في التعجيل لايجاد تسوية عاجلة مع رومانوس ، ثم عاد الى بلدان العالم الاسلامي وتابع جهده في مد سيطرته عليها حتى لقي حتفه .

اما اسباب عدم الاخذ بالاتفاق فان بسللوس الذي عاصر الأحداث وشارك في المعركة فيقول :« عوضا ـ عن تنفيذ الاتفاق ـ واما في ياس اوبسبب انه (اي الامبراطور)كان واثقا بنفسه اكثر مما ينبغي ، زحف الى القتال » . ان في كلام بسللوس هذا بعض الغموض وهو لايفي بالغرض ، لكن على الرغم من هذا فان الامبراطور عندما استأنف زحفه ، كان ـ كما يبدو ـ قد صنع ذلك ليس وهو يائس إنما وهو موقن بان النصر سيكون حليفه ، وربما فعل ذلك بناء على المعلومات التي نقلتها اليه بعثته التي عادت من عند السلطان ، فوصفت له رحيل السلطان وحالة الفوضى التي حلت في جيشه اثناء الرحيل ، ويقول غرس النعمة :«وضجر السلطان من المقام بحلب ، فكر راجعا ، فقطع الفرات ، وهلك اكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه الهارب ولم يلتفت الى ما ذهب من الارواح والدواب ، وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه،

فقوى ذلك عزم الروم على اتباعه وحربه » .

لقد كان تراجع الب ارسلان هذا «شبه الهارب »قد تم تبعا للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغرير به ، فالتركمان كبدو كانت لديهم خططهم الخاصة في الزحف كما كان لهم مواريثهم المتميزة ، في فن السوقية العسكرية ، وتنطلق هذه المبادىء من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة ، فيها يعطي القائد امرا عاما يحدد فيه لقواته البدوية نقطة لقاء وليلة لهذا اللقاء ، ويندفع البداة زمرا وافرادا في اتجاهات مختلفة ، وهنا يظن العدو بانهم تفرقوا الى غير عودة ، لكنه لايدري ان تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين ، ثم يدمر اراضي العدو ويضلل قيادته ويجبرها في كثير من الأحيان على توزيع قواتها ، ثم عندما تصطدم اولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خططه لسحق بضعة الاف من البدو ، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل الى اضعاف مضاعفة ، لذا تنهار معنويات قواته ، ويتم عامل المفاجاة وهكذا يحقق النصر .

هذا ما طبقه الب ارسلان الذي عندما التقت قواته لأول مرة بقوات رومانوس كان عددها اقل بكثير من القوات البيزنطية ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات ذلك ان الب ارسلان وصل الى قبالة الامبراطور رومانوس في يوم اربعاء واشتبك معه ظهر الجمعة، وقبل الاشتباك ارسل بعثة لمقابلة الامبراطور والتفاوض معه وذلك من حيث الظاهر ، لكن لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي وللاتصال بالعناصر الغزية غير المسلمة فيه من حيث الباطن ، ولقد اعد العديد من الكمائن وهيأها لساعات الحاجة وللمفاجاة .

ونظرا لأن قوات الب أرسلان كانت من الفرسان الرماة، وقوات بيزنطة كانت من الفرسان الثقال مع المشاه ، فقد قامت خطة السلاجقة على مبدا فصل المشاة عن الفرسان (يمكن تشبية

الفرسان الثقال بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكثير من قيمتها بدون حراسة من المشاة ، وايضا لاقيمة كبيرة للمشاة بدون دبابات) وقتل خيول الفرسان ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد، ولقد حصل هذا في معركة منازكرد كما حصل في سواها من المعارك .

لقد بالغت المصادر العربية في تقدير عدد الجيش البيزنطي فجعلته يفوق المليون مقاتل ، ثم ان هذه المصادر لم تقدر عدد قوات الب ارسلان باكثر من ١٥ الف مقاتل ، ولهذا كان النصر الذي تم بالنسبة لها قد تم بفضل مساعدة السماء أي انه كان عبارة عن معجزة وكرامة «للسلطان العادل »واستجابه لدعاء المسلمين يوم الجمعة ساعة المعركة .

لم تكن الصورة هكذا ابدا ، ولم يكن هناك اية معجزة كل ما في الأمر أن قوة بيزنطة التي كانت ربما في حدود الخمسين الفا قد لاقت قوة تركمانية مساوية لها بالعدد نفسه ، انما بميزات قد تم شرحها، يضاف الى هذا ان قسما كبيرا من قوات بيزنطة كان مؤلفا من مرتزقة من عناصر غزية غير مسلمة وكان عدد من ضباط الجيش متآمرين ضد رومانوس يعدون انقلابا للاطاحة به وتنصيب امبراطور جديد مكانه ، لذا عندما اصطدمت جيوش رومانوس بقوات الب ارسلان دارت معركة قصيرة ـ انما حاسمة ـ تخلى فيها الغز عن البيزنطيين وانضموا الى بني جلدتهم ، وهرب المتآمرون مع عدد كبير من الجند نحو القسطنطينية ، وترك رومانوس في لجة الفوضى والدمار فسقط اسيرا في يد التركمان ، فكان اول امبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

لقد حطمت هذه المعركة قوى بيزنطة العسكرية وكانت البداية الفعلية لتحول بيزنطة الى تركية ، ثم ان الغنائم التي حازها التركمان كانت اكثر من ان تحصى ، ولم يحاول الب ارسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى بان احضر رومانوس الى حضرته

« وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل إليك رسل الخليفة أطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فابيت ؟ ألم أرسل إليك بالأمس اسألك الرجوع فقلت : قد انفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت ، فكيف ارجع إلا أن افعل ببلاد المسلمين مثل ما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رأيت أثر البغي ! وكان قد جعل في رجليه قيدين وفي عنقه غلا ، فقال: ايها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الاجناس وانفقت الأموال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر الا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا ، فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ماتريد . فقال له السلطان : فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي فقال : القبيح ، فقال : أه والله صدق ، ولو قال غير هذا لكذب ! هذا رجل عاقل جلد ولايجوز ان يقتل ، ثم قال له : ما تظن الآن ان افعل بك ؟ قال : أحد ثلاثة أقسام : أما الأولى فقتلي والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكره فانك لاتفعله ، قال : وما هو قال : العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكا لك وبعض اسفهسلاريتك ونائبك في الروم ، فان قتلك لي لايفيدك ، هم يقيمون غيري

فقال السلطان : ما نويت الا العفو عنك فاشتر نفسك ، فقال يقول السلطان ما يشاء ، فقال : عشرة الاف الف دينار فقال : والله انك تستحق ملك الروم اذ وهبت لي نفسي ، ولكن قد انفقت اموال الروم واستهلكتها مذ وليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وافقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد الى ان استقر الأمر على الف الف وخمسمائة الف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة الف دينار وستين الف دينار في كل سنة ، وان ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة اليه ، وذكر اشياء فقال : اذا مننت علي عجل سراحي قبل ان تنصب الروم ملكا غيري فيفوت المقصود ولااقدر على الوصول اليهم ، فلا يحصل شيء مما شرطته علي ، فقال السلطان : اريد ان تعيد انطاكية والرها ومنبج

ومنازكرد فانها اخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن اسارى المسلمين ، فقال : اما البلاد فان وصلت سالما الى بلادي انفذت اليهم بالعساكر وحاصرتهم واخذتها منهم وسلمتها اليك ، ... واما اسارى المسلمين فالسمع والطاعة اذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ، ثم قال اعطوه قدحا ليسقينيه ، فظنه له فأراد ان يشربه ، فمنع ، وامر بان يخدم السلطان ويناوله القدح ، فساوما الى تقبيل الأرض ، وناول السلطان القدح فشربه ، وجز شعره ، وجعل وجهه على الأرض ... فلما كان من الغد احضره السلطان وقد نصب له سريره ودسته الذي اخذ منه ، فاجلسه عليه وخلع عليه قباءه وقلنسوة والبسه إياهما بيده ، وقال له : قد اصطنعتك وقنعت بامانتك وانا اسيرك الى بلادك واردك الى ملكك ، فقبل الأرض ... وعقد له السلطان راية فيها مكتوب «لاإله الا الله محمد رسول الله » ، وانفذ معه حاجبين ومائة غلام ... وركب معه وشيعه قدر فرسخ ، فأراد ان يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه اليه وتعانقا وعاد السلطان عنه ».

ولقد اخفق رومانوس في دخول القسطنطينية ، وجهد بعد ذلك من اجل الوفاء بما التزم به للسلطان ومن اجل استعادة عرشه فاخفق وفقد حياته (١٥) وبعد أيام من مغادرة الب ارسلان لمنطقة حلب قاد محمود بن نصر وايتكين السليماني قواتهما وتوجها جنوبا لغزو دمشق ، وفي الطريق توقفا عند بعلبك ، وهناك وصلت الى محمود اخبار فيها ان عمه عطية تعاونه قوات بيزنطية من انطاكية اخذ يعمل الغارة في اراضي حلب ، لذا ترك محمود السليماني وكر راجعا نحو حلب ، ولقد اشتبك محمود مع القوات البيزنطية في أكثر من معركة فانتصروا عليه وهزم .

وعندما وجد محمود نفسه غير قادر على دفع البيزنطيين عن بلاده استغاث بزعماء الناوكية الذين كانوا مع اتباعهم في جنوب بلاد الشام يعملون للاستيلاء على فلسطين ، ولقد لبى هؤلاء دعوة

محمود وجاؤوا اليه ، ولقد تمكن محمود بفضل مساعدتهم ليس فقط من صد البيزنطيين وايقاف اعمالهم ضد اراضي امارته ، بل استطاع ايضا ان يرد الرحبة الى املاكه مستخلصا إياها من مسلم ابن قريش العقيلي ، ويبدو أن هؤلاء الناوكية قد مكثوا لدى محمود فترة طويلة من الزمن لأن استرداد الرحبة قد تم سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م ، وبعد هذا الصنيع سرح محمود التركمان فتركوه الى فلسطين بعد ان اخذوا منه مبلغا من المال وعددا من الخيول وذلك كأجر لهم ، ويبدو انهم تركوا قسما صغيرا منهم في خدمته ذلك ان القوات البيزنطية لانطاكية اغارت في سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ م على اراضي حلب فاستطاع محمود صدها كما تمكن من الاستيلاء على قلعة السن البيزنطية وضمها الى املاكه .

وفي جمادي الأولى من السنة التالية ٤٦٧ هـ/كانون ثاني ١٠٧٥ م توفي محمود بن نصر وقبل وفاته بعامين تقريبا كان السلطان الب ارسلان قد توفي (٤٦٥ هـ/ ١٠٧٤ م) . وبوفاتهما انتهت مرحلة من مراحل التاريخ السلجوقي العام مع هجرة التركمان الى بلاد الشام والجزيرة ، وبدأت مرحلة جديدة وحاسمة هي مرحلة تصفية الناوكية وسقوط الدولة المرداسية ومن ثم اخضاع الشام والجزيرة نهائيا للحكم السلجوقي المباشر (١٦) .

لقد اوردنا بان جماعة الناوكية كانت اول جماعة تركمانية تدخل بلاد الشام كما بينا طبيعة تكوينها البشري ، وكيف انها ناصبت السلطان السلجوقي العداء ، لذلك عندما دخلت الشام انضوت تحت لواء الدول التي كانت قائمة فيه ودخلت في خدمة حكام هذه الدول كما انها عملت في سبيل مصالحها الذاتية ، ومع اننا استنتجنا وجود الناوكية في جنوب بلاد الشام وفي مناطق الساحل في طرابلس وصور وسواهما فان المصادر التي وصلت الينا لاتسعفنا بأي شي عن اعمالهم ونشاطاتهم في هذه المناطق قبل حملة السلطان الب ارسلان على حلب ، وكل ما جاء في مصادرنا المتوفرة يشير إلى أن الناوكية تركت شمال الشام الى جنوبه والى سواحله تحت ضغط

زحف السلطان الب ارسلان مع قواته الهائلة ، لذلك نجد انفسنا مضطرين للحديث عن الفترة ما بعد ١٠٧٠ م .

عندما غادر ابن خان مدينة حلب ذهب «الى ابن ابي عقيل الى صور واقام عنده ، فاحسن اليه ووصله واعطى اصحابه ، وجاء بدر الجمالي فحاصر صور ، فنافق ابن خان وخرج الى بدر، فعسكر عنده فدس ابن ابي عقيل الى غلمان ابن خان وقال لهم : قد عرفتم ما فعلت مع صاحبكم من الجميل ، وما انفقت عليه من الأموال ، وما صلح لي ولاجازاني على احساني اليه ، ولكم علي ان قتلتموه كذا وكذا من المال ، فوثب عليه اثنان فقتلاه وحملا راسه الى ابن أبي عقيل فطيف به في صور ، وكان عند ابن ابي عقيل جماعة من الغز ففارقوه الى بدر فقوي بهم (١٧) ولقد كان حصار بدر هذا لصور سنة ٤٦٢ هـ/١٠٧٠ م، وشدد بدر الحصار على صور ، فأرسل ابن أبي عقيل « الى الأمير قرلو مقدم الاتراك المقيمين بالشام يستنجده ، فسار اليه في اثني عشر الف فارس فحصر مدينة صيدا وهي لامير الجيوش بدر فرحل حينئذ بدر فعاد الاتراك » ويصف المؤرخ المصري ابن ميسر قرلو بأنه كان « مقدم الاتراك القادمين من العراق» (١٨)، ولقد استطاع بدر الجمالي في سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م استمالة معظم الناوكية الى صفه فأدخلهم في خدمته واستخدمهم ضد القبائل العربية لفلسطين فقاموا« وطردوا العرب الذين كانوا قد استولوا على بدر ، ونهبوا الشام ، وطلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا ، فقال: ما عندي مال ، وما سلطتكم على العرب الا لانكم تقتنعوا بنهبهم وما أقطعتكم من الشام فقالوا: نحن أخذنا البلاد بسيوفنا.

ثم جاءوا فنزلوا طبرية واقتسموا البلاد واخذوا غلالها وراسل بدر العرب بالرجوع الى الشام وانه معهم بنفسه وماله فاجتمع من العرب خلق عظيم وقربوا من طبرية ، وعرف الناوكية كثرتهم ، فكرهوا لقاءهم ، فاسروا اليهم وكبسوهم فاسروا وقتلوا ما شاؤوا ، وعادوا الى طبرية ونزلوا من بعد طرابلس ».

وكانت حلب في هذا الوقت تتعرض لغارات بيزنطية ، كما سبق وذكرنا وعندما اخفق محمود في صد البيزنطيين استنجد بالناوكية فهبوا لنجدته ، وكان اكبر مقدميهم هو قرلو ولقد استطاع الناوكية مساعدة محمود وعندما انتهت مهمتهم تركوه وعادوا الى اماكن نشاطهم في الجنوب لكنهم تركوا عند محمود قوة مؤلفة من الف فارس ولعل قائد هذه القوة هو احمد شاه الذي سنتعرض لأعماله في حلب في الصفحات التالية .

وعندما عاد الناوكية الى مناطق نشاطهم السالفة في جنوبي بلاد الشام استأنفوا اعمالهم « فنزلوا على حصن عمان بالبلقاء وفيه ذخائر العرب وأموالهم وهو معقلهم ولم يكن عليه لأحد طاعة وهو عز العرب فاحتالوا عليه وملكوه وملك التركمان الشام بأسره وجاؤوا الى الرملة وهي خراب ليس بها احد ولا لسوقها أبواب فجلبوا اليها الفلاحين وعمروها وضمنوا جزء السلطان عن الزيتون الموجود بثلاثين الف دينار وقرروا قسمة البلاد على النصف ، فقيل انهم باعوا من الزيتون في هذه الدفعة بثلاثمائة الف دينار واعطوا التركمان منها ثلاثين الف دينار وأخذوا الباقي.

اراد الناوكية الآن احتلال دمشق ثم احتلال عكا وطرد بدر الجمالي منها لذلك ذهبوا من الرملة الى دمشق وحصروها واخربوا الضياع ولقد تمكن والي دمشق الفاطمي من ارضائهم بمبلغ خمسين الف دينار ، فتركوا دمشق» ورحلوا الى عكا وبها بدر الجمالي فحصروه وكان متقدمهم يقال له قرلو ، فسكن اليه جماعة من بني كلب وأمرائهم من بني القرمطي . وخالطوه وقاربوه واتفق أن قرلو مات على حصار عكا ، فنهب التركمان من قرب من العرب ... وكان بدر الجمالي تأتيه الميرة في المراكب في البحر ، فما كان يبالي في الحصار . فلما يئسوا منه ساروا الى مصر ووصلوا بلبيس وشنوا الغارات على أعمال مصر ، فلم يجدوا ماياكلون ولاما تأكل خيلهم وقيل إن جماعة منهم وصلوا الى وادي القرى وتيماء ووصل منهم سبعة عشر غلاما الى المدينة وزاروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم(١٩) .

وتعرضت الناوكية بعد سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م بعدما توفي قـرلو الذي خلف كما يبدو ـ ابـن خــان في زعامتهــا ، الى مشــاكل وانقسامات داخلية حيث ظهرت بين صفوفها زعامات جديدة متنازعة ويظهر ، أيضا إنها تعرضت لضغط جاء مـن قبـل التـركمان الذين جلبتهم حملة ألب أرسلان أو خلفتهم وراءها ، فلقـد كانت حملة ألب أرسلان في الواقع أكثر من حملة عسكرية بحتة ، لقد كانت أول موجة تركمانية تأتي الشام والجزيرة بقيادة السلاجقة وتحت زعامتهـم ، هذا ولقد ترافق ظهور التركمان الجدد في جنوب الشام مـع اختفـاء بدر الجمالي الذي ارتبط اسـمه بنشــاط الناوكية ، حيث أن بـدر سيذهب الى القاهرة ليستولي على مقاليد الامور بها وليتحـكم (٣٠) بالخلافة الفاطمية وبذلك يكون أول طاغية عسكرية في تـاريخ هـذه الخلافة التي ستدخل الآن مرحلة النهاية مرحلة تحـكم العسـكريين بمقاليد الأمور بها كما كان قد حدث للخلافة العباسية في بغداد قبـل ذلك بقرون.

تتحدث مصادرنا عن أن أتسز بـن أوق الخـوارزمي كان أبـرز زعماء التركمان الذين خلفوا في الشام بعد حملة ألب أرسـلان وقـد سار ومعه أخوته جاولي ، والمأمون ، وقرلو ، وشـكلي الى أعمـال دمشق وكان هذا عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ولقد ضايق دمشق بقصد تملكها وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها وقطع الميرة عنها ورعى زرعها ثم جمع الاتراك في جنوب بلاد الشام وتزعم عليهـم » وسـار الى فلسطين جنوب بلاد الشام وتزعم عليهم وسار الى فلسـطين ففتح مـدينة الرملة وسـار منهـا الى البيت المقـدس وحصره وفيه عساكر المصريين ففتحه ، وملك مـايجاورهما مـن البـلاد مـا عدا عسقلان». كما استولى على طبرية وحين استولى اتسز على مدينة القدس جعل منها مركزا له وقام بالغاء الدعوة الفاطمية وأحل محلها الدعوة للخليفة العباسي مع السلطان السلجوقي ولقد بعث الى بغداد يخبر بما حققه في الشام.ومن- 149 -ب أخذ أتسز يغير كل سـنة على دمشق فيحـاصرها ويرعى زرعهـا وهـكذا ندرت المؤن في دمشـق واضطربت فيها الأحوال وأخذ الكثير من أهلها يهجرونها ، ومع ذلك

فقد صمدت وتماسكت ولم تمكنه من رقبتها الى أن نشب خلاف بين أهل المدينة وحاكمها الفاطمي مع قواته ، وعندما استحكم هذا الخلاف بات أمر سقوط دمشق مسألة وقت لا أكثر (٢١)

لقد غدا الان أتسز «متقدما على جميع الترك والناوكية بالشام ولقد حرص على الابقاء» على زعامته هذه مهما ارتفع الثمن ففي سنة ٤٦٧ هـ/ ١٧٠٤ - ١٠٧٥ م تمكن شكلي بن أوق من انتزاع مدينة عكا بعد حصار طويل وكان بدر الجمالي قد غادر هذه المدينة الى مصر وخلف فيها أهله وأكثر أمواله ونخائره فاستولى شكلي على جميع ماتركه بدر وأسر زوجة بدر مع ابن له وابنة فتزوج من الابنة وحصن أسوار عكا وقواها وراسل حيدرة بن المعلى بن منزو الحاكم الفاطمي لدمشق وصاهره على أخته ، (أي أخت ابن منزو) ، كما اتصل ببعض زعماء قبيلة كلب فتعاهد معهم « وتقوى بهم واستحلفهم واخذ رهائنهم واعطاهم رهائنه» ولقد أزعج كل هذا أتسز وأغضبه فأرسل اليه « ابعث لي زوجة بدر وابنه ونصف ما أخذت من المال فامتنع عليه وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل»

وقرر أتسز التحرك ضد شكلي ، وفي رمضان من السنة نفسها (نيسان - ايار ١٠٧٥ م) اشتبك معه «في الساحل فهزمه ، فجاء شكلي منهزما الى رفنيه «التي كانت « بلدة عند طرابلس » ولم يطارده اتسز بل توجه الى دمشق ليحاصرها حسب عادته ومن ثم عاد الى القدس .

ومن رفنيه - كما يبدو - كتب شكلي «الى ابن لقتلمش التركي وكان في اطراف الروم يحثه على قصد الشام لينضاف اليه ، وابن قتلمش هذا كان ابن عم السلطان الب ارسلان،وكان في كتاب شكلي اليه : انت من السلجوقية وبيت الملك واذا اطعناك وكنا في خدمتك تشرفنا بك وافتخرنا ، وأتسز ليس من بيت الملك ولانرضى باتباعه وطاعته ، وهون عليه امر اتسز والشام ، وقال : وقد جاءتنا من مصر وعود بالأموال اذا كسرناه وابعدناه عن الشام .

فجاءه ابن قتلمش فاجتمعا وسارا الى طبرية واظهرا طاعة صاحب مصر فسار اليهم اتسز من القدس ، وخرجوا اليه وساعدهم اهلها واقتتلوا فهزمهم اتسز وقتل شكلي وولده صبرا بين يديه ، واسر ابن قتلمش واخا له صغيرا وابن عمه ».

ووصل الى اتسز بعد نصره هذا ثلاثة الاف من قوات السلطان ملك شاه الذي خلف اباه الب ارسلان بعد مقتله ، فتقوى بهم وبدأ يعد العدة لاحتلال دمشق حيث انه غدا الآن سيد جنوبي بلاد الشام بلا منازع ، وقبل ان يتحرك نحو دمشق ورد الى الشام اخ لابن قتلمش «ونزل بأرض سلمية وراسل أتسز في معنى اخيه فقال اتسز قد راسلت السلطان بسببه ، وانا متوقع الجواب ، فان رسم انفذته اليه ، وان رسم شيئا آخر كان ». ولم يستطع ابن قتلمش هذا ان يصنع شيئا فقصد منطقة انطاكية عائدا الى الأراضي البيزنطية (٢٢) .

وجاء الآن دور دمشق وكانت احوالها قد بلغت حدا لا مثيل له من السوء والاضطراب والفقر وندرة المؤن ، وكان اميرها الفاطمي قد «أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم فكثر الدعاء عليه وثار به العسكر ، وأعانتهم العامة فهرب منها الى بانياس ثم منها الى صور ، ثم أخذ الى مصر فحبس بها فمات». وعقب فرار معلى قامت فئة المصامدة (نسبة الى مصمودة إحدى قبائل البربر التي أعتمد عليها الفاطميون في جيوشهم) من الجند فعينت مقدمها انتصار بن يحيى المصمودي المعروف برزين الدولة مكان معلى ، ولم يرض هذا أهل دمشق وبعض فئات الجند الفاطمي الأخرى ، وقامت الفتن من جديد واشتدت في دمشق ، ولم يكن أتسز ينتظر احوالا افضل من هذه « وكان متوقعا لمثل ذلك ، فنزل عليها في المضايقة لها الى ان اقتضت الصورة ، وقادت الضرورة الى تسليمها اليه بالأمان ، وتوثق منه بوكيد الايمان ، فلما دخلها في ذي القعدة سنة ثمان وستين واربعمائة هـ /حزيران ١٠٧٦ م وحصل بها نزل بأهلها

منه قوارع البلاء بعدما عانوه من ابن منزو لعنه لله ، واشتداد من انزال الجند دورهم واخراجهم منها ، واغتصاب املاكهم والقبض لها ، واستعمال سوء السيرة وخبث النية والسريرة ، وتواصلت الدعوات عليه من سائر الناس وعلى اصحابه واتباعه في جميع الأوقات واعقاب الصلوات والرغبة الى الله تعالى ذكره باهلاكه وتعفية آثاره».

لقد عانت دمشق اثناء حصار أتسز وزمن حكمه محنا لم تر ما يماثلها منذ الفتح الاسلامي ، ومرت بفترة من احلك فترات حياتها واصعبها[٢] ، ويكفينا هنا أن نسوق ما أورده غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء في وصف احوالها ، وهو وصف ربما أعتمد به على تقارير شهود عيان ارسلت اليه الى بغداد ، يقول غرس النعمة:

«ولم يبق بها - دمشق - من اهلها سوى ثلاثة الاف إنسان بعد خمسمائة الف افناهم الفقر والغلاء والجلاء ، وكان بها مائتان واربعون خبازا فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة الاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذي كان يساوي الف دينار ما يشترى بدينار ، وكان الضعفاء يأتون الى الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيضربون فيها النار فتحترق ويجعلون أخشابها فحما يصطلون به ، وأكلت الكلاب والسنانير ، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم.

وكان لامرأة داران قد أعطيت قديما في كل دار ثلاثمائة دينار او اربعمائة ، ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفار ، فاحتاجت الى سنور ، فباعت إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطا ، واشترت بها سنورا» (٢٣) .

هذه صورة محزنة وقاتمة لدمشق ، وهي بالوقت نفسه معبرة ومفسرة ، إنها تفسر الموقف السلبي الذي ابدته هذه المدينة عند

مجيء الغزاة الصليبيين الى الشام وبعد احتلالهم لبعض اجزائه بفترة طويلة.

لقب اتسز نفسه بالملك المعظم ، واوقف في دمشق الدعوة للفاطميين «وازال الاذان منها بحيي على خير العمل ، بعد ان كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر الشام مائة وست وستين ، وكان على ابواب الجوامع والمساجد مكتوب لعنة الصحابة رضي الله عنهم فأمر...المؤذنين والخطباء أن يترضوا عن الصحابة اجمعين».

اما وقد اصبح اتسز سيد جميع جنوبي بلاد الشام تقريبا ، فقد اخذ يتطلع ببصره نحو الشمال ، ويقول ابن العديم:«ووصل في سنة ثمان وستين واربعمائة اتسز بن أوق التركي الى اعمال حلب القبلية...وجفل اهل الشام بين يديه ، وكان قد سمى نفسه الملك المعظم ، فنهب كل ما قدر عليه وملك رفنيه ، وسلمها الى اخيه جاولي ، وترددت سراياه في جميع الشام وتمادى فساده» ، وراسل امير حلب اتسز وحاول ارضاءه ببعض المال ، لكنه لم يصل معه الى اي اتفاق ، ورجع اتسز الى دمشق وترك جاولي وراءه في رفنية ، واعتمد جاولي مدة مقامه برفنية اساءة المجاورة وشن الغارات والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب» ، وكان ما يزال في حلب قوة من الناوكية بقيادة رجل اسمه احمد شاه ، ولقد ارسل احمد شاه ضد جاولي ، واستطاع احمد شاه مع ناوكيته بعد جهد إيقاع الهزيمة بجاولي وقواته ، فهرب جاولي أولا « الى رفنية ، وسار بعد ذلك الى أخيه بدمشق».

وأقلع الآن اتسز عن تطلعاته نحو شمالي بلاد الشام ، لوجود الناوكية هناك ، ثم لما سمعه عن عزم السلطان ملك شاه على اقطاع شمالي بلاد الشام لاخيه تتش ، واخذ اتسز يتطلع نحو ملك جديد ، ولم يكن ذلك اقل من مصر كلها(٢٤) .

كان سيد مصر الفعلي في هذه الآونة بدر الجمالي ، وكان بدر يعمل على تقوية حكمه وتوطيد مركزه ، وقد سبب هذا لبعض رجالات السلطة الذين كانوا في الحكم في مصر قبل استلام بدر مع عدد من الجند العمل على الهرب من مصر والالتجاء الى الشام الى اتسز ، ويقول المقريزي عن هذا الأمر: « وكثر عسكره - اي اتسز - بمن فر اليه من مصر خوفا من امير الجيوش بدر الجمالي ، وحدثته نفسه بأخذ مصر » وكان من جملة من فر اليه ابن يلدكوز كبير قادة الجيش الفاطمي في القاهرة قبل بدر الجمالي فأغراه بأخذ مصر ، واطمعه في أهلها ، فحشد ، وهم على حين غفلة» ، «وبرز من دمشق ونهض في جمع عظيم الى ناحية الساحل ، ثم منها الى ناحية مصر ، طامعا في ملكتها ، ومجتهدا في الاستيلاء عليها ، والدعاء عليه من اهل دمشق متواصل واللعن له متتابع متصل».

وبلغ اتسز أطراف مصر في اوائل ربيع الأول لسنة ٤٦٩ هـ/ تشرين أول سنة ١٠٧٦ م ، وكان معه حسب رواية غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء عشرين الفا «من التركمان والاكراد والعرب» ، ووصل الى ريف مصر ، وكان بدر الجمالي وقتئذ غائبا عن القاهرة مشغولا باخضاع القبائل العربية في الصعيد ، ولم يتوجه اتسز الى القاهرة لأخذها بل «اقام - في الريف - نيفا وخمسين يوما يجمع الأموال ويسبي الحريم ويذبح الأطفال ، وهو يراسل بدر الجمالي ، ويطلب المال...فضمن له بدر مائة وخمسين الف دينار ، واستدعى من كان بالصعيد من العساكر والسودان ، وكان مع اتسز بدر بن حازم الكلبي في الفي فارس ، فاستماله بدر ، فانتقل الى القاهرة ثلاثة الاف رجل في المراكب لنية الحج ، فقال لهم بدر: دفع هذا العدو افضل من الحج وأعطاهم المال والسلاح».

وعندما توجه اتسز نحو القاهرة لأخذها ، كانت هذه المدينة قد

امتلات بالمقاتلة من جند الخلافة وممن جلا اليها من الريف وجاءها من المتطوعة ، «وخرج – بدر – من القاهرة في ثلاثين الف مـا بين فارس وراجل في يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب (١٥ شباط ١٠٧٧ م) وسير المراكب بالميرة »، «فخافه اتسز وعزم على العود عن مصر الى الشام ، فلم يوافقه اصحابه على ذلك ، وقالوا له: قد وطئت ديارهم وتعود بغير فائدة ، فلم يلتفت الى قولهم ، فقال له اخوه المأمون وابن يلدكوز: لا تغرنك كثرتهم ، فانما هم سوقه وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا ترجع عن هذا الملك الذي اشرفت على اخذه »، ووافق اتسز مكرها ، واشتبك بقوات بدر ، ودارت معركة حلت فيها الهزيمة به وبقواته ، ذلك ان قوات بدر الجمالي هاجمته من امامه واغارت قوات بدر بن حازم الكلبية من ورائه ، على معسكره وضربت « النار في الخيم والخركاوات فانهزم اتسز وقتل من كان حوله ، وانهزم التركمان ، «وتبعهم السودان والعرب اسرا وقتلا الى الرملة ، وغنموا منهم غنائم لم يغنمها احد قبل ذلك ، وكان فيما اخذ ثلاثة الاف حصان ، وعشرة الاف صبي وجارية ، واما من الأموال والثياب فما لا يحصى».

ومضى اتسز مهزوما« في نفر يسير ، فلما وصل غزة ثار اهلها به فقتلوا جماعة ممن كان معه ، فهرب الى الرملة ، فخرج اليه اهلها فقاتلوه وقتلوا بعض من كان معه ، فهرب الى دمشق في بضع عشرة نفسا ، فخرج اليه ولده ومسمار احد امراء الكلبيين ، وكان قد استخلفهما بدمشق في مائتي فارس من العرب...وخرج اليه اهل البلد فخدموه وهنوه بالسلامة».

وحدثه اهل دمشق وشكو اليه اوضاع بلدهم وقال له احدهم:« قد عرفت أنه لم يبق في هذا البلد عشر العشر من الجوع والفاقة والفقر والضعف ولم يبق لنا قوة» ، فوعد اهالي البلد خيرا«ثم اقام بدمشق وجاء التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم ، وعصى عليه الشام ، واعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام ، وقام بذلك المصامدة

والسودان ، وكان اتسز واصحابه قد تركوا اموالهم وأولادهم بالقدس ، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على اموالهم ونسائهم فنهبوها ، ، وقسموا التركيات بينهم ، واستعبدوا الاحرار من الأولاد واسترقوهم ، فخرج من دمشق فيمن ضوى اليه من التركمان ووصل الى قريب القدس ، وراسلهم وبذل لهم الأمان فاجابوه بالقبيح وتوعدوه بالقتال فجاء بنفسه الى تحت السور وخاطبهم فسبوه ، فقاتلهم يوما وليلة وكان ماله وحرمه في برج داود ، ورام السودان والمصامدة الوصول اليهم فلم يقدروا وكان في البرج رتق الى ظاهر البلد فخرج اهله منه اليه ودلوه عليه ، فدخل منه ومعه جماعة من العساكر وخرجوا من المحراب ، وفتحوا الباب

ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة الاف انسان ، واحتمى قوم بالصخرة والجامع . ، فقرر عليهم الأموال حيث لم يقتلهم لأجل المكان واخذ من الأموال شيئا لايبلغه الحصر بحيث بيعت الفضة بدمشق كل خمسين درهما بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهما بدينار وقتل القاضي والشهود صبرا بين يديه وقرر امور البلد وسار الى الرملة فلم ير فيها احدا ، فجاء الى غزة فقتل كل من فيها فلم يدع بها عينا تطرف ، وجاء الى يافا فحصرها ثم دخلها وهدم اسوارها ثم اخذ عائدا الى دمشق ، وكتب الى بغداد «بانه على نية العود الى مصر وانه يجمع العساكر » .

ولم يهمله بدر الجمالي هذه المرة حتى يعد العدة لحملة جديدة ضد القاهرة بل اخذ بزمام المبادرة فاعد جيشا سيره في سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م نحو الشام بقيادة نصر الدولة (يرد اسمه احيانا ناصر الدولة واحيانا نصير الدولة)الجيوشي ووصلت القوات الفاطمية دمشق فاخذت بحصارها ومضايقتها واستولى الجيش الفاطمي على اعمال دمشق واعمال فلسطين واقام على دمشق «مدة مضايقا لها وطامعا في تملكها ، واضر على منازلتها اضرارا اضطر اتسز صاحبها الى مراسلة تاج الدولة(تتش بن الب ارسلان وكان منازلا لحلب يجهد لاخذها) يستنجده ويستصرخ به ، ويعده بتسليم دمشق

اليه ويكون في الخدمة بين يديه ، فتوجه نحوه في عسكره ، فلما عرف نصر الدولة الخبر وصح عنده قربة منه رحل عنها مجفلا وقصد ناحية الساحل وكان ثغرا صور وطرابلس في ايدي قضاتهما قد تغلبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش (بدر الجمالي) بل يصانعان الأتراك بالهدايا والملاطفات ووصل السلطان تاج الدولة الى عذراء في عسكره لانجاد دمشق ، فدخلها واقام بها مديدة «وقرر تتش ان يتخلص من أتسز وينفرد بحكم دمشق «فقبض عليه في شهر ربيع الأول منها (ايلول ـ تشرين اول ١٠٧٨) وقتل اخاه اولا ، ثم امر بخنقه فخنق بوتر في المكان المعتقل فيه ، وملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر فيها » .

☆ ☆ ☆

عندما قام تتش بهذا طوى صفحة حالكة من تاريخ دمشق وجنوب بلاد الشام وذلك بقتله لاتسز مع أخيه وكان اتسز وثلاثة من إخوانه الأربعة قد قتلوا ، فهو ـ أي اتسز ـ قتل شكلي ، وفي حملته على مصر فقد واحدا من إخوانه ، وجاء تتش الآن فأجهز على الثالث .
لقد كره أهل دمشق اتسز هذا كثيرا ولعنوه في كتاباتهم ، وسموه إقسيس ومع ذلك فإن ابن كثير وهو من متأخري مؤرخي دمشق فقد اعتبره بأنه « كان من خيار الملوك وأجودهم سيرة وأصحهم سريرة . أزال الرفض عن أهل الشام ، وأبطل الأذان بحي على خير العمل وأمر بالترضي عن الصحابة أجمعين ،وعمر بدمشق القلعة التي هي معقل الاسلام بالشام المحروس فرحمه الله ، وبل بالرحمة ثراه ، وجعل جنة الفردوس مأواه » . ما اظن ان الله تعالى سيستجيب لدعاء ابن كثير هذا الذي سر لتغيير جملة في صيغة الاذان ، ولم يتأثر أو يتألم لآلاف الأرواح التي اهدرت ، ثم للتهديم الذي أصاب الناس والأرض ، ولا لأجيال من الآلام والخزي تحت الحكم الصليبي ، وهو ابن كثير نفسه حين تحدث بشكل مفصل عن بناء قلعة دمشق قال ناقضا ماذكره من قبل بان اتسز : « شرع في بناء هذا الحصن المنيع » ، ثم بين بأن مكان القلعة كان أحد أبواب دمشق وكان يعرف بباب الحديد ، ومعروف أن البوابات كانت عادة عبارة عن أبراج تتفاوت في القوة والحجم ، ويبدو ان كل ما فعله اتسز انه رم سور دمشق للدفاع عن نفسه ومتن برج بوابة باب الحديد اكثر من سواه ، وبقي الحال هكذا حتى ملك تتش دمشق فاكمل بناء القلعة«واحسن عمارتها » كما قال ابن كثير نفسه(٢٥) .

اما وقد راينا ما حل بدمشق وجنوبي بلاد الشام ، فلنعد نحو الشمال حتى نشهد بقية المأساة ونستوفي القصة ، ونسدل الستار على الشام كبلد فيه للبدو العرب دور سياسي مؤثر.

قبل أن يتوفى محمود بن نصر أمير حلب ، اوصى بالامارة من بعده لولده الأصغر شبيب ، ولكن بعد وفاته لم تراع وصيته هذه ، وعين رجال الدولة مع عساكرها ابنه الكبير نصر(٢٦) وكانت غالبية هذه العساكر مؤلفة من التركمان الذين كانوا يعيشون في حلب ، ولقد

كان مقدم هؤلاء التركمان يعرف باسم احمد شاه ، هذا ويروي ابن العديم ما يفيد بأن احمد شاه كان مخلصا في خدمته لنصر بن محمود (٢٧)ففي سنة ١٠٧٥ م ارسل نصر بن محمود أحمد شاه مع تركمانه لاسترداد بلدة منبج من البيزنطيين الذين كانوا قد احتلوها منذ أيام الامبراطور رومانوس دايجينوس كما سبق ومر معنا من قبل .

وفي الحادي والعشرين (او ٢٤) من أيلول سنة ١٠٧٥ م سلمت الحامية البيزنطية في منبج حصن البلدة للجيش الحلبي وذلك بعد حصار دام فترة طويلة من الزمن ، وبعد هذا بفترة وجيزة تعرضت الأجزاء الجنوبية من إمارة حلب ـ كما سبق وذكرنا ـ لغارات قام بها أتسز مع أخيه جاولي ، ولقد بينا كيف أن نصر بن محمود لما اخفق في كف عادية أتسز وجاولي بالمال والهدايا ارسل احمد شاه مع تركمانه فتصدوا لأتسز وجاولي واشتبكوا معهما في اكثر من معركة ، ولقد هزم احمد شاه في الأول ، وعول اتباعه على العودة إلى حلب لكنه ابى إلا ان يعاود القتال وقال لأتباعه : « ما بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة ، فإن راجعتم الحرب واظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظفر ، وإن ابيتم ذلك فأنا اسير إلى الفرات ، واستدعي اهلي ـ حتى اقاتل بهم ـ فما لي وجه القى به نصر بن محمود ، وإنما أعطى ومنح وأكرم لمثل هذا الموقف .

فأجمعوا امرهم على معاودة الحرب فأسرى من موضعه إلى عسكر جاولي ، وكبسه ، فاستئثار منهم ، ونهب عسكره ، وأسر منهم مايزيد على ثلاثمائة نفس ، وسيرهم في الوثاق إلى حلب مشاة ، وهرب جاولي»(٢٩) .

ولأسباب غير معروفة قبض نصر بن محمود « على أحمد شاه واعتقله بقلعة حلب في عيد الفطر من سنة ثمان وستين وأربعمائة » (٩ أيار ١٠٧٦ م) ، ويبدو ان احمد شاه جاء ثاني يوم العيد لتهنئة نصر ، وصعد إلى القلعة لوحده ، فانتهز نصر الفرصة فألقى القبض عليه ، وبعد أن فعل ذلك « جلس فشرب إلى العصر ، وحمله السكر على الخروج إلى الأتراك ، وسكناهم في

الحاضر ، وأراد أن ينهبهم ، وحمل عليهم ، فرماه تركي بسهم في حلقه فقتله » . لقد كان الحاضر يقع خارج أسوار حلب ، وكان نصر أهوجا ، وعندما زحف على الحاضر كان لوحده وقد سمع وهو يصرخ « نريد الوجوه الملاح » ، ويبدو أن التركمان كانوا مستنفرين ومتوقعين الشر بعد أن سمعوا بإلقاء القبض على مقدمهم ، وزحف التركمان بعد مقتل نصر « إلى البلد يطلبون احمد شاه » ولقد أزعج خبر مقتل نصر اهالي حلب الذين كانوا يحتفلون بعيدهم وكانوا قد تجملوا بأفخر ملابسهم « وكان الزمان ربيعا والأرض نضرة » ، فتدفق الناس نحو حلب وتدفق من كان داخل المدينة إلى بيوتهم ، وما إن سمع من كان في المدينة من رجال الامارة بمقتل نصر حتى أسرعوا فأغلقوا أبواب حلب وعملوا على تدارك الأمور (٣٠) .

كان نصر بعدما اصبح اميرا على حلب قد اوكل معظم شؤون دولته إلى عمه في الرضاعة علي بن المقلد بن منقذ الذي كان يعرف باسم سديد الملك وإلى وزيره أبي « نصر محمد بن الحسن التميمي المعروف بابن النحاس الحلبي » ، وكانت العلاقة بين ابن النحاس وسديد الملك علاقة جيدة ، قد متنها حبهما للادب ، وما أن علم ابن النحاس وسديد الملك بمقتل نصر حتى تصرفا بسرعة « فاستدعوا أخاه سابق بن محمود » وكان سابق ساكنا في المدينة وكان أيضا قد أمضى نهاره يحتسي الخمرة لذلك عندما جلب ليتسلم منصبه الجديد في القلعة لم يدخلوه من بابها بل « رفع إلى القلعة بحبل من السور وهو سكران ونادوا بشعاره واطاعته الأجناد ، واشاروا عليه بإطلاق احمد شاه فأطلقه في الحال ، وخلع عليه؟

ونزل احمد شاه إلى العسكر بالحاضر ، فسكن الثائرة ، واخمد الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعين الأتراك ويقربهم ، ويحسن إليهم، ويقدمهم على أهله بني كلاب ، وينصرهم عليهم (٣١) ولقد أصبح أحمد شاه الآن سيد إمارة حلب الفعلي وأخذ يمارس سلطانه « وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر » وكان سابق من متخلفي بني مرداس ، ولما « عرف بنو كلاب تخلفه ، اجتمعوا إلى

اخيه وثاب وحسنوا إليه اخذ حلب ، وانضاف إليه اخوه شبيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما » ، وعندما راى علي بن مقلد ابن منقذ تدهور الأوضاع في مدينة حلب بتحكم احمد شاه بسابق ، وبقرار قبيلة كلاب مهاجمة حلب لخلع سابق ، عندما راى كل هذا هجر حلب إلى بلدة كفر طاب حيث اخذ يخطط للاستيلاء على شيزر ومن ثم إقامة حكم الأسرة المنقذية في هذه القلعة .

وجمعت قبيلة كلاب كل رجالها ، فاجتمعوا « في جمع عظيم ما اجتمعوا قط في مثله ، يقال إنهم كانوا يقاربون سبعين الف فارس وراجل » .
وعسكرت هذه الجموع في منطقة قنسرين تعد انفسها للزحف على حلب ، وفي داخل حلب « لما تحقق سابق ذلك استدعى احمد شاه امير الأتراك ، وكانوا الف فارس وشاوره » . واخذ احمد شاه يعمل لصد قبيلة كلاب وتفريق جموعها .

ويستنتج من قصيدة القاها ابن حيوس اثناء هذه المحنة أن الناس كانوا يخشون عواقب تحرك قبيلة كلاب ، وانه قد وجد ضغط على سابق كي يحاول تجنب الاصطدام مع آله لأن في ذلك تهديم لقوة العرب ومجد آل مرداس ، ويقول ابن حيوس :

بني عامر لاتمتطوا البغي ضله
فلم يعله المغرور إلا ليسفلا
ولاتتبعوا الأهواء فهي مضلة
وإن سوف الشيطان فيها وسولا
ولاتقتفوا من جار عن منهج الهدى
فأدمى يدا من حقها ان تقبلا
وكونوا كأشياخ لكم غالها الردى
ترى الموت من نقض المواثيق اسهلا
ففي آل ذبيان وأبناء وائل
مواعظ لاتخفى على من تأملا

اعلوا صحيح الراي واتبعوا الهوى

فأيتم منهم كيف شاء وارملا

وقد حدثت في الأرض والأمر واضح

نوائب تنهاكم عن الهجر والقلا

☆☆☆

فلا ترض يا عز الملوك بذلهم

وان يردوا من غير بحرك منهلا

وصنواك لا تعص ابن عمك منهما

وكن غير مأمور إلى السلم اميلا

فما رضيا بالبعد عنك زهادة

ولا ابتغيا ما عز إلا تذللا

وهل طلبا الانصاف من غير أهله

وهل اوعرا في السوم إلا ليسهلا

لم يكن سابق الذي كان بلا حول ولا طول ليقدر على المبادرة للعمل على إحلال السلم مع قومه ، لقد كان أحمد شاه هو الذي يستطيع إنهاء المشكلة ، وهكذا عمل حيث أنفذ « إلى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، وضمن له مالا كثيرا ، فوصله محمد بن دملاج في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان وستين (٧ حزيران ١٠٧٦ م) » ، وتحالفوا ، وخرجوا إلى بني كلاب المجتمعين مع وثاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة (٧ تموز ١٠٧٦ م) » .

وكان بنو كلاب غارين واثقين بعددهم لذلك أخذوا بالمفاجأة « فعند معاينتهم الاتراك انهزموا من غير قتال وخلفوا حللهم وكل ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم ، فغنم أحمد شاه وأصحابه ومحمد بن دملاج وأصحابه كلما كان لبني كلاب ، فيقال

انهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ، ومن إمائهم أكثر ، وكلما كان في بيوتهم ، وعفوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة آلاف عبد مقاتل ، ولم يقتلوا أحدا منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالا يحصى كثرة » (٣٢) .

بعد ثلاثة عشر يوما من هذا النصر المؤزر قامت فرصة جديدة أمام سابق لتدارك بعض ماحدث وللتخلص من التركمان « فبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوما دعا محمد بن دملاج التركي احمد شاه ، فخرج إليه ، وكان نازلا شمالي حلب ، فلما أكلوا وشربوا قبض محمد بن دملاج على احمد شاه واسره ، وكان في نفر قليل ، فأقام في اسره تسعة أيام » ، وعوضا عن أن ينتهز سابق فرصته هذه فيثير اتباع احمد شاه ويحثهم على تخليص سيدهم ، وهكذا يوقع الحرب بين فئتي التركمان فتضعفا فيمكن الخلاص منهما بسهولة ، عوضا عن القيام بمثل هذا ، آثر سابق أن يبقى محكوما من قبل احمد شاه ، لذلك سعى لتحرير سيده وفك أسره ، « فاشترى أحمد شاه من محمد بن دملاج بعشرة آلاف دينار وعشرين فرسا » (٣٣) .

وترك وثاب بن محمود مع بقية المهزومين من أمراء بني كلاب منطقة حلب ، وتوجهوا شرقا إلى خراسان « إلى السلطان ملك شاه ابن ألب أرسلان وشكوا حالهم ، وسألوا منه أن يعينهم على سابق ، فوعدهم واقطعهم في الشام ، واقطع الشام أخاه تتش ، فساروا معه جموع الترك ووثاب ومبارك بن شبل » ، وكان تحرك تتش غربا « إلى الشام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة (١٠٧٧ م) ، وتقدم السلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجي ، وصندق التركي ، ومحمد بن دملاج ، وابن طوطو ، وابن بريق ، وغيرهم من أمراء الترك بالكون مع تاج الدولة ــ تُتُش ــ والمسير في خدمته » ، وعندما وصل تتش إلى ديار بكر التقت به قبيلة كلاب فالتحقت به وسلمته قيادها ليسير بها إلى قتال حلب لاسقاط الدولة المرداسية الكلابية وإحلال حكمه التركماني محلها ! والأحمق دائما يفعل كل

منكر ويسعى إلى حتفه بظلفه ويجني ثمرات حمقه ، ويقتل اصـــالح عدوه وفائدته ، وليس ابلغ من ان نســوق هنا كتعليق قــوله تعـــالى: « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل ســعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهـــم يحســـنون صــنعا » (الكهـــف ١٨ / ١٠٣ ـ ١٠٤).

وعندما وصل تتش إلى حلب وصل إليه والتحق به « شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش في عسكر كثير بأمر ملك شاه ونزل معــه على حلب معينا له »(٣٤) وقبل أن تصل هذه القوات كلها إلى حلب كان سابق قد أخذ احتياطاته ، فقد كان احمد شاه خــارج حلب يحـــاصر انطاكية ، فاستدعاه وطلب منه ترك انطاكية التي تعاني مــن شــدة تضييقه الحصار عليها ، ومن الطريف ذكره ان أحمد شاه لم يتـــرك حصار انطاكية إلا بعد أن قبض من أهلهـــا مبلغ ٠٠٠ ر٥ دينار .(٣٥)

وما أن وصل تتش مع قواته اسوار حلب حتى بدا يحـــاصرها ، وبعد بدء الحصار بأيام قام تتش برفعه وانسحب مســافة عدة اميال عن أسوار المدينة ، ومن المحتمل أن هذا الانسحاب قــد تــم لغـــاية عسكرية هدفت إمـــا إلى اســتدراج المدافعين للخـــروج مــن المدينة للايقاع بهم ، او ان تتش هدف إلى إعادة تنظيم قواته لتقوم بحصار حلب لفترة طويلة حتى تسقط ، المهم ان تتش عاد الى اسوار حلب وعاود حصار المدينة ، ولقد استمر محاصرا اياها مدة ثلاثة اشهر ، وعلى كل حال لم يكن هذا الحصار قاسيا ، فقد « كان هـــوى شرف الدولة ابي المكارم مع سابق ، وكان يسير اليه في الباطن بما يقـــوي نفسه ، وكان ينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر التـــرك »، وعمـــل مسلم على أن تتخلى قبيلة كلاب عن تتش فتـــرحل نحـــو البـــادية أو يدخل رجالها مدينة حلب للمساعدة في الدفاع عنها ، ولقد سهل مهمته هذه أحمد شاه حيث أصيب بضربة أثناء الحصـــار أودت بحياتـــه ، وراسل سابق بني كلاب « فتـــالفهم ، وقـــال لهـــم : اني انمـــا اذب واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هـــذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا » .

واثمرت جهود مسلم بن قريش فتخلت قبيلة كلاب عن تتش بـان رحل القسم الاكبر منها نحو البادية ، ودخل قسم منها مدينة حلب ، وهنا اخبر مسلم تتش بانه سيرحل هو ايضا عائدا نحو الموصل ، «. ورحل وجعل عبور عسكره على باب حلب (ربما باب العراق) وباع اصحابه اسل حلب كل ماكان في العسكر عصبية وتقوية لهم ، وقـوى نفوسهم ونفس سابق ، وسار بعد ان قوي اهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضعف الشديد الى بلاده »(٣٦) .

وتابع تتش بعد انسحاب قبيلة كلاب ومسلم بن قريش وتخليهم عنه . حصاره لمدينة حلب ، ويبدو انه كان متوقعا لمثل هـذا الانسـحاب ، لذلك حاول مسبقا تفادي مخاطره فراسل اخاه ملك شـاه وطلب منه المساعدة بالعساكر وبشكل خاص طالب بامداده بآلات للحصار ودك الأسوار : ولقد التقى مسلم بن قريش ، وهو في طريقه الى الموصل ، عند سنجار بقوة غزية مؤلفة من الف من الجند يقودها رجل اسـمه تركمان ، وكانت وجهة هذه القوة مدينة حلب ، وكانت تحمـل معهـا ادوات الحصار التي طلبها تتش من أخيه ملك شاه ، وحاول مسـلم أن يقنع تركمان بعدم متابعة سيره الى حلب لكنه أخفـق ، وعندهـا انذر سابق وساعده على تشكيل قوة عربية بدوية من مختلف القبائل فيها حوالي الف فارس وخمسمائة راجل ، وكمنت هذه القوة العربية للعساكر الغز فهزمتهم وقتلت اكثـرهم . ولقـد كان الشـاعر ابـن حيوس يعيش هذه الأحداث ويتفاعل بصدق معها ومما قـاله حـول هذه الحادثة :

وكانت الترك بالأعراب جاهلة
حتى أتحت لها أن تعرف العربا

ولم يفت منهم الا اغيلمة
نجت بهم مقربات تحمل الأربا

لولا كلاب لما جاشت جيوشهم
هذي البلاد ولا مدوا بها طنبا

راموا المودات من أعدى عداتهم
وذاك رأي الى غير الصواب صبا

وعندما وصلت أخبار ما حل بالغز الى تتش ترك أسوار حلب وقاد معظم ما كان لديه من قوات ضد البدو العرب الذين كانوا في ريف حلب ، وما أن بعد عن حلب حتى خرجت القوات التي كانت موجودة داخل المدينة فهاجمت معسكراته فقتلت حرسها واغتنمت ما كان فيها ، ويبدو أن تتش لم يحقق اي نجاح في مطاردته للبدو العرب وعندما سمع بنهب معسكره قرر عبور الفرات ليغير على ديار مسلم بن قريش وينتقم منه ، لكنه بعدما عبر الفرات علم بأن مسلم يتوقعه وهو متأهب للقائه والتصدي له ، لذا اضطر مكرها للتخلي عن خطته ، وذهب الى ديار بكر حيث أمضى الشتاء » (٣٧).

ومع رحيل الشتاء واقبال الربيع رحل تتش من ديار بكر مع قوات جديدة من التركمان كان قد جندها ، واقبل على راس هذه القوات نحو حلب يريد أخذها وقد خطط لذلك خطة جديدة ، فلقد هدف الى تجريد حلب من جميع المواقع الحصينة التي كانت تابعة لها ، ومن ثم ينقض على حلب نفسها فيأخذها ، وفي هذا السبيل احتل منبج وحصن الفايا ، وفتح حصن بزاعا « بالسيف وقتل كافة من كان فيه ونهبه ، وشحنه بالرجال ، ورحل الى عزاز وقد انضوى الى قلعتها خلق عظيم ، ومنعهم الوالي بها من الصعود اليها ، فالتجئوا الى سند القلعة بأقمشتهم والناس عليها... فزحف العسكر الى القلعة ، وقاتلها ، وضربها بالنار ، فاحترقت اقمشة الناس وغلاتهم وحرمهم واولادهم »، ورحل تتش بعد هذا نحو حلب فوصلت قواته صباحا ، وقبل أن تستعد هذه القوات وتنظم صفوفها لمهاجمة المدينة انقضت عليها عساكر حلب ففاجأتها « وهزم الله عسكر تتش ... ولو عاد عسكر حلب في إثرهم ما كان افلت منهم إلا من سبق به فرسه».

ولم يحاول تتش — على الأقل لبعض من الوقت — ان يهاجم مدينة حلب بل توجه جنوبا الى دمشق — كما سلف الحديث — فتسلمها وأسس لنفسه حكما فيها (٣٨)

الآن وقد مر بنا عدة مشاهد من فصول الصراع من أجل السيادة على بلاد الشام والجزيرة لابد للمرء من أن يتساءل عن طبيعة هـذا الصراع وبواعثه ومحركاته؟.

انه لمن الواضح مما جاء في روايات المؤرخين الذين كتبوا حول هذا الصراع ودونوا احداثه، ومما جاء في شعر الشعراء العرب المعاصرين للأحداث بأن المحرك الذي كان وراء مسلم في هواه مع المرداسين وفي أعماله لمساعدتهم ضد السلاجقة والتركمان ، هو رابطة العصبية القبلية،ولقد واجهنا في روايات المؤرخين وشعر الشعراء مجموعتين من الناس تتصارعان من أجل السيطرة والسيادة ، ولقد مر معنا بأن « ملك العرب » كان يحتاج أن يحمى ويصان قبل أن يزال من قبل التركمان الأجانب .

وروى ابن العديم بأنه عندما كان تتش يحاصر مدينة حلب كتب سابق بن محمود ــ كما مر معنا ــ الى أخويه شبيب ووثاب وبقية امراء ومقدمي قبيلة كلاب قائلا :« إني انما اذب واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا»، ولقد ترددت نغمة هذه الرسالة في شعر ابن حيوس وفي رسالة نظمها ابو نصر بن النحاس على لسان سابق وتم ارسالها الى محمد بن زائدة الذي كان أحد البارزين بين أمراء قبيلة كلاب ، ومما جاء في هذه الرسالة :

وقل لكلاب بدد الله شملكم
أو يحكم ما تتقون المعايبا

اتستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون اذنابا وكنتم ذوائبا

وها انا لاانفك ابذل في حمى
حماكم مجدا مهجتي والرغائبا

ويروي سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان بأن سابق بن محمود قد كتب في سنة ١٠٧٩ م الى مسلم بن قريش يستغيث به ضد تتش

الذي بعد ان استقامت أمور دمشق له « حشد ليقصد حلب » ، ومما جاء في رسالة سابق قوله :« انت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا فإن كنت ماكولا فكن أنت أكلي »، وسبط ابن الجوزي نفسه ينقل في كتابه مرآة الزمان عن غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء بأن مسلم بن قريش جاء الى حلب في سنة ١٠٨٠ م وحاول احتلالها (كما مر معنا)ولقد تمكن من اخذ المدينة وحاصر سابق بن محمود واخوانه في القلعة ، وطال أمر القلعة وكان في صحبة مسلم مقدمي قبيلة كلاب ، لذلك لما امتد أمر حصار القلعة جمعهم مسلم اليه وخاطبهم:« قد علمتم أني أنفقت أموالي وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وأموالكم ، وكف عادية الغز عنكم ، وهذه مقابلة ما أعرفها فإن كنتم رجعتم فها أنا راجع الى بلادي ومتبرىء منكم ، فأنكروا ما جرى وشرطوا السعي فيه وازالة ما تجدد منه».
إن كلمة « عرب » التي ورد ذكرها في المصادر كانت تشير فقط الى القبائل البدوية العربية لبلاد الشام والجزيرة وليس الى جميع سكان هذين البلدين ، وبنفس الوقت أشارت كلمة « ترك » واستخدمت للتدليل على التركمان الذين رافقوا الفتح السلجوقي لبلدان العالم الاسلامي في القرن الحادي عشر .م ولقد مر معنا بأن بلاد الشام والجزيرة كانت تحكم قبل مجيء التركمان من قبل أسر بدوية عربية من عقيل ونمير وقشير وكلاب مع وجود طيء وكلب وسواهما في جنوبي بلاد الشام ، وبعد سنين من الصراع سنجد التركمان يتمكنون أخيرا من تجريد هذه الأسر من سلطانها وقبائل هذه الأسر من أراضيها وممتلكاتها.
واعتمادا على هذا يمكننا القول بأن الصراع كان صراعا من أجل السلطة والسيطرة بين قوتيين بدويتيين مسلمتيين واحدة عربية تدين بالتشيع وأخرى تدين بالسنة وهي وافدة تريد أن تحل نفسها محل الأولى.

لقد كان البدو يمثلون قسما صغيرا من سكان بلاد الشام والجزيرة وكانت الغالبية تقطن في المدن والأرياف ، ولا بد للباحث الحديث أن يتساءل عن موقف هذه الغالبية من الصراع ومن

المؤسف أن المؤرخ العربي لم يول هذه الغالبية اهتمامه ولم يعرها انتباهه ، وهو حين تحدث عن البدو العرب تحدث عنهم كأصحاب سلطة ، وبنفس الوقت حين تحدث عن التركمان تحدث عنهم كجماعة كانوا يستولون على السلطة وكانوا يقيمون لأنفسهم دولا جديدة ، ولقد تعود الانسان العادي أن يحكم وأن يعاني دون أن يشارك في مصيره ، ومع ذلك يمكن القول بأن غالبية سكان الشام والجزيرة قد وقفت ضد التركمان وكرهتهم لأسباب دينية ، ولما الحقوه بها من المصائب والويلات.

ولا بد لنا من ان نذكر هنا بانه قد ورد في مصادرنا بعض ما يشرح موقف تنظيمات الأحداث ، وخاصة في حلب ، من الصراع بين البدو العرب والبدو التركمان ، ولقد كان الأحداث دائما ضد التركمان ، لكن ينبغي ان نعرف بأن الأحداث لم يكونوا يمثلون جميع سكان المدن والأرياف في الشام وإنما بعضا منهم ، وانهم وقفوا ضد التركمان لا للدفاع عن الناس العاديين وانما على الأغلب للدفاع عن مصالحهم ومكانتهم وسلطاتهم التي هددها مجيء التركمان بالزوال (٣٩) .

اذا كان الخطر الذي واجهته القبائل العربية جعلها احيانا تقف ضد التركمان كي تحافظ على ملكها وأملاكها ، لكن لماذا قاتل ابن خان التركماني واتباعه ثم احمد شاه واتباعه ضد بني جنسهم ولماذا ساندوا الدولة المرداسية وسواها ضد الخطر الغزي والغزو السلجوقي ؟ يكمن الجواب على هذا في طبيعة الجماعة التي انتسب اليها ابن خان وأحمد شاه ، وهي جماعة الناوكية التي قلنا عنها بأنها لم تدن للسلطان السلجوقي بالطاعة ، لذلك خدمت في ظل الدول التي كانت موجودة في الشام والجزيرة .

وعلى الرغم من الناوكية قد ناصبوا السلاجقة العداء فلم يعترفوا بسلطانهم ، إنهم قد خدموا قضية السلاجقة ومهدوا السبيل نحو استيلائهم على بلاد الشام . ومنذ مجيء السلطان الب ارسلان الى بلاد الشام وخوضه معركة منازكرد ، دخل الشام والجزيرة

جماعات جديدة من التركمان دانت له ولخلفائه بالطاعة ، لذا فـانها اختلفت عن الناوكية اختلافا جوهريا فهي طالما كانت تدين بـالطاعة للسلطان فانها لم تكن بحاجة للانضواء تحت لواء أية حـكومة مـن حكومات الشام والجزيرة أو للعمل كمرتزقة لديها ، لقد دخلت هـذه الجماعات إلشام دخول الغزاة وتصرفت تصرف الفاتحين ، وقـالت بأنها كانت مرسلة من قبل السـلطان ومفـوضه مـن قبله ومنفـذه لأوامره ، ولقد كانت طرائق هذه الجمـاعات في الفتح تعتمـد على التخريب والتهديم والتحريق والقتل وتبغي السلب والنهب دونما تأثر بالآلام التي تلحق بالناس ، لأنها كانت بلا ضوابط وبلا اعتبـارات انسانية أو خلقية ، وذلك بسبب طبيعتهـا البـدوية وبسـبب المرحلة الحضارية ودرجة الثقافة التي كانت فيها ، وينبغي أن يضـاف الى هذا كله أن هؤلاء التركمان كانوا ، بسبب تعصبهم الشديد للسـنة ، يعـبرون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله يقاتلون ضد كفـار مـرتدين ليس لهم الا السيف والنار.

من أشهر أسماء زعماء جماعات التركمان التي وصلتنا أسـمين هما صندق وأفشين ، ولقد دخل صندق الشام في سنة ١٠٧٠ م مـن الأراضي البيزنطية ، فشعث المناطق ما بين حمص ومعرة النعمان ، ولقد كان أفشين قبل هذا الوقت يعمل داخل الأراضي البيزنطية ، وقد ألتحق كل من أفشين وصندق بتتش عندما دخل بلاد الشام وحـاول فتح حلب ، (٤٠) وبقي أفشين في خدمة تتش ورافقه حينما تـوجه الى دمشق لاغاثة أتسز (٤١) ، لكنه هجره بعدما فتك بأتسز وتملك دمشق وانفرد بحكمها ، ربما خشية أن ينال نفس المصير ، وعندمـا تخلى عن تتش وهجره أخذ معه الجزء الأكبر مـن التـركمان الذين رافقوا تتش الى دمشق ، هذا ويمكن القول بلا تردد بأن أفشين كان أكثر مقدمي التركمان الذين دخلوا بلاد الشام تهديما وأكثرهم قسوة وأشدهم وطئا وفظاظة على الناس والبـلاد . ويروي كل مـن غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء وابن العديم تفاصيل مـا قـام بـه أفشين بعدما تـرك تتش وتـوجه شـمالا يريد الأراضي البيزنطية ، ويقول ابن العديم: « ثم فسخ مـن عسـكره ـ أي تتش ـ أفشـين

التركي ، ومعه اكثر العسكر وعاد شمالا ونهب عسكره ضياعا في اعمال بعلبك.

ووصل رفنيه في اليوم العاشر من جمادى الأولى (٤٧٢ هـ/٨ تشرين ثاني ١٠٧٩ م) وفيها جماعة كثيرة من التجار والقوافل متوجهين الى طرابلس فهاجمها بغتة ، وقتل ممن كان بها جماعة ، واستباح أموالهم وحريمهم ، واقام بها عشرة ايام ، ثم سار فنزل حصن الجسر ـ قرب شيزر ـ فأكرمه ابو الحسن بن منقذ ، فأعلمه بما عول عليه من نهب الشام ، فسأله في بلدة كفرطاب الا يعترضها فأجابه.

وسار فنزل قسطون ـ من قرى جسر الشغور ـ فجرى أمرها في النهب والعقوبة مجرى رفنيه ، واقام بها نيفا وعشرون يوما ، ثم تنقل وعسكره بالمنجنيقات على ابراج جبل السماق وغيرها ، حتى لم يبق بها موضع ولا برج الا افتتحه واهلكه ، واستباح حريمهم واولادهم ، واستغرق أحوال اهل سرمين والمعرة بالقطائع ، وطلع الى جبل بني عليم (جبل الزاوية الآن) فلم يتم له بها شيء .

وسار فنزل ضياع معرة النعمان الشرقية بالمنجنيقات ، ففتح ابراجها وحصونها بالسيف ، واخذ مالايمكن إحصاؤه ، وغلب اهلها فهلك منهم خلق ، ونزل تل مذس ـ قرب المعرة ـ وقطع عليها خمسة الاف دينار ، ولم يتمكن من اخذها .

وانتقل إلى عمل معرة النعمان ففعل مثل ذلك . وسار إلى معرتاح ـ من عمل كفر طاب ـ فتحصن أهلها في أبراجها ، وتعذرت عليه فأحرقها ، وهلك جميع من كان فيها ...

وحين رجع أفشين من الشام ولم يبق في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب ، توجه إلى بلد إنطاكية فخرب ماقدر عليه ، ونهب وسبى ماوجد ، وحمل إليه من إنطاكية مال ، وتوجه إلى الشرق بعد إمتلاء صدره وصدر عساكره من النهب » .

ويتابع ابن العديم ، الذي شهد الغزو المغولي ورأى بأم عينه مافعله التتر في بلاد الشام ، حديثه فيقول : « وجرى من هذا

الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله ، وتلف أهله بعد ذلك بالجوع ، ووجد قوم قد قتلوا قوما وأكلوا لحومهم ، وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينار وما سوى ذلك بالنسبة .

وجلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مسلم ابن قريش ، فأحسن إليهم وتصدق عليهم ، وكان ذلك الاحسان منه أكبر الأسباب في مملكته حلب» (٤٢) .

بعد قرابة عشرين سنة من هذه الأعمال استولى الصليبيون على انطاكية ، ثم مروا في هذه المنطقة الجبلية الصعبة — في طريقهم إلى القدس — دون أن يلقوا اية مقاومة تذكر ، ويشير هذا إلى حقيقة مؤلمة هي انه حتى بعد عشرين عاما لم تستطع هذه المنطقة ان ترمم بعض مالحقها من تشعيث وتهديم ، ولكن بعد بضع سنوات من استيلاء الصليبيين عليها لقد كان من أصعب الأمور على نور الدين محمود بن زنكي ومن جاء بعده من امراء المسلمين استخلاص هذه المنطقة من الصليبيين

لقد اقتنع كل إنسان في شمال بلاد الشام — وحتى في الجنوب — بأن سابق بن محمود ليس لديه من الطاقة والعزيمة ما يمكنه من صنع اي شيء يحسن به الوضع ويواسي به الناس ويخفف من الام المصائب التي حلت بهم ، لهذا أخذ الناس — ومن جملتهم قبيلة كلاب — ينظرون حولهم علهم يجدون قائدا قويا وعادلا ، لقد كان امامهم : السلطان ملك شاه ، وتتش بن الب ارسلان ، ومسلم ابن قريش العقيلي امير الموصل .

لم يكن السلطان ملك شاه ليفي بالغرض ويلبي الرغبات ، فهو قد كان بعيدا عن مسرح الأحداث مشغولا بسوى الشام والجزيرة من القضايا ، يضاف إلى هذا أن التخريب قد تم باسمه وربما كان هو راض عما حدث لأن ذلك كان سيمكنه من اخذ الشام وضمه مع الجزيرة إلى املاكه .

أما تتش فقطعا لم يكن بالشخص الذي رجا الناس على يديه العدل والرحمة ، فهو لم يكن أحسن بكثير من أفشين .

ولقد بدا لكل الناس بأن مسلم بن قريش العقيلي هو الرجل الذي يمكنه أن يشغل الدور الذي رجوه منه ويؤديه بإخلاص احسن اداء ، وعلى هذا الأساس توجهت نحو الموصل عدة وفود وجماعات تمثـل مختلف طبقات الناس من أهالي الشـام مـع أعداد هـائلة مـن اللاجئين ، ولقد استغاث هؤلاء بمسلم بن قريش وطلبوا منه التحرك نحو الشام لتخليصه .

عندما نستعرض ديوان ابن حيوس الذي أمضى قـرابة السـتين سنة من عمره يمدح بها حكام دمشـق الفـاطميين ثـم الأمـراء المرداسيين في حلب مع عدد من الوزراء والقادة الفاطميين ، عندمـا نستعرض هذا الديوان يسـترعي نظـرنا قصـيدة متميزة بصـدق عاطفتها وشدة تعبير احاسيس قائلها ، وقد نظم ابـن حيوس هـذه القصيدة في أخريات أيام حياته ، ومدح بها مسلم بن قريش عندمـا فتـح مدينة حلب وأسقط الدولة المرداسية ، وفيها يقول :

يا رحمة بعثت فأحيت أمة
قد طالما منيت بمن لم يرحم

جليت ظلم النائبات كما جلا
ضوء الغزالة جنح ليل مظلم

واطرت طير الخوف حتى ماله
بالشام منذ طرقته من مجثم

إن الرعايا في جنابك امنت
كيد الغشوم وفتكه المتغشرم

لاالظبية الغيداء تخشى القسور الضـ
اري ولا الذمي حيف المسلم

فخصصت بالاذلال كل مقلنس
وعممت بالاعزاز كل معمم

وغدا ستخلي الشام منهم مثلما
اخلت خزاعة مكة من جرهم

ولم يتحقق حلم ابن حيوس في إخلاء الشام من التركمان ، وسنرى بالتفصيل كيف اخفق مسلم في تحقيق ما صبا إليه ، وكيف هزمه التركمان وقتلوه وهو يجاهد في سبيل إقامة دولة عربية تشمل الشام والجزيرة مع اجزاء واسعة من العراق (٤٣) .

بعدما سمع تتش بالأعمال التي جناها افشين ترك دمشق وتوجه شمالا بحجة أنه يريد مطاردة افشين ليوقفه عن متابعة اعماله التدميرية ، لقد كان هذا ما تظاهر به تتش ، ويبدو أن قصده الحقيقي كان الاستفادة من الفرصة التي اوجدتها أعمال افشين لكي يهاجم حلب ويحتلها ، وفعلا وصل تتش إلى حلب وحاصرها أياما لكنه عندما أدرك عدم استطاعته اخذ المدينة بقوة السلاح رفع الحصار وانسحب متوجها شمالا حيث نهب القرى المحيطة بالمدينة ممن كان له حظ النجاة من افشين ، ثم عاد بعدها مع غنائمه إلى دمشق (٤٤).

وفي مدينة الموصل استقبل مسلم بن قريش وفدا حلبيا مع رسالة من أحداث حلب فيها تجديد للاستغاثة والدعوة للقدوم الى حلب لانقاذها ، كما استقبل ايضا وفدا من أمراء قبيلة كلاب عملوا له نفس المطالب ، ووعدوه بالمساعدة والسير في ركابه ،وتبعا لما رواه عدد من المؤرخين العرب كتب سابق بن محمود الى مسلم بن قريش لا ليطلب منه المساعدة فقط وانما ليعرض عليه التنازل له عن الامارة.

وهنا قرر مسلم بعد تسلمه لكل هذه الطلبات لا العمل للاستيلاء على شمالي بلاد الشام فقط وإنما على جميع مناطق الشام ومدنه ، ولقد كانت إحدى زوجات مسلم أختا للسلطان الب ارسلان اي عمة للسلطان ملك شاه ، وخشية أن يقوم السلطان ملك شاه او احد قادته بمهاجمة الموصل بعدما يتركها مسلم حينما يتوجه إلى الشام ، قام مسلم بإجراء احتياطي ، « فانفذ ولده من خاتون عمة السلطان ملك شاه إليه ، وشرط على نفسه في كل سنة ثلاثمائة الف دينار ، فاجابه وامره بقصدها — اي حلب — فسار إلى قلعة جعبر فحصرها ، وكان بها جعبر واصحابه يقطعون الطرق ،

فصالحوه على أنهم لايعودون إلى شيء من ذلك ، وسار إلى حلب فوصلها ثاني عشر ذي الحجة (٥ حزيران ١٠٨٠ م) ومعه بنو كلاب وكلب ونمير وجميع القبائل ، وقد أطاعوه خوفا من الغز ، وانفق عليهم الأموال ، فكسر الأحداث الأبواب يوم الجمعة لعشر بقين من ذي الحجة ، ودخل اصحابه اليها ولم يتاذ احد من اهلها ولا اغلق فيها دكان .

وراسل سابق بن محمود وهو في القلعة مراسلة انتهت إلى ان يزوجه سابق باخته ويعوضه مالا على ان يسلم القلعة ، فرضي وحط سابق رحله وماله إلى البلد ، ولم يبق إلا ان ينزل ، فوثب عليه اخواه شبيب ووثاب فقبضا عليه واستوليا على القلعة » .

وهنا اخذ مسلم بحصار القلعة وطال الحصار ودام أكثر من اربعة اشهر ، وضاق مسلم ذرعا وتبرم من ذلك ونوى التخلي عن حلب والعودة إلى الموصل ، لكن التشجيع الذي لقيه من اهالي حلب ، ثم الوعود التي لقيها من مقدمي قبيلة كلاب ، مع ما كان يقوم به شخصيات الامارة بالتوسط بينه وبين الأمراء المرداسيين في القلعة اقنعة بالبقاء في حلب ومتابعة حصار القلعة

ووقعت بعض الخلافات بين الأمراء المرداسيين ، وكان ذلك فرصة اقتنصها علي بن المقلد بن منقذ فتوسط بينهم وبين مسلم بن قريش ، وقد استطاع أن يقنعهم بالتخلي عن القلعة وتسليمها إلى مسلم مقابل تعويضات مالية مع اقطاعات لكل واحد منهم ، وهكذا نزل الأمراء المرداسيون من القلعة وتسلمها مسلم يوم الأحد العاشر من ربيع الآخر سنة ٤٧٣ هـ (او يوم الثلاثاء الخامس منه) ٢٧ ايلول ١٠٨٠ م ، فزالت بذلك دولة بني مرداس (٤٥) . واصبح الآن مسلم بن قريش سيدا على شمالي بلاد الشام مع الجزيرة وأجزاء من العراق ، وكان لهذا فوائده ولكنه حوى مخاطره ايضا ، فالدولة الجديدة قد تعلق استمرار وجودها باستمرار مسلم بن قريش وبقائه حيا ، وكانت اية ضربة تزيل مسلم من الحياة تزيل في نفس الوقت الدولة التي اقامها وتجعل اراضيها لقمة سائغة للتركمان . وهذا ما حصل .

قبل أن تسقط الدولة المرداسية ، وأثناء حكم سابق بـن محمـود ذكرنا بأن علي بن مقلد الأمير المنقذي صاحب كفر طاب كان قد هجر مدينة حلب وذهب إلى كفر طاب فأخذ يخطط لاحتلال قلعـة شـيزر المنيعة ٠ وكانت هذه القلعة تحكم انئذ من قبل أسـقف البـارة الذي كان يدين بالطاعة للامبراطور البيزنطي ، ولما كانت شيزر مـن امنع المواقع في بلاد الشام ، فقد كان من المحال اخذها بالقوة ، لذلك وضع علي خطة هدفت إلى حصار شيزر حتى تسقط من قبل نفسها بعـد أن ينفد ما فيها من مؤن وذخائر ، وفي سبيل هـذه الغـاية بنى علي قلعة على العاصي قريبا من شيزر اصبحت تعرف باسم قلعة الجسر ، وبعد ما سقطت الدولة المرداسية عاد علي إلى قلعـة الجسر وصرف جهوده كلها في سبيل فتح قلعة شيزر ، واخيرا وبعد ان ضاق الحـال بالمدافعين عن شيزر واشتد بهم الأمر استطاع علي ان يقنع أسـقف البارة بالتنازل له عن شيزر مقابل مبلغ مـن المال ، وفي يوم الأحـد الخامس عشر من رجب سنة ٤٧٤ هـ / ١٩ كانون اول ١٠٨١ م ، تسلم علي بن مقلد قلعة شيزر ، وغدا سيدها فـأسس بـذلك حـكم الأسرة المنقذية في شيزر ، هذه الأسرة التي كانت مـن ابـرز الأسر العربية زمن الحروب الصليبية (٤٦) .

وفي حلب عندما سمع مسلم بن قريش بخبر سقوط شيزر لعلي بن مقلد ، تحرك بسرعة وعمل من اجل انتزاعها منه ، وكان أول ما عمله هو أن جهز جيشا أرسله ضد شيزر بقيادة أخيه علي بـن قـريش، وعندما وصل علي بن قريش مع جيشه إلى شـيزر بـدأ يحـاصرها ولكن دونما جدوى فقد كان اميرها المنقذي قد شحنها بكل مـا كانت تحتاج إليه من سلاح ومؤن وعتاد كي تقف وتقاوم لفترة مديدة .

ولما لم تسقط شيزر لعلي بن قريش تحرك مسلم نفسه مع قـوات جديدة نحوها ، واخذ يحاصرها ، ومرة اخرى لما وجد مسـلم بـأن الأمر سيطول ترك منطقة شيزر حتى تسـقط ، وفي حمص اسـتقبل مسلم بن قريش وفـدا منقـذيا عرض عليه مبلغ ٠٠٠ ر ١٠ دينار مقابل رفع الحصار عن شيزر ، وقبل مسلم بالعرض فـاستلم المبلغ واصدر اوامره إلى اخيه برفع الحصار والانسحاب .

ويذكر ابن العديم أن الذي دفع مسلم بن قريش على حصار شيزر هو حسده لابن منقذ (٤٧) . وهذا في الحقيقة وهم ومبالغة ، ذلك ان الحوادث التي وقعت كلها تبرهن على ان دوافع مسلم كانت ابعد من الحسد ، لقد كان مسلم يكمل ما بدأ به في حلب ، لقد كان يعمل على جعل الشام كله قطعه من دولته ، وفي هذا السبيل كان عليه أن يجعل جميع القوى تتحد راغبة أو راهبة تحت رايته ، فبعد أن استولى مسلم على حلب التفت نحو الامارة النميرية في حران فأتى عليها وضمها إلى املاكه (٤٨) وقام بعد هذا بتجريد جميع أمراء الأسرة المرداسية من املاكهم ، كما استولى على جميع القرى والأراضي الحلبية التي كانت في ايدي التركمان ، ونظف شمالي الشام حتى مدينة حماه من التركمان وحال دونهم ودون الدخول الى أراضيه حتى ودومرورا ، وإتوج أعماله هذه بأن مد نفوذه على مدينتي الرها في المشرق وانطاكية في الغرب وكانت من أملاك الامبراطورية البيزنطية (٤٩).

وبعدما ترك مسلم شيزر وتوجه نحو حمص كان يريد الاستيلاء على هذه المدينة من خلف بن ملاعب الذي كان قد امتلكها وكان قصده من اخذ حمص ان يجعل ذلك خطوة أولى ممهدة للاستيلاء على بقية الشام وخاصة دمشق وطرد تتش منها ، ولقد استطاع مسلم احتلال مدينة حمص وبدأ في حصار قلعتها ، واثناء الحصار علم بأن تتش يعد عدته للتحرك ضده من دمشق .
ولما لم يكن مسلم قد أعد أموره للاصطدام مع أخي السلطان في هذه المرحلة فقد آثر عدم متابعة حصاره لقلعة حمص ، لذا تصالح مع خلف بن ملاعب وتركه وترك حمص له ، وقبل ذلك كان قد استقبل وفد شيزر وتصالح معه ، ثم سحب نفسه شمالا إلى حلب ، ثم شرقا إلى الموصل ليجهز قواته لمرحلة دمشق ، والقتال ضد تتش .

لقد كان مسلم بن قريش يدين بالتشيع على مذهب الامامية الاثني عشرية ، وكانت الخلافة الفاطمية هي الدولة الشيعية الوحيدة في منطقة — مايسمى الأن بالشرق الأوسط — وكانت هذه الدولة قد تضررت كثيرا من التركمان ، لهذا كان من الطبيعي أن تتلاقى

مصالح هذه الخلافة مع مصالح مسلم بن قريش ، وأن توفق بينهما المبادىء العامة للتشييع ، لذلك عندما كان مسلم يعد عدته للحملة على دمشق قامت اتصالات بينه وبين بدر الجمالي في القاهرة وتم الاتفاق بينهما على أن ترسل القاهرة جيشا فاطميا يساعد مسلم بن قريش في الاطباق على دمشق عندما يصلها مسلم ويأخذ في حصارها ·

ولم يكن مسلم انئذ هو الذي يتحرك فقط ، فقد استلم هذا الوقت تتش رسائل من أمراء الأسرة المرداسية ، ومن خلف بن ملاعب صاحب حمص ، ومن الأمير المنقذي لشيزر ، فيها الشكاية ضد مسلم بن قريش وفيها عروض للتعاون معا ضده لطرده من بلاد الشام ، ولتسليم املاكه لتتش . ولقد تجاوب تتش مع العروض التي بذلها هؤلاء الامراء له فجمع قواته وقادها شمالا نحو انطاكية ، وذلك في الوقت الذي كانت قد تجمعت فيه قوات الامراء العرب وتحركت شمالا تريد حلب ، ولقد احتلت هذه القوات حماه ثم اخذت معرة النعمان وارادت ان تتابع سيرها نحو حلب ، هذا وان تحرك تتش نحو انطاكية مع المنحى الذي تحركت عليه القوات العربية يوحي بوجود خطة مرسومة للاستيلاء على حلب ، وربما بنيت هذه الخطة على ان يستولي تتش على المناطق الشمالية الغربية لامارة حلب في حين تستولي القوات العربية على المناطق الجنوبية ، وعند الفراغ من ذلك تلتقي القوتين عند حلب فتطبق عليها وتنتزعها ، وبذلك يطرد مسلم من الشام .

ولم ينفذ الا جزء من هذه الخطة المفترضة ، فقد سمع مسلم بن قريش بنبأ تحرك تتش وحلفائه العرب ، لذلك سارع بعبور الفرات على رأس قوات كبيرة وقصد اولا مدينة حلب ومنها كان يريد دمشق ، ولقد اجبر تحرك مسلم السريع تتش وحلفائه على الاقلاع عن متابعة اعمالهم والتراجع كل الى بلده وموقعه الحصين للدفاع عنه ضد مسلم بن قريش .

وفي حزيران سنة ١٠٨٣ القى مسلم بن قريش الحصار على مدينة

دمشق ، وبهذا كان ينفذ اهم اعماله كلها ، ويقوم بـالخطوة الاخيرة والمهمة نحو تأسيس دولة عربية تضم الشام والجزيرة مع اجزاء من العراق : ولقد اخفق مسلم في اخذ دمشـق وذلك بعـد ان حـاصرها قرابة شهر ، كما انه اجبر على الانسحاب ، وان الاسباب الرئيسية التي كمنت وراء اخفاقه هي :

١ ــ التركيب القبلي لقواته ، ذلك ان هذه القوات قد ضـمت عناصر من معظم قبائل الشام ، فقـد كان فيهـا بـالاضافة الى عقيل عددا لابأس به من كلاب ونمير ، كمـا انهـا ضـمت اعدادا مــن اكراد الجزيرة ، ثم انضاف اليها عندما وصلت دمشق اعداد من طـيء ، وعليم ، وكلب ، ولقد كان العقيليون هم ــ ربما ــ الجـزء الوحيد في قواته الذي اخلص له ، اما باقي اجزاء هذه القـوات فقـد دخلت في خدمة مسلم اما عن رغبة او عن رهبة ، رهبة منه وخوفا من بطشه ، ورغبة في نيل بعض الغنائم عندما تسقط دمشق ، وكان هـذا حـال عليم ، وكلب ، وطيء .

ومفيد ان ننبه هنا الى انه حتى وقت حادثنا هذا لايمـكن تقـدير التركمان الذين استقروا في الشام باكثر مـن ٠٠٠ر١٥ ، لقـد كان هناك عدد صغير من المقدمين ، وكل مقدم كان اتباعه اما ٥٠٠ رجل او ٠٠٠ر١ مقاتل ، وهكذا كان عدد التركمان مجتمعين اقل بكثير من عدد اي قبيلة عربية من قبائل الشام والجزيرة ، ولكن بينما فاق العرب التركمان بالكمية والعدد ، لقد فاق التركمان العرب بـالكيفية والقدرة القتالية،لقد احسن التـركمان فنونا مــن القتـال واجـادوا استخدام اسلحة لم يبارهم العـرب ولا سـواهم بهـا ، وخـاصة استخدام الاقواس ، فقد كان التركماني فارسا يرمي وهو على ظهر فرسه في مختلف الاوضاع الى الامام والخلف والجوانب ، واهم من كل هذا لقد كان التركمان بدوا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، كانت لديهم روح البداوة العنيفة ، وكان لديهم اقـدام البـدو وقسـوتهم ، وكان التركماني يعتمد على نفسه في المعركة ولم يكن لديه اتبـاع او خـدم يصاحبوه في المعركة ، وكان البدو العرب لا يشبهون التركمان في اي

شيء تقريبا ، لقد كانوا بعيدي العهد بالبداوة الحقة ، كانت روح القتال لديهم قد خبت جذوتها ، فاستخدموا العبيد المقاتلة . كانت الدنيا ومتاعها شاغلهم وكان تعلقهم بالحياة ومتعها قد جعلهم ينسون كيف يخططون او يفكرون بعقل ، ولقد مر بنا العديد من الامثلة ورأينا كيف ان ٥٠٠ ر١ تركماني هزموا ٠٠٠ ر٧٠ كلابي وسيمر بنا امثلة اخرى اضافية تزيد في البرهان .

ب ـ مقاومة تتش الفعالة ، وهجوماته المفاجئة التي كان ينقض بها على بعض اجنحة عسكر مسلم فيحطمها ثم يعود الى داخل دمشق ، ويقول ابن الاثير :« وفي بعض الايام خرج اليه ـ اي الى مسلم ـ عسكر دمشق وقاتلوه وحملوا على عسكره حملة صادقة ، فانكشفوا وتضعضعوا ، وانهزمت العرب ، وثبت شرف الدولة ـ مسلم بن قريش ـ واشرف على الاسر ».

ت ـ عدم وفاء الخلافة الفاطمية بوعودها ، « وكان شرف الدولة قد اعتمد على معونة عسكر المصريين على دمشق ، ومعاضدته بالعسكر المصري على اخذها ، فوقع التقاتل عليه بالانجاد والتقاعد عنه بالاسعاد اشفاقا من ميل الناس اليه ، وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه .

فلما وقع يأسه مما امله ورجاه وخاف ماتمناه وورد عليه من اعماله ما شغل خاطره في تدبيره واعماله ، وتواترت الأخبار بما ازعجه واقلقه ، رأى ان رحيله عن دمشق الى بلاده وعودته الى ولايته لتسديد احوالها واصلاح اختلالها اصوب من مقامه على دمشق واوفق من شأنه ».

ج ـ لقد كان الذي ازعج مسلم واقلقه وجعله يقلع عن متابعة حصار دمشق هو خبر قيام ثورة في حران ضده ، ويقول الذهبي : « عصا اهل حران على شرف الدولة مسلم بن قريش ، واطاعوا قاضيهم ابن جبلة الحنبلي ، وعزموا على تسليم حران الى جبق امير التركمان لكونه سنيا ولكون مسلم رافضيا »، وعندما « وصل الخبر الى مسلم بان اهل حران عصوا عليه ... رجع كارا الى حمص وصالح في

طريقه ابن ملاعب وحالفه واعطاه مضافا الى حمص رفنية وسلمية ، وأقطع شبيب بن محمــود بــن الزوقلية حمــاه ، واســتخلفه في تلك الاعمال .

وعاجل حران فـوصلها يوم الجمعــة ثـامن ربيع الاول فـــوجد قاضيها ابن جلبة الحنبلي قد استغل اهلها وادخل اليها جماعة مـن بني نمير ... وانفــذ «.. الى جبــق امير التــركمان ، وكان قـــريبا فاستدناهـم اليه ليسلم اليهم البلد ...

وشرع القاضي يعلم مسلما ويمنيه خديعة منه ليصــل التــركمان ، وعلم مسلم فحاربهم ورمى قطعة من السور ، وبينما هـو كذلك وصل التركمان ، فترك اقواما يقاتلون البلد ، وركب هـو بمن معه ، فأشرف على التركمان ، واتصل الطراد ، وقال للعرب ، املكوا عليهم النهــر المعروف بالجلاب واجعلوه وراءكم ، وحولوا بين التــركمان وبينه ، ففعلوا ، وعطشوا وخيلهم ، وهجرت الشمس عليهم ، فمالوا بجمعهم طالبين رأس الماء على ان يشربوا ويســقوا خيولهــم ويعــودوا على العرب ، فلما عطفوا خيولهم لم يشك العرب انهــا هــزيمة ، فـألقوا نفوسهم عليهم ، فانهزموا ، فتبعوهم وغنموهم وقتلوا واسروا .
واقام مسلم على حصار حران ، وكان كلما رمى قطعة من السور نصب ابن جبلة بإزاء الثلمة مجانيق وعرادات منعت من يروم القرب منها .

وطال حصار حران وتمكن مسلم اخيرا مــن اختــراق الاســوار ودخل حران « فقتل خلقا كثيرا من اهــل البلد ... ثــم طلب القــاضي فوجد في كندوج) فيه قطن فأخذ وولديه ، وقبض على اعيان اهل حران ونهب البلد الى اخر النهار ، ثم رفع وصلب القاضي وولديــه واعيان الحرانيين على السور ، وقتل خلقــا مــن العــوام ، وعاد الى منزله بأرض الموصل » (٥٠) .

وصل في هذه الآونة الى الشام والجزيرة موجة مــن المهــاجرين التركمان ، وكان ابرز مقدمي هذه الموجة أُرْتُق وجبــق ، وفي الواقــع كان ارتق هو الاهم بين مقدمي هذه الموجة والاكثر شــهرة ، ذلك انه

شغل دوراً مؤثراً في انزال ضربة قاصمة بالقوة البدوية العربية في الجزيرة ، كما شارك في الصراع بين التركمان من اجل السيادة على بلاد الشام ، يضاف الى هذا كله انه كان جد الاسرة الارتقية التي حكم افراد منها في حلب والجزيرة وكانوا من اهم قادة المسلمين ايام الحملة الصليبية الاولى ثم اثناء الفترات التالية .

وعندما كان التركمان يؤسسون امبراطوريتهم ويعملون من أجل مد سيطرتها على دول العالم الاسلامي للقرن الحادي عشر م ، لم يكن مقدمي جماعات التركمان هم وحدهم الذين بذلوا غاية جهودهم من اجل اقامة دويلات لانفسهم ، بل صنع عدد من رجال الادارة الاسلامية المحترفين الشيء نفسه ، ولقد كانت اسرة آل جهير بين هؤلاء ، وكان محمد بن احمد بن جهير هو رب هذه الاسرة ، وقد بدأ حياته الادارية في مدينة الموصل حيث شغل منصب الوزير فيها ، ثم ترك الموصل فذهب الى حلب حيث عمل بنجاح فائق وزيراً لثمال بن صالح ، وبعد ان خدم ثمال فترة طويلة من الزمن ترك مدينة حلب مخافة ان يوقع حساده بينه وبين سيده ، وتوجه الى ميافارقين فعمل وزيرا فيها ، ومن ميافارقين طارت شهرة ابن جهير فطلبه الخليفة القائم واستدعاه الى بغداد ليكون وزيراً له ، وذهب ابن جهير الى بغداد فعمل في خدمة القائم ثم في خدمة خليفته المقتدي .

وكان محمد بن احمد بن جهير هذا يعرف بلقب فخر الدولة ، ولقد تمكن خلال عمله في بغداد من إقامة علاقات ود متينة مع نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان ومن بعده ابنه ملك شاه ، واشهر وزراء الدولة السلجوقية ، وبدون شك أعظم رجال الادارة والتشريع في تاريخ الاسلام ، فهو مؤسس المدرسة النظامية ، ومطور نظام الاقطاع العسكري ، واليه ينسب كتاب سياسة نامة الشهير .

وكان من ثمرات العلاقات بين فخر الدولة ونظام الملك زواج ابنه محمد ــ اي ابن فخر الدولة ــ الذي كان يعرف بلقب عميد الدولة بابنتين من بنات نظام الملك واحدة بعد اخرى .

وعندما صرف فخر الدولة عن وزارة المقتدي خلفه ولده عميد

الدولة وذلك بفضل جهود نظام الملك وبسبب مابذله من ضـغوط على دار الخلافة ، ولقد بقـي عميد الدولة وزيرا حتـى عزل يوم الجمعـة ٢٥ صفر سـنة ٤٧٦ هـ / ١٤ تمـوز سـنة ١٠٨٣ م ، وهنا غادرت اسرة آل جهير مع اسبابها ومن تعلق بها مدينة بغداد وأخذت طريقها الى اصفهان حيث استقبلت بحفاوة ، ورحب بها مـن قبـل السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك .

وفي تشرين الاول من نفس السنة (١٠٨٣ م) فوض السلطان ملك شاه الى فخر الدولة الامر في ان يقود جيشا سـلجوقيا مـن جيوش السلطان يذهب على راسه الى الجزيرة لفتح ديار بـكر ومـن ثـم القضاء على الدولة المروانية . ولقد عين السلطان ملك شاه أق سنقر قسيم الدولة الذي سيكون اول حاكم سلجوقي لحلب ــ كما سنرى في أول الفصل التالي ــ عينه كمسؤول عسكري عن شؤون الحملة

وعندما وصلت انباء هذه الحملة الى الجزيرة سببت قيام تحالف بين قوتي الجزيرة المتخاصمتين ، اي بين الدولة المروانية وبين مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب ، ولقد دفعت الدولة المروانية لمسلم بـن قريش مدينة آمد وذلك في سبيل تحالفه معهـا ووقـوفه الى جـانبها عوضا عن الوقوف ضدهـا ، وتجمعت قوات مسلم بـن قـريش مـع القوات المروانية قرب أمد للتصدي لابن جهير ، وعندما وصلت اخبار التحالف المرواني العقيلي الى ابن جهير أخبر به السلطان ملك شاه واستمده « فأردفه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير ارتق بن اكسب ابو الملوك الأرتقية »، وجاءت القوات التـركمانية الى قـرب أمد وعسكرت أمام القوات العقيلية المروانية ، وحاول ابـن جهير ان يقنع مسلم بالتخلي عن القتال والانسحاب وقال : « لااوثر ان يحـل بالعرب بلاء على يدي »، « ووقعت المراسـلة ــ بينه وبين مسـلم ــ وكل أشار على مسلم بالرجوع الى اعماله ، فقـال : تـرجعون مرحلة الى ورائكم وارجع انا لئلا يقال انني عدت منهزما ، فـامتنع أرتق بـك وقـال : انا لاارد رايات السـلطان على عقبهـا ، وعرف التركمان ما يجري فقالوا: نحـن جـئنا مـن البـلاد البعيدة لطلب

النهب ، وهؤلاء يسارعون في الصلح ، وركبوا نصف الليل من غير اعلام ارتق ، وأشرفوا ... على العرب وكانوا أضعاف الغز ، فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب ، واحتاطوا بهم ، ولم يكن لمسلم سبيل الى الهرب ، فطلب صوب آمد ، وتبعه ابن مروان وجماعة من أصحابهما ، فدخلوا آمد.

وأشرف ابن جهير وارتق بك على القوم ضاحي النهار ، وقد استولى التركمان على الحلل والأموال والمواشي، وكان مما لايحد ولايحصر ، وأخذوا النساء وفضحوهن ، وربطوا أمراء بني عقيل بالحبال ، وباعوهم بالقراريط ، وأشعل التركمان عشرة آلاف رمح تحت القدور ، وجرى على العرب ما لم يجر عليهم قبله مثله ، وسبوا نساءهم ، وبلغ الفرس الجيد دينارا ، وكذا الجمل والفرس ، والرأس الغنم نصف قيراط ، والعبيد والاماء من دينار الى دينارين وما سوى ذلك فما اشتري ولابيع ».

وتحرك ابن جهير الآن بسرعة ، واراد استغلال ما حدث لصالحه وصالح السلطان فبعث « الى ارتق بك يقول : قد حصلت بنو عقيل في أيدي التركمان ، ويجب أن تجمعهم وتنفذهم الى السلطان ، وتقيم على هذا الانسان ، يعني مسلم بن قريش ، وتستنزله ، وقد ملكت الأرض الى مصر ». ولقد كان هذا ما تخيله ابن جهير وتمناه لكن الأقدار وارتق بك أرادا شيئا آخر. وفي أصفهان عندما سمع السلطان ملك شاه أخبار ما تم عند امد خيل اليه هو الآخر بأن الجزيرة والشام غدتا من املاكه، لهذا سارع الى استغلال هزيمة مسلم وتمتين نصر التركمان فقاد قواته وتوجه نحو الجزيرة ، وعندما وصلها دخل مدينة الموصل وأخذ يعد نفسه لاكمال زحفه على الشام ، ومرة أخرى لقد أراد ملك شاه شيئا وارادت الاقدار وارتق شيئا آخر . فبعدما دخل مسلم مدينة آمد محتميا بأسوارها كتب الى « ارتق بك وقال : لمثل هذا اليوم خبأتك ، ولمثله تستحب الصنيعة ، وأريد أن تمن علي بنفسي ، وبذل له مالا ارغبه فيه »، ورضي ارتق بعرض مسلم ووافق على أن يفسح له سبيل النجاة،لذلك عندما طلب ابن جهير منه التشدد في حراسة اسوار امد واخذ الحيطة لمنع مسلم

من النجاة أجابه « هذا أمر ما اليك منه قليل ولاكثير ، وأنا صاحب الحرب ، وليس من عادتنا مع من نأسره أن نحبسه بل نبيعه ونطلقه وكانت نية ارتق بك مع السلطان غير مستقيمة ». وقبل أن يدخل السلطان مدينة الموصل بلغه أن مسلما قد نجا من أمد يوم الأحد ٢٧ تموز ١٠٨٤ م ، وبعدما دخل الى الموصل جاءته الأنباء من خراسان بأن أخاه تكش بن الب ارسلان قد استغل ابتعاده عن هذه البلاد فأعلن الثورة وأخذ يعمل للاستيلاء على مدن خراسان بغية اعلان نفسه سلطانا مكان ملك شاه ، ولقد أجبرت هاتان الحادثتان ، خاصة الثانية منهما ، ملك شاه على أن لايتابع زحفه على الشام ، بل الى صنع تسوية مع مسلم بن قريش كي يعود الى خراسان فيتدارك أوضاعها ، ويقول غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء :« وجاء للسلطان من ناحية أخيه تكش ، فرأى اعادة مسلم الى بلاده ، فأرسل اليه أبا بكر بن نظام الملك وكان نازلا بمقابل الرحبة ، فتوثق منه ، وعاد به الى السلطان ، فخلع عليه وأعاده الى أعماله ، ورجع الى اصفهان ».

وعندما التقى مسلم بن قريش بالسلطان ملك شاه قدم اليه مبلغا كبيرا من المال مع كمية من الهدايا الثمينة والخيول من جملتها فرسه الخاص ، وهكذا عادت الى مسلم أملاكه رغم الضربة القاصمة التي نزلت به ، ونجت مع نجاة مسلم الدولة المروانية من السقوط ، ولم تحقق حملة ابن جهير ما تمناه فخر الدولة وابتغاه (٥١).

وعلى الرغم من التسوية التي صنعها مسلم بن قريش مع السلطان ملك شاه ورغم أنه لم يفقد شيئا من اراضيه ، لقد كان مسلم غير قادر بسهولة على استرداد قوته والتعافي مما نزل به ، وهنا مرة أخرى توجه مسلم ببصره نحو القاهرة حيث الخلافة الفاطمية وسيدها وصاحب الأمر فيها بدر الجمالي ، فقام بارسال عمه مقبل ابن بدران الى مصر كرسول له كي يقابل بدر الجمالي ويحاول تجديد الأحلاف معه ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن مقبل بن بدران أخبر بدر الجمالي بأنه اذا ما استلم بعض المساعدات المالية ، واذا ما ارسل جيش فاطمي الى الشام فسيعبر مسلم الفرات ويساعد

الجيش الفاطمي ليس فقط على اخذ الشام بل حتى على اخذ العراق والجزيرة ايضا ، ويروي سبط ابن الجوزي ايضا ما يفيد بأن ارتق الذي كان يخشى أن يعاقبه السلطان ملك شاه بسبب ما قام به في آمد كان متورطا منذ البداية في خطط مسلم هذه ، ولقد أمل كلاهما في توريط تتش وادخاله في مخططاتهما ، ومفيد أن نذكر هنا بأنه قبل قيام هذه الاتصالات مع القاهرة كان هناك بعض الاتصالات بين القاهرة وتتش وأن تتش كان سيتزوج ابنة بدر الجمالي في سنة ١٠٨٣ م(٥٢).

لقد جاءت تحركات مسلم هذه جد متأخرة ، وما كان بامكان القاهرة أن تنقذه مما ألم به ، فعندما عاد مقبل بن بدران من مصر الى الشام يرافقه وفد فاطمي مؤلف من الوزير ابن المغربي وأحد أولاد بدر الجمالي وجماعة من أعيان الدولة الفاطمية ، وجدوا شرف الدولة مسلم بن قريش قد قتل ، وكانت قصة مقتله كالتالي :

بعد أيام من نجاة مسلم بن قريش من آمد ، تمكن سليمان بن قتلمش وهو أحد أفراد الأسرة السلجوقية الذين كانوا يعملون داخل الأراضي البيزنطية من احتلال « نيقية ، وهي بلد بالساحل تضاهي انطاكية ، و استولى ايضا على - جميع ما يليها من طرسوس وأذنة ومصيصة وعين زربة » اي مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية التي كانت بيزنطة قد انتزعتها في منتصف القرن العاشر من سيف الدولة الحمداني بفضل جهود نقفور فوكاس ، وحين صنع سليمان هذا كان قد أسس دولة سلاجقة الروم الشهيرة التي ورثتها الدولة العثمانية بعد عدة قرون ، وبعد احتلال سليمان لنيقية وماجاورها توجه بانظاره نحو مدينة انطاكية التي كانت ايضا قد احتلها البيزنطيون في منتصف القرن العشر .

ويقدم لنا ابن العديم رواية مفصلة حول احتلال سليمان لانطاكية جاء فيها :« وفي سنة سبع وسبعين واربعمائة (١٠٨٤) شرع سليمان بن قطلمش في العمل على انطاكية والاجتهاد الى ان تم له ماأراد ، فأسرى من نيقية في عسكره وعبر الدروب وأوهم أن

الفلاردوس (الحاكم البيزنطي لانطاكية) استدعاه ، وأسرع السير الى أن وصل انطاكية ليلا ، فقتل اهل ضيعة تعرف بالعمرانية جميعهم لئلا ينذروا به ، وعلقوا حبالا في شرفات السور بالرماح ، وطلعوا مما يلي باب فارس ، وحين صار منهم على السور جماعة نزلوا الى باب فارس وفتحوه ، ودخل هو وعسكره من الباب واغلقوه ، وكانوا مائتين وثمانين رجلا ... ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصباح ، وصاح الأتراك صيحة واحدة فتوهم أهل انطاكية أن عسكر الفلاردوس قد قاتلوهم فانهزموا ، وعلموا أن البلد قد هجم فبعضهم هرب الى القلعة ، وبعضهم رمى بنفسه من السور فنجا » . وبعد أن أصبح سليمان سيد مدينة انطاكية توارد اليه التركمان فحاصر قلعة انطاكية قرابة شهر ففتحها ، واتخذ سليمان انطاكية مقرا له « وفتح الحصون المجاورة لها بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج »، ثم اخذ يتطلع نحو مدينة حلب للاستيلاء عليها وضمها الى مملكته الجديدة الناشئة(٥٣).

ولقد جلب استيلاء سليمان بن قتلمش على انطاكية معه تهديدا جديدا وهائلا لوضع مسلم بن قريش وحكمه في حلب ، فقد أخذ سليمان بعد توطيد نفسه في انطاكية يعمل على احتلال اراضي حلب ، كمقدمة لأخذ حلب نفسها ، ولقد انضم اليه في انطاكية عدد من الأمراء المرداسيين مع اتباعهم ، كما جاء اليه عدد لابأس به من عساكر مسلم ، لأن مسلما كان قد انقص أعطياتهم بعد هزيمته في آمد .

وعندما سمع مسلم بأخبار هذه المحنة الجديدة جمع بعض القوات البدوية العربية وجاء الى حلب ، واخذ يعد العدة للاصطدام بسليمان ابن قتلمش ، فاستدعى اليه المقدم التركماني جبق واستأجره مع اتباعه ، واخذ مسلم يغير على أراضي انطاكية ، وما كان من سليمان الا أن رد على غاراته بغارات انتقامية مماثلة على أراضي حلب ، ولقد تضرر أهالي قرى حلب وفلاحيها كثيرا من هذه الغارات ، واحتجوا الى سليمان على أعماله ضدهم ، فأجابهم بأنه ليس من حقه نهب المسلمين ولكن مسلم بن قريش أكرهه على ذلك.

وعلى الطرف الآخر عال مسلم بن قريش غاراته على انطاكية، فجعل أسبابها عدم تلبية سليمان بن قتلمش لمطالبيه، فقد كان مسلم يتقاضى من البيزنطين أصحاب انطاكية مبلغا من المال كجزية سنوية، وقطع فتح سليمان لانطاكية هذا المال عنه، وطالب مسلم الآن سليمان بدفع ما كان البيزنطيون يدفعون « فلم يجبه الى ذلك وقال : تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم، وقد قمت أنا بفريضة الجهاد، وصارت انطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها اليك جزية »؟!

ونصح مسلم أن يتجنب الحرب مع سليمان الذي لم يكن له علاقات طيبة مع السلطان ملك شاه، وقيل له بأن من الافضل التصالح معه والتحالف، لكن مسلم ركب رأسه فرفض ما أسدي اليه من نصائح وقرر ان يهاجم انطاكية في سبيل انتزاعها من سليمان، لذا قاد جيشه الذي شكله، وكان فيه قرابة ٦٠،٠٠٠ مقاتل، قاده نحو انطاكية، وعلى الطريق اعترضه سليمان بن قتلمش قرب عفرين، وفي ظهيرة يوم السبت ٢٤ صفر ٤٧٨ هـ/ ٢١ حزيران ١٠٨٥ م اشتبكت قوات سليمان بقوات مسلم فانتصرت عليها، لأن الشمس كانت في وجوه أصحاب مسلم، ولأن قوات جبق الغزية تخلت في بدء المعركة عن مسلم وانضمت الى جيش سليمان، ولأن أصحاب مسلم واتباعه من عقيل وغيرها من القبائل هربوا من ساح المعركة وتركوا مسلم يعاني مصيره، ولم يصمد مع مسلم سوى احداث حلب وكانوا ستمائة، وحاول مسلم الانسحاب الى حلب، وجهد الأحداث في تغطية انسحابه فسقط منهم اربعمائة، واخفق مسلم بن قريش في تأمين النجاة لنفسه وتلقى ضربة افقدته حياته (٥٤).

ولقد انهى مقتل مسلم بن قريش جميع المشاريع التي خطط لها، كما أنهى الفترة التي كان المتصارعون فيها للسيادة على الشام هم البدو العرب من جهة والبدو التركمان من الجهة الثانية، ولقد اصبح من الآن فصاعدا الصراع من أجل السيادة على الشام بين التركمان انفسهم حيث أن القبائل العربية قد أزيحت عن مسرح الاحداث

المؤثرة ، ولم يعد لها شأن يذكر في احداث التغييرات السياسية في الشام.

☆ ☆ ☆

كان مسلم بن قريش قد جاء لأخذ حلب ـ كما مر معنا ـ بعد ان استدعاه أحداث المدينة وقد تمكن من اخذها بعد ان فتحوا له بواباتها عندما وصل إليها ، ولقد كان مقدم احداث حلب خلال هذه الحقبة هو الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي ، ولقد غدا الحتيتي زمن مسلم الحاكم الفعلي لمدينة حلب ، ولقد تضاعفت قوة احداث حلب خلال هذه الفترة ، ويكفي برهان على مدى ضخامة الاحداث وقوتهم أن ٦٠٠ منهم كانوا في جيش مسلم بن قريش اثناء قتاله ضد سليمان بن قتلمش ، ولقد شارك الحتيتي في ادارة حلب سالم بن مالك ابن عم مسلم ، وكان قد عينه حاكما لقلعة حلب ، ولكن مهما يكن الحال لقد أصبح مصير حلب بعد مقتل مسلم بين يدي الحتيتي واحداثه.

وحمل سليمان بن قتلمش جثة مسلم بن قريش واتى بها فطرحها امام سور حلب ، وكان يأمل بأن تسلم المدينة له ، لكن الحتيتي رفض التسليم وأصر على المقاومة ، وهنا بدأ سليمان بحصار مدينة حلب ، وقام الحتيتي اثناء الحصار بمراسلة السلطان ملك شاه فأعلمه بمصرع ابن قريش ، ودعاه للقدوم الى حلب ليتسلمها .

ولما لم يكن للحتيتي سيطرة على قلعة حلب وكان بحاجة الى موقع حصين يتخذه مركزا له فقد قام ببناء قلعة لنفسه واحداثه داخل المدينة ، ولا يزال موقع هذه القلعة معروفا ، فأحد احياء حلب الواقعة الى جنوبي القلعة الكبيرة يعرف الآن باسم « قلعة الشريف» واتخذ الحتيتي من قلعته الجديدة مقرا لحكومته وثكنة لاحداثه ، وهكذا أديرت حلب ادارة شبه شعبية ووجد فيها نوع من انواع الجمهوريات.

ولم يركز سليمان كل جهوده على حصار حلب، لأنه ادرك ان الأمر سيطول ، لذلك قام بترميم ، او بالحري باعادة بناء ، قطعة من مدينة قنسرين المجاورة لحلب ، وجعل مقر قيادة قواته فيها ، واخذ يعمل على احتلال اراضي وبلدان امارة حلب الجنوبية ، فاستولى على معرة النعمان وكفر طاب ، ولطمين ، واستمر في نفس الوقت في محاصرته لحلب ، وإن كان بشكل جزئي .

وفي خراسان استجاب السلطان ملك شاه لدعوة الشريف الحتيتي وتحرك على رأس قوات كبيرة غربا نحو حلب ، لكن تحركه كان بطيئا ، مما اعطى الفرصة لسليمان بن قتلمش للتضييق اكثر على حلب ، وهنا وجد الحتيتي نفسه مكرها على التوجه بنظره نحو دمشق حيث كان تتش ، فاستدعاه ليسلمه مدينة حلب .

ولم يكن تتش ينتظر أكثر من مثل هذه الدعوة ، وكان عنده حين وصول هذه الدعوة اليه ارتق مع اتباعه ، لهذا تحرك تتش وارتق واتباعهما من التركمان شمالا يريدون مدينة حلب ، وكان ذلك في محرم سنة ٤٧٩ هـ / نيسان ١٠٨٥ م وقبل أن يصل تتش وقواته الى حلب اعترضه سليمان بن قتلمش مع قواته ، والتحم الجيشان السلجوقيان في معركة تمخضت عن نصر تتش ومقتل سليمان بن قتلمش وهزيمة قواته ، ولقد كانت هذه المعركة التي وقعت بعد قرابة سنة من مقتل مسلم بن قريش (٥٥) أول معركة اقتتل فيها جيشان سلجوقيان من اجل السيادة على احدى مناطق الشام ، ومن هنا تأتي أهميتها ذلك انها افتتحت فترة جديدة في تاريخ الشام والتاريخ السلجوقي ، وسببت وضع حلب لأول مرة في تاريخها تحت حكم السلاجقة المباشر ، وبذلك خلص معظم الشام للسلاجقة ، وبات بامكانهم تطويق الجزيرة والاجهاز على ما بقي فيها من قوة .

إن سقوط الشام ووقوعه تحت الحكم السلجوقي المباشر حدث في غاية الخطورة وذلك لما جلبه معه من تغيرات هائلة في ميادين الحياة السياسية والدينية والاجتماعية ، وحتى العرقية ، تغيرات تأثر بها

جميع سكان بلاد الشام على مختلف طبقاتهم واختلاف انماطهم في الحياة وتعدد عقائدهم .

وبعدأن انتصر تتش على سليمان بن قتلمش تحرك نحو حلب أملا بأن يجد بواباتها مفتوحة والناس قد خرجوا من المدينة لاستقباله والترحيب به ، ولكن شيئا من هذا لم يحصل ، فعندما وصل تتش حلب وجد الأبواب مغلقة والأسوار محروسة من قبل الحتيتي واحداثه ، وعندما استوضح تتش اسباب هذه المعاملة جاءه الجواب بأن ركب السلطان قريب الدنو من حلب ، وأنه بعث يحظر تسليمها لاي انسان سواه ، ولم يقنع تتش بهذا الجواب ، لذلك أمر قواته بأن تحاصر المدينة حتى تسقط ، وفي ٢٦ ربيع الأول ٤٧٩ هـ/ ١١ تموز ١٠٨٦ قام جماعة من تجار حلب وأتباعهم ممن كانوا يكرهون الحتيتي ويناصبونه العداء لما سببه من ضرر لمصالحهم ، قام هؤلاء بفتح احدى بوابات حلب ، فمكنوا تتش وجيشه من دخولها والاستيلاء عليها .

لقد كان حصار تتش لحلب هذه المرة أقصر حصار حاصرها به ، لكن دخوله الى المدينة لم يعن ابدا انه أصبح سيدها فقد كانت هناك قلعة الشريف حيث تمركز الحتيتي والأحداث وذلك بالاضافة الى القلعة الكبيرة حيث اعلن سالم بن مالك بأنه لن يسلمها الا للسلطان نفسه ، لأن مسلم بن قريش كان قد أوصاه بذلك ، واستطاع تتش بعد أيام من دخوله حلب تسلم قلعة الشريف ، والقى القبض على الحتيتي ونفاه الى القدس حيث لم يسمح له بمغادرتها والعودة الى حلب ، وبعد استسلام قلعة الشريف صرف تتش جهوده كلها لحصار القلعة الكبيرة ودام هذا الحصار قرابة الشهر ، وأثناء ذلك وصلت الى أطراف حلب طلائع قوات ملك شاه ، لهذا آثر تتش أن لايصطدم مع أخيه وأن لايلتقي به بأي حال من الأحوال ، لذلك جمع قواته وانسحب على رأسها عائدا الى دمشق (٥٦) .

ووصلت الى حلب فرقة كبيرة من قوات ملك شاه قبل أن يصل السلطان نفسه ، وكان على رأس هذه الفرقة عدد من المقدمين منهم

برسق ، وإياز ، وبوزان ، وفي يوم الثـالث مـن كانون الأول لسـنة ١٠٨٦ م وصل ملك شاه الى مدينة حلب فتسلمها ، وتسلم قلعتهـا الكبيرة من سالم بن مالك ، ولقد عوضه عنها قلعة جعبر حيث أعطاه اياها كاقطاع ، وبنفس الوقت منح ابن عمته محمد بـن مسـلم بـن قريش الرحبة ، والرقة ، وحران ، وسروج ، والخابور كاقطاع ايضا وحين صنع السلطان ملك شـاه هـذا أحيا ـ ولو جـزئيا ـ مملكة مسلم بن قريش (٥٧).

ولقد أمضى السلطان ملك شاه عدة أيام في حلب ، ثـم ذهـب الى انطاكية فتسلمها ، وبقي فيها بضعة ايام ، وقبـل عودتـه الى حلب عين أحد ضباطه واسمه يغي سيان حاكما على انطـاكية ، وفي حلب عيد ملك شاه عيد الفطر لسنة ٤٧٩ هـ (كانون ثاني ١٠٨٧) ثـم غادرها متوجها شرقا نحو خراسان . وقبل أن يغادر ملك شاه مدينة حلب جاءته رسالة من نصر بن علي امير شيزر يعترف فيها بالطاعة للسلطان ويتنازل له عن اللاذقية وأفامية وكفـر طـاب . وخلف ملك شاه وراءه أق سنقر قسـيم الدولة واليا على حلب يسـاعده تـركي اسمه نوح في ولاية القلعة ، وترك عند قسيم الدولة حامية مؤلفة مـن ٤٫٠٠٠ فارس ، وفي طريقه الى خراسان عين ملك شـاه بـوزان على مدينة الرها (٥٨) .

لقد كانت حملة ملك شاه هـذه ثـاني حملة كبيرة يقـودها أحـد سلاطنة السلاجقة حتى حلب ، ولقد سـارت هـذه الحملة على نفس الطريق الذي سلكته حملة الب ارسلان من قبل ، انما حققـت مـا لم تحققه تلك الحملة ، فقد أوصلت الأمبراطورية السلجوقية الى ذروتها في الاتساع ، فقد استطاع ملك شاه أخذ الرها وحلب وانطاكية الامر الذي أخفق أبوه في تحقيقه.

في الحقيقة لقد كانت حملات الب ارسـلان ثـم حملة ابـن جهير وحملة ملك شاه هذه أكثر من حملات عسكرية ، لقد كانت حلقات من حلقات تدفق التـركمان على بـلاد الشـام والجـزيرة ، فحملة الب

ارسلان جابت الى الشام أتسز وتتش وأفشين مع أتباعهم ، وتركت حملة ابن جهير وراءها ارتق وجبق وفتحت الطريق أمامهما وأمام أتباعهما للدخول الى الشام ، ومع حملة ملك شاه الأخيرة أصبحت الشام والى حد ما الجزيرة أجزاءا من الامبراطورية السلجوقية الواسعة ، وقد افتتحت هذه الحملة عهدا جديدا في تاريخ الشام والجزيرة هو عهد الحكم السلجوقي المباشر ، وسيكون هذا العهد موضوع فصلنا المقبل.



الفصل الرابع

بلاد الشام والجزيرة
تحت الحكم السلجوقي المباشر

حكم آق سنقر في حلب • تتش ومحاولاته لنيل السلطنة •حكم رضوان بن تتش في حلب.حكم دقاق بن تتش في دمشق • نهاية حكم اسرة تتش في الشام•

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (الرعد ١٣/١١)•
سنة تسعين وأربعمائة :

في مستهل شهر ربيع الأول منها اجتمع ستة كواكب في برج الحوت وهي: الشمس والقمر والمشتري ، والزهرة والمريخ ، وعطارد ، وذكر أهل صناعة النجوم أنهم لم يعرفوا اجتماع هذه الكواكب في برج في قديم الزمان وحديثه ولا سمعوا ذاك...وفي السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بوصول عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية في عالم لايحصى عدده كثرة ... وفي شعبان ظهر الكوكب ذو الذؤابة من الغرب ، وأقام طلوعه تقدير عشرين يوما ثم غاب (١)

إن ما نملكه من معلومات عن حكم تتش في دمشق قليل ولايفي

بالغرض، ذلك أن ماجاء من معلومات في مصادرنا المعروفة، وخاصة تاريخ دمشق لابن القلانسي تتناول العلاقات الخارجية لتتش مع أعماله التوسعية، ولا تتحدث عن طبيعة حكمه في دمشق، ولا عن علاقاته بالدمشقيين ثم هي لاتبين كيف صارت أحوال هذه المدينة في زمنه بعدما حل بها ما حل على يد أتسز.

هذا ولم تصلنا ترجمة مطولة لتتش. فترجمته عند ابن عساكر قصيرة وغير كافية، ثم إن المجلد الذي يحوي حرف التاء من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم يعد في حكم المفقود، يضاف الى هذا أن ما من أحد من المؤرخين ـ في حدود معرفتي ـ قام بوقف مؤلف خاص حول حكم تتش وأسرته في بلاد الشام.

إن أهم ما في حكم تتش هو علاقته بآق سنقر قسيم الدولة الذي خلفه السلطان ملك شاه وراءه واليا على حلب، وفي إطار هذه العلاقة تدخل أعمال تتش التوسعية ثم مساعيه لنيل السلطنة. ومن حسن الحظ أن ماوصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب يحوي ترجمة جيدة لآق سنقر، ومن هذه الترجمة التي نشرت مع ملاحق هذه الدراسة، التي تنشر لأول مرة، ثم مما جاء في مصادرنا من معلومات ـ وهي كمية لابأس بها، لأن آق سنقر كان أبا لزنكي مؤسس الدولة الأتابكية وجدا لنور الدين الشهيد بطل الحروب الصليبية الحقيقي ـ يمكننا أن نكون صورة مفيدة وشبه وافية عن حكم آق سنقر في حلب وبالتالي عن علاقته بتتش.

لقد دام حكم آق سنقر في حلب ما يقارب السبع سنوات، وكانت فترة الحكم هذه فترة هامة في تاريخ حلب وشمالي بلاد الشام لأنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة، ونحن نجد آق سنقر في روايات المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه الفترة واضح الشخصية، بارزا وراء كل حدث، ممدوحا بشكل كبير لا لأنه كان والد زنكي وجد نور الدين محمود بل لأنه «أحسن فيها ـ حلب ـ السياسة والسيرة، وأقام الهيبة، وجمع الذعار، وأفنى قطاع الطرق ومخيفي السبل، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع،

فاستاصل شافتهم، وكتب الى الأطراف ان يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق، وتسلك السبل، فشكر بذلك الفعل وامنت الطرق والمسالك، وسار الناس في كل وجه بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار

وعمرت حلب في ايامه بسبب ذلك، بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم. ورخصت الأسعار في ايامه الرخص الزائد عن الحد، وقرب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط، واحبوه اضعاف ذلك واقام الحدود، واحيا احكام الاسلام وعمر الأطراف، وأمن السبل، وقتل قطاع الطرقات، وطلبهم في كل فج، وشنق منهم خلقا، وكان كلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده، واخذه، وصلبه على ابواب المدينة، وكثرت في ايامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار، وعامل اهل حلب من الجميل بما احوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر».

«وفي ايامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين (١٠٨٩م) واسمه منقوش عليها الى اليوم، وهو الذي امر ببناء مشهد قرنبيا، ووقف عليه الوقف، وأمر بتجديد مشهد الدكة» (٢).

لقد كان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لحلب اخذ فعليا مكان اميرها العربي، وفي حين اننا نجد ان نفوذ آق سنقر وسيطرته ينفذان عميقا في كل جانب من جوانب الحياة في شمال بلاد الشام، نجد أن سلفه الأمير العربي كان يعيش في قلعة حلب شبه منعزل عن مباشرة الحكم بنفسه، ولم يكن ليهتم إلا بسلامة حكمه وجمع الضرائب ولذة عيشه، لهذا أثر الأمراء البدو قليلا في الحلبيين، وفي الواقع كانت حلب تدار من قبل رجالات المدينة، فالأمير البدوي يهتم عادة بحماية قبيلته من الخطر الخارجي وليس من شأنه التدخل في الشؤون الفردية والخاصة بأفراد القبيلة، وعلى عكس هذا تماما كان آق سنقر الذي فرض نفسه على كل امر وتدخل في كل قضية، وصرف اهتمامه الى شؤون الامارة من صغيرة وكبيرة، واشرف بذاته على تنفيذ كل امر، ولم يتساهل حتى مع الحيوانات في مخالفة

أوامره ، وأخذ بفكرة المسؤولية العامة، كما طبق مبدا العقوبة الجماعية.

يروي ابن العديم بأن آق سنقر «كان قد شرط على اهل كل قرية في بلاده متى اخذ عند أحدهم قفل، او أحد من الناس، غرم اهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا، وقام اهل القرية يحرسونهم الى ان يرحلوا، فأمنت الطرق، وتحدث الركبان بحسن سيرته »، ونادى آق سنقر ، في بلد حلب لايرفع احد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده،فخرج يوما يتصيد فمر على قرية من قرى حلب، فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله الى القرية، فقال له : الم تسمع منادة قسيم الدولة بأن لايرفع احد متاعا ولا شيئا من موضعه ؟ فقال له: حفظ الله قسيم الدولة قد امنا في ايامه، وما نرفع هذه الآلة خوفا عليها ان تسرق، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي الى النير فتأكل الجلد الذي عليه، فنحن نحفظه منها ، ونرفعه لذلك.

فعاد قسيم الدولة من الصيد، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في بلد حلب، فصادوها حتى افنوها من بلد حلب.

قلت(اي ابن العديم) وهي الى الآن (القرن السابع هـ / الثاني عشرم) لايوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد » (٣) .

لقد كان آق سنقر يتصرف في حكمه تصرف حاكم مطلق له مبادئه الخاصة ومفاهميه الذاتية، ولاغرابة في هذا، فهو قد نشأ وتدرب في البلاط السلجوقي في ايران، وفي هذا البلاط تكونت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة، ولقد كانت تقاليد هذا البلاط « اوتوقراطية » قد نبعت من أصول تركية تأثرت تأثرا شديدا بتقاليد ايران المسلمة، ولقد جاء تطبيق هذه المبادىء في شمالي بلاد الشام لأول مرة، بتجربة جديدة جد خطيرة على اناس اعتادوا منذ قرون عديدة على طرائق البدو العرب في الحكم وعلى مبادئهم في السياسة والادارة .

ففي أثناء فترات الحكم العربي التي سبقت هذه التجربة الجديدة اعتمد الامير البدوي على رجال عشيرته بشكل رئيسي وتأثر بهم، لذلك كانت دولته دولة بدوية، ولقد بقيت هكذا دونما تغيير لأن فترة الحكم المرداسي مثلها مثل الفترة الحمدانية التي سبقتها كانت متقطعة لم يتح فيها السبيل، ولم تقم بها الفرصة، لاحداث أي تغيير مؤثر ولقد كان شيوخ العشيرة في الفترة البدوية العربية المرداسية هم الشخصيات البارزة في الدولة، وشغلت هذه الشخصيات أدوارا سياسية هامة في حياة الامارة وطبعوها بطابعهم وعاداتهم، ولقد فضل شيوخ القبائل مع اتباعهم عدم النظام، وآثروا الفوضى، وكان لهم اعتباراتهم ومقاييسهم الخاصة فيما يختص بمسألة الاخلاص السياسي، وذلك بأن تأرجحوا بين الفئات المتصارعة، واحبوا الفتنة وكرهوا الأمن والمركزية والاستقرار والديمومة، ولقد مكن هذا الوضع فئات كثيرة داخلية وخارجية من التجمع وانشاء المنظمات، ثم ممارسة النفوذ والمشاركة في تقرير الأمور، كما أن هذا قد ترك الباب دائما مفتوحا على مصراعيه أمام أي جماعة أجنبية لها بعض القوة والتنظيم حتى تتغلغل ثم تستلب بعد ذلك الحكم والسيادة لنفسها، كما فعل التركمان، ولقد مر بنا خبر هذا كله.

رغم ماتميزت به فترة الحكم العربي من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي لقد كانت هذه الفترة خصبة من الناحية الفكرية والحضارية، ففيها عاش المعري ونظم شعره وبشر بفلسفته ومبادئه الخاصة، وفيها وجد ابن سنان الخفاجي وابن أبي حَصِينة وابن حيوس وغيرهم من الشعراء العظام، ومع الحرية السياسية والفكرية وجدت ايضا الحرية الدينية حيث مارس الناس معتقداتهم دونما ملاحقة أو تنكيل.

ويعتمد كل حكم « أوتوقراطي » على قوات محترفة ، أو شبه محترفة »، وهكذا لقد كان حكم آق سنقر وحكم غيره من التركمان في الشام حكما عسكريا، فآق سنقر كان أحد ضباط جيش السلطان

ملك شاه، ومثله كان يغي سغان صاحب انطاكية وبوزان صاحب الرها، فبعد ما عين السلطان ملك شاه آق سنقر حاكما على حلب ترك عنده قوة عسكرية مؤلفة من ٤٠٠٠ فارس، ثم لما كان حكم آق سنقر قد خلف الحكم البدوي العربي فان الفراغ الذي تركه شيوخ القبيلة قد ملأه ضباط الحامية العسكرية، وهكذا اصبح الضباط الشخصيات المرموقة في البلاد، وبذلك نشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الضباط، ولقد نمت هذه الطبقة، واضطردت قوتها وتطورت بسرعة مذهلة، حتى غدا الضباط رجال الجماعة الذين يملكون القدرة على إحداث التغيير السياسي وحتى غير السياسي ومع ظهور كل ضابط طموح، ظهر شيء جديد، لم يكن في الغالب اقل من اسرة حاكمة جديدة، ويكفي دليلا على هذا ان نتذكر ان زنكي مؤسس الدولة الأتابكية ثم صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية كانا ضباطا٠

ومن طبائع الحكم « الأوتوقراطي » الاستبداد المقرون بالأبهة والعظمة، وعلى هذا الاساس نجد ان جماعة ألأحداث في حلب اخذوا يفقدون قوتهم وسيطرتهم التقليدية مع قيام التوسع السلجوقي وتوطد حكم آق سنقر في شمال بلاد الشام٠

ولقد جاء عن المؤرخ الحلبي أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سنة ثمانين وأربعمائة هـ (١٠٨٧م) قوله: « فيها استقرت الرتبة بحلب للامير قسيم الدولة اق اسنقر من قبل السلطان العادل ابي الفتح، وتوطدت له الأمور بها، واقام الهيبة العظيمة التي لايقدر عليها احد من السلاطين، واظهر فيها من العدل والانصاف مع تلك الهيبة مايطول شرحه» وإقامة « الهيبة العظيمة لايتم بدون قوات مسلحة، والاحتفاظ بالعساكر يكلف الكثير من الأموال، والأموال في العادة تاتي من جيوب المحكومين، وهذا بالتالي يعني ان الحكم السلجوقي الجديد قد جلب معه الى الشام زيادة في الأعباء المالية، وليتصور المرء حالة بلد عانى من التهديم والسلب والنهب سنين طويلة، ثم عندما استقرت فيه الأمور ابتلي

يحكم « اوتوقراطي » عسكري مبتز، وبعد هذا كان عليه والحالة هذه أن يتصدى لغزو خارجي جديد :

جاء عن محمد بن عبد الملك الهمذاني،مؤرخ القرن الثاني عشر ميلادي،في كتابه"عنوان السير في محاسن اهل البدو والحضر» في ثنايا حديثه عن حكم آق سنقر قسيم الدولة في حلب قوله:« واستغلها - يعني مدينة حلب فقط - في كل يوم ألف وخمسمائة دينار »· وفي سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م وصل السلطان ملك شاه الى بغداد ، ووصل اليه أخوه تتش وقسيم الدولة آق سنقر وغيرهما من حكام الامبراطورية، وفي بغداد تم اجراء بعض الاحتفالات الكبيرة التي تخللها عرض للعساكر والمواكب، ولقد كان موكب آق سنقر قسيم الدولة من العظمة بمكان بحيث « لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه »(٤)·

من العادة ان يتصنع الحاكم« الاتوقراطي » التقوى ، ويتظاهر بالاهتمام بمصالح « رعيته» ومنافعهم ، ويحرص على أن يبدو مهتما بالأمن ، كارها للظلم ، وان كل حركة من حركاته وسكناته فيها عدل وتقوى وصلاح ونزاهة نابعة من القلب ولها الكثير من الصفات القدسية الربانية، وعلى هذا يبدو كل حاكم « أوتوقراطي » وعليه مظاهر التعقل والاعتدال، ولهذا يحارب كل تطرف، ويقف في وجه كل« النزعات والبدع الجديدة» مهما كان نوعها وهدفها، فالبدعة هرطقة وعليه أن يحارب كل هرطقة، ولقد مر معنا بأن آق سنقر « جدد في أيامه عمارة منارة حلب بالجامع » كما أمر ببناء عدد من المشاهد الجديدة مع ترميم بعض المشاهد القديمة رغم أن هذه القديمة كانت مشاهد شيعية وكان هو سنيا من أهدافه« إقامة الحدود الشرعية » وإعادة حكم السنة، ولكن لما كان غالبية أهل حلب شيعة اثنا عشرية فقد تقرب إليهم بترميم بعض اماكنهم المقدسة ذلك أن مقتضيات السياسة هي فوق كل اعتبار·

وعندما يظهر الحاكم « الاتوقراطي » التدين، فان ذلك يستلزمه تقريب المتدنيين منه والاعتماد عليهم، ولقد كان الأمير البدوي

العربي يقرب الناس إليه لابداعهم ولتفوقهم في فـن مـن الفنون، لا لتقـواهم وتـدينهم، لذلك كانت حـاشية الأمير المرداسي ومـن قبله حاشية الأمير الحمداني فيها من الناس كل نموذج مما اعطاها صفة الحياة المتدفقة والشمول والحضارة المبدعة، لكن عندما اخذ الحاكم المطلق يقرب المتدينين إليه اضـطر الى إضـفاء صـفة محـددة على الدولة، وهذه الصفة غالبا لم تتعد التزمت والجمود، ثـم إن في عملية تقريب فئة في العادة فيه إضرار بـالفئات الأخـرى، ولقـد كان لذلك نتائجه غير المحمودة على الحضارة، ثـم لم يكن لذلك نتـائج حميدة حتى على الدين نفسه لأن العملية تمت حسـب أهـواء ومقتضـيات السياسة ، ومهما يكن الحال إن تقريب رجال الدين من الحاكم قـد خلق تدريجيا طبقة جديدة في المجتمع ، وفي الاسلام، الا وهـي طبقـة « الكهنوت » وهذا أمر جديد وخطير في تاريخ الاسلام ، لطالما حرص هذا الدين منذ بدايته على تجنبه، ولكن الذي حد ثان طبقة من رجال الدين المحترفين قد وجدت وتطورت ، واصبح لها مكانتها ونفـوذها وسياستها ومصالحها الخاصة، حتى اتى وقت اصبحت هذه الطبقة تضم فيه عددا من الأسر يرث فيها الولد وظيفة ابيه ومنصبه، مثلمـا كان الاقطاعي وسـليل الأسر النبيلة يرث ويورث، وفي غالب الأحيان قامت هذه الطبقة بـاعطاء تفسـيرات للدين تتمـاشى ومصـالحها ومنافعها، ولقد جمد هذا الدين ، وخلق فراغا غالبا ما استغل من قبل أصحاب الأهواء، ونادرا من قبل ثوار حقيقيين ارادوا أن يرجعـوا للاسلام روحه وحيويته وأهدافه الحقة ٠



في تاريخ بلاد الشام كان هناك دائما تنافس، أو بـالحري صراع من أجل السيادة بين الشـمال والجنوب، ولقـد مثلت دمشـق ــ منذ القرن السابع م ــ الجنوب كما مثلت حلب الشمال في هـذا الصراع، ولقـد كانت المفـارقات بين الشـمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية لكن غالبا ماكانت سياسية حيث حاول حـكام دمشق من طرفهم وحكام حلب من الطرف الآخر مد سـيطرتهم كليا

على الشام ،ومما يدهش أن الشام نادرا ماعرف الوحدة السياسية لفترة طويلة ، بل تعود على التمزق والدويلات ، وتبعا لهذه القاعدة « المؤسفة » حدث صراع بين تتش وآق سنقر ، وسنجد تتش ينتصر على آق سنقر ويقتله، ومن ثم يوحد شمال الشام مع جنوبه، لكن تتش لن يلبث طويلا حتى يقتل فيرثه في حلب ابنه الأكبر رضوان وفي دمشق ولده الآخر دقاق ، ومن جديد يبدأ الصراع بين دمشق وحلب ، وفي غمرة الصراع هذا تصل الحملة الصليبية الأولى الى الشام٠

لقد جهد تتش منذ أن أصبح حاكم دمشق في العمل على مد سلطانه على بلدان الشام ومدنه خاصة الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للخلافة الفاطمية أو تحكم من قبلها مباشرة ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن تتش طلب في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من أخيه السلطان ملك شاه أن يمده بما يمكنه من طرد الفاطميين من الشام واحتلال بلدان الساحل الشامي وإخضاعها للحكم السلجوقي وبأن السلطان استجاب لنداء تتش هذا فأوعز الى قسيم الدولة آق سنقر والي حلب، والى بوزان صاحب الرها بأن يقدما الى تتش كل ما كان يحتاجه من مساعدات(٥) .

ويبدو أنه لم تنفذ أوامر السلطان هذه، فلم يذهب بوزان ولا آق سنقر الى مساعدة تتش، كما أن تتش لم يقم بأي عمل عسكري ملحوظ ضد بلدان الساحل، لكن جيشا فاطميا وصل في سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩ م الى الساحل الشامي وتمكن من أخذ صيدا وصور وجبيل وعكا، ثم قام بحصار بعلبك، وأثناء الحصار هذا وصل الى المعسكر الفاطمي خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية حيث قابل قائد القوات الفاطمية واعترف له رسميا بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه، ولقد استولت الحملة الفاطمية أثناء وجودها في الشام على بعض أراضي تتش (٦) ونتيجة لهذا كرر تتش ندائه لطلب المساعدة، وهنا أمر السلطان ولاته في الشام بالتحرك لمساعدة تتش، وأن يتحدوا معه للقيام بعمل تأديبي ضد خلف بن ملاعب

صاحب حمص، ولكي يقوموا بمحاولة للاستيلاء على جميع املاك الفاطميين في الشام.

ويبدو ان السلطان ملك شاه قد عهد الى تتش بقيادة القوات المتجمعة، كما يبدو ان آق سنقر وبوران قد قبلا بذلك مكرهين، فهما لم يرغبا بقيادة تتش لاسباب شخصية، ذلك ان كل ماكان سيربح كان سيكون مآله الى تتش، وعدم رغبتهما هذه سببت نجاحا جزئيا لخطط تتش. ولقد كانت اسباب القيام بالعمل التأديبي ضد خلف بن ملاعب ليس فقط لاعترافه بالخليفة الفاطمي كسيد له وإنما بسبب سلوكه العام والشكاوى التي رفعها اهل الشام الى السلطان ضده، ذلك انه كان " جبارا ظالما، يقطع الطريق، ويخيف السبيل ".

في سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م اجتمعت قوات بوزان، وآق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وتتش على حمص، وسبقهم بوزان، فلم يمكن خلف بن ملاعب من الخروج من حمص" فاقتحموا حمص وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد الى السلطان ملك شاه ولقد طلب كل واحد من الامراء حمص لنفسه" فكتبوا جميعا الى السلطان، فانعم بها على اخيه تاج الدولة ".

ليس من الواضح مما جاء في روايات المؤرخين ما هي كانت الخطوة الثانية التي قام بها تتش وبقية الحكام. فلقد جاء في هذه الروايات بأن مدينة طرابلس قد حوصرت من قبل الامراء الأربعة في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، وان افامية قد تم الاستيلاء عليها في العام نفسه من قبل آق سنقر قسيم الدولة، ونحن لانعرف فيما اذا كانت القوات السلجوقية قد تابعت سيرها نحو طرابلس بعد أن استولت على حمص أم ان كل قائد من القادة الأربعة عاد الى ولايته ثم اتحد في العام التالي مع الباقين للزحف ضد طرابلس ومهما كان الحال فانه من المرجح انهم زحفوا على طرابلس مباشرة بعد الاستيلاء على حمص.

يبدو ان منح حمص لتتش قد اغضب آق سنقر، لذلك عندما ذهب

مع تتش للاستيلاء على طرابلس كان في قرارة نفسه يعمل للابقاء على طرابلس مستقلة ولمنع تتش من الاستيلاء عليها ومن ثم ضمها الى املاكه، وفي طرابلس لقد كان ابن عمار قاضي المدينة وحاكمها قد اعد عدته للدفاع عن طرابلس، واول ما قام به هو انه اخترج ضد الحصار وابرز وثائق موقعة من قبل السلطان ملك شاه فيها يعترف له بسلطانه على طرابلس• ويبدو انه كان على بينة بما كان بين تتش واق سنقر من التحاسد والتباغض ، لذلك اتصل سرا بآق سنقر قسيم الدولة وعرض عليه مبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار إن هو ساعده في وقف حصار طرابلس، وهنا أخبر آق سنقر تتش بأن الوثائق التي ابرزها ابن عمار هي صحيحة وانهم على هذا بحصارهم لطرابلس يخالفون اوامر السلطان ملك شاه•

ووقع جدال بين تتش وآق سنقر قسيم الدولة تطور الى خصام ، قام على إثره آق سنقر بسحب قواته والتوجه بها نحو حلب • وتخلى بوران ايضا عن تتش وانسحب مع قواته ، وهنا وجد تتش نفسه لايملك القدرة على متابعة حصاره لطرابلس لذلك جمع هو ايضا قواته وعاد خائبا الى دمشق (٧) .

وعلى طريقه الى حلب، قام أق سنقر قسيم الدولة ــ كما يبدوــ بالاستيلاء على افامية التي كانت جزءا من املاك خلف بن ملاعب • وبعد ان استولى عليها لم يحتفظ بها لنفسه بل سلمها الى نصر بن علي الأمير المنقذي لشيزر. وهذا يوحي بأن العلاقات بين اق سنقر قسيم الدولة واسرة آل منقذ كانت طيبة، وفي الواقع لم تكن العلاقات دائما طيبة بينهما ففي سنة ١٠٨٨ م سبق لآق سنقر ان قام بحملة ضد شيزر وحاصرها محاولا الاستيلاء عليها (٨) وعلى كل حال يبدو ان منح آق سنقر قسيم الدولة افامية للحاكم المنقذي لم يكن بدافع حب وطيب علاقات معه بل بسبب سوء علاقاته مع تتش • ففي استيلائه على افامية كان يحرم تتش من اخذها وهكذا يبعده عن حدود حلب، ولكن لما كان يقدر انه لن يستطيع الاحتفاظ بها، لذلك منحها للحاكم المنقذي، وبذلك ابقى تتش محروما منها وبالوقت نفسه زاد في قوة الامارة المنقذية التي وقعت بين اراضي تتش

واراضي حلب وكانت بامكانها ان تقوم بدور حاجز بين شمالي بلاد الشام وبين جنوبه ذلك إن لم يقف حكامها الى جانب آق سنقر في الصراع الذي لابد أنه واقع بينه وبين تتش.

في هذه الاثناء قام السلطان ملك شاه باستدعاء جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة إليه، ففي ٢٨ رمضان ٤٨٤ هـ / ١٣ تشرين ثاني ١٠٩١ م كان ملك شاه قد وصل الى بغداد حيث بقي فيها عدة اشهر يحتفل ويستعرض قواته ويستقبل ولاته ويبحث معهم مشاكل مناطقهم وقضاياها، وفي بلاط ملك شاه تلاقى تتش مع قسيم الدولة في حضرة السلطان ،وقام تتش برفع شكواه ضد آق سنقر وقال « كان من الأمر كذا وكذا، فقال له قسيم الدولة : تكذب، فقال السلطان : تقول لأخي كذا ! قال: نعم، يطلع الله في عينيه مايريده لك، ويطلع في عيني ماأريده لك »، وقنع السلطان بحجج آق سنقر وحكم له على أخيه تتش.

لقد روى هذا كل من المؤرخين علي بن مرشد بن منقذ، وابن الأثير، وسبط ابن الجوزي، لكن سبط ابن الجوزي قام بعد أن روى هذا الخبر بالتعليق عليه بقوله:« وهذا بعيد، فان السلطان وصل حلب ولم يلتقيه تتش لأنه كان مستوحشا منه »، ولقد روى كل من العماد الأصفهاني وابن واصل الحموي خبر وصول السلطان ملك شاه الى بغداد مع احتفالاته ومجيء آق سنقر وبوزان إليه لكن لم يذكرا اسم تتش بين من جاء الى بغداد، ولم يتعرض العماد لمسألة الخلاف بين تتش وآق سنقر، لكنه وابن واصل مثلهما مثل بقية المؤرخين ذكرا بأن السلطان ملك شاه قد عهد الى اخيه تتش بالعمل على الاستيلاء على املاك الخلافة الفاطمية في الشام. ومن أجل هذا « امر مملوكيه بزان صاحب الرها واق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض ويساعداه على أداء هذا المفترض »، ولقد مر معنا خبر احتلال حمص وكيف أن السلطان ملك شاه قد « أنعم بها على اخيه تاج الدولة ».

إن في تعيين تتش قائدا للقوات السلجوقية المهاجمة لحمص

ومنحه بعد هذا حكم هذه المدينة إشارة توحي بأن تتش كان قد توصل ، بعد تركه لحلب وتجنبه الالتقاء بأخيه، إلى التصالح مع السلطان ملك شاه، وإذا كان هذا قد وقع فعلا وتم حدوثه فليس هناك سبب يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن تتش قد سافر فعلا الى بغداد، وعرض قضية خلافه مع آق سنقر على اخيه السلطان ،وخسر هذه القضية نتيجة لاتهام آق سنقر له بالكذب، ثم لفضحه نواياه السيئة وخططه تجاه السلطان.

وعندما أراد تتش العودة الى دمشق اجبر على ترك احد اولاده رهينة عند السلطان، ولقد ملأ هذا قلب تتش حقدا على آق سنقر، لذلك سنجده في سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م يقوم بقتل آق سنقر بيديه صبرا، وسنأتي على بحث هذا بالتفصيل، والمهم أن نذكر هنا أن آق سنقر قد ترك بغداد أيضا وعاد الى حلب لكن بمكانة اعلى ومركز اقوى واثبت(٩).

لم تكن قضية الصراع بين تتش وآق سنقر هي القضية الوحيدة التي عاشها البلاط السلجوقي للسلطان ملك شاه اثناء وجوده في بغداد ثم بعد تحركه منها، لقد كان سيد الامبراطورية السلجوقية الفعلي زمن ملك شاه وزيره نظام الملك، وكان ملك شاه يريد الخلاص من نظام الملك للانفراد بالسلطة لوحده ، كما أراد ملك شاه في ذات الوقت إخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة أو المدينة ، وتآمرت أطراف التنازع هذه ضد بعضها بعضا، وسقط الوزير نظام الملك أولا ، ثم لحقه بعد فترة وجيزة مسموما السلطان ملك شاه في ٦ شوال ٤٨٥ هـ / ٢٩ تشرين الثاني ١٠٩٢ م، واخيرا لم تطل أيام الخليفة المقتدي بعد ملك شاه حيث توفي هو الآخر في سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ « فجاة وعمره ثمان وثلاثون سنة وتسعة أشهر ».

عندما مات ملك شاه كان عمره« ثمان وثلاثون سنة وثلاثة اشهر وسبعة وعشرون يوما ». وقد خلف عددا من الاولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه اعتلاء عرش السلطنة الشاغر، وقام صراع

بين السلاجقة من اجل خلافة ملك شاه واحتضنت كل فئة وحزب احد الصبية وجهدت ـ باسمه ـ من اجل السيطرة على الامبراطورية(١٠) .

ولقد اتخذ آق سنقر قسيم الدولة وبوزان صاحب الرها وحران لنفسيهما موقفا موحدا ، وتارجحا بين الفئات السلجوقية المتصارعة حتى واجها الموت نتيجة لحادث واحد، ويروي ابن العديم ان آق سنقر ـ وطبعا معه بوزان ـ قد اعترف اولا بسلطنة محمود الابن الأصغر لملك شاه (١١) لكنه لم يلبث أن بدل اعترافه وتحول بولائه·

عندما اخبر تتش بوفاة اخيه السلطان ملك شاه اعلن نفسه خليفة له وسلطانا للامبراطورية السلجوقية ، وحتى ينال السلطنة فعلا ويعترف به الجميع ، ولكي يمتن مركزه قام تتش بتجنيد جيش كبير.

وفي حلب لاحظ آق سنقر قسيم الدولة مدى خطورة تحركات تتش هذه، وفي الوقت نفسه علم بأن أولاد ملك شاه يحاربون بعضهم بعضا من اجل خلافة ابيهم وليس هناك مايشير بشكل قاطع الى رجحان كفة فئة على اخرى، وفي هذه الظروف ومن زاوية ادراكه انه لايملك القوة الكافية لمقاومة تتش او التصدي له قام اق سنقر مكرها بالاعتراف بتتش واعلن عن استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه، وفي سنة ١٠٩٣ م ـ ربما في شباط ـ مر تتش باراضي حلب متوجها شرقا يريد خراسان، وفي الطريق التحق به آق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وبوزان ، واثناء تحركهم هذا استولوا على الرحبة ونصيبين واكثر مناطق الجزيرة، وقرب الموصل خاضوا معركة كبرى اتوا بها نهائيا على قوة عقيل ثم على الدولة المروانية·

عقب وفاة مسلم بن قريش العقيلي « استولى على الموصل ابراهيم بن قريش اخو مسلم »، وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م استدعى السلطان ملك شاه ابراهيم إليه « ليحاسبه، فلما حضر عنده اعتقله، وانفذ فخر الدولة ابن جهير الى البلاد فملك الموصل وغيرها »· وبقي ابراهيم مع السلطان ملك شاه ، وسار معه الى

سمرقند، وعاد الى بغداد، فلما مات ملك شاه اطلقته تركان خاتون إحدى أرامل ملك شاه من الاعتقال ، فسار الى الموصل.

واثناء حياته كان ملك شاه قد اقطع عمته صفية مدينة بلد، وكانت صفية هذه زوجة شرف الدولة مسلم بن قريش ولها منه ابنه علي، وكانت قد تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه ابراهيم ، فلما مات ملك شاه قصدت الموصل ومعها ابنها علي واستطاعت أخذ الموصل، وهنا وصل إليها زوجها ابراهيم « فسلمت البلد إليه فاقام به فلما ملك تتش نصيبين ارسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة، فامتنع ابراهيم من ذلك ، فسار تتش إليه »، فلما عرف ابراهيم « خبره جمع وحشد واستصرخ واستنجد « ثم تقدم نحو تتش » في ثلاثين الفا، وكان تتش في عشرة آلاف ، وكان آق سنقر على ميمنته وبوزان على ميسرته »، والتقى الجيشان في مكان يعرف بالمضيع على نهر الهرماس نهر مدينة نصيبين» واختلط الفريقان واشتد القتال ، وانكشفت المعركة عن قتل جماعة من الأتراك والعرب، وعاد كل فريق منهما الى مكانه ، فلما استقر بالعرب المنزل، عاد عسكر تاج الدولة إليهم وهم غارون، وحمل عليهم وهم غافلون، فانهزمت العرب وأخذهم السيف، فقتل منهم العدد الكثير، والأكثر من الرجالة المقيمين في المخيم، وقتل الامير ابراهيم بن قريش وجماعة من الأمراء والمقدمين من بني عقيل وغيرهم، وقيل أن تقدير القتلى من الفريقين عشرة الاف رجل، واستولى النهب والسلب والسبي على من وجد في المخيم ، وامتلأت الأيدي من الغنائم، والسواد والمواشي والكراع بحيث بيع الجمل بدينار واحد، والمائة شاة بدينار واحد.

ولم يشاهد ابشع من هذه الواقعة ، ولاأشنع منها في هذا الزمان ،وقتل بعض نسوان العرب انفسهن اشفاقا من الهتيكة والسبي ، ولما عادوا بالأسرى والسبي وحصلوا بشاطىء الفرات القى جماعة من الأسرى أنفسهم في الفرات فهلكوا ».

لقد حدثت هذه المعركة سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، وكان ضمن قوات ابراهيم بن قريش بعض القوات الكردية ،فلقد قتل مع

ابراهيم حسين بن نصر الدولة بـن مـروان ، لذلك ارتـأى تتشان يتابع احتلال جميع مناطـق الجـزيرة وأن يقـوم بتصـفية الدولة المروانية قبل أن ينحدر شرقا ، وعلى هذا تحرك نحو» آمد وملكها ، واقام أياما قلائل ، وسار إلى أن وصل إلى ميافارقين » فتسـلمها هي الأخرى بالأمان وبذلك اتـى على الدولة المروانية وانهـاها مـن الوجود.

إن الانتصارات التي حققها تتش قد حسنت من وضـعه وقـوت مركزه ،لذلك كتب إلى الخليفة في بغداد يطلب منه أن يأمر بأن يخطب له بالسلطنة على منا. بغداد وبلدان الخلافة العباسية ، ويتوعده إن لم يستجب لطلبه ، فلم يعبأ الخليفة بتهديداته ولم يعر طلبه اهتماما كبيرا بل كتب إليه» إنما تصلح للخطبة إذا حصـلت الدنيا بحـكمك والخزائن التي بأصبهان ، وتكون صاحب المشرق وخـراسان ، ولم يبق من أولاد أخيك من يخالفك ،أما في هذه الحال فلا سبيل الى مـا التمسته ، فلا تعد حـد العبيد ، وليكن خـطابك ضراعة لاتحـكما ، وسؤالا لا تجبرا ، وإن ابيت قاتلناك ورديناك ، واتاك من الله مـا لا قبل لك فيه ».

وامام هذا الموقف قرر تتش التوجه مباشرة إلى خـراسان وعدم الذهاب الى بغداد ، وفي خراسان كانت ملامـح الصراع بين ابناء ملك شاه قد توضحت بأن رجحت الكفة لصالـح بركياروق الأبـن الكبير، وعندما وصل تتش إلى مدينة تبريز» فصل عنه قسيم الدولة صاحب حلب ، وعماد الدولة بوزان صاحب الرها مغاضبين ، وقصدا ناحية السلطان بركياروق بـن ملك شـاه ، مخـالفين له ،وعاصـيين عليه » ،والتحقا ببركياروق عند مدينة الري ـ قرب مـدينة طهـران الحاليةـ وقدما له المساعدات ، فقوي مـركزه بهمـا ، وكانت فلول قبيلة عقيل قد التحقت أيضا بمعسكر بركيا روق.

وضعفت بهذا صفوف تتش واضطر أمام الحال الجديد أن لايتابع سيره نحو الري للقتال ضد بركياروق بل عاد ادراجه نحو ديار بكر ، وحرض أق سنقر قسيم الدولة وبوزان بركياروق ضد تتش وحـذراه

من أن يهمل أمره ، وطلبا منه أن يعاجله» قبل إعضال خطبه وتمكنه من الغلبة على السلطنة ، والاستيلاء على أعمال المملكة، وأشارا عليه بالمسير في هذا الوقت «وطلبا منه أن يسير معهما، وفعلا صحبهما الى مدينة الرحبة ، ويبدو أن تتش قد كان في الرحبة عندما توجهوا نحوها، لكنه عندما علم بزحفهم إليها تركها وتوجه صاعدا على طرف الفرات قاصدا بلد انطاكية، وتوقف بركياروق في الرحبة، وفيها قام بعقد تحالف بين آق سنقر قسيم الدولة وبوزان من جهة وبين علي بن مسلم بن قريش العقيلي من جهة اخرى، وكان علي هذا قد خلف عمه ابراهيم بن قريش في زعامة قبيلة ـ أو بالحري ما بقي من قبيلة ـ عقيل• وتوجه بوزان الى الرها ، وسار قسيم الدولة الى حلب وبرفقته بعضا من عساكر بركياروق ومن افراد قبيلة عقيل وغيرها من القبائل، ولقد وصل آق سنقر الى حلب في تشرين الثاني من العام نفسه ــ ١٠٩٣م ــ(١٢) .

وانتهى خبر وصول آق سنقر الى حلب الى تتش، وورد عليه نبأ « بانكفاء السلطان ــ بركياروق ــ من الرحبة الى بغداد، وأن عزمه ان يشتو بها، واقام تاج الدولة بانطاكية مدة، فقلت الأقوات وارتفعت الأسعار وخوطب في العودة الى الشام فلم يفعل، وعاد الى دمشق اخر ذي الحجة من السنة (٤٨٦ هـ / أواخر كانون ثاني ١٠٩٤ م) وفي جملته الأمير وثاب بن محمود بن صالح، وبنو كامل، وجماعة من العرب لم يجسروا على الاقامة بالشام خوفا من قسيم الدولة »، وفي دمشق أخذ تتش يعمل من جديد على تقوية جيشه بتجنيد قوات جديدة، وعلى إعداد مايلزم من العدة كي ينال السلطنة، وفي حلب قام آق سنقر بدوره بالاعداد للتصدي لتتش ومنعه من مغادرة بلاد الشام إن لم يكن لانتزاع دمشق منه، وكاتب آق سنقر السلطان بركياروق وطلب منه المساعدة، كما استنجد بمن جاوره من حكام السلاجقة في مدن الجزيرة « فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل، وبزان صاحب الرها، ويوسف بن آبق صاحب الرحبة في الفي فارس وخمسمائة فارس»•

وقام آق سنقر أيضا بتجنيد قوات اضافية من قبيلة كلاب، وجدير بالملاحظة ان معظم قوات تُتُش التي جندها هو ايضا في جيشه كانت من بين القبائل البدوية العربية ومن جملة ذلك قبيلة كلاب التي يبدو أن افراد الأسرة المرداسية كانوا قد فقدوا قسما كبيرا من سلطانهم عليها بعد سقوط اسرتهم في حلب ، ففي ايام آق سنقر التي نحن بصدد الحديث عنها كان أبرز أمراء قبيلة كلاب هو شبل بن جامع وكانت له السيادة على الجزء الأكبر من القبيلة ولقد قطن هذا الجزء في المنطقة الجنوبية الغربية لحلب، أما ما تبقى من القبيلة فقد كان تحت إمرة الأمير المرداسي وثاب بن محمود الذي كان على علاقات طيبة مع تتش، لذا انخرط واتباعه تحت لوائه.

ولم تكن العلاقات بشكل عام جيدة بين آق سنقر وقبيلة كلاب، لكنه ـ أي آق سنقر ـ كان مجبرا على تجنيد الكلابيين في جيشه، لأن ما كان لديه من القوات التركية، لم يكن كافيا، ثم إن ما جاءه من مساعدات، ونجدات، كان دون الحاجة، ويبدو ان قبيلة كلاب كانت المصدر الأفضل، إن لم يكن الفريد، في شمالي بلاد الشام للتجنيد، ولقد كان آق سنقر على بينة ومعرفة تامة بميول الكلابين ومشاعرهم غير الودية تجاهه وكان لهذا دائما يشك بهم، ويرتاب بتصرفاتهم، واخلاصهم له.

« وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة (آذار ـ نيسان ١٠٩٤ م) خرج تاج الدولة تتش من دمشق ومعه خلق عظيم من العرب، ولقي يغي سغان بعسكر انطاكية بالقرب من حماه، وأقاموا هناك اياما، وزوج ولده رضوان من ابنة يغي سغان وسيره عائدا الى دمشق، وسار تاج الدولة بعساكره »، فتهيأ آق سنقر للقائه، والخروج إليه، واستدعى منجما ليأخذ له الطالع ، فحضر عنده واختار له وقتا، وقال: تخرج الساعة، فركب ومعه النجدة التي وصلته، وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل، وكان اطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زائدة، وجماعة من احداث حلب، والديلم والخراسانية، في احسن زي،

واكمل عدة، وقيل إنه قدر عسكره بعشرين الف فارس، وقيل كان يزيد عن ستة الاف ، وقصد تاج الدولة يوم السبت التاسع من جمادى الأولى من السنة (٤٧٨ هـ / ٢٦ مايس ١٠٩٤م)٠

وقطع آق سنقر سواقي نهر سبعين (على بعد ستة فراسخ من حلب) قاصدا عسكر تتش(وكانت عساكر كربوقا وبوزان لم تتمكن من قطع بعض السواقي) فاقاموا على حالهم، وكان أول من برز للحرب آق سنقر، فالتقى الفريقان٠

ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من البداة العرب، فنقلهم من الميمنة الى الميسرة في وقت المصاف، ثم نقلهم الى القلب، فلم يغنوا شيئا، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت، وانهزمت البداة العرب وعسكر كربوقا وبزان، وكربوقا وبزان معهم الى حلب، ووقع فيهم القتل ، وثبت قسيم الدولة ، فاسر واكثر أصحابه٠

وحمل الى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه قال له:" لو ظفرت بي ما كنت صانعا في ؟ قال: اقتلك، قال: فاني احكم عليك بحكمك في "، وقام تاج الدولة إليه" فضرب رقبته بيده، وقطع راسه "،" واصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه راس الأمير قسيم الدولة "، وكان كربوقا وبوزان قد عولا على الاعتصام بحلب وانتظار وصول نجدة من السلطان بركياروق" لأن كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل، وقررا مع الاحدا ث ذلك "،ووصل تتش الى حلب والأمور لم تقرر بعد بشكل نهائي، وسببت سرعة وصول تتش الى أسوار حلب ارتباكا بين صفوف اهاليها واحداثها وتركمانها، وفي ساعة الحيرة هذه وثب" قوم من الأحداث ممن لايعرف ولايذكر ففتحوا باب انطاكية ونادوا بشعار تاج الدولة، فدخل وثاب بن محمود بن صالح "" في مقدمة اصحاب تاج الدولة الى حلب، وسكن البلد، فنزل الوالي بقلعة الشريف وسلمها الى تاج الدولة، فدخلها وبات فيها، فراسله نوح والي القلعة الكبيرة وسلمها إليه بعد ان توثق منه، وطلع تاج الدولة إليها في الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة ٠

وقبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبته صبرا، واخذ كربوقا واعتقله بحمص، واقطع الشام لعسكره، واقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سغان »·

« ورحل السلطان تاج الدولة عن حلب في العسكر الى ناحية الفرات، وقطعه وقصد حران فاستعادها، وكذلك سروج والرها، وقصد دياربكر، وعدل عن طريق السلطان بركياروق لأنه كان نازلا بأرض الموصل طالبا لخاتون زوج السلطان ملك شاه والدة أخيه محمود، وكانت مستولية على اصفهان وجميع الأموال، لمكاتبات ومراسلات ترددت بينهما في معنى الوصلة بينها وبينه ـ اي تتش ـ واستقر الملك له ولها، وكانت قد منعت السلطان بركياروق التصرف في تلك الاعمال والنقود فيها·

وفي هذا الوقت حدثت زلازل في يوم وليلة دفعات لم يسمع بمثلها في كل زلزلة منها تقيم وتطول بخلاف ماجرت بمثله العادة· ورحل تاج الدولة عقيب ذلك، ولم يتمكن من الاتمام على سمته، وعرفت خاتون الخبر فخرجت من اصفهان في عساكرها للقاء تاج الدولة، فعرض لها في طريقها مرض حاد ، فتوفيت، وتفرق عسكرها الى جهة السلطان بركياروق والى غيره»·

وحين عرف بركياروق ذاك سار في الحال الى اصفهان فدخلها وملكها، «ووصل من عسكر خاتون الى تاج الدولة خلق كثير، وكذلك من عسكر بركياروق، فتضاعفت عدته، وقويت شوكته، ودعي له على منابر بغداد، ووصل الى همذان، وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه فيمن بقي من الأجناد في الشام، فسار الى حلب، ومن حلب الى العراق، ومعه الأمير نجم الدين ايل غازي بن ارتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح وجماعة من امراء العرب، واتراك حلب القسيمية(نسبة الى قسيم الدولة آق سنقر)، وتوجه صوب بغداد على الرحبة »·

وبعث تتش يوسف بن ابق على رأس قوة نحو مدينة بغداد للاستيلاء عليها،أما هو فتوجه نحو اصفهان، وفي اصفهان كان

آلسلطان بركياروق مريضا بعد اصابته بـالجدري، لذلك سـار تتش نحو الري، وراسل أمراء التركمان الذين كانوا في أصبهان يدعوهـم الى طاعته ويبذل لهم البذول الكثيرة» فأجابوه يعدونه بالانحياز اليه وهم ينتظرون ما يكون من بركياروق، فلما عوفي ارسلوا الى تتش ليس بيننا غير السيف، وساروا مع بركياروق من اصبهان » نحـو الري، وقبل أن يصلوها» أقبلت إليهم العساكر من كل مـكان حتـى صاروا في ثلاثين الفا، فالتقوا ــ مع جيش تتش ــ بموضع قريب مـن الري، فانهزم عسكر تتش، وثبـت هـو فقتـل، قتله ــ غيلة ــ بعض اصحاب أق سنقر صاحب حلب ــ أو بوزان صـاحب الرها ــ أخـذا بثأر صاحبه »(١٣) .

وكان هذا في شهر صفر سنة ثمان وثمـانين واربعمـائة (شـباط ١٠٩٥م).

إن مقتل كل من آق سنقر قسيم الدولة، وبوزان، ثم تتش قد ختـم مرحلة من مراحل تاريخ بلاد الشـام والجـزيرة تحـت الحـكم السلجوقي، وفي الواقع إنه قد ختم حقبة متميزة من تـاريخ الشـام والجزيرة وابتدأ حقبة متميزة جديدة هـي حقبـة بـداية الحـروب الصليبية ونشاط الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسـن الصباح(١٤) ولقد كان تتش وبـوزان وآق سـنقر ورجـال طبقتهـم تركمانا قاموا بالحاق بـلاد الشـام والجـزيرة بـالامبراطورية السلجوقية ولقد كانت مواطن ولادتهـم خـارج الشـام والجـزيرة وجاءوا هم غزاة الى الشام والجزيرة مواكبين للهجـرة التـركمانية الكبرى.

وبموتهم انتهت طبقتهم ومعها ختمت المرحلة التي عاشوها ، وبدات بعدها مرحلة جديدة،حكام الشام والجزيرة فيها من السلاجقة ،لكن كلهم ولد في إحدى مدن أو بلدان الشام والجزيرة وفيهـا نشـأ ، وفي الوقت الذي تبدأ به مـرحلة الحـكام السـلاجقة» الشـاميين والجزريين » هذه تعرضت الشـام لهجـرة بشرية وغزو جـديدين ، المهاجرون الغزاة الجدد كانوا مثلهم مثل التركمان مـن اصـول غير شرقية عربية ،إنما وإن اختلفوا عن التركمان في المعتقـد والوطـن

الأم فقد وجدت أوجه تشابه كثيرة تجمعهم بالتركمان ، يقول المؤلف المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى وكتب عنهـا :« لقد كان حقا ما قيل من أنه لايجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس إن كان من غير الفرنجة أو الترك (١٥) .

ولن يتمكن ـ كما سنرى ـ السلاجقة « الشاميين الجزريين » من صد الصليبيين ، وسيمر وقت تزول به « بالموت » طبقة الحكام السلاجقة هذه ويخلق جيل جديد من الحكام السلاجقة والناس فيه حقنت روح جديدة،وبنفس الوقت تزول أيضا طبقة قادة الحملة الصليبية الأولى ويجيء إلى الوجود جيل من الصليبيين« الشاميين الجزريين » له صفات وملامح فيها الكثير من الجدة ، وهنا يتمكن الجيل المسلم الجديد البدء بكسب الجولة ، وتأخذ حركة التحرير والاسترداد الاسلامية صفة الفعالية والتأثير.

ستكون هذه المراحل مما سيدرس في مجلد يلي هذا ، وسأكتفي هنا بدراسة فترة حكم كل من رضوان بن تتش واخيه دقاق في الشام ، لأن حكمهما يشكل جسرا بين فترة ماقبل الحروب الصليبية والمراحل الأولى لهذه الحروب !

بعد أن استولى تتش على مدينة حلب عقب قتله لآق سنقر قسيم الدولة ، وقبل أن يغادر هذه المدينة متوجها شرقا حيث لقي حتفه ، قام باسناد أمور السلطة في حلب إلى أبي القاسم بن بديع وكان من أهالي مدينة حلب ، وقد أسند تتش إليه منصب وزارة حلب ، وكان حكم مدينة حلب بنفسها بيد رئيسها بركات بن فارس الذي عرف باسم المجن الفرعي ، وكان المجن الفوعي هذا هو مقدم أحداث حلب وصاحب الكلمة الأولى فيهم.

وكان تتش قبل أن يصل الى حلب ويفتحها قد أعاد ولده الأكبر رضوان إلى دمشق ، والى رضوان أوصى بالأمور من بعده إن أصابه مكروه ، وكان رضوان آنئذ صبيا في الثالثة عشر من عمره ، ذلك أنه ولد في دمشق سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، وفيها نشأ في حجر أبيه ، وكان أبوه قد زوج أمه الى إحدى شخصيات تركمانة الكبار ،

وكان اسم هذه الشخصية حسين وعرف عادة باسم جناح الدولة ، وأحيانا باسم باقي الدولة •

كان جناح الدولة اتابكا لرضوان بن تتش ، وكلمة اتابك تعني في الأصل الامير الأب ، فهي كلمة مركبة من « اتا » ومعناها اب او عم ،و« بك »وتعادل امير او مقدم او سوى ذلك من الفاظ الزعامة ،فلقد كان من عادة السلاجقة كتركمان أن يطلقوا بعض زوجاتهم عقب انجاب احداهن لغلام ، وكانوا ينعمون بالمطلقة« كزوجة » على احدى شخصيات دولتهم من التركمان ، والطلاق كان يحصل لأسباب دينية وسياسية ، دينية عدم سماح الشرع بالجمع بين اكثر من اربع زوجات حرائر ، وسياسية حيث كان الحاكم السلجوقي يجد نفسه راغبا او مرغما على الزواج بأكثر من اربع فتيات إما للشهوة أو للمكانة السياسية والاجتماعية للفتاة او للامرين معا ، وحين كان يتم تطليق إحدى الزوجات ومن ثم تزويجها كان الأمير السلجوقي يحقق بعض الغايات السياسية ايضا فهو يربط المنعم عليه« بالمطلقة » بالأسرة الحاكمة ثم هو يؤمن بنفس الوقت مربيا جيدا لولده مع حزب وقوة تحميه ، ومع مرور الايام ، وتقلب الدول ،تطور منصب « أتابك » وتمتع بصفات ومزايا أخرى غير التي ذكرت كما أدخل عليه الكثير من المزايا الجديدة ، ليس هذا المجال للحديث عنها بشكل مفصل .

لقد كانت مدينة حمص هي أقطاع جناح الدولة حسين ، ويبدو أن تتش كان قد اسند إليه أمور الاشراف على أعمال حلب ، وليس من المؤكد فيما اذا كان جناح الدولة قد كان برفقة تتش في خراسان عند مقتله أم أنه كان في مدينة حلب ، ومن الأرجح أنه كان في مدينة حلب ولم يكن برفقة تتش.

وعندما كان تتش في خراسان متوجها لحرب ابن اخيه بركياروق ، ارسل عند وصوله الى همذان كتابا الى ابنه رضوان « يستدعيه اليه من دمشق وامره أن يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل أمر أبيه وخرج من دمشق بالعسكر متوجها الى

أبيه، ووصل الى عانة ،وقيل الى الأنبـــار، فبلغــه قتـــل ابيه تتش ، فحط خيمه وسار مجدا عائدا، فوصل الى حلب وتسلمها مـــن وزير ابيه ابي القاسم بن بديع في ســـنة ثمـــان وثمـــانين واربعمـــائة (١٠٩٥م) وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه »٠

وأخذت فلول قوات وعساكر تتش ومـــؤيديه تتـــوارد الى حلب ، وهنا أراد كل واحد من رجالات دولة تتش وحلفائه ــ وخاصة يغـــي سغان صاحب انطاكية ويوسف بن ابـــق وبعض اولاد ارتـــق ــ ان يتفرد بالتحكم برضوان وبالتالي السيطرة على ميراث تتش في الشام والجزيرة ، ولقد ابتغوا جميعا اعادة بلدان الجزيرة مع دمشـــق الى الحظيرة٠

ولقد كان من بين فلول جيش تتش التـــي فـــاءت الى حلب دقـــاق الابن الثاني لتتش ، وخاف دقاق على نفســـه مـــن أخيه رضـــوان ، وكان نائب القلعة في دمشق يدعى ســـاوتكين ، واراد ســـاوتكين ان يحتفظ بسلطانه واستقلاله في دمشق ، لكنه كان يحتاج الى اضـــفاء نوع من انواع الشرعية على حكمه ، لهذا راسل دقـــاق بـــن تتش ، فهرب المذكور سرا من حلب الى دمشـــق ، حيث دخلهـــا ، واصـــبح حاكمها الشرعي ، وهكذا عاد التمـــزق الســـياسي مـــرة ثـــانية الى الشام ، واصبح الآن اعادة السيطرة على دمشق الشـــغل الشـــاغل لرضوان ، وله صرف الكثير من جهده ووقته وطاقات دولته٠
وكان لتتش ولدين آخرين ، وخشية أن يفعلا فعلا يشابه ما صنعه اخوهما دقاق قام رضوان باعدامهما٠

وقامت مفاوضات بين رضوان بن تتش والســـلطان بـــركيا روق ادت الى ان أطلق رضوان الاسرى الذين كان والده قـــد اخـــذهم في حربه مع أق ســـنقر ، وبـــالمقابل اطلق الســـلطان بـــركياروق سراح الأسرى الذين أخذهم في حربه مع تتش ، وكان من بين الذين كسبوا حريتهم طغتكين ، وطغتكين هذا الذي عرف باسم اتابك ظهير الدين كان من المع ضباط تتش ، وقد حظي عنده بمكانة عالية نظرا لطاقاته ونشاطه ونبوغه» وسلم إليه ولده الملك شمس الملوك دقاق، واعتمـــد

عليه في تربيته وكفالته » ، وتزوج طغتكين خاتون صفوة الملك أم دقاق، وهكذا أصبح أتابكا حسب ما جرت عليه العادة.

وعقب خلاصه من الأسر توجه عائدا الى دمشق فوصلها» في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م فتلقاه الملك شمس الدولة دقاق، وعسكره، وارباب دولته، وبولغ في اكرامه واحترامه، ورد إليه النظر في الاسفهسلارية، واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسة البيضة، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وامراء الدولة العمل على ساوتكين والايقاع به، وتمم عليه الأمر ،وقتل ».

ولما كان رضوان بن تتش « مائلا الى دمشق ، ومحبا لها، ومؤثرا للعودة اليها، ولايختار عليها سواها لمعرفته بمحاسنها، وترعرعه فيها، فجمع وحشد، واستنجد بالأمير سكمان بن ارتق »، وكان اقطاع سكمان سروج في الجزيرة، فسار سكمان نحو حلب وقطع الفرات، وفي طريقه لقيه يوسف بن آبق ففرض نفسه عليه، لكن عندما وصل حلب استطاع بمساعدة جناح الدولة حسين الخلاص من يوسف حيث ذهب إلى أنطاكية الى يغي سغان صاحبها.

واقطع رضوان سكمان بلدة معرة النعمان واعمالها ،ثم سار معه نحو دمشق، وكانت سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م قد دخلت ، وحاصر رضوان دمشق لكنه أخفق في أخذها نظرا لتدابير الدفاع الجيدة عنها، ولما وجد رضوان أنه لاجدوى في حصاره لها، توجه جنوبا فنهب أعمال حوران ، وهنا تركه سكمان حيث ذهب الى مدينة القدس وكانت اقطاعا لاخيه ايل غازي فتسلمها، وعاد رضوان الى حلب كي يجدد الاستعداد لحملة ثانية على دمشق(١٦) .

وعقب عودة رضوان الى حلب راسله يوسف بن آبق ، واستأذنه في المجيء الى حلب للدخول في خدمته فأذن له، ووصل يوسف الى حلب وسكنها، « ثم خاف رضوان وحسين منه، فتقدما الى بركات ابن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن الفوعي بقتله، فهجم عليه واصحابه فقتلوه، ونهبوا داره، واخذوا راسه وسيروه الى بزاعا ومنبج فتسلموها من أصحابه » وبعد هذا خرج جناح الدولة حسين

ورضوان فأغارا على بعض أعمال انطاكية التابعة ليغي سغان، واحتلا تل باشر وشيح الدير، ولقد اغضب هذا ــ مع مقتل يوسف بن آبق ــ يغي سغان الذي اخذ يعد العدة للثأر.

ومرة ثانية توجه رضوان مع حسين وبصحبتهما عساكر حلب نحو دمشق، وهنا تحرك يغي سغان بسرعة نحو دمشق منجدا لدقاق « فضعفت نفس رضوان عن دمشق، فسار الى البيت المقدس ، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سغان ــ واقاموا متحابسين مدة ــ واشرف عسكر رضوان على التلف، فهرب حسين على البرية واتبعه رضوان، ثم وصل سكمان ايضا على البرية الى حلب، ووصل دقاق وطغتكين الى ناحية حلب واستنجد رضوان بسليمان بن ايلغازي صاحب سميساط، فوصل الى حلب بعسكر كبير، واجتمع العسكران بقنسرين على نهر قويق، وتحاربا فهرب دقاق وطغتكين الى دمشق، ويغي سغان الى انطاكية ».

ولقد استغلت الخلافة الفاطمية في القاهرة أمور واحداث النزاع هذه فأرسل أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي حملة عسكرية استطاعت بعد جهد انتزاع القدس من الاسرة الأرتقية، ثم اكدت النفوذ الفاطمي على مناطق الساحل الشامي، مثل مدينة صور، ووطدته، وكان هذا سنة الحملة الثانية على دمشق ٤٨٩ ــ ٤٩٠ هـ / ١٠٩٥ ــ ١٠٩٦ م ، ومن قبل في سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م بعيد وفاة السلطان ملك شاه، واثناء انشغال تتش وآق سنقر في الصراع من أجل السلطنة، استغل بدر الجمالي والد الأفضل تلك الحالة فأرسل حملة عسكرية الى الساحل، واستطاعت تلك الحملة احتلال مدينة صور، وأعادتها الى حظيرة الخلافة الفاطمية.

واستغل اهالي افامية ايضا الصراع بين ولدي تتش، فثاروا بحاكمهم التركي الذي كان تتش قد خلفه فيها بعد انتزاعه لها من الاسرة المنقذية اثناء سعيه للسلطنة، واستطاع الفاميون الذين كان غالبيتهم اسماعيلية مستعلية من اتباع القاهرة طرد حاكمهم التركي

في سنة ٤٨٨ هـ .وذهب وفد منهم الى القاهرة، فرجعوا بخلف بن ملاعب، الذي كان قد نجا من سجنه في خراسان، رجعوا به واليا عليهم.

واثناء فترة الصراع هذه استطاع كربوقا بعدما أطلق رضوان سراحه من السجن الذي كان تتش قد أودعه به عقب انتصاره على أق سنقر، استطاع كربوقا تجنيد جيش من التركمان في الجزيرة، وبوساطة هذا الجيش احتل حران، ثم أخذ نصيبين من محمد بن مسلم بن قريش العقيلي، ثم احتل مدينة بلد وغرق محمد بن مسلم، وسار الى مدينة الموصل، وكانت في حوزة علي بن مسلم بن قريش العقيلي، فحاصرها حتى " عدمت الأقوات بها، وكل شيء حتى ما يوقدونه ، فلما ضاق بصاحبها علي الأمر فارقها، وسار الى الأمير صدقة بن مزيد – امير بني أسد – بالحلة، وتسلم كربوقا البلد بعد أن حصره تسعة أشهر " وبعد هذا، وبعد أن وطد نفسه في الموصل اراد اتمام مد نفوذه على الجزيرة ،وكان حاكم جزيرة ابن عمر قد اعترف بسلطانه ، فسار الى بلدة الرحبة على الفرات فاحتلها وضمها الى مملكته الجديدة(١٧) .

إن اخفاق رضوان في أخذ دمشق للمرة الثانية لم ينه مطامعه في هذه المدينة، كما لم يوقفها" تواصل الأخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية في عالم لايحصى عدده كثرة ". ولقد قلق الناس في بلاد الشام وسواها لسماع هذه الأخبار وانزعجوا لاشتهارها، لكن رضوان كان ما يزعجه، هو أن يبقى محروما من دمشق، وكان امر المحافظة على حكمه في حلب هو الذي يشغل باله ويقلقه. ويبدو انه اراد ان يتخلص من جناح الدولة حسين وينفرد بحكم حلب." واستشعر حسين من رضوان، وأحس بتغير نيته تجاهه، فاضطر الى الهرب من حلب ليلا الى حمص ومعه زوجته أم رضوان، وهنا عول على قصد مدينة حمص لانتزاعها من جناح الدولة حسين "، ثم قصد مدينة دمشق لانتزاعها من اخيه دُقَاق، وراح رضوان يفتش عن حلفاء ، فكان أن التفت الى يغي سغان صاحب انطاكية فتصالح معه وتحالف، ثم توجه بأنظاره نحو القاهرة،

ووصلت إليه بعثة فاطمية ارسلها الأفضل أمير الجيوش ووزير مصر وصاحب الكلمة فيها، وكان مع البعثة بالاضافة الى الهدايا الكثيرة رسالة من الخليفة الفاطمي المستعلي واخرى من الأفضل ·وتم الاتفاق بين رضوان والبعثة الفاطمية على ان يقيم رضوان الدعوة في بلاده للخليفة المستعلي والأفضل بن بدر الجمالي · وان تقوم القاهرة بارسال جيش يساعده لاسترداد حمص واحتلال دمشق · وفعلا امر رضوان باعلان الدعوة للفاطميين وتوجه جنوبا، وعند شيزر حدثت خلافات بين امراء جيشه ، فلم يتابع سيره جنوبا بل عاد الى حلب، وبنفس الوقت ضغط عليه من قبل امراء التركمان للاقلاع عن الدعوة للفاطميين والعودة للطاعة العباسية ففعل، ولم تستمر الدعوة للفاطميين سوى اربع جمع ومن ثم قطعت ولم تعد ابدا بعد هذا (١٨) ·

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية واخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، اخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيد جهودهم، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة، واخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة احد كبار العساكر، عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه، وعندما دخل الصليبيون انطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين، وفر يغي سغان، وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به، ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في ايدي المسلمين، واخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة ووصلت الى انطاكية، واخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار، وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين ، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الأسوار، لكن انانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الفشل والهزيمة·

ويصف صاحب اعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان، الحالة اثناء

الحصار بقوله:«أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا، ولما راى رجالنا انهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز، ولايشرب الماء لمن معه الماء، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنينتنا، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ٠٠٠٠ أما حامية القلعة فقد دابت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا، تاركة اياهم مابين جريح وقتيل بسهامها، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها إلا ليلا أو خفاءا، وبذلك كنا نعاني الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف »٠

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس ان القديس أندراوس قد تراءى له، وقال له :« إنني الحواري أندراوس، اسمع يابني: عرج على كنيسة القديس بطرس ــ القسيان ــ وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح الذي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب »، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة واتباعهم، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير« داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بانطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه، وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: ابشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج، فإن امرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى

يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكن من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم، وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم »٠

إن في رواية ابن الأثير من أن الهزيمة قد تمت على المسلمين» ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم » مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك أن صاحب أعمال الفرنجة، وهو شاهد عيان، يذكر خلاف ذلك، فهو يقول:» بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في شتى الكنائس، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه، ثم وزعوا الصدقات، وأقاموا القداسات٠

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندر وفي الثانية دوق جودفري ورجاله، وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة اسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه، ومنعا لهم من النزول الى المدينة، وكان في الفريق الخامس تنكريد ـ ابن المركيز ـ بصحبة رجاله، وفي الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه٠

ولما تدثر أساقفنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر، بينما اعتلى أخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا، ولما

تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة.

ولما راى كربو قاما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة في اثر الأخرى قال :« دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا » ، الا انه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة أن يعلن الارتداد اذ شاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، اذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في اثره بنفس الخطى ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه احدهما ناحية البحر ، بينما أقام رجال الفريق الآخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بمايبيته العدو لهم ففعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفري وكونت نرمندي، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب اخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين واحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم باقواسها، ولما راى الترك المقيمون على جانب البحر أن لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم ويلوذوا بالفرار. فلما تبين هؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم، وكان تقدمهم شطر معسكره، وذرع الدوق جودفري وهيج العظيم وكونت فلاندر الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس، أما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس، والتحمنا واياهم في القتال، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب.

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين، ومضى رجالنا في آثارهم حتى خيامهم وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم، ورأوا أن قصهم إياهم اجدى من الاستيلاء على الغنيمة.. وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي.... فخلى العدو وراءه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبيذ والطحين، وكثيرا غير ذلك مما كان يلزمنا ».

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة انطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م، واخذ الصليبيون يعدون انفسهم لمتابعة الزحف جنوبا، وكان قبل أن تسقط انطاكية ، وحتى قبل أن يصل الصليبيون إليها أن انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخو جودفري – الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية – وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية، واخيرا وصلت الى الرها فاحتلها، واتخذت منها قاعدة لاحدى إمارات الصليبيين في المشرق، وكان من اسباب نجاح هذه الفئة ومن اسباب النجاح عند انطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا يدينون بالمسيحية وكانوا إما سريانا أو من أصل أرمني (١٩) يضاف الى هذا أن سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية، مكروهة وليس لها قواعد متينة ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر، ثم إن الأرض لم تكن « بعد » أرضا تركمانية، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان.

زحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد ان جعلوا انطاكية مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا اثناء زحفهم هذا ان ينتزعوا من دولة حلب الكثير من اراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية فلقد استولوا على البارة ، واتوا على معرة النعمان وعلى معظم من كان فيها من سكان ، واخذوا يجردون حلب من اراضيها واملاكها حتى وصلوا الى اسوار المدينة ، ولقد ضعف

امر رضوان في حلب كثيرا ، فاخذ يفتش عن مخرج يحتفظ به بحكمه في حلب ، وبات يبحث عن حلفاء يساعدوه في الابقاء على حكمه ، واذا امـكن في الاسـتيلاء على بعض الاراضي التـي كانت في ايدي بعض الحكام المسلمين مثل افامية وحمص ودمشق ، ولقد وجـد في اتبـاع الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصـباح الحليف . ومنح رضوان اتباع هذه الدعوة ودعاتهـا حـرية العمـل والتصرف بحلب ، ولقد اغضب هذا كله اهالي حلب ، ودفعهـم للعمـل للتخلص من رضوان ، ولقد قاد المجن الفوعي بركات بن فارس ، رئيس حلب ومقدم احداثها الحركة ضد رضوان ، « وكان هـذا المجـن اولا مـن جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعار ، فاستتابه قسـيم اق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعـرفته بـالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصـلي العشـاء الاخـرة بـالفوعة (٢٠) ، ويسري الى حلب ويسرق منها شيئا ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فاذا اتهم بالسرقة احضر من يشهد له انه صلى العشـاء بـالفوعة والصبح ، فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في ايام قسيم الدولة، وايام تاج الدولة ، وبعده في ايام رضوان ، وامتدت يده ، وحكم على القضاة ومن دونهم ... وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء ، واخذ الاموال وارتكاب الظلم ».

واعلن المجن الثورة على رضوان ، وتعصب معه الحلبيون وساعدوه فسيطر على مدينة حلب ، وحصر رضوان في القلعـة ، وهنا « امـر رضوان مناديا نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع ، فانقلب الاحداث عنه » وخذله الحلبيون وتخـاذلوا عنه ، وايد الاحداث الرئيس الجديد واعطوه ولاءهم ، وقد أضعف هـذا مـوقف المجن فاضطر الى الاختفاء وبعد فترة القـى رضـوان القبض عليه وعلى اولاده وذويه ، واودع رضوان المجن السجن ، وهناك « عذبـه عذابا شديدا بأنواع شتى ، واراد بذلك ان يسـتصفي مـاله ، فممـا عذبه به انه احمى الطشت حتى صار كالنار ، ووضـعه على راسـه

ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق.

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال: ويلك لاتعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب.

فلما فرغ قيل له: كيف تجد طعم الحديد ؟ فقال:قولوا للحديد: كيف يجد طعمي، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلا ما أقربه غلام أو جارية، وذلك شيء يسير، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله.

ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله.وهو ينظر إليهما ولا يتكلم.

ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين (١٠٩٨م) وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال: يامعشر أهل حلب من كان لي عنده مال، فهو في حل منه »(٢١) .

وازدادت مع الأيام قوة الصليبيين في الشام، فتمكنوا من احتلال مدينة القدس، حيث اقترفوا مذبحة شنيعة مروعة ذهب ضحيتها سكان المدينة، ولقد ترك لنا صاحب أعمال الفرنجة وصفا لسقوط القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ م، فقال:« تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة، وماكاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها فتعقبهم رجالنا واخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى... ولما ولج حجاجنا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم... وانطلق الصليبيون في جميع انحاء

المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات.

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم. ثم سجدوا امام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساءا، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل.... وصدر الأمر.... بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت ان تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت اكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا وما تاتى لأحد قط ان سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي المت بالشعب «المسلم».

ومع ازدياد قوّة الصليبيين تقلصت قوة حكام الشام من التركمان ونقصت مساحة اراضي دولهم، كما ازدادت خلافاتهم وتأصلت فرقتهم، ففي شعبان ٤٩٣ هـ /حزيران ١١٠٠ م حقق الصليبيون انتصارا كبيرا على رضوان بن تتش وعسكر حلب» فقتلوا خلقا من الناس واسروا خلقا »، وفي هذا الوقت كان دقاق بن تتش وعساكره يحاربون في الجزيرة وطبعا ليس ضد الفرنجة، إنما ضد التركمان حكام الرحبة وديار بكر وميارفارقين، واحتل دقاق ميافارقين ثم رتب فيها من ينوب عنه وعاد الى دمشق.

ولم ينس رضوان ما حل به حمص ، ولم تمت مطامعه فيها ، فدبر مع مقدم الاسماعيلية اتباع الدعوة الجديدة (او الحشيشية كما دعاهم اهل الشام) في حلب، أمر اغتيال جناح الدولة حسين، وفي رجب سنة ٤٩٦ هـ/مايس سنة ١١٠٣ م وثب قوم من الباطنية كانوا في زي الصوفية عليه فأردوه قتيلا في جامع حمص عندما وقف ليؤدي صلاة الجمعة، ولم يحصل رضوان من هذا الاغتيال على حمص، فقد راسل الذين تسلموا زمام الامور بها بعد الاغتيال دقاق صاحب دمشق فأسرع بالمجيء إليها » وتسلمها، واحسن الى اولاد

جناح الدولة، وسار بهم الى دمشق، فاقر عليهم اقطاع أبيهم »٠

ويبدو أن عملية اغتيال جناح الدولة شجعت طغتكين اتابك دمشق للتخلص من دقاق، ولقد تولت أم دقاق ــ زوج طغتكين ــ مهمة التخلص من أبنها، فزينت « له جارية، فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ثقبته بابرة فيها خيط مسموم »، وكان هذا في العام الذي تلا عام اغتيال جناح الدولة(٢٢) .

وفي العام الذي تلا وفاة دقاق ــ أي ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ ــ ١١٠٥ م أوقع الصليبيون برضوان بن تتش واهالي حلب هزيمة كبيرة جديدة قرب ارتاح ــ وهو حصن كان يقع قرب حلب ــ ، ولقد قتل من المسلمين في هذه المعركة « مقدار ثلاثة الاف ما بين فارس وراجل، وهرب من بارتاح من المسلمين، وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله، ونهب من نهب، وسبي من سبي، واضطربت أحوال حلب ...وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون» وجرد الفرنجة حلب من معظم أملاكها الى درجة أنه« لم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير أمنة »٠

وضاق الأمر بأهل حلب «فمضى بعضهم (في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م) الى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج، وكسروا بعض المنابر فجهز السلطان محمد بن ملك شاه (الذي خلف بركياروق)مودود صاحب الموصل، وأحمديل الكردي، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة، ومات سكمان قبل وصوله الى حلب، ووصلت العساكر الى حلب، فأغلق رضوان ابواب حلب في وجوههم، وأخذ الى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور، ومنع الحلبيين من الصعود إليه،٠٠٠ وبقيت ابواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة، وأقام الناس ثلاث ليال لايجدون ما يقتاتونه، وكثرت اللصوص

وخاف الأعيان على انفسهم، وساء تدبير الملك رضوان، فانطلق العوام السنتهم بسبه وتعييبه، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتد خوفه من الرعية ان يسلموا البلد، وترك الركوب بينهم، وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر ـ أي عساكر مودود واصحابه ـ فيأخذونه »٠

واضطر مودود واصحابه الى الرحيل جنوبا، وقرب شيزر انتصروا على فئة من الصليبيين، وقام تحالف بين مودود وطغتكين اتابك دمشق لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥ تشرين الأول ١١١٣ م، وكان مغتاله من الحشيشية، ولاندري مدى حصة رضوان في الاعداد لهذا الاغتيال، ومهما يكن الحال فان رضوانا لم ينعم بالحياة طويلا بعده حيث توفي هو الآخر في كانون الأول من السنة نفسها ـ ١١١٣ م٠

ولقد« كان الملك رضوان بخيلا شحيحا يحب المال، ولاتسمح نفسه باخراجه، حتى ان امراءه وكتابه كانوا ينبزونه بـأبي حبه، وذلك هو الذي اضعف أمره وافسد حاله مع الفرنج والباطنية، وجدد في حلب مكوسا وضرائب لم تكن »٠ وعندما توفي رضوان ترك شمالي بلاد الشام في حالة لاتحسد عليها، ولقد خلفه في حكم حلب ابنه ألب ارسلان، وكان ألب ارسلان هذا صبيا في التاسعة عشر من عمره « الثغا لايحسن الكلام، فدعي بالأخرس لذلك، وكان مهورا قليل العقل سفاكا للدم منهمكا في المعاصي »٠

ولقد افتتح حكمه بقتل اثنين من اولاد ابيه، وتدهورت أحوال حلب في زمنه كثيرا، ولقد سبب حمقه انفضاض من بقي من الناس من حوله ، وفي زيادة الدمار في شمالي الشام، وخاف رجال الحكم في حلب على انفسهم منه، فدبروا اغتياله، وكان ذلك بعد سنة من وفاة والده رضوان(٣٣) وبمقتله طويت آخر صفحات حكم اسرة تتشن في الشام، ولقد كانت صفحات قاتمة ليس فيها إلا الدمار والقتل٠

وفي ساعات الظلام الدامس هذه التي كانت مخيمة على الشام،

كانت هناك تبـاشير للنور أخـذت تلوح مشرقـة مـن المشرق حيث الموصل، ومن الموصل أخذ النور يزداد حتى عم الشام كله ثم انتقـل الى مصر • إن هذا سيكون موضوع مجلدات قادمة تلي هـذا المجلد إن شاء الله•

ملاحق الكتاب

أبو محمود القائد الكتامي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

ابراهيم بن جعفر بن فلاح بن مروان ، أبو محمود القائد الكتامي ، قدم الى القاهرة مع أبيه جعفر بن فلاح ، ومازال بها الى ان قتل أبوه بدمشق في سنة ستين وثلاثمائة عند محاربة القرامطة ، وقدم القرامطة بعد قتله الى القاهرة وأخرج اليهم المعز ابنه عبد الله فقاتلهم وانهزموا ، فأحب المعز أن يبعث في اثارهم من يأخذهم فوقع اختياره على ابي محمود ابن فلاح ، فجهزه .

وسار لخمس بقين من شعبان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من القاهرة على عسكر بلغت عدتهم عشرين الفا . فسار الى الشام وظفر في طريقه بجماعة من أصحاب القرامطة بعثهم الى القاهرة.

ودخل الرملة فاستأمن اليه جماعة من عسكر القرامطة وملكها بغير قتال وسار يريد دمشق وقد سار عنها الحسن بن أحمد القرمطي واستخلف عليها أبا المنجى في طائفة من الجند. فنزل أبو محمود أذرعات. وسار ظالم بن مرهوب من بعلبك بمكاتبة المعز له الى دمشق. فلما نزل عقبة دمر خرج أبو المنجى الى الميدان ليقاتله ، وهو في الفي رجل . فبعث اليه ظالم يخادعه ويقول :« إنما جئت مستأمنا اليكم ». فسار عدة من جند أبي المنجى الى ظالم فقوي بهم واقبل الى ابي المنجى واحاط به فلم يمكنه الهرب . فأخذه وابنه ، وصار عسكره كله مع ظالم ، فملك دمشق يوم السبت لعشر خلون من شهر رمضان ، وقبض على جماعة من اصحاب ابي المنجى واخذ اموالهم ، وطلب ابا بكر محمد بن احمد بن سهل النابلسي حتى ظفر به.

ونزل أبو محمود على دمشق يوم الثلاثاء لثمان بقين منه فأنس به ظالم وأكرمه وخرج اليه وأسلمه ابا المنجى وابنه وابن النابلسي ،

فحملهم ابو محمود في اقفاص من خشب وجهزهم الى القاهرة.

وامتدت ايدي أصحاب ابي محمود يأخذون من يلقونه في الطرق وينهبون القرى ويأخذون القوافل ، ولايقدر ابو محمود على ردهم.

وصار ظالم في المدينة يأخذ أموال السلطان ولايدفع لأبي محمود شيئا ويرى أنه صاحب البلد ، هذا وقد كثر في البلد حمال السلاح من الغوغاء ، وقتلوا أصحاب المشايخ ، فامتنع الناس من الذهاب والمجيء ، وفر اهل القرى الى المدينة وخلت ظواهر دمشق.

فلما كان يوم الخميس النصف من شوال نزل أصحاب ابي محمود لنهب القصارين عند الميدان ، فوقع الصارخ في المدينة وخرج الناس بالسلاح ، وفيهم أصحاب ظالم فاقتتلوا ثم افترقوا ، وكثر بعد ذلك حمال السلاح في البلد.

وقدمت قافلة من حوران على طريق الحرجلة فأخذها أصحاب أبي محمود وقتلوا ثلاثة ممن كان فيها ، فحملهم أصحابهم وطرحوهم بالجامع داخل المدينة ، فاجتمع عليهم الناس وغلقت الحوانيت وخلت الأسواق ، واجتمع العالم وضرب أصحاب أبي محمود قرية حجيرا (1) فدخل أهلها الجامع وهم يصيحون ، واستمر الخوف الى يوم الاثنين سابع عشر ذي القعدة فوقع الصوت في البلد: النفير ! فلبس الناس السلاح وخرج أصحاب ظالم معهم ، فقاتلوا أصحاب أبي محمود يومهم الى الليل ، ثم أصبحوا يوم الثلاثاء فاقتتلوا الى الليل ، وأصبحوا يوم الاربعاء فاقتتلوا الى العصر ، ووقع الحريق فانهزم أهل البلد وقتل منهم كثير . فخرج ظالم من دار الامارة ، ولم يكن خرج في هذه الحروب ، وانما يبعث أصحابه ويظهر أنه انما يريد الدفع عن البلد ولايحب القتال ولا الخلاف ، وهو مداهن في ذلك . فلما رأى أهل دمشق منهزمين والمغاربة خلفهم ، وقد ازدحم أصحابه في الجسر حمل ، ومعه طائفة ، على أوائل المغاربة حتى ردعهم عن الرعية . ثم تكاثر المغاربة عليه فعبر الجسر ، وأخذ المنهزمون نحو البيوت فأدركهم المغاربة وقتلوا منهم كثيرا . فضج الناس بالنفير من المآذن والاسطحة ، وكثر الرمي

بالنشاب من الأسطحة ، فأحرق المغاربة الفراديس ، وكان بناء حسنا فشعت النار واتلفت شيئا كثيرا ، وانهزم ظالم وسار الى بعلبك . وجن الليل ، وبات الناس خامدين فزعين لما يأتيهم من الغد، وتمكنت النار تلك الليلة وأحرقت ما شاء الله ، وتصاعد لها ألسنة وشرار عظيم وصارت كأنها فرس يجري.

واصبح الصبح وقد احترق قصر عاتكة وقصر حجاج وما هنالك فلم يبق له أثر . هذا والناس طول ليلهم يعارضون الخشب في الأسواق ويضيقون الدروب ويحفرون الخنادق في الطرق خوفا من دخول الخيل والرجالة الى المدينة ، وعملوا على انهم يقاتلون على ابواب البلد وبات المغاربة فرحين بأخذ البلد.

فلما اصبحوا اقبلوا الى المدينة فخارت قوى كثير من الناس لما داخلهم من الفزع ، وتحيروا . فعندما اقبل المغاربة وقع النداء بالنفير ، وخرج أهل دمشق فاقتتل الفريقان مليا.

ثم أن مشايخ البلد ساروا الى ابي محمود وهو نازل بالميدان يسألونه الرفق ، وقد تبعهم خلق كثير . فلما دخلوا عليه لطفوا به وداروه وضرعوا اليه ، فقال : ما نزلت لقتالكم ، وانما نزلت لأرد هؤلاء الكلاب عنكم ـ يعني أصحابه ـ وما أنا ممن يقاتل رعية.

فاستبشر الناس واختلطوا بأصحابه وانتشر قوله في البلد فزال الخوف ، ودخل المغاربة الى المدينة في ما يحتاجون اليه. وولى أبو محمود الشرطة لرجل يقال له حمزة من المغاربة ولابن كشمرد من الاخشيدية فدخلا البلد في جمع عظيم وطافا بالمزاهر والزمر وجلسا في الشرطة ، وصارت رجالهما تطوف المدينة في الليل في عدة وافرة .

هذا وحمال السلاح ممن يطلب الفتنة لم يكفوا فكان الطوف يجد دروبا قد ضيقت لايمكنه أن يدخل فيها . فشكا صاحب الشرطة ذلك الى أبي محمود وقال : إن القوم على ماكانوا عليه من العصيان ، واشدهم قوم في باب الصغير .

فقال بعض من حضر عند أبي محمود من أهل دمشق :انما كان الامر والنهي للرعية ـ وأهل هذا البلد قد غلبوا عليه.

وكثر الكلام في هذا فعظم ذلك على أبي محمود واضطرب . فلما حضر مشايخ البلد اشتد عليهم وهددهم وقال :« أنتم مقيمون على العصيان »، فاعتذروا بأن سد باب الصغير وغيره انما كان خشية من أن يدخل منه من لايعلم به القائد من أصحابه ممن يطلب الفتن فتثور جهال الناس ، فأقسم أبو محمود لئن لم يفتح هذا الباب ليركبن اليه وليحرقنه وليقتلن من فيه . فقال الشيوخ : نعم ، نفعل مايقول القائد.

وأجلهم ثلاثا فخرجوا من عنده حائرين لايدرون كيف يسوسون جهال الناس ، ولاما يعملون في أمر السلطان . وأتوا الى باب الصغير وقد اجتمع أهل الشر فيهم ابن الماورد ، رأس الشطار ، فبلغهم الشيوخ ما قال أبو محمود فكثر اختلافهم . ثم إنهم فتحوا الباب من وقتهم.

واتفق أن بعض المغاربة في هذا اليوم جرى بينه وبين بعض أهل الشر من الدمشقيين نزاع في صبي أراد المغربي أن يغلب عليه ، فرفع الدمشقي السيف وقتل المغربي في السوق . فاضطرب البلد وغلقت الأسواق وثار العسكر ، فسد أهل البلد باب الصغير ، واشتد حنق أبي محمود ، وفرق السلاح على أصحابه في الليل ، وأصبح العسكر يريد باب الصغير ، فصاح النفير في البلد وكبر الناس على الأسطحة فطرح العسكر النار في الدور التي خارج المدينة . وخرج ابن الماورد في جماعته ومعه سوقة ونظارة أكثرهم بمقاليع ، ودار المستنفرون في أزقة المدينة ينفرون الناس للقتال ، فأقبلوا أفواجا الى باب الصغير والقتال قد حمي بين الفريقين.

ونزل أبو محمود في محراب المصلى واضطجع لوجع كان به في باطنه وهو يتأوه ، فكانت في هذا اليوم عدة وقائع آلت الى انهزام أهل البلد ، وطمع المغاربة في أخذها ، فضج الناس بالنفير من الاسطحة والمآذن ، وعلا صياح الرجال والنساء والصبيان ، وكثر الحريق ، واشتد الرمي على المغاربة من فوق الدروب بالنشاب والحجارة . فردوا عن دخول البلد . وخرج مشايخ البلد من باب

الجابية وفيهم ابن أبي هشام وأبو القاسم احمد بن الحسين العقيقي العلوي ـ وكان أبو محمود يجله ويعظمه ـ فتوجهوا الى أبي محمود وقالوا له : « الله ! الله ، أيها القائد في الحرم والأطفال ومازالوا به حتى رد العسكر عن المدينة بعدما أشرفوا على أخذها!»

وصرف العقيقي من كان من الرعية يريد أن يقاتل ، وسار أبو محمود بعسكره الى حيث كان ينزل ، وذلك في آخر ذي الحجة (٣٦٣ هـ) فصلح الأمر وسكن الشر.

وخرج الناس الى أبي محمود ودخل أصحاب الشرط المدينة ، الا انه كان قد فر من الغوطة خلق كثير الى المدينة ، وفيهم طائفة ذعار وطماع صاروا مع أهل الشر من أهل المدينة ، وفيهم طائفة يقال لها الهياجنة (٢) من قرى المرج ، لايعرفون سوى الفساد ، فصار هؤلاء يأكلون أهل السلامة والمستضعفين والذمة ، ويجبون مستغلات الأسواق ويكبسون المواضع فينهبون ما فيها . فأكلوا بذلك ولبسوا وحسنت أحوالهم ، وصاروا يكرهون أن يتمكن السلطان لئلا يزول ما هم فيه ، فهلك كثير من الناس بين العسكر وبين أهل الشر.

فلما كان في بعض الليالي مر صاحب الشرطة على عادته فاذا بصبي صباغ معه سيف فأخذه وقتله ، فخشي أهل الشر أن تمتد يد السلطان فيهم فيذفيهم ، فثاروا عند الصباح بصاحب الشرطة ، ففر بمن معه الى أبي محمود واقبلت الهياجنة الى الخضراء (٣). وجمعوا البواري والقصب وقالوا : « هذه البواري والقصب أراد المغاربة أن يجعلوها في بطائن الجامع ليحرقوه ». وقال أهل الشر لجهال العامة : « اصعدوا المآذن ونادوا النفير الى الجامع !». ففعلوا ذلك وثار الناس بالسلاح الى الجامع ، فلم يروا غير بواري وقصب مطروحة في الخضراء ، وركب العسكر وطرحوا النار في كل موضع بقي فيه عمارة واقتتلوا على الأبواب ، فكان يوما عظيما شره من شدة القتال وقوة الحريق . فاشتد الخوف على البلد ، وعلا الضجيج الى ان اظلم الليل ، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة.

واصبحوا على ذلك . فظهر في أهل الشر غلام يقال له « ابن شرارة » قد تراس وصار له قدمة في الشنيرة (٤) والقتال فأخذ جهة من البلد يقاتل عليها ووقف على باب الجابية عبيد الحوراني في جماعة ، وعلى باب الفراديس ابن بزيزات وابن المغنية وقسام ، وكل جر من هؤلاء بأعلام وأبواق . فاستمر القتال في أكثر المحرم وفني فيه خلائق الى أن خرج المشايخ الى أبي محمود وشكوا اليه ما الناس فيه ، وانه لم يهلك الا أهل الستر والمستضعفون . وكان قد علم ذلك وأن الفساد انما هو من أهل الشر فقط ، فأجابهم ووقع الصلح ، وصرف حمزة المغربي وابن كشمرد الاخشيدي عن الشرطة ، وولى رجلا من بانياس كان أميرا على التركمان يقال له « أبو الثريا » على الشرطة وذلك لأول من صفر فعبر من باب الصغير ، ومعه رجالة من الأكراد ، وقد كمن له ابن الماورد أحد الشطار فثار به وخرج عليه فقتل من اصحاب أبي الثريا عدة ، وانهزم فيمن بقي معه الى أبي محمود ، وقد انتشر الناس حول البلد بمعايشهم وضروراتهم.

فركب العسكر واخذوا الطرق واتوا على كثير ممن ظفروا به ليقتلوهم ووقع النفير في البلد ، فخرج الناس واشتد القتال مدة صفر وشهر ربيع الأول الى أن بقي من شهر ربيع الآخر ليال فوقع الصلح وولى أبو محمود ابن أخيه جيش بن الصمصامة البلاد ، ونزل في قصر الثقفيين وانصلح الحال أياما الى أن عبر بعض المغاربة من الفراديس فعاثوا هناك فثار الناس بهم وقتلوا من لحقوا منهم وعادوا الى قصر الثقفيين ففر جيش بمن معه فنهبوا ما كان معهم ، وصار جيش الى أبي محمود ، وأركب معه العسكر وزحف على المدينة بالنفاطين فأحرق مواضع حتى لم يبق لها أثر ، وقصد أهل الشر ، وكانوا في موضع بالمدينة يعرف بسقيفة جناح بالقرب من باب كيسان ، فقاتل هناك الى باب شرقي قتالا شديدا من أول جمادى الأولى في كل يوم من بكرة النهار الى آخره ويبيت العسكر حول المدينة يطلبون الغفلة فيقع النفير من البلد الى تلك الجهة حتى تحمى فاذا أصبحوا عاودوا القتال .

فتعب أهل المدينة بحصار العسكر من باب الى بـاب ، والقصـد انما هـو باب كيسان ، فتارة يكون للعسكر وتارة يكون لأهـل البلد ، ولايكل احد من الفريقين ، وقتل خلق كثير ومـات في البلد مـن دواب اهل الغوطة التي دخلوا بها سشيء كثير ، وصار العسكر يتخطف من يظفر به من أهل الغوطة ويقتلونه فخربت الغوطة .

ودخلت القرى حتى إن العسكر كان يجول بها فـلا يجـد أحدا . فصاروا يحرقون الابواب ويأخذون المسـامير والحصر ، ولايقعـون على احد الا قـطعوا راسـه .ومنع الواصـل الى المدينة فغلت بهـا الأسعار ، وبطل البيع والشراء ، وانقطع الماء عن البلد فعدمت القنى والحمامات ، وصار الانسان اذا مر بمدينة دمشق لايجد غير أسواق مغلقة ونساء جلوس على الطرقات وقوم يصيحون : النفير !.

فانتهك في هذه الفتنة أكثر الناس وساءت احـوالهم ومـاتوا على الطرق من الضر والبرد ، والقتال لايزداد الا شدة طول الليل والنهار الى أن اجهد الناس البلاء وقوي على اهـل البلد أشرارهـم وأكلوا اموال اهل السلامة . فقالوا : نخرج الى هذا السـلطان وندخله الى المدينة يفعل فيها ما يشاء ونستريح مما نحن فيه!.

ففتح اهل التوراة توراتهم وأهل الانجيل انجيلهم وصـاروا الى المسلمين ففتحوا القرآن ، واجتمع الكل في الجامع وضجوا بـالدعاء واستغاثوا الى الله يطلبون الفرج ، وداروا المدينة وهي منشورة على رؤوسهم . فتجمع الشيوخ والأشراف وراسلوا أبا محمود في الصلح وخرج اليه خلق كثير من الرعية وداروا حـول فـرسه وقـالوا له : ادخل أيها القـائد ، ونحـن بين يديك ، والبلد لك ، افعـل فيه مـا اخترت!.

فأحسن في القول وجامل في الرد . فـاستبشر الناس واجتمعوا في الجامع ، واحضروا ابـن الماورد وابـن شرارة وأكابـر اهـل الشر والزموهم بالكف عن معارضة السـلطان في البلد ، وانهـم يلزمـون بيوتهم . فأذعنوا لذلك وانصرفوا ، الا رجل من أهل الشر فانه شمخ وطلب الفتنة فأخذه اهل البلد وقتلوه فانكف أهل الشر .

وكانت الاخبار ترد على المعز بما يجري على أهل دمشق من خراب البلاد وكثرة القتل وطول الحصار ، وأن العسكر لاينضبط لأبي محمود . فكتب الى ظالم وهو ببعلبك يستجيد رايه ويوبخ أبا محمود وكتب الى ريان الخادم والي طرابلس في النصف من شعبان سنة أربع وستين وثلاثمائة أن يسير الى دمشق وينظر في أمر الرعية ويصرف أبا محمود عن دمشق.

فسار ريان من طرابلس الى دمشق ، وأمر أبا محمود أن يرحل الى الرملة ، فسار عنها في عدد قليل وبقي العسكر مع ريان . فنزل أبو محمود طبرية .

فلما قدم هفتكين الشرابي من بغداد الى دمشق وملكها من ريان ونزل عليه متملك الروم خرج اليه . وبلغ ذلك أبا محمود فجهز جيش ابن الصمصامة من طبرية في الفي رجل الى دمشق . فلما وصل البثنية وجد شبل بن معروف العقيلي نازلا عليها في عربه ، فاقتتلا ساعة وكانت الكرة فيها على جيش فأخذ اسيرا وقتل اصحابه ، وبعث شبل بجيش الى هفتكين فسلمه الى متملك الروم وهو مقيم على عين الجر ينتظر المال الذي طلبه من أهل دمشق ، فلما أخذ المال ورحل من دمشق الى بيروت بعث هفتكين شبل بن معروف الى طبرية ، ففر أبو محمود الى الرملة بمن معه من المغاربة فقصدهم العرب وواقعوهم نحو بيت المقدس ، فكانت العرب على المغاربة وقتلوا منهم كثيرا وأسروا جماعة وبعثوهم الى دمشق ، فطوفوهم على الجمال وضربوا أعناقهم.

وأقام أبو محمود بالرملة الى أن قدم القرامطة الى دمشق ، ثم ساروا منها الى الرملة ، ففر أبو محمود الى يافا وتحصن بها فنازله القرامطة وقاتلوه حتى كل الفريقان من القتال وصار يحدث بعضهم بعضا.

ومات المعز وهم على ذلك ، وقام من بعده ابنه العزيز بالله نزار في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة ، فبعث جوهرا القائد الى الشام فانهزم القرامطة من طريقه وساروا الى الاحساء.

ونزل جوهر على دمشق في ذي القعدة ومعه أبو محمود وقاتل هفتكين الى أن رحل عنها بغير طائل في جمادى الأولى سنة ست وستين . فأدركه القرامطة وهفتكين فقاتلوه بالرملة حتى التجأ الى عسقلان . وخرج العزيز من القاهرة ونزل الرملة وأخذ هفتكين وولى دمشق حميدان بن حواس العقيلي ، وكان قد غلب عليها قسام فصار حميدان من تحت يد قسام ثم طرده وأخرجه من البلد ، فولى أبو محمود بعد حميدان وصار اليها في نفر يسير ، وبقي تحت قسام من غير أن يكون له أمر ونهي .

فقدم أبو تغلب عبد الله بن حمدان الى دمشق فمنعه قسام منها واقام على المزة شهورا ، وقد ثقل على قسام مقامه فقاتله وأخذ عدة من أصحابه ، وكتب الى العزيز بذلك ، فأخرج الفضل بن صالح الى الشام وقاتل ابا تغلب حتى قتل في صفر سنة تسع وستين .

ثم أنفذ العزيز الى دمشق سليمان بن جعفر بن فلاح فمنعه قسام وكتب الى العزيز يسأله في دمشق فكتب الى سليمان بن فلاح أن يرحل عن دمشق ، فرحل . ورجع أبو محمود الى دمشق بعد مسير أخيه سليمان في رسم وال من طبرية ومعه نفر يسير فأقام تحت مذلة قسام ، وقد طمع العرب في عمل دمشق حتى كانت مواشيهم تدخل الغوطة .

ومات أبو محمود على ذلك بدمشق في صفر سنة سبعين وثلاثمائة ولم يكن فيه تدبير ولا عنده ثبات ، بل كان عديم السياسة قليل العقل.

أبو نصر التستري

(من المقفى المقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

ولي ابراهيم بن الفضل بن سهل التستري اليهودي: خزانة الخاص بعد اخيه ابي سعد بسهل التستري في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين واربعمائة

وأرادته أم المستنصر أن يتولى نظر ديوانها مكان أخيه فامتنع من ذلك خوفا من الوزير ومن الاتراك ، وهي تريد منه ذلك مدة ثلاثة أشهر ، ولايوافقها ، حتى ضجرت منه وأقامت اليازوري بواسطة الاستاذ عدة الدولة رفق.

فلما كانت سنة أربعين وأربعمائة سهل شجاع الدولة جعفر بن كليد وغيره على الوزير ابي البركات الحسين بن محمد الجرجرائي أمر حلب وأنه اذا سير عسكرا من مصر أخذت. فكتب الى ناصر الدولة الحسن بن حمدان متولي دمشق ، والى الكلابيين وغيرهم ، والى جعفر بن كليد بالمسير ، فساروا الى المعرة ، وتسلمها جعفر ، ومضى ابن حمدان الى حلب فقاتلوه وانهزم الى دمشق.

فبعث ثمال بن صالح بن مرداس يطلب من الخليفة المستنصر العفو ، وانه يقوم بما عليه من الحمل . فتوسط امره ابو نصر هذا ، الى ان اجيب بالصفح والرضى عنه . وخرج رسوله بذلك من القاهرة فورد الخبر بان ثمال بن صالح بعث مقلد بن كامل بن مرداس فاوقع بجعفر بن كليد وقتله في يوم الاربعاء لست بقين من شهر رمضان ، وحمل راسه الى حلب وشهرها ، واسر عدة من عسكره . فاعيد رسول ثمال واخذت منه الكتب . واغرى الوزير ابو البركات الخليفة بابي نصر وانه يسعى فيما يضر الدولة ويعود عليها بالوضيعة من توسطه في امر ثمال لما في نفسه من الحقد لقتل اخيه ابي سعد . ومازال بالخليفة حتى قبض على ابي نصر وسجنه واخذ سائر

امواله وعاقبه حتى هلك تحت العقوبة في اخر سنة اربعين واربعمائة

أحمد شاه

(من بغية الطلب لابن العديم)

احمد شاه التركي مقدم الاتراك بحلب ، وقيل انه شيباني ، كان يسكن مع الاتراك بالحاضر السليماني ، وكان مطاعا مذكور شجاعا له مواقف حسنة مع الفرنج (٥) . وهو الذي استعاد منبج من ايدي الروم سنة ثمان وستين ، وبعد ان كان ميخائيل بن اخت ارمانوس الرومي استولى عليها في ثامن محرم سنة ستين واربعمائة ، ففتحها احمد شاه ، وصاحب حلب اذ ذاك نصر بن محمود في يوم الاحد لخمس خلون من صفر سنة ثمان وستين واربعمائة .

ولما افضى الامر بحلب الى نصر بن محمود بن نصر بن صالح قبض على احمد شاه واعتقله بقلعة حلب في عيد الفطر من سنة ثمان وستين واربعمائة وشرب نصر الى العصر ، وحمله السكر على الخروج الى الاتراك الى الحاضر بظاهر حلب ، فحمل عليهم ، فرماه تركي بسهم فقتله ، وزحف الاتراك الى البلد يطلبون احمد شاه وكان والي القلعة (١٦٥ ــ ظ) ورد وعنده الامير ابو الحسن بن منقذ وجماعة من الخواص ، فلما احسوا بذلك استدعوا بسابق بن محمود من البلد الى القلعة ونادوا بشعاره واشاروا عليه باطلاق احمد شاه فأطلقه في الحال وخلع عليه .

ونزل احمد شاه الى العسكر بالحاضر فسكن النائرة واخمد الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعين الاتراك ويقربهم ويحسن اليهم ويقدمهم على اهله بني كلاب وينصرهم عليهم .
قرأت بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين : استولى على البلد ــ يعني حلب ــ احمد شاه التركي وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر .

وقرأت بخط منصور بن تميم بن الزنكل السرميني : انه لما ملك

سابق اجتمعت بنو كلاب الى اخيه وثـاب وعولوا على معـونته عليه واخذ حلب له من اخيه سابق ، فلما تحقق سابق ذلك استدعى احمـد شاه امير الاتراك – وكانوا الف فارس – وشـاوروه ، فـأنفذ احمد شاه الى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، وضمن له مالا كثيرا ، فـوصله محمد بن دملاج في يوم الاربعاء مستهل ذي القعدة من سـنة ثمـان وستين وتحالفوا ، وخرجوا الى بني كلاب المجتمعين مـع وثـاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة مـن سـنة ثمـان وسـتين واربعمائة ، وكان بنو كلاب في جمع عظيم ماجتمعوا قـط في مثله ، يقال انهم كانوا يقاربون سبعين الف فارس (١٦٦ – و) وراجـل فعند معاينتهم الاتراك انهزموا من غير قتال ، وخلفـوا حللهـم وكل ماكانوا يملكونه واهاليهم واولادهم ، فغنم احمـد شـاه واصـحابه ومحمد بن دملاج واصحابه كل ماكان لبني كلاب ، فيقال انهم اخذوا لهم مائة الف جمل واربعمائة الف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ومن إمائهم اكثر ، وكل ماكان في بيوتهم ، وعفـوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة الاف عبـد مقـاتل ، ولم يقتلوا احدا منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالا يحصى كثرة .

وبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوما دعا محمد بن دملاج التركي احمد شاه فخرج اليه ، وكان نازلا شمالي حلب ، فلما اكلوا وشربوا قبض محمد بن دملاج على احمد شـاه واسره ، وكان في نفـر قليل ، فاقام في اسره تسعة ايام ، ثم ان سابق بن محمود اشـترى احمـد شاه من محمد بـن دمـلاج بعشرة الاف دينار وعشرين فـرسا يوم السبت .

ووجدت بعض التواريخ يقول جامعة فيه : سنة سبعين واربعمـائة : فيها حصر تاج الدولة تتش حلب ورحل عنها وعاد اليها ، وخرج منها احمد شاه وكبس العسكر وعاد .
ثم قال : سنة احدى وسبعين واربعمائة : قتل احمد شاه .

وذكر ابو يعلي حمزة بن اسد بن القلانسي قال في حوادث سنة إحدى وسبعين واربعمائة : وفي هذه السنة قتل احمد شاه مقدم الاتــراك في الشام (٦) (١٦٦ ــ ظ).

المستعلي الفاطمي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

احمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله ، الامام المستعلي بالله ، امير المؤمنين ، ابو القاسم ، ابن الامام امير المؤمنين المستنصر بالله ابي تميم ، ابن الامام امير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن ،ابن الامام امير المؤمنين الحاكم بامر الله ابي علي ، ابن الامام امير المؤمنين ابي منصور العزيز بالله نزار ، ابن الامام امير المؤمنين المعز لدين الله ابي تميم ، ابن الامام امير المؤمنين ابي الطاهر المنصور بنصر الله اسماعيل،ابن الامام امير المؤمنين القائم بامر الله ابي القاسم محمد ، ابن الامام امير المؤمنين المهدي ابي محمد .

ولد في ثامن محرم ـ وقيل : في عشرين محرم ـ سنة ثمان وستين واربعمائة ، وبويع بالخلافة بعد موت ابيه في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعمائة .

وذلك ان الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر الجمالي ، سلطان مصر ، لما بلغه موت المستنصر ، بدر الى القصر واجلسه ولقبه بالمستعلي بالله ، واستدعي اخوته ، الامير نزار ، واسماعيل ، وعبد الله ، ليبايعوه ، فانفوا من ذلك لصغر سنه ، فقال لهم الافضل : قبلوا الارض لله تعالى ولمولانا الامام المستعلي بالله وبايعوه ، فهو الذي نص عليه مولانا الامام المستنصر قبل وفاته ، بالخلافة من بعده

فامتنعوا وادعى كل منهم ان اباه وعده بالخلافة . وقال نزار : لو قطعت ما بايعت من هو اصغر سنا مني ، وخط والدي عندي بانى ولي عهده ، وانا احضره .

وخرج مسرعا لياتي بالخط ، فمضى من حيث لم يشعر بـه احـد الى الاسكندرية ، كما هو مذكور في ترجمته .

ويقال ان الافضل قرر مع اخت المستنصر ان تقول بان المستنصر نص في مرضه على خلافة ابنه ابي القاسم . ووعدهـا بـانها تـكفله ويكون الامر لها في الباطن ، وللافضل في الظاهر ، فاجابت الى ذلك ، وشهد عليها اربعة من الاستاذين المحنكين عند قاضي القضاة وداعي الدعاة .

واجلسه على سرير الخلافة واخذ البيعـة له على مقـدمي الدولة ورؤسائها واعيانها . ثم مضى الطلب الى اسماعيل وعبد الله ، وهما في المسجد قد وكل بهما ، فقال لهما : ان البيعة تمت لمولانا المستعلي بالله ، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما : تبايعاني ام لا ؟

فقالا : السمع والطاعة ! ان الله اختاره علينا .

وقاما وبايعاه . وكتب بذلك سجلا ، قراه على رؤوس الاشهاد من الامراء وغيرهم الشريف سناء الملك محمـد بـن محمـد الحسـيني الكاتب بديوان الانشاء .

وقال الاديب حظي الدولة ابو المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي في ذلك :

ان كان قد اودى معد فانظروا
المستعلي العالي ابنه وتبصروا

تجدوا الامام ابا تميم نيرا
ما غاب حتى لاح منه نير

وكذا الامامة كالحديقة لم يزل
غصن بها يذوي وغصن يثمر

واقام المستعلي في الخلافة، ليس له مع الافضل امر ولانهي ، انما يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السـكة ، وسـائر الامـور مرجعها الى الافضل .

وفي خلافته خرج الفرنج من القسطنطينية ، وملكوا كثيرا مــن بــلاد الساحل ، واستولوا على القدس في ثاني عشرين من شــعبان ســنة اثنتين وتسعين واربعمائة ، وملكوا الرملة ، وحصروا عسقلان ، ثــم ملكوا حيفا وارسوف وقيسارية ويافا في سنة اربع وتسعين ، مع ما بايديهم من اعمال الاردن وفلسطين .

وتوفي ليلة الثلاثاء ســابع عشر صــفر ســنة خمس وتســعين واربعمائة ، فكانت مدة خلافته سبع سنين وشهرين إلا يومين .
ولم تكن له سيرة تذكر لاستيلاء الافضل على الامر .

وترك ثلاثة اولاد ، هم : الامير جعفــر ، والامير عبــد الصــمد ، وابوعلي المنصور .

وقضاته : المؤيد بنصر الامام ابو الحسن علي بن يوسف بن نافع بن الكحال . ثم اعيد فخر الاحكام ابو الفضل محمد بن عبد الحاكم بــن وهيب المليجي ، ثم بعده ابو الطاهر محمد بن رجاء . فلمــا مــات في سنة ثلاث وتسعين ، ولي ابو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي ومات المستعلي وهو قاض .

وكان المستعلي قد تزوج بابنة أمير الجيوش بدر ، التي يقال لهــا « ست الملك» . واعتنى ابوها بجهازها وأكثر من تعبئة الجــواهر لهــا . فلما مات تناهب اخوتها ذلك الجوهر .

ويقال انه مات مسموما . وقيل : قتل سرا ، واتهم الافضل بذلك .
واقيم بعده في الخلافة ابنه ابو علي المنصور ، وعمره خمس سنين .

احمديل الكردي

(من بغية الطلب لابن العديم)

احمد يل بن ابراهيم ، صاحب مراغة (٧) . قيل كان اقطاعه في كل سنة اربعمائة الف دينار ، وجنده خمسة الاف فارس .

سيره السلطان محمد بن ملكشاه الى الشام مع سكمان القطبي ، ومودود بن التورتكين صاحب الموصل ، ومودود مقدم العساكر ، في سنة خمس وخمسمائة ، في عسكر عظيم لقتال الفرنج ، واجتازوا على بالس ، ومضوا بالعساكر ، وافتتحوا حصونا ، وقصدوا حلب ، فغلقت ابواب المدينة في وجوههم .

ومرض سكمان بن التورتكين ، وعاد فمات ببالس ، ثم تفرقوا بعد ذلك ، وعاد احمديل الى بغداد .

وفي المحرم من سنة عشر وخمسمائة كان احمديل في مجلس السلطان محمد ، فجاءه رجل ومعه قصة يشكو فيها الظلم وهو ينتحب ، وسأله ان يوصل قصته الى السلطان ، فتناولها منه فضربه بسكين كانت معدة ، فوثب عليه الامير مودود فتركه تحته ، فجاء اخر فضرب مودودا ، وجاء ثالث فتممه .

وهذا ممدود (٨) ليس بابن التورتكين ، لان ذلك قتل بدمشق في سنة ست وخمسمائة على مانذكره في ترجمته ان شاء الله تعالى ...(١٦٨ ــ و) .

البساسيري

(من بغية الطلب لابن العديم)

ارسلان التركي ابو الحارث ، وقيل ابو منصور البساسيري منسوب الى بسا بلدة بفارس والعرب تسميها فسا ، وينسبون اليها فسوي ، واهل فارس يقولون بسا بين الباء والفاء ، وينسبون اليها البساسيري . وكان مولاه رجل من اهل بسا ، فنسب الغلام اليه ، واشتهر بهذه النسبة ، وكان احد الامراء الاصفهسلارية فعظم شأنه واستفحل امره ، وقويت هيبته ، وانتشر ذكره ، ومكنه القائم من البلاد ، وكثر منه العيث والفساد ، وال امره الى العصيان على القائم ، ونهب بغداد وكان راس الاتراك بها ، فخرج عليه ، وهون امره بكل ماوصلت قدرته اليه ، حتى كان يأخذ الجاني من حرم الخليفة ، ولايلحقه في سوء فعله نظر في عاقبة ولاخيفة .

وقرات في تاريخ ابي غالب همام بن جعفر بن المهذب المعري (٩) انه كان اذا وصلت هدية من خراسان وغيرها من البلاد اعتقلها شهرا قبل ان يطلقها له بسؤال ، واشياء كثيرة تجري هذا المجرى في حق الخليفة فعلها ، فلما زاد الامر على الخليفة بعث الى طغرلبك ملك التركمان والغز ، ابو طالب محمد بن ميكال ، (١٩٦ ــ ظ) وكان مقيما بالري وقد ملك من جيحون الى بغداد ، واذل الملوك من اولاد محمود والترك وغيرهم ، فوصله الرسول من الخليفة يأمره بأن يصل الى بغداد ليستنجد به على البساسيري ابي منصور ، فأقبل اليه طغرلبك في مائة الف وعشرين الف من الترك والغز ، والاعاجم ، والكرد ، والديلم ، وغيرهم من الاجناس ، فوصل بغداد وهجمها ، وقتل منها خلقا عظيما ، ونهبها ،وذلك انهم قاتلوه ، وانهزم البساسيري منه فحصل في ارض الرحبة ، ولقيه معز الدولة ــ يعني ثمال بن صالح ــ واكرمه ، وحمل اليه مالا عظيما ، وكان قد

وصل في قلة ، فحدث من شاهده من بني كلاب انه لم ير مثله في الشجاعة والمكر والحيلة ، وكان اذا ركب معز الدولة قفز اليه ليمسك له الركاب ويصلح ثيابه في السرج ، وهمت بنو كلاب بأخذه فمنعها معز الدولة ، وندم بعد ذلك عليه ، ثم انه تقدم الى ان حصل على الفرات ، وفزع منه معز الدولة وكثر عسكره ، فسلم اليه الرحبة لما طلبها من معز الدولة ، ليجعل فيها ماله واهله .

قلت : وكان حصوله على الفرات بأرض بالس فانني قرأت في بعض تعاليق الشاميين في التاريخ ماصورته : ظهور البساسيري الى الشام ، ونزوله ارض بالس مدة سنة وشهرين ، سنة تسع واربعين واربعمائة .

وقرأت في تاريخ همام بن المهذب في حوادث (١٩٧ ــ و) سنة خمسين واربعمائة فيها : اضطرب الامر في خراسان على طغرلبك ، فسار لاصلاحه، فجمع البساسيري من قدر عليه من الكرد والديلم ، واجتمعت اليه بنو عقيل ، وكان علم الدين قريش بن بدران زعيمها ، وبنو اسد زعيمها نور الدين دبيس بن مزيد ، وقصد بغداد ، وزحف معهم اهل الجانب الغربي من بغداد الى دار الخليفة القائم بأمر الله امير المؤمنين ابي جعفر بن القادر ، فنهبوا جميع مافيها ، واستدعى الخليفة من فوق القصر علم الدين قريش بن بدران ، فجاءه فخرج اليه الخليفة وهو مبرقع ، وعليه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي يده قضيبه ، فأجاره ولم يمكن منه أحد ، ومنعه من البساسيري ، وسيره الى حصن عانة ، وقيل الحديثة ، وهو حصن منيع في وسط الفرات ، وصاحبه رجل يعرف بمهارش ، أحد أمراء بني عقيل ، فأكرمه اكراما عظيما ، وخدمه خدمة مرضية ، فبقي فيه عند مهارش شهورا .

قال ابن المهذب : ـ يعني سنة احدى وخمسين ـ دعا البساسيري للمستنصر صاحب مصر في جامع المنصور ببغداد ، وبقيت الدعوة شهورا .

وفيها : عاد طغرلبك ملك التركمان ابو طالب محمد بن ميكال الى بغداد فانحاز البساسيري وجماعته العرب ، وخرج معهم من التجار ببغداد وغيرهم خلق عظيم لا تحصى اموالهم ، وذكر انهم كانوا زهاء عن (١٩٧ - ظ) مائة الف وعشرين الفا ، وتبعهم من اصحاب طغرلبك زهاء عن عشرين الفا ، فقتل البساسيري وخلق كثيرا لا يحصى عدده ، ونهبت تلك الأموال وكان الذين تبعهم ولقيهم من عسكر طغرلبك نحو عشرين الفا .

وسار مهارش العقيلي الى بغداد في محمل ، فأعطاه من الأموال والاقطاع شيئا عظيما ، حتى انه صار مهارش ايسر بني عقيل .

وسار الأمير ابو ذؤابة عطية بن أسد الدولة صالح بن مرداس الى الرحبة ، فأخذ جميع ما تركه البساسيري بها من السلاح الذي لم ير مثله كثرة وجودة واموالا جزيلة كانت للبساسيري ، ثم ولى فيها بعض اصحابه .

اخبرنا ابو اليمن زيد بن الحسن الكندي أذنا قال : اخبرنا ابو منصور عبد الرحمن القزاز قال : اخبرنا ابو بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب قال: ولم يزل امر القائم بأمر الله مستقيما الى ان قبض عليه في سنة خمسين واربعمائة ، وكان السبب في ذلك ان ارسلان التركي المعروف بالبساسيري ، كان قد عظم امره واستفحل شأنه لعدم نظرائه من مقدمي الأتراك المسمين الأصفهسلارية ، واستولى على البلاد ، وانتشر ذكره ، وطار اسمه وتهيبته امراء العرب والعجم ، ودعي له على كثير من المنابر العراقية ، وبالأهواز ونواحيها وجبى الأموال ، وخرب الضياع ، ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع (١٩٨ - و) أمراً دونه ، ولا يحل ويعقد الا عن رأيه

ثم صح عند الخليفة سوء عقيدته ، وشهد عنده جماعة من الاتراك ان البساسيري عرفهم ــ وهو اذ ذاك بواسط ــ عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة ابا طالب محمد بن ميكال المعروف بطغرلبك امير الغز ، وهو بنواحي الري يستنهضه على المسير الى العراق وانفض اكثر من كان مع البساسيري ،

وعادوا الى بغداد ، ثم اجمع رايهم على ان قصدوا دار البساسيري وهي بالجانب الغربي في الموضع المعروف بدرب صالح، بقرب الحريم الطاهري ، فأحرقوها وهدموا ابنيتها ، ووصل طغرلبك الى بغداد في شهر رمضان من سنة سبع واربعين واربعمائة ،ومضى البساسيري على الفرات الى الرحبة ، وتلاحق به خلق كثير من الأتراك البغداديين ، وكاتب صاحب مصر يذكر له كونه في طاعته ، وانه على اقامة الدعوة له بالعراق ، فأمده بالأموال وولاه الرحبة .

واقام طغرلبك ببغداد سنة الى ان خرج منها الى الموصل ، واوقع بأهل سنجار وعاد الى بغداد ، فأقام بها مدة ، ثم رجع الى الموصل ، وخرج منها متوجها الى نصيبين ومعه اخوه ابراهيم ، وانصرف بجيش عظيم معه يقصد الري ، وكان البساسيري راسل ابراهيم يشير عليه بالعصيان لأخيه ويطمعه في (١٩٨ – ظ) الملك والتفرد به ، ويعده بمعاضدته ومضافرته عليه ، فسار طغرلبك في اثر اخيه ابراهيم ،وترك عساكره ، فتفرقت ، غير ان وزيره المعروف بالكندري وربيبه أنوشروان وزوجته خاتون وردوا بغداد بمن بقي معهم من العسكر في شوال من سنة خمسين واربعمائة ، واستفاض الخبر باجتماع طغرلبك ، وحصره في مدينة همذان ، فعزمت خاتون وابنها انوشروان والكندري على المسير الى همذان لانجاد طغرلبك ، واضطرب امر بغداد اضطرابا شديدا ، وارجف المرجفون باقتراب البساسيري ، فبطل عزم الكندري على المسير فهمت خاتون بالقبض عليه وعلى ابنها لتركهما مساعدتها على انجاد زوجها ، ففرا الى الجانب الغربي من بغداد ، وقطعا الجسر وراءهما . وانتهبت دارهما واستولى من كان مع خاتون من الغز على ما تضمنتا من العين والثياب والسلاح وغير ذلك من صنوف الأموال ، ونفذت خاتون بمن ضوى اليها ، وهم جمهور العسكر ، متوجهة نحو همذان وخرج الكندري وانو شروان يؤمان طريق الأهواز ، فلما كان يوم الجمعة السادس من ذي القعدة تحقق الناس كون البساسيري بالانبار ، ونهضنا الى صلاة الجمعة بجامع المنصور فلم يحضر الامام واذن المؤذنون بالظهر ونزلوا من (١٩٩ – و) المئذنة ، فاخبروا انهم راوا

عسكرا للبساسيري حذاء شارع دار الرقيق ، فبادرت الى ابواب الجامع فرايت الاتراك البغداديين اصحاب البساسيري نفرا يسيرا يسكنون الناس، ونفذوا الى الكرخ ، فصلى الناس في هذا اليوم بجامع المنصور ظهرا اربعا من غير خطبة ، ثم ورد من الغد ، وهو يوم السبت ، نحو مائتي فارس من عسكر البساسيري .

ثم دخل البساسيري بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ، ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطيء دجلة ، ونزل هناك والعسكر معه ، واجمع اهل الكرخ والعوام من اهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري ، وكان قد جمع العيارين واهل الرساتيق وكافة الذعار واطمعهم في نهب دار الخلافة ، والناس اذ ذاك في ضر وجهد قد توالت عليهم سنون مجدبة ، والأسعار غالية والأقوات عزيزة ، واقام البساسيري بموضعه والقتال في كل يوم يجري بين الفريقين في السفن بدجلة .

فلما كان يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة دعي لصاحب مصر في الخطبة بجامع المنصور ، وزيد في الآذان «حي على خير العمل» وشرع البساسيري في اصلاح الجسر فعقده بباب الطاق وعبر عسكره عليه وانزله بالزاهر ، وكف الناس عن المحاربة اياما ، وحضرت الجمعة يوم العشرين من ذي القعدة فدعي لصاحب مصر في جامع الرصافة كما دعي له في جامع المنصور

(١٩٩ -ظ) وخندق الخليفة حول داره ، ونهر المعلى خنادق واصلح ما استرم من سور الدار ، فلما كان يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذي القعدة حشر البساسيري اهل الجانب الغربي عموما ، واهل الكرخ خصوصا ونهض بهم الى حرب الخليفة ، فتحاربوا يومين ، قتل بينهما قتلى كثيرة .

واستهل هلال ذي الحجة ، فدلف البساسيري في يوم الثلاثاء ومن معه دار الخلافة ، واضرم النار في الأسواق بنهر معلى وما يليه ، ولم يكن بقي في الجانب الغربي الا نفر ذو عدد ، وعبر الخلق للانتهاب ، واحاطوا بدار الخلافة ، فنهب مالا يقدر قدره ، ووجه الخليفة الى

قريش بن بدران البدوي العقيلي ، وكان ضافر البساسيري ، واقبل معه ، فأنذم قريش للخليفة في نفسه ، ولقيه قريش فقبل الأرض بين يديه دفعات ، وخرج الخليفة معه من الدار راكبا ، وبين يديه راية سوداء ، وعلى الخليفة قباء أسود وسيف ومنطقة ، وعلى راسه عمامة تحتها قلنسوة ، والأتراك في اعراضه وبين يديه ، وضرب قريش للخليفة خيمة ازاء بيته بالجانب الشرقي ، فدخلها الخليفة ، وأحدق بها خدمه .

وماشى البساسيري وزير الخليفة ابا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري قابضة على كم الوزير ، وقبض على قاضي القضاة ابي عبد الله الدامغاني وجماعة معه (٢٠٠ -و) وحملوا الى الحريم الطاهري ، وقيد الوزير وقاضي القضاة .

فلما كان يوم الجمعة الرابع من ذي الحجة لم يخطب بجامع الخليفة ، وخطب في سائر الجوامع لصاحب مصر ، وفي هذا اليوم انقطعت دعوة الخليفة من بغداد ، ولما كان يوم الأربعاء تاسع ذي الحجة ، وهو يوم عرفة ، أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به ، وحمل إلى الأنبار ومنها إلى حديثة عانة على الفرات ، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي ، وحكي عنه حسن الطريقة وجميل المعتقد .

فلما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ذي الحجة شهر الوزير على جمل وطيف به في محال الجانب الغربي ، ثم صلب حيا بباب خراسان ازاء الترب ، وجعل في فكيه كلوبان من الحديد وعلق على جذع ، فمات بعد صلاة العصر من هذا اليوم ، واطلق قاضي القضاة ابو عبد الله الدامغاني بمال قرر عليه . وخرجت من بغداد يوم النصف من صفر سنة أحدى وخمسين .

فلم يزل الخليفة في محبسه بحديثه عانة الى ان ظفر طغرلبك بأخيه ابراهيم وقتله ، ثم كاتب قريشا في اطلاق الخليفة واعادته الى داره ، وذكر لنا ان البساسيري عزم على ذلك لما بلغه ان طغرلبك

متوجه الى العراق ، واطلع البساسيري ابا منصور عبد الملك بن محمد بن يوسف على ذلك ، وجعله (٢٠٠ – ظ) السفير بينه وبين الخليفة فيه ، وشرط ان يضمن الخليفة للبساسيري صرف طغرلبك عن وجهه .

واحسب أن طغرلبك كاتب مهارشا في أمر الخليفة ، فأخرجه من محبسه وعبر به الفرات ، وسار به في البرية قصد تكريت في نفر من بني عمه ، واغذ السير حتى وصل به الى دجلة ، ثم عبر به وسار في صحبته قصد الجبل ، وقد بلغه أن طغرلبك بشهروز فلما قطع اكثر الطريق عرف ان طغرلبك قد حصل ببغداد ، فعاد سائرا حتى وصل الى النهروان ، فأقام بالخليفة هناك ، ووجه اليه طغرلبك مضارب ورحلا واثاثا ، ثم خرج لتلقيه فانتهى الينا ونحن بدمشق في يوم عيد الأضحى من سنة احدى وخمسين واربعمائة ان الخليفة تخلص من محبسه ، وانتهى إلينا لسبع بقين من ذي الحجة خبر حصوله ببغداد في داره .

وكتب إلي من بغداد من ذكر ان الخليفة حصل في داره في يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة ، واسرى طغرلبك إلى البساسيري عسكرا من الغز ، وهو في بلد ابن مزيد بسقي الفرات ، فحاربوه الى أن ظفر به ، وقتل وحمل رأسه الى بغداد ، فطيف به وعلق إزاء دار الخلافة في اليوم الخامس عشر من ذي الحجة سنة احدى وخمسين (٢٠١ – و) .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

ذكر ابو الوفاء الأخشيكثي في تاريخه ، وحكاه عن الأديب ابي العباس احمد بن علي ابن بابه القاشي في ذكر ابي الحارث ارسلان التركي البساسيري قال : هو منسوب إلى بسا مدينة بفارس ، والعرب تقول فسا ، وينسبون إليها فسوي ، واهل فارس ينسبون إليها البساسيري ، وكان مولاه رجلا من اهل بسا ، فنسب الغلام اليه واشتهر بهذه النسبة (١٠)

قرات بخط العماد الكاتب ابي حامد محمد بن محمد الأصبهاني

في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة : وقتل في هذه السنة البساسيري فإن السلطان سير أنو شروان ، وازنم ، وساوتكين الخادم ، وانضاف اليهم سرايا بن منيع الخفاجي ، فقصدوا نور الدين دبيسا والبساسيري عنده ، فمضى نور الدين ووقف البساسيري في جماعة ووقعت في فرس البساسيري نشابة فاجتهد في قطع تجفافها ، ورمته فرسه ، ووقع في وجهه ضربة ، واسره كمشتكين دواتي عميد الملك ، وحز رأسه ، وحمله إلى السلطان .

أخبرنا ابو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال اخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني قال : دفع إلي ابو الحسن (٢٠٢ -ظ) علي بن احمد بن الحسين اليزدي الفقيه جزء في أخره بخط محمود بن الفضل بن ابي نصر الاصبهاني دعاء الامام القائم بأمر الله امير المؤمنين رضي الله عنه لما أخذ» البساسيري وحمله إلى الحديثة ، وهو في السجن ، فعمل هذا الدعاء وسلمه إلى بدوي وأمره أن يعلقه على الكعبة :

الى الله العظيم ، من عبدك المسكين ، اللهم انك العالم بالسرائر والمحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم انك غني بعلمك واطلاعك على امور خلقك عن إعلامي بما أنا فيه ، عبد من عبيدك قد كفر بنعمتك وما شكرها ، والقى العواقب وما ذكرها ، اطغاه حلمك ، وتجبر بأناتك ، حتى تعدى علينا بغيا ، واساء إلينا عتوا وعدوانا .

اللهم قل الناصرون لنا ، واعتز الظالم ، وأنت المطلع العالم ، والمنصف الحاكم ، بك نعتز عليه ، واليك نهرب بين يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ونحن نعتز بك يا رب العالمين .

اللهم إنا حاكمناه إليك ، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ، وقد رفعت ظلامتي إلى حرمك ووثقت في كشفها بكرمك ، فاحكم بيني وبينه ، وانت خير الحاكمين ، وارنا منه ما نرتجيه ، فقد اخذته العزة بالاثم .

اللهم فأسلبه عزه ومكنا بقدرتك من ناصيته يا أرحم الراحمين .
فحملها البدوي وعلقت (٢٠٣ -و) على الكعبة فحسب ذلك اليوم ،

فوجد أن البساسيري قتل وجيء برأسه بعد سبعة أيام من التاريخ
نقلت من كتاب الربيع تاليف غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء ، وانبأنا به عبد اللطيف بن يوسف عن ابي الفتح بن البطي قال انبأنا ابو عبد الله الحميدي عنه قال : حدثني المسعود بن ابي المعالي الفضل ، وكان احد حجاب البساسيري ، في المحرم من سنة اثنتين وخمسين واربعمائة بالرحبة ، وقد خرجت اليها خوفا من جريرة فعل البساسيري بالقائم بأمر الله ، قال : رايت في منامي في ذي الحجة كأن البساسيري جالسا في داره وانا قائم على راسه اذ دخل عليه غلامان بثياب حسان ، فنهض اليهما وخدمهما وقبل ايديهما وأرجلهما ،وجلس بين ايديهما ، فقالا له : يا هذا قصدت البصرة فعضدناك ، والانبار فأعناك ، وسنجار فساعدناك ، والموصل فقويناك ، وبغداد فنصرناك ، ومالا بأيديهما يضمانها ويبسطانها ما معناه ، فما آخرناك وإلى متى ؟ يكررانه دفعات ، فاستطرف ذاك ، وجاء خبره بعد ايام الى الرحبة بقتله وزوال امره .

قرات بخط ابي منصور اسبهدوست بن محمد اسفار الديلمي في ديوان شعره يرثي أبا الحارث البساسيري .

أقسمت بعدك لا اقول مديحا
حتى اصافح في التراب صفيحا

كلا ولا صاحبت غيرك صاحبا
الا الأسى والحزن والتبريحا

الصبر يحسن عند كل مصيبة
واراه بعدك يا اجل قبيحا

لهفي على دمك العزيز وقد غدا
فوق التراب مضيعا مسفوحا

ان كنت لم تسكن ضريحا
فالحشامني لذكراك لا يزال ضريحا

ولقد علمنا اذ طرحت على الثرى
ان الندى امسى هناك طريحا

أطسز بن أوق

(من المقفى المقريزي – مجلدة برتو باشا)

أطسز بن أوق الخوارزمي التركي ، مقدم الأتراك ، ومعنى أطسز ليس معه فرس ، وهي كلمة تركية ، وبعضهم يقول اتسز بالتاء عوضا عن الطاء ، وأصله كما قلت لك اولا .

كان أمير دمشق ، لقب نفسه بالملك المعظم ، وهو أول من ملك دمشق من الأتراك وقطع منها دعوة الخلفاء الفاطميين ،و أعاد دعوة خلفاء بني العباس.

وكان سبب قدوم الأتراك إلى الشام أنه لما تغلب ناصر الدولة بن حمدان في سنة إثنتين وستين واربعمائة على مصر ، قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقيه أبا جعفر محمد بن احمد بن البخاري ، قاضي حلب ، وبعثه إلى السلطان الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان ، يسأله ان يسير اليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى ابو جعفر إلى خراسان ، وبلغ السلطان الب أرسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان ، في عساكر عظيمة ، ونزل الرها في أول سنة ثلاث وستين واربعمائة ، وبعث إلى محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس صاحب حلب يستدعيه ، فخاف منه ولم يتجاسر عليه ، فقطع السلطان الفرات فقال له الفقيه أبو جعفر : يا مولانا احمد الله تعالى على ما انعم به عليك ، فإنه لم يقطع هذا النهر تركي إلا مملوك وانتم اليوم قد قطعتموه ملوكا ، فأحضر الأمراء والمماليك وأمره فأعاد الحديث ، فحمد السلطان الله على ذلك

ثم خرج إليه محمود بن نصر فأكرمه ورده إلى حلب بعدما نزل السلطان عن حلب وحاصرها شهر في جمادى الأخرة ، فقطع محمود

خطبة المستنصر من حلب واقام الدعوة العباسية ، وعزم السلطان على المسير الى مصر فاتته الأخبار بأن ملك الروم قطع بلاد ارمينية يريد خراسان . فعاد من حلب إلى بلاده .

وخلف طائفة من الترك ببلاد الشام فيهم اطسز ، فسار ومعه أخوته جاولي والمامون وقرلو وشكلي إلى أعمال دمشق ونزل عليها وحاصرها في يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة تسع (١١) وستين وأربعمائة ، ثم انصرف عنها يوم الثلاثاء النصف من شوال ومعه اخوته ففتحوا أعمال فلسطين .

ثم اختلف الأتراك فصار بعضهم مع أمير الجيوش بدر الجمالي بعكا وبلاد الساحل التي في يده ، وبعضهم مع القاضي عين الدولة ذي الرئاستين ابي الحسن محمد بن القاضي ابي محمد عبد الله بن القاضي ابي الحسن علي بن عياض بن أحمد بن ابي عقيل صاحب صور .

وبقي أطسز وأخوته بفلسطين ، وفتح الرملة وطبرية وبيت المقدس (٢٠٧ - و) وصار يحاصر في كل سنة دمشق ويرعى زرعها ومنع الزراعة حتى صارت الغرارة القمح تباع بعشرين دينار .

فلما كانت سنة سبع وستين حاصر شكلي بن أوق ثغر عكا واخذه بالسيف وقتل الوالي ، فسارت إليه عساكر دمشق وحاربوه على طبرية .

وفي سنة ثمان وستين حاصر اطسز بن أوق دمشق في يوم السبت سلخ ذي الحجة عقيب هروب معلى بن حيدرة ، ورحل عنها يوم الجمعة لاربع خلون من صفر سنة ثمان وستين ، وذلك أن معلى بن حيدرة بن منزو لما اساء السيرة بدمشق وثار الناس عليه فر منها الى بانياس ، فاقاموا عليهم الأمير رزين الدولة إنتصار بن يحيى المصمودي إمام عسكر معلى بن حيدرة في يوم الأحد مستهل المحرم منها .

واشتد الغلاء ، وقدم اطسز الى دمشق في شعبان ، ولم يزل محاصرا لها حتى غلت الاسعار ، ولم يقدر على شيء من الأقوات ،

وبلغت غرارة الحنطة نيفا وعشرين دينارا ، ثم إنه فتح البلد صلحا ، ودخلها هو وعسكره يوم الاثنين من ذي القعدة منها ، وقطع خطبة المستنصر منها ، وابطل الأذان بحي على خير العمل ، واقام الخطبة للأمام المقتدي بأمر الله ابي القاسم بن الذخيرة بن القائم بأمر الله العباسي في يوم الجمعة خامس عشرين ذي القعدة ونظر في أمور دمشق وأحوالها .

وكثر عسكره ، بمن (١٢) فر إليه من مصر خوفا من امير الجيوش بدر الجمالي ، وحدثته نفسه بأخذ مصر فسار اليها في سنة تسع وستين واربعمائة وقد صار اليه ناصر الجيوش ابنو الملوك تركان شاه بن سلطان الجيوش يلد كوز ، واهدى إليه ستين حبة لؤلؤة تزيد زنة الحبة منها على مثقال ، وحجر من ياقوت زنته سبعة عشر مثقالا في تحف كثيرة مما كان قد أخذه ابوه من خزائن القصر ، وأغراه بأخذ مصر ، وأطمعه في اهلها ، فحشد ، وهم على حين غفلة ، وكان امير الجيوش قد خرج لقتال العرب بالصعيد ، فنزل أطسز في ارياف مصر ، واقام بها شهر جمادى وبعض شهر رجب ، ومعه نحو الخمسة الاف ، فلما بلغ ذلك امير الجيوش قدم الى القاهرة واستعد للقائه ، وخرج في يوم الخميس سابع عشر رجب وسير المراكب في النيل بالعلوفات والميرة ، وسار في نحو الثلاثين ألفا ما بين فارس وراجل ، فخافه أطسز وعزم على العودة عن مصر إلى الشام ، فلم يوافقه اصحابه على ذلك ، وقالوا له : قد وطئت ديارهم وتعود بغير فائدة ، فلم يلتفت إلى قولهم ، فقال له اخوه المأمون وابن يلدكوز : لا يغرنك كثرتهم فإنما هم سوقة ، وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا ترجع عن هذا الملك الذي أشرفت على أخذه ، وما زال به أخوه حتى تقدم للقتال في يوم الثلاثاء ثاني عشر منه ، وقدم الجيوش، فتراخى اطسز عن الحرب إلى الليل بعدما استظهرت ميمنته ، فأحاطت العرب به من ورائه ونهبوا سواده ، فانهزم وقتل اخوه المأمون ، ولحق اطسز نفر ، واقام بالرملة حتى وصل إليه من بقي من عسكره ، ودخل دمشق يوم السبت العشرين من شعبان .

وعاد امير الجيوش مظفرا ، فندب بالعساكر مع ناصر الدولة

الجيوشي ، وبعثه إلى دمشق فحاصرها أياما ، وعاد في سنة سبعين ، فلما خاف أطسز من ظفر اهل مصر به راسل تاج الدولة تتش بن الب ارسلان يستنجده ، فتحرك لذلك وسال اخاه السلطان ملك شاه ابن الب ارسلان ان يوليه الشام ، فأقطعه السلطان ابو الفتح ملك شاه بن الب ارسلان الشام ، (فسار) اليها ونزل حلب سنة إحدى وسبعين ، فلم يقدر عليها ، فشتا بديار بكر ، وسار إلى دمشق وتسلمها من اطسز ، ثم قبض عليه في ربيع الآخر سنة احدى وسبعين واربعمائة ، فكانت مدة ملكه بدمشق ثلاث سنين وستة أشهر وواحد وعشرين يوما.

آق سنقر قسيم الدولة

(من بغية الطلب لابن العديم)

آق سنقر بن عبد الله ، المعروف بقسيم الدولة ، مملوك السلطان أبي الفتح ملك شاه ، وقيل أنه لصيق له ، وقيل اسم أبيه آل ترغان من قبيلة ساب يو ، نقلت ذلك من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به ابو اليمن الكندي وغيره عنه .

وتزوج أق سنقر داية السلطان ادريس بن طغان شاه ، وحظي عند السلطان ملك شاه ، وقدم معه حلب في سنة تسع وسبعين واربعمائة حين قصد تاج الدولة تتش اخاه ،فانهزم عن حلب ،وكان قصدها وملكها السلطان ملك شاه في شهر رمضان من سنة تسع وسبعين وخرج عنها الى انطاكية وملكها وخيم على ساحل البحر اياما ، وعاد الى حلب ، وعيد بها عيد الفطر ، ورحل عنها ، وقرر ولاية حلب لقسيم الدولة أق سنقر في اول سنة ثمانين واربعمائة ، فاحسن فيها السياسة والسيرة ، واقام الهيبة ، وجمع الذعار ، وافنى قطاع الطرق ، ومخيفي السبل ، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع ، فأستاصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق وتسلك السبل ، فشكر بذلك الفعل وأمنت الطرق والمسالك (٢٦٧ – ظ) وسار الناس في كل وجهة بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار ، وعمرت حلب في ايامه بسبب ذلك بورود التجار اليها والجلابين من جميع الجهات ، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم رحمه الله .

وفي أيامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين واربعمائة واسمه منقوش عليها الى اليوم ، وهو الذي امر ببناء مشهد قرنبيا ووقف عليه الوقف ، وامر بتجديد مشهد الدكة

اخبرني عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري

قال : كان قسيم الدولة أق سنقر احسن الأمراء سـياسة لرعيتـه ، وحفظا لهم ، وكانت بـلاده بين عدل عام ، ورخص شـامل ، وامـن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بـلاده متـى اخـذ عند أحدهم قفل ، او أحد من الناس ، غرم أهلها جميع مـا يؤخـذ مـن الأموال من قليل او كثير ، فكانت السيارة اذا بلغوا قرية من بـلاده القوا رحالهم وناموا ، وقام اهل القرية يحرسونهم الى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته.

سمعت والدي القاضي ابا الحسن رحمه الله يقول لي فيما يأثـره عن اسلافه:إن قسيم الدولة أق سنقر كان قد نادى في بلد حلب بأن لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده.
قال : فخرج يوما يتصيد ، فمر على قرية من قـرى حلب ، فـوجد بعض الفلاحين (٢٦٨ -و) قد فرغ من عمـل الفـدان وطـرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله إلى القرية . فقـال الم تسـمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع احد متاعا ولا شيئا من مـوضعه ؟! فقال له حفظ الله قسيم الدولة قد امنا في أيامه ، وما نرفـع هـذه الآلة خوفا عليها ان تسرق ، لكن هنا دابة يقال لها ابـن آوى تـأتي الى هذا النير فتأكل الجلد الذي عليه ، فنحن نحفظه منها ، ونرفعـه لذلك

قال : فعاد قسيم الدولة من الصيد ، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات أوى في بلد حلب فصادها حتى أفنوها من بلد حلب .
قلت : وهي إلى الآن لا يوجد في بلد حلب منهـا شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد .

قرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمـذاني قال : واقطع السلطان حلب وقلعتها مملوكه اق سنقر ، ولقبه قسـيم الدولة ، وذلك في سنة تسع وسبعين واربعمـائة فـأحسن السـيرة ، وظهر منه عدل لم يعرف بمثله ، واستغلها في كل يوم الف وخمسمائة دينار ، ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة تتش بـن الب ارسـلان في سنة سبع وثمانين واربعمائة .

قلت وكان تاج الدولة تُتُش قتله صبرا بين يديه بسبعين ، قرية من قرى حلب من نقرة بني اسد على نهر الذهب ، وقيل بكارس الى جنبها وذلك ان تتش كان قد حصل في نفسه شيء من قسيم الدولة ، وكان (٢٥٨ -ظ) قسيم الدولة يستصغر امر تتش حتى انني قرات بخط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه ، سنة اربع وثمانين واربعمائة وفيها :

نزل تاج الدولة إلى السلطان ، يعني نزل تتش إلى ملك شاه ، فلما رآه ترجل له ، وكان في الصيد ، خيفة أن يتخيل منه ، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته ، فقال تاج الدولة تتش: كان من الأمر كذا وكذا ، فقال له قسيم الدولة : تكذب ، فقال له السلطان : تقول لأخي كذا ' قال : نعم ،يطلع الله في عينيه ما يريده لك، ويطلع في عيني ما اريده لك .

قلت : وعاد تتش من خدمة اخيه إلى دمشق ، فلما توفي السلطان ملكشاه برز تاج الدولة تتش في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين ، وخر جمعه خلق من العرب ، ولقيه عسكر انطاكية بالقرب من حماة مع يغي سغان ، وسار تاج الدولة ، وقطع العاصي في شهر ربيع الآخر من السنة ، ورعى عسكره الزراعات ، ونهب المواشي وغيرها ، واتصل الخبر باق سنقر وهو بحلب ، وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب ، فجمع وحشد ، واستنجد بمن جاوره ، فوصل اليه كربوقا صاحب الموصل ، وبزان صاحب الرها ، ويوسف ابن ابق صاحب الرحبة في ألفي فارس وخمسمائة فارس، منجدين قسيم الدولة على تتش ، وحصل الجميع بحلب ، ووصل تاج الدولة تتش الى الحانوتة ، ورحل منها إلى الناعورة ، واغارت خيله على المواشي بالنقرة ، واحرقوا بعض زرعها ، ورحل من الناعورة قاصدا نهر الوادي (٢٦٩ -و) وادي بزاعا ، فتهيأ أق سنقر للقائه ، والخروج إليه ، واستدعى منجما ليأخذ له الطالع ، فحضر عنده واختار له وقتا ، وقال : تخرج الساعة ، فركب ومعه النجدة التي وصلته ، وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع و مبارك بن

شبل ، وكان أطلقهما من الاعتقال ، ومحمد بن زائدة ، وجماعة من أحداث حلب ، والديلم والخراسانية ، في احسن زي ، وأكمل عدة ، وقيل أنه قدر عسكره بعشرين الف فارس ، وقيل كان يزيد عن ستة الاف ، وقصد تاج الدولة يوم السبت التاسع من جمادى الأولى من السنة ، وقطع آق سنقر سواقي نهر سبعين قاصدا عسكر تتش (١٣) فاقاموا على حالهم ، وكان اول من برز للحرب آق سنقر ، فالتقى الفريقان .

ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من العرب ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ، ثم نقلهم إلى القلب ، فلم يغنوا شيئا ، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر ، فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبزان معهم إلى حلب ، ووقع فيهم القتل ، وثبت قسيم الدولة ، فأسر وأكثر أصحابه وحمل إلى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه امر بضرب عنقه واعناق بعض خواصه ، ودخل تتش إلى حلب وملكها على ما نذكر في ترجمته إن شاء الله .

وبلغني أن تاج الدولة تتش قال لقسيم الدولة آق سنقر لما حضر بين يديه : لو ظفرت بي ما كنت صنعت ؟ (٢٦٩ ظ) قال : كنت أقتلك ، فقال تتش : فأنا احكم عليك بما كنت تحكم علي ، فقتله صبرا .

وقرأت بخط بعض الحلبيين أن السلطان ملك شاه بن العادل وصل ، يعني الى حلب ، في شعبان سنة تسع وسبعين ، فتسلم البلد والقلعة وسلمها إلى قسيم الدولة آق سنقر ، فاقام بحلب ثمان سنين فقتل بكارس من ارض النقرة ، نقرة بني اسد ، في صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتله تاج الدولة بن العادل .

وقرأت بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين الشيباني في تاريخه: في جمادى الأولى ، يعني سنة سبع وثمانين ، كان المصاف بين تاج الدولة تتش وبين الأميرين آق سنقر وبوزان ومن امدهما به بركيا روق قريبا من حلب ، فلما التقى الصفان استأمن ابن أبق الى تتش ، وانهزم الباقون ، وأسر آق سنقر فجيء

به الى تتش فقال له تتش : لو ظفرت بي ما كنت صانعا؟ قال: أقتلك ، قال: فاني أحكم عليك بحكمك في ، وقتله.

قال : وكان اق سنقر من احسن الناس سياسة ، وآمنهم رعية وسابلة .

وقرات بخط ابي منصور هبة الله بن سعد الله بن الجبراني الحلبي: الصحيح ان قسيم الدولة قتل يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين واربعمائة .

ونقلت من خط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه سنة سبع وثمانين واربعمائة ،فيها : كانت وقعة قسيم الدولة (اق) سنقر وتاج الدولة يوم السبت تاسع جمادى الأولى (٢٧٠ - و) وذلك ان تاج الدولة لما اراد العبور مختفيا ليمضي إلى خراسان ، فبلغ خبره قسيم الدولة ، فخرج إليه .فقال لاصحابه الحقوني بحبال لكتاف الاسرى استصغارا لهم ، فقال له سكمان بن ارتق : حركش هم - اي ارانب هم -؟ ولم يتمهل إلى حين تصله خيله ، فمضى واستعجل ، فكسره تاج الدولة بارض نبل ، واسره ورحل من موضع الكسرة إلى حلب فملكها ، واستولى على المواضع التي كانت لقسيم الدولة وجلس في قلعة حلب ، وشرب فيها ، واحضر قسيم الدولة ، كما حدثنا رومي بن وهب ، قال : حضرته وقد احضر قسيم الدولة ، فدخل وفي رقبته بند قبائه يسحب ، فلا والله إن انكرت من عزة نفسه شيئا مما كنت اعرفه ، فما زال يمشي حتى وقعت عينه على تاج الدولة فجلس وادار ظهره إليه فسحبوه وكلموه ، فما رد جوابا ولا تحرك ، فقام إليه تاج الدولة فكلمة ، فلم يرد له جوابا مرتين او ثلاثة فضرب رقبته بيده ، وقطع راسه فطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قرنبيا .

وبقي ليلتين ، وسار تاج الدولة إلى خراسان ، وبقي قسيم الدولة في قبره ، وقد طوف براسه إقليم الارض من الشام ، من سنة خمس وثمانين إلى سنة ست وعشرين ، إلى حين ولى السلطان ، والخليفة المسترشد بالله ، ولده زنكي بن اق سنقر وهو عماد الدين ، ملك

الأمراء بهلوان جهان ، عمر له مدرسة تولى أمرها الشيخ الأجل الفقيه الامام ابو طالب بن العجمي ووقف عليها ضيعتين (٢٧٠ – ظ) يساوي مغلهما الف دينار كل سنة ، وعمر بها عمارة معجزة ، ونقل رمته اليها ، رأيتها في سنة سبع وعشرين ، ولم تكن كملت ، وهي تزيد عن الوصف ، وجعل قبره قبالة البيت المسجد من الشمال ، وأجرى إليها قناة ماء ، وغرس وسطها ، وجعل القبر مثل قبر ابي حنيفة رضي الله عنه .

هكذا نقلت من خط ابن منقذ وفيه اوهام من جملتها أنه قال: «فكسرة تاج الدولة بأرض نبل » وليس كذلك ، بل بأرض سبعين أو كارس من نقرة بني أسد ، ونبل ليست من هذه الكورة وبينهما مسافة يوم ، ومن جملة اوهامه أنه قال :«جلس في قلعة حلب وضرب رقبة أق سنقر فيها وليس الأمر كذلك ، بل ضرب رقبته عقيب الكسرة بسبعين ، أو كارس ،وورومي بن وهب حكى له صورة قتلة ، لأنه كان بحلب والذي قتله تاج الدولة صبرا بحلب هو بُزان صاحب الرها ، وكان انهزم في هذه الوقعه الى حلب ، فلما دخلها تاج الدولة احضره وقتله وقيل بل أسره ، وحمله الى حلب فقتله على ما نذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى ؛وقال : «بقي قسيم الدولة في قبره من سنة خمس وثمانين إلى سنة ست وعشرين»

وهذا طغيان من القلم ، فان قسيم الدولة قتل سنة سبع وثمانين ، وقد ذكره كذلك، وقال :« عمر – يعني ولده زنكي له – مدرسة ، ووقف عليها ضيعتين ، والمدرسة لم يعمرها زنكي ، بل عمرها سليمان بن عبد الجبار بن ارتق ، وابتدا في عمارتها في سنة سبع عشرة ، واسمه وتاريخ عمارتها على جدارها ، لكن قسيم الدولة أق سنقر (٢٧١ – و) لما قتل دفن الى جانب مشهد قرنبيا بالقبة الصغيرة المبنية بالحجارة من غربي المشهد ، وكان قسيم الدولة بنى مشهد قرنبيا لمنام رأه بعض اهل زمانه ، ووقف عليه وقفا ، فدفن الى جنبه ، وعمر على قبره تلك القبة ، فلما ملك زنكي حلب اثر أن يبني لأبيه مكانا ينقله اليه ، وكانت المدرسة بالزجاجين لم تتم وكان شرف الدين ابو طالب بن العجمي هو الذي يتولى عمارة هذه

المدرسة ، فأشار على زنكي ان ينقل أباه اليها فنقله ، وتم عمارة المدرسة ، ووقف على من يقرأ على قبره القرية المعروفة بشامر ، وهي جارية الى الآن ، وأما كارس التي هي وقف على المدرسة ، فاظنها وقف سليمان بن عبد الجبار .

واخبرني أبو حامد عبد الله بن عبد الرحمن بن العجمي قال : اراد اتابك زنكي أن ينقل أباه إلى موضع يجدده عليه ، ويليق به ، فقال له أبي :اناقد عمرت هذه المدرسة بالزجاجين ، وسأله أن ينقل إليها ففعل ، واتخذ الجانب الشمالي تربة لأبيه ، ولمن يموت من ولده وغيرهم .

وحكى لي والدي رحمه الله أن اتابك زنكي لما نقل أباه من قرنبيا ، وادخله إلى مدرسة الزجاجين لم يدخل به من باب من ابواب مدينة حلب ، وانهم رفعوه من بعض الاسوار ودلوه الى المدينة ، لأنهم يتطيرون بدخول الميت الى البلدة .

قال لي أبي : ووقف زنكي القرية المعروفة بشامر على تربة ابيه أق سنقر رحمه الله .

قرات بخط أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي وانبأنا به عنه المؤيد بن محمد الطوسي وغيره قال . سنة (٢٧١ــ ظ)ثمانين وأربعمائة دولة قسيم الدولة وزيره أبو العز بن صدقة؛ فيها استقرت الرتبة بحلب للأمير قسيم الدولة أق سنقر من قبل السلطان العادل أبي الفتح ، وتوطدت له الأمور بها ، واقام الهيبة العظيمة التي لايقدر عليها احد من السلاطين ، واظهر فيها من العدل والانصاف مع تلك الهيبة ما يطول شرحه ، ورخصت الأسعار في ايامه الرخص الزائد عن الحد ، وقرب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط ، واحبوه اضعاف ذلك ، واقام الحدود ، واحيا احكام الاسلام وعمر الأطراف ، وأمن السبل ، وقتل قطاع الطرقات، وطلبهم في كل فج ، وشنق منهم خلقا ، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قد قصده ، واخذه وصلبه على ابواب المدينة ، وكثرت في ايامه الأمطار ، وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب من

الجميل بما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر .

قال : وفيها يعني سنة إحدى وثمانين واربعمائة ، خرج الأمير قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله يودع تابوت زوجته داية السلطان أبي الفتح ، ماتت بحلب ، وقيل إنه جلس وفي يده سكين ، فأومأ بها إليها ، فوقعت في مقتل وهو غير متعمد لها ، فماتت في الحال ، فوضعها في تابوت ، وحملت الى الشرق ، وخرج لوداعها يوم الاثنين مستهل جمادي الآخرة .

وقال : سنة أربع وثمانين واربعمائة ، فيها تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة افامية من يد ابن ملاعب يوم الخميس ثالث رجب ، وشحن بها بعض بني منقذ (٢٧٢ – و) .

وقال : سنة ست وثمانين وأربعمائة ، فيها فتح الأمير قسيم الدولة آق سنقر ومعه تاج الدولة مدينة نصيبين يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، وقيل في صفر ، حدثني بهذا والدي الرئيس أبو الحسن علي بن محمد العظيمي قال : كنت مع الأمير قسيم الدولة في هذا الفتح .

قال: وفيها شرق قسيم الدولة رحمه الله الى بغداد الى عند السلطان بكيارق (١٤) بن أبي ألفتح ، وعاد الى حلب في شوال سنة ست وثمانين.

قال : سنة سبع وثمانين واربعمائة ، وكان قسيم الدولة عاد الى حلب والتقى هو وتاج الدولة ، فكسر تاج الدولة قسيم الدولة وقتله على نهر سبعين شرقي حلب سابع جمادي الأولى ، وقيل يوم السبت تاسع جمادى الأولى ، وأصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه رأس الأمير قسيم الدولة رحمه الله ، فتسلم تاج الدولة مدينة حلب العصر من يوم الأحد عاشر جمادى الأولى ، وتسلم القلعة يوم الاثنين ، وقتل مع قسيم الدولة رحمه الله أربعة عشر مقدما منهم نختكين شحنة بغداد ؛ وقجقر شحنة حلب ، وطغان واسرائيل ، وقتل بحلب غلامه طغريك ، وله حكاية معروفة

وعلي بن السليماني ، واخوه ومحمد البخاري الذي قفز على انطاكية ، واخواجه ابو القاسم ، والطندكيني مع سليمان ، والطرنطاس خاص ملك شاه ، وانهزم الى حلب بُزان وكربوقا ، ويوسف بن آبق ، فأما بُزان فانه قتل(١٥).

السلطان الب ارسلان

(من بغية الطلب لابن العديم)

الب ارسلان بن جغري بك بن سلجوق بن دقاق بن سلجوق وقيل سَلّجُق ، وله ولكل واحد من أبنائه اسم أخر بالعربية ، اسمه بالعربية محمد بن داود بن ميكائيل بن سليمان ، ابو شجاع بن أبي سليمان الملقب بالعادل النوري ، أصلهم من قرية يقال لها النور .

وتقاق أول من دخل منهم في الاسلام ، وتقاق بالتركية القوس من الحديد وقيل في نسب سلجق الأعلى :هو سلجق بن داود بن أيوب بن دقاق بن الياس بن بهرام بن يوسف بن عزيز.

ملك الب ارسلان خراسان بعد أبيه جغري بك ، وفتح العراق من يد ابن عم أبيه قلطمش بن اسرائيل سنة ست وخمسين وأربعمائة واستقر في السلطنة حين توفي عمه السلطان طغر لبك في الثامن من شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وكان ولي عهد عمه ، لأن عمه لم يكن له نسل ، فملك الب ارسلان بعده ، وهو أول من ذكر على منابر بغداد بالسلطان .

وقدم حلب محاصرا لها وفيها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس سنة ثلاث وستين واربعمائة ، فدام على حصارها الى أن خرج اليه محمود مع والدته السيدة ، فأنعم عليه بحلب ، وسار الى الملك ديوجانس ، وقد خرج من القسطنطينية ، فالتقاه وأسره ، ثم من عليه واطلقه ، وغزا الخزر والأبخاز ، وبلغ ما لم يبلغ احد من الملوك ، وكان ملكا عادلا مهيبا مطاعا (٢٧٩ ـ ظ).

حدثني والدي رحمه الله يأثره عن سلفه قال : قدم السلطان،

- يعني الب ارسلان - وحـاصر حلب ، وكان نازلا بميدان بـاب قنسرين ، ونصب على برج الغنم منجنيقـا وتـواتر ضرب المنجنيق عليه ، فـأخذ عوام حلب شـقة أطلس وربـطوها على ذلك البـرج استهزاءا به ، يعنون أن البرج قـد صـدعه رأسـه مـن ضرب المنجنيق ، فسأل السلطان عن ذلك ، فقالوا : إنهـم قـد عصـبوا البرج ، يعنون ان البرج قد صدعه رأسه من ضرب المنجنيق ، وقـد عصبوه على رأسه ليستريح مـن الصـداع الذي يلحقـه مـن ضرب المنجنيق .

قال فاستشاط السلطان غضبا وفـرق تلك الليلة في عسـكره كذا وكذا الف فردة نشاب من الخلنج (١٦) غير ماكان من غيرها ، وباكر البلد بالزحف حتى أشرف على الأخـذ ، فخـرجت اليه السـيدة أم محمود ومعها ابنها محمود ، وحملا مفاتيح البلد والقلعة ودخلا تحت طاعته ، ووطئا بساطه ، والناس في خدمته بالميدان صفان ، فدخلت وابنها بين الصفين ، وجعلا يقبـلان الأرض خـدمة له حتـى انتهيا اليه ، فأكرمهما وقال للسيدة ، أنت السيدة؟ فقالت: سيدة قـومي ، فاستحسن ذلك منها ، ورد البلد على ابنها وأكرمه ، وعاد الى المدينة مكرما مسرورا.

قال : وقصد بتطويل الحصـار تعـظيم البلدة لكونهـا مجـاورة للروم ، فيقع عندهم أن هذا السلطان مـع عظـم قـدره ، وكثـرة عساكره نزل عليها هذه المدة ، ولم ينل منها ما أراد ، فـلا يطمـع فيها العدو .(٢٨٠ـ و).

وقيل إن السـيدة أقـامت في البلد ، وخـرج محمـود اليه ، وأن دخولها عليه كان بـالرها ، تـوجهت اليه وهـو متـوجه الى حلب . فسألها : أنت السيدة ؟ فأجابته بما ذكرناه

وقرأت بخط ابي الفوارس حمـدان بـن عبـد الرحيم (١٧) : إن محمود ووالدته خرجا اليه ، فعفا لهما عن حلب بعد أحـد وثـلاثين يوما من مقامه.

وسمع أن ملك الروم ديوجانس قد خرج مـن القسـطنطينية على

طريق الثغور والدروب ، فرحل عن حلب بعد خروج محمود اليه بخمسة أيام وقصده حتى لحقه على منازكرد ، فحاربه حتى هزمه ، وأسر ملك الروم ، وغنم معسكره ، وكانت عدة الترك ستمائة الف رجل .

وقرأت في بعض التواريخ التي لم يسم جامعها ان الب ارسلان العادل نزل على حلب محاصرا لها في سنة ثلاث وستين واربعمائة وبها محمود بن نصر بن صالح ، ثم ملكها بالأمان ، خرج اليه محمود بن نصر في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة من السنة فأنعم عليه وأمنه ، وولاه حلب من قبله .

ثم رحل عنها في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة قاصدا بلد الروم في طلب ملكهم وقد توجه الى منازكرد ، فلحقه في عساكره وأوقع به ، فهزمه ، الأتراك ، وحصل ملك الروم اسيرا في ايدي المسلمين ، وصار الى الب ارسلان ، فلم تزل المراسلات بينه وبينه الى أن تقرر إطلاقه (٢٨٠ ـ ظ)على مهادنة منها أن لايعرض لبلاد المسلمين ، ثم سيره الى بلاده ، فيقال إن أهل مملكته قتلوه لأمور نقموها عليه .

قرات بخط الحافظ ابي الخطاب عمر بن محمد العليمي وانبانا به ابو عبد الله بن احمد بن محمد النسابة عنه قال: وجدت بخط ابي الحسن يحيى بن علي بن محمد بن زريق: ذكر اخبار السلطان الشهيد المعظم الب ارسلان ، ابي شجاع محمد بن داوود ، برهان امير المؤمنين، نضر الله وجهه. والسبب في وصوله الى الشام:

كان هذا السلطان رحمه الله ولي بعد وفاة عمه السلطان الأعظم ابي طالب طغرلبك بن ميكائيل في سنة سبع وخمسين واربعمائة ، وعمر السلطان طغرلبك على ما ذكر قد اناف على ثمانين سنة ، ونازع السلطان المذكور في المملكة قتلمش ابن عمه ، ولم يثبت لمقاومته ، وذكر أنه لقيه في تسعين الفا ، ومع السلطان يومئذ اثنا عشر الفا ، فكسره ، وانهزم قتلمش على وجهه ، وسقط عن دابته في هزيمته ، فوجد ميتا ، وحمل ودفن

بالري. وكانت الدامغان دار مملكته، وقيل إن اللقاء بقرب ضيعة تعرف بده نمك ، وكان اخو السلطان قاورت متملك كرمان ، وكان بينهما منازعات ، وآلت الحال بينهما الى الصلح والاتفاق.

وفي أيامه اغمدت سيوف الفتنة بخراسان ، وبطل ما كان عليه الترك من الفساد والعيث قبل استقرار المملكة ، وانتشر عدله ودعوته.

وكان سبب ظهوره الى الشام ما حدثني به الفقيه ابو جعفر محمد ابن أحمد بن البخاري رسول ناصر الدولة بن حمدان ، المتغلب على مصر اليه ، يستدعي عساكره ليسلم ديار مصر ، ويغير الدعوة ،وذلك لما كان بينه وبين جماعة من الأمراء بمصر منهم يلدكوز وغيره بمصر ، وامير الجيوش بدر الجمالي بالشام ، وكانت المراسلة في سنة اثنتين وستين على يد الفقيه المذكور ، فحين ورد عليه الى خراسان ، جهز العساكر التي تملأ الفضاء وتضيق بها الدهناء ، عُدّة وعِدّة ، ووصل من بلاده على طريق ديار بكر ، ونزل الرها في اول سنة ثلاث وستين ، واقام عليها نيفا وثلاثين يوما ، وسير الفقيه المذكور رسولا الى محمود بن نصر بن صالح صاحب حلب يستدعيه الى وطىء بساطة وخدمته اسوة بمن وفد عليه من الملوك ، مثل شرف الدولة مسلم بن قريش ، وابن مروان ، وابن وثاب وابن مزيد ، وامراء الترك والديلم ، فلم يفعل ، وخاف منه .

فسار عن الرها الى الشام قاصدا له ، وقطع الفرات في النصف من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو اليوم التاسع عشر من كانون الثاني ، وكان قد راسله السلطان في سنة اثنتين وستين يأمره باقامة الدعوة العباسية ، والمسارعة الى الخدمة ، وانفذ له خلعا وتشريفا ، فامتثل امره من إقامة الدعوة للامام القائم بأمر الله امير المؤمنين ، والسلطان المعظم بعده ، ولبس الخطيب السواد ، وبطلت الدعوة المصرية من الشام في شوال من سنة اثنتين وستين

ولما قطع السلطان المعظم الفرات من نهر الجوز نزل بعض المروج

على الفرات ، فرآه حسنا ، فأعجب به ، فقال له الفقيه ابو جعفر: يامولانا احمد الله تعالى على ما انعم به عليك ، فقال: وما هذه النعمة؟ فقال: هذا النهر لم يقطعه قط تركي الا مملوك وانتم اليوم قد قطعتموه ملوك ، قال: فلعهدي به وقد احضر جماعة من الامراء والملوك ، وامرني باعادة الحديث ، فأعدته ، فحمد الله هووجماعة من حضر عنده حمدا كثيرا.

ونزل السلطان المعظم نقرة بني اسد الى ارض قنسرين الى الفنيدق ، والرسل مترددة الى محمود ليخرج الى الخدمة ، وهو خائف منه ممتنع عليه ، وتمادى الأمر نحو شهرين ، وحصن محمود حلب وجفل الناس من سائر الشام اليها ، ودخل الرعب في قلوب الناس لعظم هيبته وبأسه ونجدته وما اجتمع اليه من العساكر الجمة والجيوش الكثيفة الضخمة ، وكان الأمر بخلاف ما ظن الناس من ذلك الخوف ، وانه رحمه الله لما يئس من خروج محمود إليه عاد منكفئا من منزل يعرف بالفنيدق ، ونزل حلب في آخر جمادى الآخرة من السنة ، وكانت الخيام والعساكر من حلب ، الى نقرة بني اسد الى عزاز الى الأثارب ، متقاربة بعضها من بعض ، وبعض العساكر ببلد الروم وسائر مروج الشام.

وسار بعض عساكره مع ابن جابر بن سقلاب الموصلي أحد الكتاب الى طرابلس لتقرير امرها.

واقام محاصرا لحلب شهر واحد ويومين ، ولم يقاتلها غير يوم واحد ، فحدثني من كان مع محمود صاحب حلب وهو داخل السور لتحريض الناس على القتال في وقت الزحف ، انه لم يعبر محلة من محال حلب الا واهلها قد اشرفوا على الهجم عليهم ، ونقب البرج المعروف ببرج الغنم ، وهو احصن برج بها ، وعلق فظفر اهل حلب بمن دخل ذلك النقب ، فأخذوا بعضهم ووقع الردم على الباقين. وحمل السلطان في ذلك اليوم ، فوقعت يد فرسه في خسف كان هناك ، واصاب في الحال راس فرسه حجر المنجنيق فركب

غيرهـــا وعاد وصرف الناس عن الحـــرب بعـــد ان اشرف البلد على الأخذ.

وذكر عن هذا السلطان انه قـــال: أخشى ان افتـــح هـــذا الثغـــر بالسيف فيصير الى الروم ، وراســـل الســـلطان أمـــراء بني كلاب واحضرهم من البـــرية ، فـــوصلوا إليه ، وعزم على تقليد بعضـــهم وتركه في مقابلة محمود ، وعوده لأجل ما بلغـــه مـــن ظـــهور متملك الروم ووصوله في الخلق العـــظيم الى بـــلاد ارمينية طـــالبا لبـــلاد خراسان ، فشعر محمود بوصول امراء العـــرب ، وانه إن تـــم ذلك خرج الشام مـــن يده ، فـــراسل الســـليماني المتـــردد إليه ، كان في المراسلة ، يعلمه انه قد عزم على وطىء بساطة وخدمته خـــوفا ممـــا اشرف عليه ، وخرج الى السلطان على غفلة منه في أول شعبان مـــن الســـنة ، فـــرأى منه مـــن الاكرام والتشريف والخلع مـــا زاد على امنيتـــه ، وفي الحـــال رده الى حلب ، وقـــال: ارجـــع إلى والدتك ، وكانت والدته المعروفة بالسيدة علوية بنت وثاب قد خـــرجت اليه برسالة ابنها عند كونه بالرها وتردد خروج محمود دفعـــة بعـــد اخرى ، وقرر معه الســـلطان أن يخـــرج بعسـا كره ويضـــيف إليه السليماني ، وأن يتـــوجها الى بـــلاد دمشـــق والأعمـــال المصرية ليفتحها ، ففعل ما أمره به.

وحكى الأمير ابو الحسن علي بن منقـــذ أن خـــواجا بـــزرك (١٨) الوزير سأله عند حضوره عنده وقت خروج محمـــود اليه عمـــن قتـــل بحلب يوم الحرب ، فقال: انهم نفر يسير ، فتعجب من ذلك ، وقـــال: في ذلك اليوم رمي من الخزانة بثمانين الف نشاب ، سوى ما رمـــاه بقية العسكر ، ودفع الله عن أهـــل الشـــام ، ولم يقـــاتل فيه مـــدينة ولاحصن ولا سبيت حرمة ، ولا اعترض لأخذ من المسلمين وذلك مـــن حسن سيرة هذا السلطان ، وعظيم هيبته ، تغمده الله بالغفران.

وعاد السلطان منكفئا الى بلاده على طريق العراق ، معـــرجا منه نحو بلاد ارمينية قاصدا لمتملك الروم ، واسرع في سيره بمـــن خـــف معه ، ووصل فـــالتقى متملك الروم بـــالقرب مـــن خـــلاط وتلك

البلاد ، فاعتبر من وصل معه من عسكره فكانت عدتهم ثلاثة عشر الفا ، وتصاف العسكران في يوم الجمعه ، ووقف السلطان عن قتاله انتظارا لوقت الصلاة والدعاء على منابر الاسلام ، وترقبا للاجابة في نصرة المسلمين ، فلما صلى الظهر ناجزهم الحرب فأظفره الله تعالى بعسكر الروم ، واجراه على جميل العادة في الظفر ، ومكنه ممن بغى وكفر ، ونهب العسكر بأسره ، واسر متملك الروم ، واقامه بين يديه ومعه باز وكلب صيد ، ثم انعم عليه ، وخلع واكرمه ، واصطنعه وسيره مع قطعة من عسكره ليعده الى بلاده ومملكته ، فاختلت الأمور عليه ، ولم يتم له ما اراد ، وذكر انه كحل ومات بعد مدة.

ولم يجر في الاسلام منذ ظهر مثل هذا الظفر ، ولا أسر للروم متملك قبل هذا في الاسلام ، وكان السلطان سأل متملك الروم عند حضوره بين يديه ماسبب خروجه وتعريضه نفسه وعسكره لهذا السبب ، فذكر انه لم يرد إلا حلب ، إذ كان كلما جرى على الروم كان محمود هو السبب فيه ، والباعث عليه لمن قصدها من الترك . وغنم من هذا العسكر ما يفوت الاحصاء والعد ، وتجاوز الأمد والحد ، وبيع من غنائمه ما يساوي مائة دينار بدينار واحد ، فلله الحمد على ذلك كثيرا .

قلت : ومن ذلك اليوم عرف تل السلطان بتل السلطان لنزول الب ارسلان على التل (٢٨٣ ــ ظ) وكان يعرف المكان أولا بالفنيدق ، وكان فيه فندق صغير ياوي إليه الناس ، شاهدته قبل أن يجدد الأمير سيف الدين علي بن سلمان بن جندر هذا الخان الذي هو الآن موجود .

قرات بخط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه ، في سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، في ذكر العادل الب أرسلان وحصاره حلب قال : حدث الأمير طغتكين صاحب دمشق ابي قال : كنت حامل وراء السلطان حين ضربه حجر المنجنيق ، ولو

سلم ساعة لأخذها ، وكان قد وصـل الشـام يريد الطلوع الى مصر ليفتحها ، ولو طلع لأخذ البلاد جميعها ، وأخذ مصر.

قال: وحدثني مولاي ابي قال: كانت خيامه من شـمالي مسـجد مرج دابـق الى قناطـر قنسرين ، اي مـوضع عبـرت فيه ورأيت السرادق والخيام قلت في هذه السلطان.

وقال: قال ابي: وحدثني وزير تاج الدولة أبـو النجـم (١٩) قـال: شرب السلطان على حلب وسكر ، وضل رشـده بـالسكر ، فقـال هاتو الأمير البدوي ، يعني محمود ، لأضرب رقبته ، فجاء الغلمـان إلى خواجا بزرك وقالوا : قد قـال السـلطان كذا وكذا ، فمضى إليه خواجا بزرك ، وقال له : يا سلطان العالم يظهر عنك مثل هذا وكان السلطان قد بلغ منه السـكر ، فضربـه بـالمغسل الذي في دسـت الشراب ، وقال : أريده ، ففتح أثراً في وجهـه (٢٨٤ ـ و) فمضى خواجا إلى جانب السرادق إلى خاتون فقال ، بادرينا يا خاتون وإلا الساعة يتلف العسكر وينهب بعضه بعضا ، كان كذا وكذا ، فقـامت تمشي إليه ، فقال لها خاتون مـا جـاء بـك ؟ فقـالت : نم انت سكران ، وتفرقوا ، فلما اصبحت قالت له : ما تحتشم تفتـح عليك باب غدر ؟ قـال : لا إن شـاء الله ، قـالت : بلى البـارحة ، اردت تحضر الأمير البدوي وتضرب رقبته ، وأنت قد أعطيته أمانك ، هـذا وأنت تريد تفتح مصر وما دونها ، وفعلت كذا وكذا بخواجا بـزرك قال : والله ما معي علم من هذا جميعه ، ولما حضر عنده خواجا قال له : يا حسن ما هذا الأثر في وجهك ؟ فقال : يا سلطان العالم هـذا اثر ، وقعت البارحة وانا خارج من خيمتي ضربني عمود الخيمـة ، ولم يعلمه بذلك ، فاستحسن الناس منه ذلك ، ثم رحل السلطان مـن حلب يريد مصر ، فرحل مرحلة واحدة فجاءه الخبر بـأن ملك الروم ذيوخانس قد خرج لما راى البلاد خالية من العسـاكر ، فـرحل على ادراجه يريد ملك الروم .

قرات بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصـين : سـار السلطان الب ارسلان ، يعني في سنة ثلاث وستين واربعمائة ، إلى ديار

بكر ، فخرج إليه نصر بن مروان وخدمه بمائة الف دينار ، وقصد حلب وحاصرها ، فخرج إليه محمود بن نصر ليلا ، ومعه والدته ، فدخلا على السلطان ، فقالت له : هذا ولوي فافعل به ما تحب
ففعل معه الجميل وخلع عليه ، وغزا السلطان الب ارسلان بلاد الروم ، وخرج أمر (٢٨٤ ـ ظ) الخليفة القائم إلى الخطباء على المنابر بالدعاء له بما صيغته :

اللهم أعلي راية الاسلام وناصره ، وابحض الشرك بجب غاربة ، وقطع اواصره ، وامدد المجاهدين في سبيلك الذين في طاعتك بنفوسهم سمحوا ، وعلى متابعتك فازوا وربحوا ، بالعون الذي تطيل به باعهم ، وتملأ بالأمن والظفر رباعهم ، واحب شاهنشاه الأعظم برهان امير المؤمنين بالنصر الذي تنشر به أعلامه ، وتستبشر بمكانه من اختلاف الظلال ايامه ، واوله من التأييد الضاحكة مباسمه ، القائمة اسواقه ومواسمه ما تقوي به في إعزاز دينك يده ، ويقضي بأن يشفع يومه في الكفار غده ، واجعل جنوده بملائكتك معضودة ، وعزائمه على اليمن والتوفيق معقودة ، فإنه قد هجر في كريم مرضاتك الدعة ، وتاجرك من بذل المال والنفس ما انتهج فيه مسالك أوامرك الممتثلة المتبعة ، فإنك تقول ، وقولك الحق : « يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم،تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم" (٢٠) .

اللهم فكما أجاب نداءك ولباه ، واجتنب التثاقل عن السعي في حياطة الشريعة وأباه ، ولاقى أعداءك بنفسه وواصل في الانتصار لدينك يومه بأمسه ، أنت اخصصه بالظفر ، وأعنه في مقاصده بحسن مجاري القضاء والقدر ، وحطه بحرز يدرأ عنه من الأعداء كل كيد ، ويشمله من جميل صنعك بأقوى أيد ، ويسر له كل (٢٨٥ ـ و) مطلب يرومه ويزاوله حتى تكون نهضته الميمونة عن النصر مسفرة ، ومقلة أحزاب الشرك مع إصرارهم على الضلال غير مبصرة
فابتهلوا معاشر المسلمين إلى الله تعالى في الدعاء له بنية صافية ، وعزيمة صادقة ، وقلوب خاشعة ، وعقائد في رياض الاخلاص

رائعة ، وواصلوا الرغبة إلى الله في إعزاز جانبه ، وفل غرب مجانبه ، وإعلاء رايته ، وأنالته من الظفر أقصى حده وغايته

وأنفذ السلطان في مقدمته أحد الحجاب ، فصادف عند خلاط صليبا تحته متقدم الروسية في عشرة آلاف من الروم ، فحاربوهم ، وأعطى الله المسلمين النصر عليهم ، فأخذ الصليب وأسر المقدم ، وتقارب السلطان ، وعظيم الروم في مكان يعرف بالزهرة بين خلاط ومنازكرد في يوم الأربعاء خامس ذي القعدة ، وكان السلطان في خمسة عشر الفا ، وصاحب الروم في مائتين الوف.

وراسل السلطان ملك الروم في الهدنة ، فقال ملك الروم : لاهدنة الا بالري ، فعزم الله على السلطان على الرشد، ولقيه يوم الجمعة وقت الزوال ، وهو سابع ذي القعدة ، وأعطى الله المسلمين النصر فقتلوا منهم قتلا ذريعا ، وأسر ملك الروم ، وضربه الب ارسلان ، ثلاث مقارع ، وقطع عليه الف الف وخمسمائة الف دينار ، واي وقت طلب السلطان عساكر الروم نفذها ملكهم اليه ، وان يسلم كل اسير من المسلمين عنده (٢٨٥ ـ ظ)(٢١)

ذكر صاحب ملك نامه الذي صنفه لألب ارسلان محمد بن داود أنه استفاد انسابهم وأحسابهم من الأمير اينانج بك اذ كان أسن القوم واعرفهم بأنسابهم واحسابهم ، قال : كان الأمير سلجوق بن دقاق من أعيان ترك خزر ، وكان دقاق يلقب بتمر بالغ أي شديد القوس .
قال اينانج بك : لما مر زمان على الأمير دقاق ، ولد له مولود مبارك سماه سلجوقا ، وكان يلقبه بسباشي ، يعني مقدم الجيش ، وكان لسلجوق اربعة اولاد : ميكائيل ، وموسى ، وارسلان الملقب بيبغو اكلان ، وأخر توفي زمن شبابه.

وكان للأمير ميكائيل بن سلجوق ولدان: طغرلبك ، وداود جغري بك فعلى هذا يكون الب ارسلان محمد بن جغري داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق.
وقرات في بعض التواريخ أن اباه جغري بك عهد اليه في سنة إحدى وخمسين واربعمائة حين مرض باليرقان، وضعف مزاجه ، وجهز

اليه السلطان مودود(٢٢)جيشا الى خراسان ، ففوض ولاية عهده الى ابنه الب أرسلان ، فأقام الب ارسلان ببلخ مدة حتــى انكشــف عنه وعثاء السفر.

ولما سمع مودود بذلك جمع الجنود ، ولزموا مكانهم ، فحمل عليهم السلطان الب ارسلان حمله ساق التقدير منها الى جيوش غزنة قتلا ذريعا ، وانهزاما سريعا : واسر الب ارسلان الف رجل من القــواد ، وغنم من الخيل والسلاح مالا يدخل في الحساب ، فلما دخل على ابيه جغري بك سر بذلك وزال (٢٨٦ ــ ظ) مرضه ، ثم سار بعــد ذلك جغري بك الب ارسلان الى ترمذ ووالي القلعة بها الكاتب البيهقــي (٢٣) ، فخرج منها ، وتوجه الى غزنة ، وسـلمها الى جغـري بــك ، ففوض جغري بك ولاية بلخ وطخيرستان وترمذ وخشوولوالج الى الب ارسلان ، وشد ازره بوزارة ابي علي بن شاذان ، فعمــر بــلاده بحسن كفايته ، ولما قرب موته سال الب ارسلان ان يفــوض الوزارة بعده الى نظام الملك

ثم ورد خاقان الترك ترمذ وخربها ونهبها ، فطرده الب ارســلان عنها فمضى الخاقان وخيم على جيحون من جــانب بخــارى ، وطلب المصالحة ، مصالحة جغري بك ، واجتمع بــه ، ثــم افتــرقا ، واثــر المرض في جغري بك ، وزاد ضعفه ، وكان عمره سبعين سنة ، فقضى نحبه في صفر سنة اثنتين وخمسين واربعمــائة في سرخس ، وقــام مقامه في الملك السلطان الب ارسلان ، وكان ملكشاه حينئذ ابن ست سنين ، وعاش طغرلبك السلطان بعد جغري بك ثلا ث سنين .
قرات في كتاب الربيع تاليف غرس النعمة ابي الحسن محمد بن هلال ابن الحسن بن ابراهيم بن هلال الصابيء ، واخبرنا به ابو محمــد ابن عبد اللطيف بن يوسف بن علي البغدادي وغيره اجازة عن ابــي الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطي قــال : انبــانا ابــو عبــد الله الحميدي قال : اخبرنا غرس النعمة ابو الحسن قال : حــدثني بعض الخراسانية ، قال : خرج الب ارسلان بن داود ، الملقب عضد الدولة ، وهو صبي الى الصيد فرأى شيخا ضعيفا على رأسه شوك قد قطعه

وتعب به ، وهو ذا يقاسي (٢٨٧ ـ و)من حمله شدة وصعوبة فقال له:ياشيخ قال : لبيك ، قال : اتحب ان اريحك مما انت فيه من هذا الكد والتعب والنصب مع الشيخوخة وكبر السن ؟ فظن الشوكي انه يعطيه ما يكفه به عن ذاك ويعينه ، فقال : اي والله يا مولاي ، فرماه بنشابة قتلته مكانه .

وهذا صدر من الب ارسلان في حال الصبوة والجهل ، وحمله عليه سكر الشباب ، اما في حالة اكتهاله واستقراره في الملك ، فكان من اعدل الملوك واحسنهم سيرة وارغبهم في الجهاد ونصرة الدين .

قرات في منتخب من كتاب زبدة التواريخ للامير ابي الحسن علي بن الشهيد ابي الفوارس ناصر بن الحسيني قال : لما استبد السلطان الب ارسلان بالامر ، واستوى على سرير الملك بسط على الرعايا جناح العدل ومد عليهم ظل الرافة والبذل ، وقنع من الرعايا بالخراج الاصلي في نوبتين من كل سنة ، وكان يتصدق في كل سنة في شهر رمضان باربعة الاف دينار ببلخ ، والف بمرو ، والف بهراة ، والف بنيسابور ، ويتصدق بعشرة الاف في حضرته .

وكتب السعاة اليه سعاية بنظام الملك ، وتعرفا بمكاسبه ، ووضعوه على طرف مصلاه ، فدعا السلطان نظام الملك وقال له : خذ هذا الكتاب فان صدقوا فيما كتبوه فهذب اخلاقك ، واصلح احوالك ، وان كذبوا فاغفر للجارم ، واشغل الساعي بمهم من مهمات الديوان حتى يعرض عن الكذب والبهتان (٢٤).

قرات بخط ابي غالب بن الحصين : في شهر رمضان ـ يعني من سنة ست وخمسين واربعمائة ـ وصل ركابي من تبريز بكتاب من نظام الملك يخبر ان السلطان الب ارسلان اوغل في الغزاة ببلاد الخزر ، وبلغ حيث لم يبلغ احد من الملوك ، وافتتح بلدا عظيما يسمى اسد شهر ، وقتل نحو ثلاثين الف رجل ، وسبى ما يوفي على خمسين الف مملوك ، وهادن ملك الابخاز ، وعاد من ذلك الثغر ، ونزل على مدينة آني من بلاد الروم ففتحها عنوة وهي مدينة عظيمة تشتمل على سبعمائة الف دار ، واسر منه خمسمائة الف انسان .

قال : وهو اول من ذكر على منابر مدينة السلام بالسلطان عضد الدين الب ارسلان .

وقرات بخط ابي غالب ايضا ، سنة خمس وستين واربعمائة : في اولها غزا السلطان الب ارسلان جيحون ، وكان معه زيادة على مائتي الف فارس ، وعبر عسكره اليهم في نيف وعشرين يوما من صفر ، وكان قد قصده شمس الملوك تكين بن طمغاج ، واتاه واصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمي ، وحمل الى قرب سريره ، وهو مع غلامين ، فتقدم بان يضرب له اربعة اوتاد ، وتشد اطرافه اليها ، فقال : يا مخنث مثلي يقتل هذه القتلة ! فاحتد السلطان الب ارسلان ، واخذ القوس والنشابة ، وحرص على قتله ، وقال للغلامين : خلياه فخلياه ورماه ، فاخطاه ، ولم تخطىء له قط نشابة غير هذه ، فعدا يوسف اليه وكان السلطان جالسا على سدة ، فنهض ونزل فعثر ووقع على وجهه ، وقد وصله يوسف فبرك عليه وضربه (٢٨٨ ـ و) بسكين كانت معه في خاصرته ، ودخل السلطان الى خيمته وهو مثقل ، ولحق بعض الفراشين يوسف فقتله بمروة كانت في يده ، وقضى الب ارسلان نحبه ، وجلس للعزاء به ببغداد ثامن جمادى الاخرة ، ومولده سنة اربع وعشرين واربعمائة ، وبلغ من العمر اربعين سنة وشهرين ، ودفن السلطان الب ارسلان عند قبر ابيه بمرو .

اخبرنا ابو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قال : اخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال : ملك البلاد الب ارسلان وهو محمد بن داود ، كسر قتلمش بديه نمك في ذي الحجة سنة خمس وخمسين ، واستخلص الملك ، وغزا الروم في شعبان سنة ثلاث وستين ، وكسر الروم ، واسر ملكهم ، ونودي عليه في السوق ، ثم من عليه وخلاه ، ورده الى ملكه ، وقتل ببليدة يقال لها درزم على طرف جيحون ، سلخ صفر ، او غرة شهر ربيع الاول من سنة خمس وستين واربعمائة ، وحمل الى مرو ، ودفن بجنب ابيه .
انبانا عمر بن طبرزد عن ابي القاسم بن السمر قندي عن محمد

ابن هلال قال : حدثني ابو الحسن البصروي الشاعر قال : رايت ابا طاهر بن ابي قراط العلوي في المنام وانا اقول له : ما فعل الله تعالى بك ، وكنت اعلم فساد اعتقاده ، فلم يجبني ، فلما كررت عليه القول وهو في حاله في ترك الاجابة قال لي : دع عنك هذا فقد ضرب الله نيسابور اثنتين وسبعين عصا ، وانتبهت ، ففسرته على بعض من يدخل الي ممن له بذلك معرفة ، فقال : عد يا سيدنا اثنين وسبعين يوما وانظر ما يتجدد بنيسابور ، فكان قتل عضد الدولة الب ارسلان ابن داود سلطانها علي جيحون في الجانب الشرقي ، وقد عبر لقتال شمس الملك بن بوريخان صاحب سمر قند وبخارى وتلك الاعمال في اليوم الثالث والسبعين من المنام ، وكان ذلك عجيبا ، ويقال ان اهل بخارى وسمر قند وما يتاخمها من الاعمال اجتمعوا بسمر قند لما اظلتهم من عساكر الب ارسلان وكانت عظيمة ، والاكثر يقول :انها قاربت مائتي الف فارس ، وان لم يكن لسلطانهم ولهم به قوة ، وبدا الاجتياح والنهب في الاعمال ، وبات صلحاء الناس بسمر قند في الجامع مدة اسبوع يصومون ويفطرون على الرماد والملح ، ويدعون الله كفايتهم ما قد اظلهم وامر منَ قد قصدهم ، فلم تنسلخ ايام الاسبوع حتى ورد اليهم خبر قتله ، وان يوسف احد اصحاب شمس الملك لما أخذ من قلعة هناك احضر بين يديه ، فتهدده وتوعده ، ثم ضرب اليه نشابة ، وقال لغلامين اتراكا كانا يمسكانه: خلياه ورماه فلم يصبه ، وعدا اليه يوسف فبرك عليه وجرحه بسكين كانت في خفه جراحة عاش منها ثلاثة ايام ومات.

الب ارسلان بن رضوان بن تتش

(من بغية الطلب لابن العديم)

الب ارسلان ، ويسمى محمد ايضا ، بن رضوان بن تتش بن الب ارسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق ، ابو شجاع ، الملقب تاج الدولة ، الاخرس ، والب أرسلان الذي قدمنا ذكره جد ابيه.

ملك حلب حين مات ابوه رضوان وهو صبي ، وتولى تدبير امـــزه خادم ابيض كان من خدم ابيه اسـمه لؤلؤ (٢٨٨ ــ ظ) ويعـرف باليايا ، فلم تتم له سنة حتى قتله غلمانه بالمركز مـن قلعـة حلب ، ووافقهم على ذلك لؤلؤ اليايا .

وكان الثغ لايحسن الكلام فدعي بـالاخرس لذلك . وكان مهـورا قليل العقل ، سفاكا للدم منهمكا في المعاصي .

سمعت والدي رحمه الله يقول : جمع تـاج الدولة الاخـرس بـن رضوان جماعة من الامراء والاجناد وادخلهم الى مـوضع بـالقلعة شبيه بالسرداب او المصنع لينظروه ، فلما حصلوا كلهم فيه قال لهم: ايش تقولون فيمن يضرب رقـابكم كلكم هـا هنا ، فتضرعوا اليه ، وايقنوا بالقتل ، وقالوا : يامولانا نحن مماليكك وبحكمك ، وخضعوا له حتى اخرجهم ، ثم انهم خافوا على انفسـهم منه فـاجمعوا على قتله فقتلوه .

وقال لي الامير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم : كان جدي مالك من جملة الامراء الذين فعل بهم ذلك ، فلما نزل مـن القلعة سار عن حلب الى قلعة جعبر ، وترك المقام بحلب خـوفا على نفسه .

قال : ومضى اكثر الامراء من حلب من خدمته الى ان قتل ، عمـل

عليه لؤلؤ الخادم مملوك ابيه مع جماعة من الامراء ، فقتلوه .
قال : ثم ان لؤلؤ خاف فاخذ الاموال من قلعة حلب ، وسار طالبا بلاد الشرق ، فلما وصل الى دير حافر قال سنقر الجكرمشي : تتركونه يقتل تاج الدولة ، وياخذ الاموال ، ويمضي! فصاح بالتركية ـ يعني ـ الارنب الارنب ، فضربوه بالسهام فقتلوه .

قال : ولما هرب لؤلؤ (٢٨٩ ـ و) اقامت القلعة في يد أمنة خاتون بنت رضوان يومين فلما قتل لؤلؤ ، ملكوا سلطان شاه بن رضوان . هكذا قال لي ، ولؤلؤ، هو الذي نصب سلطان شاه بعد قتل اخيه ، وبقي سنة وثمانية اشهر يدير دولته .

وقرات في كتاب عنوان السير تاليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وولي بعده ـ يعني رضوان ـ ابو شجاع محمد بن رضوان ، وكان لايحسن ان يتكلم ، واستولى على حلب وله من العمر تسع عشرة سنة ، وقتل خلقا من اصحاب ابيه ، فاغتاله خادم كان خصيصا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمسمائة ، وكان ملكه بحلب سنة واحدة.

قال لي بدران بن حسين بن مالك : بلغني ان تاج الدولة الاخرس خرج يوما الى عين المباركة ، ونصب بها خيمة ، واخذ معه اربعين جارية ، ووطئهن كلهن في ذلك اليوم .

انبانا ابو نصر محمد بن هبة الله بن محمد القاضي قال : اخبرنا الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : الب ارسلان بن رضوان بن تتش بن الب ارسلان التركي ولي امرة حلب بعد موت ابيه رضوان في جمادى الاخرة سنة سبع وخمسمائة وهو صبي عمره ست عشر سنة ، وتولى تدبير امره خادم لابيه اسمه لؤلؤ ، ورفع عن اهل حلب بعض ما كان جدد عليهم من الكلف ، وقتل اخويه ملك شاه وميريجا (٢٥) ، وقتل جماعة من الباطنية ، وكانت دعوتهم قد ظهرت في حلب ايام ابيه ، ثم كاتب (٢٨٩ ـ ظ) طغتكين امير دمشق ، ورغب في استعطافه ، فأجابه طغتكين الى ذلك ، ودعا له على منبر دمشق في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم قدم الب ارسلان في

هذا الشهر دمشق ، وتلقاه طغتكين واهــل دمشــق في احســن زي ، وانزله في قلعة دمشق ، وبالغ في اكرامه ، فاقام بها ايامــا ، ثــم عاد الى حلب في اول شوال ، وصحبه طغتكين ، فلمــا وصــل حلب لم ير طغتكين ما يحب ففارقه وعاد الى دمشق .

وساءت سيرة الب أرسلان بحلب وانهمك في المعاصي واغتصــاب الحرم ، وخافه لؤلؤ اليايا ، فقتله بقلعــة حلب في الثــامن مــن ربيع الاخر من سنة ثمان وخمسمائة ، ونصب اخا له طفــلا عمــره ســت سنين ، وبقي لؤلؤ بحلب الى ان قتل في اخر سنة عشر وخمسمائة (٢٦).

قرات في مدرج وقع الي بخط العضد مرهف بن اسامة بــن منقــذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال : وفيها ــ يعني سنة ثمــان وخمسمائة ، قتل الاخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خــامس شهر ربيع الاخر .

قلت : ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل اريب ان رضــوان لما ملك حلب قتل اخوين كانا له ، فقــوبل في عقبــه ، فلمــا ولي الب ارسلان قتل اخويه ابني رضوان .

نقلت من خط ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وانبــانا بــه ابو اليمن الكندي عنه قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها : مات الملك رضوان بحلب ، وجلس موضعه ولده تاج الملوك الب ارسلان ، وصار اتابكه لؤلؤ الخادم ، وقتلوا من الخدم والخواص جمعا حتى استقام امرهم ، وقبض على اخوته ،وفيها قتل تاج الدولة بن الملك رضــوان اخوته ملك شاه وابراهيم صبيين احسن الناس صورا ، وقتل خادم ابيه التونتاش المجني ، وقتل الفتكين الحاجب وخافه الناس ، فالب عليه خادمه اتابكه لؤلؤ من قتله .

ثم قال : سنة ثمان وخمســمائة ، فيهــا ، قتــل تــاج الدولة الب ارسلان بن رضوان صاحب حلب بداره في قلعة حلب بتدبير اتــابكه لؤلؤ ، واجلسوا موضعه اخاه الملك سلطان شاه بن رضوان (٢٧)

كذا قال العظيمي :« ملك شماه وابراهيم » وهــو وهــم وانمــا هــو وميريجا ، واما ابراهيم فانه اخر من بقي من ولد رضوان ، ولم يبق من ذرية رضوان الا عقبة الى يومنا هذا.(٢٩٠ ـ و).

بدر الجمالي

(من المقفى للمقريزي ــ مجلدة برتو باشا

بدر ابو النجم الجمالي المنعوت بالسيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين . كان مملوكا ارمنيا لجمال الدولة ابي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام ، وما زال ياخذ نفسه بالجد من زمن الشبيبة فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم ، وينتقل في الخدم الى ان ولي دمشق من قبل المستنصر بالله في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الاخر سنة خمس وخمسين واربعمائة ، فتسلمها ومعه الشريف القاضي ثقة الدولة ذو الجلالين (٢٤٢ ــ و) ابو الحسين يحيى بن زيد الحسيني الزيدي ناظرا في الاعمال ، واقام بها الى ان خرج منها كالهارب من اهلها في ليلة الثلاثاء لاربع عشرة خلت من شهر رجب سنة ست وخمسين ، ثم وليها ثانيا يوم الاحد السادس من شعبان سنة ثمان وخمسين ، فاقام بها الى ان بلغه قتل ولده بعسقلان ، فخرج منها ونزل على مسجد القدم خارج دمشق في شهر رمضان سنة ستين واربعمائة ، فخرج الاحداث والعسكرية الى قصره واحرقوه .

وفي سنة اثنتين وستين نزل على صور وحاصر القاضي عين الدولة ابا الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن ابي عقيل الغالب عليها ، ثم حصره في سنة ثلاث وستين.

وتتابع وصول الاتراك من العراق الى اعمال فلسطين والساحل وبلاد الشام مع اتسز بن اوق الخوارزمي واخوته جاولي والمامون وقرلو وشكلي ، واخذوا اعمال فلسطين ، واختلفوا هناك فصار بعضهم مع امير الجيوش بدر بعكا وبلاد الساحل التي هي في يده ، وبعضهم مع القاضي عين الدولة محمد بن ابي عقيل صاحب صور ، .

وبقي اتسز بن اوق الخوارزمي واخوه بفلسطين ، واستولى على الرملة وطبرية والقدس ، فلم يزل امير الجيوش بعكا الى ان انتهكت حرمة المستنصر بتغلب ناصر الدولة الحسن بن حمدان الى ان قتل ، فاستطال عليه الامير يلد كوز والاتراك والوزير ابن ابي كدينة ، فكتب الى امير الجيوش كتابا من املاء الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر بن المغربي ، وهو يومئذ يتولى الانشاء ، يستدعيه للقدوم عليه وانجاده من جملته :

«فإن كنت ماكولا فكن خير اكل »، والا فادركني ولما امزق

فلما بلغه الكتاب قال : لبيك وكررها ثلاثا ، وكتب الى المستنصر يشترط عليه انه لايقدم الا بعسكر معه ، وانه لايبقي على احد من عساكر مصر ، فانعم له بذلك ، فسار من عكا بمائة مركب مشحونة بالارمن وغيرهم من العسكر ، فنهاه الناس عن ركوب البحر من اجل ان الوقت شتاء في كانون الاول ، فابى ونزل على دمياط بعد (٢٨) يومين من اقلاعه ، فزعم البحرية انهم لم يعرفوا صحوة تمادت اربعين يوما في الكوا نين الا هذه ، فكان هذاالامر بدء سعادته ، واستدعى تجار تنيس واقترض منهم مالا ، واقام له سليمان اللواتي بالعليق وغيره من الضيافة ، وسار الى ظاهر قيلوب ،وبعث الى المستنصر يقول له : لاادخل الى القاهرة ما لم يقبض على يلد كوز ، فامسكه ، وعبر امير الجيوش عشية يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنةست وستين واربعمائة ، ودخل على المستنصر ، فاستدعاه وقربه ، ودعا له وشكر سعيه ، وبالغ في كرامته ، وقرر ان يكون السفير بينه وبين امير الجيوش الوزير ابن المغربي كاتب الانشاء ، فصار ابن المغربي اليه وعرفه ما فيه الغرض ، وصار من خواصه ، ولم يكن عند اهل الدولة علم من ان المستنصر استدعاه وظنوا انه قدم زائرا فلم يتاخر احد منهم عن ضيافته والقيام بما يتعين من كرامته وقدموا اليه اشياء كثيرة (٢٩)، وحين كملت خدمة الجميع استدعى الامراء الى دعوة صنعها لهم وقرر مع خواصه انه اذا بات الامراء ، وجهم الليل ، فانه لابد لكل واحد منهم ان يصير الى الخلاء لقضاء حاجته فمن صار منهم الى الخلاء يقتل فيه ،

ووكل بكل امير منهم واحدا من اصحابه(٣٠)وجعل له سائر ما هو بيد ذلك الامير من اقطاع وجار ودار ومال وجواري وغير ذلك ، فلما حضر الامراء عنده وقام لهم بما يليق بهم ظلوا نهارهم عنده(٣١)وهم في ارغد العيش ، وباتوا مطمئنين اليه ،فلم يطلع الفجر حتى استولى اصحاب امير الجيوش على بيوت الأمراء . وصارت رؤوس الامراء بين يديه ، فقويت شوكته وانبسطت يده ، وخلت الديار له من منازع ، فاستدعاه حينئذ المستنصر وقرره في الوزارة ، ورد اليه الامور كلها ، وعاهده على ذلك ، وكتب له سجل نعت فيه بالسيد الاجل امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين ، وصار القاضي والداعي نائبين عنه يقلدهما (٢٤٢ ـ ظ) هو ، وكان من جملة ما في سجله بعد التقريظ الكبير : وقد قلدك امير المؤمنين من ذلك ، مدبرا للبلاد ، مصلحا للفساد ، ومدمرا لاهل الفساد ، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر بدل الطوق الذي كان للامراء ، وزيد له الحنك الذي يعرف اليوم بالالثام مع الذؤابة المروحاه ، وهي التي يقال لها العذبة ، وجعل له الطيلسان المقور ، ويعرف اليوم بالطرحة وهي التي يلبسها قاضي القضاة ، ونزل الى داره ، فحضر اليه المتصدرون بالجامع السلام عليه ، وقرأ القارىء : « ولقد نصركم الله ببدر »(٣٢)وسكت عن تمام الآية ، فقال له بدر : والله لقد جاءت في مكانها ، وجاء سكوتك عن تمام الآية احسن ، وانعم عليه وشرع في تدبير الاحوال ، واستبد بأمور الدولة وحجر على المستنصر أتم حجر وكبر أمره واخذ في تلافي ما انتهك من حرمته ، وكانت الاحوال قد فسدت والامور قد تغيرت ، وطوائف العسكر قد انتشرت ، والوزراء «يقنعون بالاسم دون نفاذ الامر والنهي ، والرخاء قد ايس منه ، والصلاح لايطمع فيه ، ولو انه قد ملكت الوجه البحري كله ، والعبيد في الصعيد ، والطرقات قد انقطعت برا وبحرا الا بالخفارة الثقيلة ، والخراب قد شمل مدينة مصر والعسكر .(٣٣)

فتجرد لازالة الفساد ، وساعدته الاقدار حتى اشاد دولة جديدة واستعاد ما كان قد تغلبت عليه امراء البلاد وقضاتها مثل عسقلان وصور وطرابلس وقتل سائر اهل الفساد ، وانشا داراً بحارة

برجوان من القاهرة ، وسكنها فعرفت بعده بدار المظفر ، وقتل من اماثل المصرين وقضاتهم (٣٤) ووزرائهم واعيانهم خلقا كثيرا ، وقدم اليه عدة من طوائف الارمن تقوى بهم .

فلما دخلت سنة سبع وستين حاصر شكلي اخو اطسز الخوارزمي ثغر عكا واخذه بالسيف ، وكان بـه اولاد امير الجيوش واهله ، فلم يعترضهم بسوء واحسن اليهم ، وبعثهم اليه .

وفيها سار امير الجيوش الى الوجه البحري ، واوقع بعرب لواته وهزمهم ، وقتل مقدمهم سليم اللواتي وولده ، واستصفى اموالهما ، ثم سار الى دمياط وقتل عدة من المفسدين واحرقهم ، واصلح سائر البر الشرقي من مصر ، ثم عدا الى البر الغربي ، وقتل من الطائفة الملحية واتباعهم بالاسكندرية عددا كبيرا ، بعدما اقام اياما على الاسكندرية يحاصرها حتى اخذها من الملحية عنوة ، وعفا عن اهل البلد ، فلم يضرهم بشيء .

وفي سنة تسع وستين اجتمع كثير من عرب جهينة ، والجعافرة ، والثعالبة وغيرهم بمدينة طوخ العليا من صعيد مصر ، واتفقوا على محاربة امير الجيوش ، فخرج اليهم ، وسار حتى كان قريبا منهم ونزل تجاههم واقام الى نصف الليل ثم امر فضربت طبوله ، واشتعلت المشاعل ، واكثر من وقود النار ، وضرب الطبول والبوقات وصرخ كل من في عسكره ، وحملوا حملة واحدة على العرب ، فقتل اكثرهم بالسيف ، وانهزم باقيهم فغرقوا ولم ينج منهم الا القليل ، واحتوى من اموالهم على ما لايحد كثرة وبعثها للمستنصر .

ثم سار الى اسوان وبها كنز الدولة مجمد قد تغلب عليها ، وعظم شانه ، وكثرت اتباعه ،فقاتله وقتله ، وبنى في موضع الوقعة مسجدا سماه مسجد النصر ، ثم عاد الى القاهرة ، وقد صلحت ارض مصر كلها اعلاها واسفلها ، وزالت العربان والعساكر المفسدة منها . وقدم اتسز بن اوق الخوارزمي في مدة غيبته ببلاد الصعيد الى القاهرة يريد الاستيلاء عليها ، فقابله(٣٥) المستنصر وهزمه

ثم خرجت عرب قيس وعرب فزاره وسليم عن الطـاعة ، فخـرج اليهم وقاتلهم وهزمهم الى برقة .

ثم ندب في سنة سبعين واربعمائة العساكر الى دمشق وقدم عليها نصر الدولة ايتكين الجيوشي، فسار اليها وحاصرها مدة ايام ، ثـم رجع ، فلما كانت سنة اثنتين وسبعين سير عسكرا اخر فحاصرها (٣٤٢ ـ و)حتى اشرف على اخذها ، ثم عاد خوفا مـن قـدوم تـاج الدولة تتش .

وفي سنة سبع وسبعين عصى الاوحد بـن امير الجيوش على ابيه بالاسكندرية وصار في جمع كبير مـن العـرب فسـار اليه وحـاصر الاسكندرية الى ان اخذها وقبض على ولده ، وقتل كثيرا من الناس واغرم اهل البلد مالا كثيرا ، وبنى بها الجـامع المعـروف بجـامع العطارين ، وقتل ابنه .

فلما كانت سنة اثنتين وثمانين واربعمائة جهز جيشا اخذ صـور وصيدا ، وفتح جبيل وعكا ، وكانت بيد تاج الدولة تتش ، واخـذ عدة من اصحابه وقبض منهم مالا كثيرا من ذخائر تتش .

وفي سنة خمس وثمانين انشا باب ذويلة الكبير على ما هـو عليه الان ، وانشا باب الفتوح ، وباب النصر ، بناها له ثلاثة اخـوة مـن اهل الرها ، ولم يزل على قوة وسداد من امره الى ان مـات ، بعـد مرض طويل اسكت فيه مدة ولم يقـدر على الكلام ، في ذي القعـدة ، وقيل في شهر ربيع ، وقيل في جمـادى الاولى سـنة سـبع وثمـانين واربعمائة عن ثمانين سنة ، منها مدة تحكمه بـديار مصر زيادة على عشرين سنة ، وكان شديد الهيبة ، مخوف السـطوة ، كثير البـطش قتل في سلطنته خلقا لاتعد مـن كبـار المصريين وقـوادهم وكتـابهم ووزرائهم ، وقد ذكره الشريف ابو يعلي محمد بن محمد بن الهبارية في كتاب الصادح والباغم فقال :

كان بمصر بدر

له عليها الامر

يقتل كل ساعة
من اهلها جماعة
ويشرب الدماء
حتى تخال ماء
اصلحها بسيفه
وجوره وحيفه
جزاء كل فعل
لديه سوء القتل
لما عصاه ولده
وبان منه نكده
خنقه بيده
ثم رمى بجسده
فغضب المستنصر
وقال هذا منكر
فقال : لو عصاني
قلبي من جثماني
نزعته من صدري
ولم يكن بنكر
ثم غزا لواته
اذ ظنهم حماته
فحين قيد الاسرى
قال اقتلوهم صبرا
عشرين الفا كانوا
حتى جرى الميدان
في النيل من دمائهم
ولج في افنائهم

وهو على ظهر الفرس
كضيغم اذا افترس

ومات حتف انفه
لم يعتسف بعسفه(٣٦).

وكان واسع النفس بحيث انه كان عنده وهو بعكا ثلاثمائة قنطار بالشامي سكرا ، فعز في سنة اثنتين وستين واربعمائة السكر بعكا ، وبلغت قيمة القنطار الى خمسين دينارا وطلب فلم يوجد في اول شهر رجب منها ، فقيل لبدر ثمن السكر الذي عندك خمسة عشر الف دينار تبيعه او بعضه ، فامتنع وقال : نحن نحتاج اليه في هذه الشهور ، يعني رجب وشعبان ورمضان ، فاستعملت كلها(٣٧) في مطابخه ، وسمحت نفسه باتلاف هذا المبلغ الكبير من الذهب .

وعلى يده صلحت ارض مصر وعمرت بعد تحكم الفساد بها وخرابها ، ومن محاسن سيرته انه اباح الارض لمن يزرعها مدة ثلاث سنين حتى تراجعت الى الفلاحين احوالهم واستغنوا في ايامه ، ومنها انه بسط العدل فامنت الطرق .

وحضر الى القاهرة ومصر كثير من التجار وارباب الاموال بعد انتزاحهم عنها في ايام الشدة .

ومنها كثرة كرمه وقد حكى ان علقمة بن عبد الرزاق العليمي قصده فاذا على بابه أشراف الناس واكابرهم فلم يتجاسر على العبور الى مجلسه وبقي اياما الى ان (كان) خروج امير الجيوش يريد الصيد فوقف له على تل رمل واشار برقعة في يده وانشد :

نحن التجار وهذه اعلاقنا
در وجود يمينك المتاع
(٢٤٣ ـ ظ)
قلب وفتشها بسمعك انما
هي جوهر تختاره الاسماع

كسدت علينا بالشآم وكلما
قل النفاق وتعطل الصناع

فأتاك يحملها اليك تجارها
ومطيها الآمال و الاطماع

حتى اناخوا ببابك والرجا
من دونك السمسار والبياع

فوهبت ما لم يعطه في دهره
هرم ولا كعب ولا القعقاع

وسبقت هذا الناس في طلب العلى
والناس بعدك كلهم اتباع

يا بدر اقسم لو بك اعتصم الورى
ولجوا اليك بعدك كلهم ما ضاعوا (٣٨)

قال العليمي : وكان بيده باز فدفعه لاحد مماليكه وجعل يستعيد الابيات وانا معه الى ان استقر في مجلسه ، فلما اطمأن (٣٩) قال للحاضرين: من احبني فليخلع عليه فخرجت من عنده ومعي سبعون جملا يحملون انعامه،وأمر لي من ماله بعشرة الاف درهم .

وهو اول من ولي في الدولة الفاطمية الوزارة من ارباب السيوف واقام دولة الأرمن بديار مصر .

بشارة الاخشيدي الخادم

(من المقفى المقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

فلما مات سيف الدولة بن حمدان بحلب سار بتابوته الى ديار بكر بشارة الخادم وتقي ، في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة وكان بينهما منافرة ، فاذاع تقي (٤٠) عن بشارة انه كاتب حمدان بن ناصر الدولة وكان قد غلب على الرقة (٤١) عند وفاة عمه سيف الدولة وحثه (٤٢) على أخذ حلب وكتب تقي الى قرعوية القائم بضبط حلب نيابة عن سعد الدولة ابي المعالي شريف بن سيف الدولة فقبض قرعوية على اسباب بشارة بحلب.

فما بلغ ذلك بشارة داخل تقي ووانسه ، فأنس به ، وصفي بنيته له واطلعه على انه يريد ديار بكر ليعمل على ابي المعالي شريف بن مولاه ويقبض عليه، ويملك التدبير وضمن لبشارة انه يسلم له ميافارقين ، فاظهر له بشارة القبول ، وسار بمسيره الى قريب من ميافارقين فكتب بشارة مع من يثق به الى ابي المعالي يحذره الخروج الى (٢٤٨٧ ـ و) لقاء تابوت ابيه ويعرفه ما عزم عليه تقي

فلما قرب تقي كتب اليه بخبر التابوت وان يخرج لتلقيه ، فاظهر ابو المعالي علة وامتنع عن الركوب ، واخرج كل من في البلد لتلقيه ، وضرب تقي مضاربه ولم يدخل المدينة(٤٣)، ووكل بابوابها الرجال ، فطلع بشارة على السور، وغلق الأبواب وخاطب اصحابه عن الامير ابي المعالي بكل جميل ، فانقلبوا عن تقي ، وبطل ما دبره ، وسلمه الى بشارة فقتله.

وسار الى حلب في رجب منها ومعه بشارة فلم يزل عنده اسيرا الى ان مات في رمضان سنة احدى وثمانين وثلاثمائة وبايع اجناده كلهم ابنه ابا الفضائل سعيد بن شريف الا بشارة استأمن الى

العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله (٤٤) معد الفاطمي في نحو اربعمائة غلام ، وقدم عليه بالقاهرة ومعه وفاء الصقلبي ايضا في ثلاثمائة غلام ، فقبلهم العزيز ، وكان يميل الى الاتراك اكثر من المغاربة لاسيما الحمدانية لشدة باسهم، وفضل النجدة فيهم ٠

وولى بشارة طبرية وولى وفاء ثغر عكا ،وولى رباحا قيسارية وذلك في سنة احدى وثمانين وثلاثمائة فاستجلب بشارة من جند حلب عدة وضبط الامور وعمل وقوي امره بطبرية ولما خرج يلتكين التركي من القاهرة على عسكر كبير لقتال (دغفل)(٤٥) بن الجراح سار اليه بشارة من طبرية ليكون عونا له على ابن الجراح فلقيا ابن الجراح وهزماه عن الرملة ، وسارا الى دمشق وفيها قسام فقاتلاه وابلى اصحاب بشارة في القتال بلاء حسنا لكثرة الرماة فيهم الى ان اخذ قسام وحمل الى مصر،ولم يزل في طبرية الى ان كتب له من من القاهرة بولاية دمشق فسار ونزل عليها يوم الجمعة رابع رجب سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فاجتمع جيشه مع عسكر جيش بن الصمصامة على دمشق ، فاستخلف على البلد ٠

وسار مع جيش في رابع عشر رجب الى افامية ، وقد نزل عليها الدوقس (٤٦) متملك انطاكية فقاتلوه قتالا شديدا انهزم فيه عسكر جيش وملك الروم ما معهم ، فانهزم من كان مع بشارة من بني كلاب وغيرهم من العرب ، وتفرقوا على طريق جوسية (٤٧) الى بعلبك وعلى طريق الجادة الى دمشق ، فلما رأى جيش وبشارة لما نزل بالناس حملا فيمن معهما على الروم فانهزموا واخذهم السيف فقتل منهم نحو الخمسة آلاف وقتل الدوقس وذلك يوم الثلاثاء لتسع بقين من رجب ، وتفرق المنهزمون في الجبال ووصلوا الى انطاكية.

ونفر الناس بعد ذلك من دمشق واعمالها ومن الساحل الى عسكر جيش ، فسار بهم الى مرعش وسار بشارة الى دمشق فنزلها يوم الاثنين النصف من شوال وقدم جيش لتسع بقين من ذي القعدة فنزل بيت لهيا (٤٨) وكان الشتاء قد هجم ، فكتب من مصر بصرف بشارة عن دمشق الى طبرية وولاية جيش ٠

ثمال بن صالح بن مرداس

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

ثمال بن صالح بن مرداس بن ادريس • الأمير معز (٤٩) الدولة ابو علوان الكلابي تغلب ابوه صالح بن مرداس على حلب الى ان قتله امير الجيوش انو شتكين الدزبري بالاقحوانة على الاردن في محاربته العرب في ربيع الاخر سنة عشرين وأربعمائة ، فاقتسم من بعده ابناه معز الدولة هذا واخذ القلعة ، واقام اخوه شبل الدولة نصر في المدينة ثم ان معز الدولة جرى بينه وبين زوجته كلام ، فغضبت عليه وخرجت الى الحلة بظاهر حلب فأمر ان يصاغ لها لالكة من ذهب مرصعة بالجوهر فلما تهيأت اخذها في كمه وخرج الى زوجته فبادر اخوه نصرورکب واخذ القلعة وقال : ان من قدم اخي علي اساء لأنني أولى بمداراة الرجال ، وهو أولى بمداراة النساء.

وانفرد نصر بن صالح بأمر قلعة حلب والمدينة ، وجعل لاخيه ثمال بالس والرحبة ، وذلك في سنة احدى وعشرين واربعمائة ، فاستمر نصر في ملك حلب الى ان قتله الدزبري في نصف شعبان سنة تسع وعشرين وملك حلب من بعده ، فلما مات في النصف من جمادى الاولى سنة ثلاث وثلاثين قدم معز الدولة ثمال بتوقيع سيره اليه امير المؤمنين المستنصر بالله ابو تميم معد بن الظاهر بولاية حلب فتسلم البلد لليلتين بقيتا من جمادى الاخرة (٢٩١ ـ ظ) وكان الوزير بمصر يومئذ علي بن احمد الجرجرائي ، فقرر عليه في كل سنة مالا يحمله ، فلما صارت الوزارة الى الوزير صدقه بن يوسف الفلاحي ثم وزارة ابي البركات الحسن بن محمد الجرجرائي فأخر الحمل سنتين باربعين الف دينار ، فسير اليه الامير ناصر الدولة ابا محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان متولي دمشق بعد الدزبري ، فوصل الى حلب ، ورجع عنها الى دمشق من غير ان يقدر

على ثمال فنقم عليه ذلك وقبضه الامير منير الدولة،ثم ان معز الدولة بعث الى المستنصر بالقسط على يد شيخ الدولة علي بن احمد بن الايسر، وسير معه ابنه الامير وثاب وزوجته السيدة علوية بنت وثاب ومعها من مال القلعة اربعين الف دينار وهدايا فاخرة فأكرمها المستنصر ، وكتب لمعز الدولة بحلب واعمالها وسير اليه بتشريف ولجميع بني عمه (٥٠) .

ولما اندفع الامير ابو الحارث ارسلان البساسيري من بغداد الى الشام في سنة سبع واربعين منهزما من طغرلبك وحصل في ارض الرحبة،وقد وصل في قل من الرجال،فلقيه ثمال واكرمه؛ وحمل اليه مالا عظيما ، فقيل عن البساسيري انه لم ير مثله في الشجاعة والمكر، وكان اذا ركب معز الدولة قفز اليه ليمسك له الركاب ويصلح ثيابه في السرج،وسلم اليه معز الدولة الرحبة في سنة ثمان واربعين ليجعل فيها ماله واهله .

فلما ولي الوزير الناصر للدين ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المستنصر لم يرض من معز الدولة بما رضيه منه الوزراء قبله ورأى ان الحيلة والخديعة ابلغ فيما يريده فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير وندب لذلك رجلا من ثقاته فسار الى حلب وساس الامر واحكم التدبير مع كاتب الدولة معز بكثرة ما وعده به ومناه الى ان نزل معز الدولة من القلعة وسلمها الى الامير مكين الدولة ابي علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي نائب المستنصر وسار من حلب الى مصر . فلما بلغ رفح سمع بالقبض على اليازوري ، فقال : والله اني اموت بحسرة نظرة الى من استلبني من ذلك الملك ، واخرجني بلا رغبة ولارهبة الا بحسن السياسة ولو رام ذلك مني قسرا ربما تعذر عليه : وسار حتى قدم على المستنصر بالقاهرة في المحرم سنة خمسين واربعمائة ، فعوضه عن حلب مدينة عكا وبيروت وجبيل فاتفق في مدة اقامته بمصر قتل البساسيري ، فسار اسد الدولة ابو ذؤابة عطية بن صالح بن مرداس الى الرحبة واخذ جميع ما تركه البساسيري بها من السلاح

الذي لم ير مثله كثرة وجوده.فطمع بنو كلاب في حلب وقدموا عليهم محمود بن نصر بن صالح بن مرداس،فسار اليها في جمادى الاولى سنة اثنتين وخمسين وتسلمها فانحاز مكين الدولة بن ملهم الى القلعة وانفذ الى المستنصر يطلب النجدة فوصل اليه ناصر الدولة ابو علي الحسين إبن ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان وكانت وقعة الفنيدق وهو المعروف بتل السلطان ، واسر ابن حمدان وعاد محمود بن نصر الى حلب ٠

فلما بلغ ذلك المستنصر صرف معز الدولة عن عكا وبيروت وجبيل وقال له : ان هذه اخذتها عوضا عن حلب وقد عادت الى ابن اخيك ، فامضي الى حلب واستعدها منه،فعاد الى ان وصل معرة النعمان، فسير محمود ابا محمد عبد الله بن محمد الخفاجي رسولا الى ملك الروم يستنجد به على عمه معز لدولة.ثم صالح محمود عمه وسلم اليه حلب يوم الاثنين اول شهر ربيع الاخر سنة ثلاث وخمسين،فلم يزل بها حتى مات فيها يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة سنة لربع وخمسين واربعمائة،فدفن في مقام ابراهيم الفوقاني بقلعة حلب وبقي الى ايام(٥١) الملك رضوان فقلع وبلط عليه ٠

و كان معز مع الدولة كريما حكيما حكي، ان العرب اقترحوا عليه مضيرة فتقدم (٢٩٢ ــ و) الى وكيله ان يطبخها لهم وسأله كم ذبحت لاجلها فقال : سبعمائة وخمسين راسا فقال والله لو اتممتها الفا لوهبت لك الف دينار ٠

ويحكي عن حلمه ان فراشا صب يوما على يده ماء بابريق كان في يده فصادفت انبوبة الابريق بعض ثنية معز الدولة فكسرتها وسقطت في الطشت وهم به الغلمان فمنعهم ، وامر برفعها وعفا عنه ، فقال ابن ابي حصينة فيه من ابيات :

حليم عن جرائمنا اليه

وحتى عن ثنيته انقلاعا(٥٢)

وقدم عليه الوزير فخر الدولة ابو نصر محمد بن محمد بن جهير

فاستوزره وفوض اموره اليه جميعها فحسد على مكانته وقربه منه ، وسعي به اليه وكان معز الدولة له وفاء وذمه ، فنبهه على ما سعي به عليه فاستأذنه ابو نصر في المفارقة فأذن له وسار من حلب ، وذلك في سنة ست واربعين واربعمائة .

ولما مات معز الدولة ولي بعده حلب اخوه اسد الدولة ابو ذؤابة عطية بن صالح بن مرداس •

جعفر بن فلاح

(من المقفى للمقريزي – مجلدة برتو باشا)

جعفر بن فلاح بن مروان ، ابو الفضل الكتامي ، من أرقى الكتامين بيتا واجلهم قدرا ، كان ابوه قائدا جليلا ولي مدينة طرابلس وبرقة وباجة ، وكان حسن السيرة في الرعية ، مات في رجب سنة خمس وأربعين وثلاثمائة . ونشأ ابنه جعفر بالمغرب في خدمة المعز لدين الله وهو أحد الجعفرين اللذين أرشد ابن هانيء الشاعر الاندلسي اليهما فإنه لما امتدح جوهر القائد اعطاه مائتي درهم فاستقلها ، وسأل عن كريم يمدحه فقيل له عليك بأحد الجعفرين : جعفر بن فلاح ، وجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية ، فمدح جعفر بن فلاح فأعطاه مائتي دينار ومن شعره فيه:

كانت محادثة الركبان تخبرني
عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر
حتى رأيت فلا والله ما سمعت
أذناي بالعشر مما قد رأى بصري

ثم انتقل الى جعفر بن الاندلسية وهو يومئذ أمير الزاب ، فلم يزل عنده الى أن استدعاه المعز لدين الله فبعث به اليه في جملة تحف وطرائف.

ولما جهز المعز لدين الله القائد جوهر من بلاد المغرب لأخذ مصر سار معه جعفر بن فلاح الى أن وافت العساكر الجيزة وقد نزل الاخشيدية بالجيزة التي تعرف اليوم بالروضة لقتال جوهر ، وضبطوا الجسرين وتقدم منهم عدة الى الجيزة ، فلما شاهد جوهر ذلك عاد الى منية شلقان فعبر مصر من هناك ، وبعث فاستقبل المراكب الواردة من تنيس ودمياط واسفل الأرض فأخذها ، وتولى العبور اليهم جعفر بن فلاح عريانا في سراويل ومعه جمع من المغاربة

فوقع القتال، وقتل خلق من المصريين ، وكان الفتح ودخول جوهر وبنائه القاهرة في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

فأقام جعفر بن فلاح بالقاهرة الى ثاني عشر المحرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، وسار الى الشام في عسكر كبير الى أن قدم الرملة وبها الحسن بن عبيد الله بن طغج وجعفر بن القرمطي وفاتك ودرامك وعدة من قواد الاخشيدية ورجالهم ، فقاتلهم قتالا شديدا وأسر الحسن بن عبيد الله وجعفر القرمطي وابن الرياحي وفاتك وعدة من الأعيان في يوم الثلاثاء لسبع خلون من ربيع الآخر ، وانفذهم الى القاهرة في القيود مع ابنه ، واخذ السيف بقيتهم فقتل كثيرا منهم ، وتمكن من الرملة وذلك للنصف من شهر رجب ، واقام يتبع ما للحسن بن عبيد الله ولأصحابه من الأموال حتى استخلصها ثم سار الى طبرية واخذ يبني قصرا عند جسر الصنبرة ، وكان على طبرية فاتك غلام ملهم من قبل الاخشيدية ، فكاتبه جعفر وقعده حتى قعد عن الحسن بن عبيد الله ، وكاتب شمول الاخشيدي وهو على دمشق قد استخلفه عليها الحسن بن عبيد الله واستماله ووعده فتمكن من طبرية ، وثقل عليه امراء بني عقيل أهل بلاد حوران والبثنية الذين أقامهم كافور الاخشيدي وهم شبيب بن ... وظالم بن موهوب بن ...(٥٣) فاستجلب اليه عرب مرة وعرب فزارة وأوعز الى من يفتك بفاتك غلام ملهم ، فوقف له عدة من المغاربة ووثبوا به على حين غفلة ، فجرد سيفه وضرب رجلا منهم رمى نصف رأسه ، وكثروا عليه وقتلوه ، فتبرأ جعفر من قتله ، واظهر جزعا عليه وقبض على الجماعة الذين قتلوه وبعث الى ابن ملهم ، فقال لما وصلوا اليه (٣٠٠ ظ) : هو غلامي ومملوكي وقد وهبته للقائد ، وأطلق الجماعة الذين قتلوه.

واتفق من الأمر الرديء اهل دمشق ، أن مشايخ اهلها لما بلغهم قدوم جعفر بن فلاح الى طبرية خرجوا الى لقائه وفيهم عقيل بن الحسن بن الحسين العلوي و (أبو القاسم) (٥٤) بن ابي يعلى العباسي ، فوافوا يوم دخولهم الى طبرية قتل فاتك وقد ثارت فتنة ،

والمغاربة ركبانا وفيهم من يأخذ الناس، فقصدوا أهل دمشق فأخذوهم وجردوهم من ثيابهم وسبوهم وتوعدوهم وقالوا لهم : أو ذا نحن سائرون اليكم ، فصاروا في أسوا حال قد أخذت أثقالهم وثيابهم فلقوا جعفر بن فلاح وعادوا الى دمشق ، فأخبروا الناس بما جرى عليهم من الوعيد ، وأنهم لقوا قوما جفاة قباح المنظر والزي والكلام ناقصين العقول ، فاستوحشت قلوب أهل دمشق من المغاربة ، وكان شمول قد خرج الى لقاء جعفر بن فلاح ، وخلت مدينة دمشق من السلطان ، فطمع الطامع وكثر الذعار وحمال السلاح(٥٥) إتفق ايضا ان جعفر لما قتل فاتك عمل في قلع بني عقيل من ارض حوران والبثنية ، فانفذ اليهم مرة وفزارة ، وجهز بعدهم جيشا من المغاربة فالتقى القوم وادركهم المغاربة فانهزم العقيليون وتبعوهم الى ارض حمص، ثم عادوا عنهم ومالوا على جبل سنير الذي يقال له اليوم جبل الثلج فنهبوا ونزلوا الغوطة ، فجالوا فيها وساروا حتى نزلوا على نهر يريد نحو الدكة ، فثار عليهم اهل دمشق وقاتلوهم وقتلوا منهم كبيرا (٥٦) من العرب يقال له عيسى بن دهاس الفزاري وهزموهم عن دمشق ، وذلك يوم الخميس لثمان خلون من ذي الحجة ، فاقبل صبيح بطلائع (٥٧) عسكر جعفر بن فلاح ونزل خارج دمشق ، فخرج الناس اليه مستعدين في خيل ورجل فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا واصبحوا يوم الجمعة فاقتتلوا وصاح الناس في جامع دمشق بعد الصلاة النفير ، فخرج النفير واشتد القتال الى أخر النهار ، ونزل جعفر يوم السبت لعشر خلون من ذي الحجة يوم عيد الاضحى فقاتله الناس على الشماسية والقطيعة ولم يصل الناس يومئذ صلاة العيد ، وخرج ابن ابي يعلى فلم يزل القتال الى بعد العصر ، فكلت الدماشقة ، وحمل عليهم المغاربة فانهزموا وركبت المغاربة اقفيتهم وبذلوا فيهم السيف فقتلوا من ظفروا به ، وقام بأمر البلد ابو اسحق محمد بن عصودا ، واغلق الابواب واوقف الرماة على شرفات السور فرموا المغاربة بالنشاب ، ونزل العسكر ارض عاتكة وطرحوا النار فيما هنالك من الأبنية ، فانهزم ابن ابي يعلى وانفصل(٥٨) من كان معه فقتل خلق ودخلت(٥٩) فرقة من المغاربة بباب

الجابية فتكاثر الناس عليهم واخرجوهم واغلقوا الباب ، فأحاط العسكر بالبلد من كل ناحية ووقعت المضاربات ، وارتفع ضجيج الرجال والنساء والصبيان بالبكاء والنفير ، وظنوا أن القوم يدخلون البلد بالسيف ، وكان قد قرب غروب الشمس، فامسك العسكر عن القتال وتقدم رجل من العسكر واشار الى من فوق الأسوار ، وخدثهم فامسكوا عن الرمي ، وبات اهل دمشق ليلة الأحد في سد الأبواب وتضيق الدروب وكسر القني في الأسواق وحفر الخنادق ، وعزموا على القتال وباتوا على خوف فلما اصبحوا خرج المشايخ الى جعفر بن فلاح ليتحدثوا معه في الصلح ، فما هو الا أن ساروا عن البلد قليلا خرج عليهم فرسان من المغاربة أخذوا ما عليهم من الثياب وقتلوا منهم رجلين . فلما راى من كان فوق المآذن والأسطحة ذلك صاحوا : اضبطوا الأبواب فقد شلحوا المشايخ فظن الناس ان العسكر يريد الركوب ، ودخل المشايخ عريا فارتاع أهل البلد واشتد خوفهم وتحيروا ، ثم جرت بينهم مراسلة فخرجوا الى جعفر فرعب عليهم (٣٠١ ـ و) ووعد البلد بالنار والسيف فعادوا خائفين وجلين ، وبلغوا أهل البلد ما أقلقهم ، فاشتد اضطرابهم ، وعاد المشايخ ثانيا الى جعفر فاشتد عليهم وأرعد وابرق فسألوه العفو ، فقال : ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلي ومعكم النساء فيتضرعن ويكشفن شعورهن ويمرغنها في التراب بين يدي ، فقالوا : نفعل ما يقول القائد ، ورجعوا الى البلد ، وخرجوا اليه بما طلب من تضرع النساء وكشفهن الشعور بين يديه وهو مع ذلك يرهبهم ثم باسطهم وقال : اريد أدخل يوم الجمعة الى الصلاة ، فانصرفوا عنه وركب يوم الجمعة في عسكره ودخل البلد ، فلما خرجوا من الجامع وضع جماعة من العسكر ايديهم في السوق ونهبوه ، ثم ارادوا أن يدخلوا الى الأزقة فثار بهم الناس وقتلوا كثيرا من الرجال ، فاشتد جعفر على المشايخ ووعدهم بكل مكروه وقال لهم :دخل رجال أمير المؤمنين إلى الصلاة فقتلتموهم لأسوين بهذا البلد الارض، فلطفوا به وداروه فقال : اريد دية من قتل من رجال امير المؤمنين ، فأذعنوا لذلك ، وكان الذي يتولى خطابه الشريف ابو القاسم احمد بن

الحسين العقيقي و ... (٦٠) بن أبي هاشم ، ودخلوا البلد وقسطوا المال على الناس، وشرع العسكر في البناء فوق نهر يزيد عند الدكة وعملوا مساكن وأسواقا حتى صارت تشبه المدينة ، وبنوا قصرا عظيما شاهقا في الهواء غريب البنيان .

فلما استقر في الدكة طلب حمال السلاح وضرب أعناق كثير منهم وصلب جثثهم وعلق رؤوسهم على أبواب المدينه ، منها رأس اسحق ابن عصودا .

وبعث يازرق إلى حمص وسلمية فخرج إليه أهل السلمية بكتاب عبيد الله المهدي جد المعز لدين الله بترك الخراج لهم متى ملكهم ، فبعث بذلك إلى جعفر فأمره بالوفاء لهم .
وقدم ابن عليان العدوي وقد قبض على (أبي القاسم) (٦١) بن أبي يعلى العباسي لما انهزم من نحو تدمر وهو يريد بغداد ، فأمر به جعفر فشهر في العسكر على جمل ، ثم حمله إلى القاهرة .

وأما محمد بن عصودا فإنه لما انهزم سار إلى الاحساء هو وظالم بن مرهوب العقيلي ، وحثا القرامطة على المسير إلى الشام فوافق ذلك منهم الغرض لأن الاخشيدية كانت تحمل في كل سنة إلى القرامطة مالا ، فلما أخذ جوهر مصر انقطع المال عن القرامطة فأخذوا في الجهاز للمسير إلى الشام .

وجهز جعفر غلامه فتوحا في عسكر إلى انطاكية وكانت بيد الروم ، فسار في صفر سنة ستين ، وطلب أهل أعمال فلسطين وطبرية ، وسير عسكرا بعد عسكر إلى إنطاكية فنازلوها ، وكان الوقت شتاء إلى أن دخل الصيف وهم يداومون القتال ، وبعث سرية فيها أربعة الاف إلى إسكندرونة وعليهم عرايس ومعهم ابن الزيات أمير طرسوس ، وكان عليها عسكر للروم ، فظفروا في طريقهم بمائتي بغل تحمل علوفه لأهل إنطاكية فقووا بها ، وساروا إلى مرج إسكندرونة وفيه مضارب الروم الديباج فتسرع إليها رجاله تنهبها ، فحمل عليهم الروم فانهزموا وأخذهم السيف ، ونجا عرايس وابن الزيات في طائفة ولحقوا بجعفر ، وهلك كثير ممن كان في السرية .

فكثرت الأخبار بمسير القرامطة إلى الشام ، وانهم نزلوا على الكوفة ، وكتبوا إلى الخليفة ببغداد ، فانفذ إليهم خزانة سلاح ، وكتب لهم بأربعمائة الف درهم على ابي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان من مال الرحبة ، وأنهم ساروا من الكوفة إلى الرحبة واخذوا من ابن حمدان المبلغ ، فكتب جعفر إلى غلامه فتوح وهو على انطاكية يأمره بالرحيل ، فوافاه الكتاب مستهل شهر رمضان فشرع في شد أحماله (٦٢) ، ونظر الناس إليه فجفلوا ورموا خيمهم ، وأراقوا طعامهم واخذوا في السير مجدين إلى دمشق ، فلما وافوا جعفر اراد أن يقاتل بهم القرامطة فلم يقفوا ، وطلب كل قوم موضعهم ولم يبالوا بالموكلين على الطرق .

وعندما نزل القرامطة على الرحبة أكرمهم ابو تغلب ، وبعث إلى الحسن بن احمد بن ابي سعيد الجنابي المعروف بالأعصم كبيرهم يقول له : هذا شيء أردت أن اسير انا فيه بنفسي ، لكني مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إلي خبرك ، فإن احتجت إلى (٣٠١ ــ ظ) مسيري سرت إليك ، ونادى في عسكره من أراد السير من الجند الاخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن احمد فلا اعتراض لنا عليه وقد أذنا له في المسير ، والعسكران واحد ، فخرج إلى القرامطة كثير من الاخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ممن فر من جوهر ومن جعفر بن فلاح ، وكان جعفر لما أخذ طبرية بعث إلى ابي تغلب بن حمدان بداع يقال له ابو طالب التنوخي يقول له : إنا سائرون إليك فتقيم لنا الدعوة ، فلما قدم الداعي على ابي تغلب وهو بالموصل وأدى (٦٣) الرسالة ، قال له هذا ما لايتم لأنا في دهليز بغداد والعساكر منا قريبة ، ولكن إذا قربت عساكركم من هذه الديار أمكن مذاكرته ، فانصرف بغير شيء .

ثم إن الحسن بن احمد القرمطي سار عن الرحبة إلى أن قرب من دمشق فجمع جعفر خواصه واستشارهم فاتفقوا على أن يكون لقاء القرامطة في طرف البرية قبل أن يتمكنوا من العمارة ، فخرج إليهم

ولقيهم فقاتلهم قتالا كبيرا ، فانهزم عنه عدة من أصحابه ، فولى في عدة ممن معه ، وركب القرامطة أقفيتهم وقد تكاثرت العربان من كل ناحية ، وصعد الغبار فلم يعرف كبير من صغير ، ووجد جعفر قتيلا لايعرف له قاتل ، وكانت هذه الوقعة في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة ، فامتلأت أيدي القرامطة بما احتووا عليه من المال والسلاح وغيره ، وخرج محمد بن عصودا إلى جثة جعفر بن فلاح وهي مطروحة في الطريق ، فأخذ راسه وصلبه على حائط داره ، أراد بذلك أخذ ثأر أخيه إسحق بن عصودا ، وملك القرامطة دمشق ، وورد الخبر بذلك على جوهر القائد ، فاستعد لحرب القرامطة .

وكان جعفر أحمقا هذارا كثير الكلام ، أكثر كلامه بغير طائل ، وكان يحسد جوهر القائد لتقدمه عليه ، وكانت العرفية لجوهر كما هو مذكور في ترجمة جوهر .

جوهر الصقلبي

(من المقفى للمقريزي ــ مجلدة برتو باشا)

جوهر بن عبد الله ، القائد ، ابو الحسن الصقلبي (٦٤) الرومي الكاتب ، مولى المعز لدين الله ابي تميم معد ، ولد في سنة إثنتي عشر وثلاثمائة ، وصار إلى ملك غلام لهم يقال له صابر ، ثم انتقل إلى خادم لهم يقال له خيران ، ثم إلى خادم يقال له خفيف ، فأهداه خفيف إلى الامام المنصور بالله ابي الظاهر إسماعيل ، فحمله (إلى) (٦٥) ابنه الامام المعز لدين الله وهو صغير ، فرباه حتى بلغ مبالغ الرجال في خدمته ، وكناه بأبي الحسن ، ورقاه في الخدم إلى أن قام في الخلافة بعد ابيه (٦٦) .

ولما كانت (سنة) (٦٧) خمس وأربعين وثلاثمائة ارتفع أمر جوهر ، وصار إلى رتبة الوزارة ، ثم اخرجه المعز في يوم الخميس لتسع خلون من صفر سنة سبع واربعين على عسكر عظيم بالعدة والقوة ليتوجه به إلى جعفر بن علي الأندلسي ، وزيري بن مناد الصنهاجي ، ويعلى بن محمد الزناتي ، فخرجوا معه بعساكرهم ، حتى وصلوا إلى تاهرت (٦٨) ، فتلقاه يعلى بن محمد الزناتي ، وكان صاحب المغرب ، وأكرمه وقام له بالوظائف والعلف أياما غير أن اهل مدينة (٦٩) افكان (٧٠) كانوا إذا باعوا أهل عسكر جوهر شتموهم واستخفوا بهم ومع (٣٠٦ ــ ظ) ذلك فإن (٧١) يعلى لم يسارع بالمسير مع جوهر ، فلما رحل جوهر بعساكره من عند يعلى ، مشى يعلى ليشيعه ، فسار جوهر ، وأخذ العسكر في رفع اثقالهم إذ سمع صياحا عظيما فقال : ماهذا ؟ فقيل له : اصحاب يعلى قد ضربوا على ساقة (٧٢) العسكر ، وقد شغبوا ، فقال يعلى : أنا أمضي لأفرقهم ، فمنعه جوهر من المضي ، وزاد الصياح ، فأمر جوهر بيعلى فأرجل عن فرسه وأركب بغلة ، ثم زاد الأمر ، فأمر جوهر بيعلى فأنزل عن البغلة ومشى بين يديه راجلا ، فاشتد

الأمر ، ونهبت الزوامل (٧٣) فأتى ابو طاعة بن يصل الكتامي إلى جوهر وقال : السيف يعمل في عسكرنا وهذا حي ؟ فجرد سيفه فضرب يعلى اطار راسه ، ورفعها على قناة وحملها إلى موضع القتال ، فلما راها اصحابه انهزموا ، فمال عليهم العسكر حتى بلغوا إلى افكان والسيف يعمل فيهم ، فدخلوا أفكان بالسيف ، فقتل أكثر اهلها ، ونهب كل ما فيها وأسر يدو بن يعلى ، ثم هدمت افكان ، وحرقت بالنار ، وذلك كله يوم الاثنين الثاني من جمادى الأولى .

ورحل جوهر حتى انتهى إلى فاس وبها أحمد بن بكير ، فامتنع من جوهر وقاتله مدة ، فلم يقدر عليه جوهر ، ورحل عن فاس إلى سجلماسه ، فلما قرب منها فر عنه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله أمير المؤمنين ، وكان قد تغلب عليها ست عشرة سنة ، ثم أخذ اسيرا وحمل إلى جوهر في يوم الأربعاء لثمان خلون من رجب بغير حرب .

فمضى جوهر الى البحر المحيط وامر أن يصطاد له من حيتانه وجعلها في قلة فيها ماء ، وكتب الى المعز كتابا في قصبة من ضريع (٧٤) البحر المحيط ، وبعثه بذلك اليه ، يشير أنه انتهى الى البحر المحيط.

ثم عاد الى فاس بعد ان ملك تلك البلاد كلها ، فنزل عليها وقاتل اهلها مدة قتالا طويلا حتى يئس منها ، ثم جد فيها الى ان ملكها ونهب عسكره ما فيها ، وسبوا ذراريها ، واخذ احمد بن بكير وقيده وجعله مع محمد بن الفتح امير سجلماسة ، وذلك لعشر بقين من رمضان ، وعمل قفصين من خشب سجن فيهما المذكورين وقفل الى افريقية بعدما فتح الفتوح ،وأداد البلدان الى البحر المحيط ،ولم يتعرض لسبتة وكانت بيد بني امية .

فلما قدم تاهرت ولى عليها زيري بن مناد وضمها الى يده فقوي امره وتركه بها ، وسار الى المسلية (٧٥) فتركه عليها عاملها جعفر ابن علي الاندلسي ، ورد كل قوم الى مواضعهم ، ووصل الى

المنصورة (٧٦) ومعه أحمد بن بكير امير فاس (٧٧) ومحمد الزناتي أمير تاهرت وكثير من الأسرى في يوم الجمعة لاثنتي عشرة بقيت من شوال.

ثم اخرجه المعز في سنة سبع وخمسين لاصلاح المغرب في عسكر عظيم ، وليحشد كتامة الذين ينهض بهم الى المشرق ، ويجبي من البربر خمسمائة الف دينار ويدوخ المغرب ، وقدم يوم الاحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين بعساكر عظيمة من كتامة والجند والبربر فاقام خارج المنصورة لتجتمع اليه الحشود والعساكر وفتح المعز بيت المال وأعطى الأموال من الف دينار الى عشرين دينارا .

ثم دخل في يوم السبت لاربع عشرة مضت من ربيع الأول بالعساكر ومعه زيادة على مائة الف فارس ، وبين يديه أكثر من الف ومائتي صندوق فيها المال ، فنزل برقادة (٧٨) وخرج الى المعز وخلا به ، واطلق يده ليتصرف في بيوت امواله كيف شاء ، ويأخذ منها زيادة الى مامعه ما أحب واختار.

فقال المعز وجوهر قائم بين يديه ، والعساكر مجتمعة والله (٧٩) لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا.

وامر المعز اولاده واخوته وسائر الأولياء وعبيد الدولة ان يمشوا بين يدي جوهر وهو راكب ، وكتب (٣٠٧ - و) الى جميع من يمر عليه جوهر من العمال يامرهم اذا قدم عليهم ان يترجلوا اليه عند لقائه ، ويمشوا في خدمته ، ثم تقدم الى جوهر بالمسير ، فرفع من مناخه والمعز واقف ، ثم اكب على جوهر وقد ركب فرسه فساره طويلا ، ثم التفت الى الأمراء أولاده واخوته فقال : ودعوه فنزلوا عن خيولهم ، ونزل بنزولهم كافة الناس فودعوه على قدر

مراتبهم واحدا بعد واحد فلما فرغوا من وداعه اقبل جوهر فقبـل يد المعزوحافر فرسه فقال له المعز :اركب فركب وسار والمعـز يسـايره طويلا ثم وقف وقال له :سر فسار ثم التفت والمعز قائم ، فأومأ اليه بكمه ان امض ، فتحرك جوهر يريد عسكره حتى لحق بهم ثـم نزل منزله وعاد المعز الى منزله فنزع ثيابه وانفذها كلها الى جـوهر مـا عدا السراويل والخاتم ، وانشد ابو القاسم محمد بن هانى قصيدة بديعة في يوم رحيل جوهر ، وكان من ايام الله العظيمة المهولة منها:

رايت بعيني فوق ما كنت اسمع
وقد راعني يوم من الحشر اروع

غداة كان الأفق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم ادر اذ ودعت كيف اودع
ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع

الا ان هذا حشد من لم يذق له
غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

اذا حل في ارض بناها مدائنا
وان سار على ارض ثوت وهي بلقع

تحل بيوت المال حيث يحله
وجم العطايا والرواق المرفع

وكبرت الفرسان لله اذ بدا
وظل السلاح المنتضى يتقعقع

وعب عباب الموكب الضخم حوله
وزف كما زف الصباح الملمع

رحلت الى الفسطاط اول رحلة
بأيمن فال بالذي انت تجمع

فان يك في مصر ظماء لورد
فقد جاءهم نيل سوى النيل يهمع

ويمسهم من لايغار بنعمة
فيسلبهم لكن يزيد فيوسع (٨٠)

وفي غد رحيل جوهر هرب من البربر خمسمائة فارس فخرج في طلبهم ففاتوه فقال المعز : الله اكرم من ان ينصرنا بأرازل البربر وإني لأرجو ان يكون بزوالهم زوال النحس عن عسكرنا ، واقام جوهر بمكانه الى يوم الاحد لست بقين من شهر ربيع الأول ، ثم رحل بجميع العساكر في قوة عظيمة ومعه من الأموال والسلاح والعدد والكراع مالا يوصف كثره فلم يزل سائرا حتى وصل الى برقة ، فافتدى منه أفلح الناشب الصقلبي متولي برقة بخمسين الف دينار يحملها اليه ويعفيه من ان يمشي راجلا بين يديه ، فلم يجد أفلح بدا من المشي لما لقيه حتى نزل .

واتت الاخبار الى مصر في جمادى الآخرة بمسير جوهر اليها وكان في عامة ارض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء امر لم يعهد قبله مثله بحيث انه أُحصي من مات في ايام يسيرة فكانوا ستمائة الف انسان ، وكانوا يلقون الغرباء في النيل وبلغ الفروج دينارا والبيضة درهما وبيع الأردب القمح بثمانين دينارا ، مع كثرة الفتن وتغلب كل واحد من العمال وغيرهم على ما يليه واختلاف اهل الدولة بمصر من الاخشيدية والكافورية وكثرة تحاسدهم ، وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر ، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام ، فاختلت من اجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر واتضعت امور الناس ، وتغيرت نياتهم ، وساءت معاملاتهم (٢٠٧ ـ ظ)وفسدت اكثر اوضاعهم وشمل الخراب عامة ارض

مصر لموت اهلها وقلة اموالها وتعذر وجود الأقوات وكثرة الخوف .

وكان بمصر جماعة من دعاة المعز قد(٨١) استمالوا خلائق من القواد ووجوه الرعية ، وانفذ اليهم المعز بنودا ففرقوها فيمن استجاب لهم وأمرهم أن ينشروها اذا قاربت عساكره مصر ، فعندما قرب جوهر من أرض الاسكندرية جمع الوزير ابو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، المعروف بنبن حنزانة الناس بداره من مصر واتفقوا على مراسلة جوهر وأن يشترطوا عليه أن يقرهم على ما بايديهم من الضياع التي يتولوها ، وشرط نحرير شويزان أن لايجمع مع جوهر وارسلوا اليه بذلك الشريف ابا جعفر مسلم ، والشريف ابا اسماعيل ابراهيم بن أحمد الرسي والقاضي ابا الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر النهلي ، وابو الطيب العباسي بن أحمد العباسي الهاشمي ، في جماعة ، فبرزوا الى الجيزة في يوم الاثنين ثامن عشر رجب ، وساروا فلقوا جوهر في تروجة(٨٢) فوافقهم واجابهم الى مالتمسوه وكتب لهم كتابا نصه بعد البسملة:

هذا كتاب جوهر عبد امير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة اهل مصر الساكنين بها من اهلها ومن غيرها :

إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم: ابو جعفر مسلم الشريف اطال الله بقاءه، وابو اسماعيل الرسي ايده الله ، وابو الطيب الهاشمي ايده الله ، وابو جعفر أحمد بن نصر اعزه الله ، والقاضي ابو طاهر اعزه الله ، وذكروا عنكم انكم(٨٣) التمستم كتابا يشتمل على امانكم في انفسكم واموالكم وبلادكم وجميع احوالكم ، فعرفتم ما تقدم به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه (٨٤) وحسن نظره اليكم.

فاحمدوا الله على ما اولاكم ، واشكروه على ما اتاكم ، وادابوا فيما يلزمكم ، وسارعوا الى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم والعصمة الشاملة لكم ، وهو انه صلوات الله عليه

لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة الا لما فيه اعزازكم وحمايتكم ، والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستدل واطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه واسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم واموالكم حسب ما فعله في غيركم من اهل بلدان المشرق ، وتاكد عزمه واشتد طلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر ، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة لمقاتلته دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزي ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب وتتابعت لديهم الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغثهم الا من ارمضه امرهم ، ومضه حالهم وابكى عينه ما نالهم ، واسهرها ما حل بهم وهو مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه فرجا بفضل الله (٨٥) واحسانه لديه ، وما عوده واجراه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب اليم ، وأن يؤمن من استولى عليه الوجل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل ، وآثر اقامة الحج الذي تعطل واهمل العباد فروضه وحقوقه من الخوف المستولي عليهم واذ لايأمنون على انفسهم ولا على اموالهم مع اعتماد ما هي عادته من اصلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليتطرق الناس آمنين ويمشوا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، اذ كان قد انتهى اليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، اذ لازاجر المعتدين ، ولادافع للظالمين.

ثم تجديد السكة وضربها على العيار الذي (٣٠٨ـ و)عليه السكة الميمونة المنصورة المباركة وقطع الغش منها اذ كانت هذه الثلاث خصال ما يسع من ينظر في امور المسلمين الا اصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها

وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المسلمين (٨٦) صلوات الله عليه الى عبده من نشر العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع

العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والمناداة في الحق ، واعانة المظلوم . والتقريب والاشفاق والاحسان ، وجميل النظر ، وكريم الصحبة ، ولطف العشرة ، وافتقاد الأحوال ، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم ، وحسن تصرفهم في أوان ابتغائهم معايشهم ، حتى لاتجري أمورهم الا على ما لم شعثهم ، واقام اودهم واصلح بالهم ، وجمع قلوبهم والف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

وما أمر به مولاه من اسقاط الرسوم الجائرة التي لايرتضي صلوات الله عليه باثباتها عليكم.

وأن اجريكم في المواريث على كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم (٨٧) لبيت المال عن غير وصية من المتوفى بها ، فانه لاا ستحقاق لتصييرها ببيت المال.

وأن أتقدم في رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، فلا اقطعها عنهم ، ولاأدفعها الا من بيت المال ، الا باحالة على من يقبض منهم.

واما غير ما ذكره مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه مما نصه من ترسل عنكم ايدهم الله انكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها في كتاب امانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم وان لم يكن لذكرها معنى ولانشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي اقامتكم على مذاهبكم وان تتركوا على ما (٨٨) انتم عليه من اداء الفروض في الاشتغال بالعلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ماكان عليه سلف الائمة من الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين بعدهم ، وفقهاء الامصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وان يجري فرض الأذان

والصلاة وقيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على مـا امر الله به ، ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم في سـننه ، واجـراء اهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم علي امان الله التام العام الدائم المتصـل الشـامل الكامـل المتجدد (٨٩) والمتأكد على الأيام وكرور الأعوام في انفسكم واموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم وربـاعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى انه لايعترض عليكم معترض ، ولايجتني عليكم مجتني ولايتعقب ، وعلى انكم تصانون وتحفـظون وتحـرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلايتعرض الى اذاكم ، ولايسـارع احـد في الاعتـداء عليكم ، ولا في الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لاأزال مجتهـدا فيما يعمكم صلاحه ، ويشملكم نفعه ، ويصل اليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صـلوات الله عليه .

ولكم علي الوفاء بما الزمته نفسي ، واعطيتكم اياه عهـد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة انبيائه ورسله ، وذمـة الأئمـة مـوالينا امـراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحـون بهـا وتعلنون بـالانصراف اليها ، وتخرجون وتسلمون علي ، وتـكونون بين يدي الى أن أعبـر الجسر ، وانزل في المناخ المبارك وتحفظون (٣٠٨ ـ ظ) وتحافظون من بعد على الطاعة ، وتثابرون عليها ، وتسـارعون الى فـروضها ، ولاتخـذلون وليا لمولانا وسـيدنا امير المؤمنين صـلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به ، وفقكم الله وأرشدكم اجمعين .

وكتب جوهر القائد هذا الأمان بخـطه في شـعبان سـنة ثمـان وخمسين وثلاثمائة ، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار .

م ١١ ـ ج١

وفي آخره قال جوهر الكاتب عبد امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أبائه الطاهرين وابنائه (٩٠) الأكرمين : كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى الوفاء بجميعه لمن اجاب من اهل البلد وغيرهم على ما شرطت فيه والحمد لله رب العالمين ، وحسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين، وكتب جوهر بخطه وأشهد جوهر على نفسه جماعة الحاضرين وهم : ابو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني (٩١) وابو اسماعيل ابراهيم بن أحمد الرسي الحسني (٩٢) . وابو الطيب العباسي بن أحمد الهاشمي ، والقاضي أبو الطاهر محمد ابن أحمد وابنه أبو يعلى محمد بن محمد ، ومحمد بن مهذب بن محمد وعمرو بن الحارث بن محمد .

وأخذ منه أبو جعفر مسلم كتابا الى جماعة منهم : الوزير ابو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، وأجاز جوهر الجماعة ، وحملهم ، فلم يقبل أبو جعفر مسلم منه شيئا ، وطعم الجماعة عنده معه وودعوه وانصرفوا. فبلغهم أن الجماعة بمصر قد نقضوا الصلح فأسرعوا في الانصراف ، وبلغ ذلك جوهر فأدركهم بمحلة حفص،وقال لهم : قد بلغني أن القوم قد نقضوا الصلح فردوا علي اماني ، فرفقوا به فقال لابي طاهر : يا قاضي ما تقول في هذه المسألة ؟ فقال : ما هي ؟ قال ما تقول فيمن اراد العبور الى مصر ليمضي الى الجهاد ويقاتل الروم ، فمنع ، أليس له قتالهم ؟ فقال القاضي: نعم ، فقال جوهر : وحلال قتالهم ؟ قال : نعم ، فسار عبد العزيز بن هيج الكلابي من عسكر جوهر فدخل الفيوم ، وأقام الدعوة ، ففر منه مبشر الأخشيدي الى الفسطاط ، ووافى الشريف مسلم والجماعة من عند جوهر ، في ثامن شعبان ، ونزل بداره فأتاه الناس فيهم الوزير ابن الفرات ، فقرأ عليهم (امان) جوهر ، واوصل الى ابن الفرات وغيره كتبهم ، فامتنع الاخشيدية والكافورية وقال فرج البجكمي :لو جاءنا يا شريف جدك محمد صلى الله عليه وسلم بهذا ضربنا وجهه بالسيف ، فلامهم ابن الفرات على ذلك وقال لهم : أنتم سألتم الشريف في هذه

الرسالة فلم يتمنع حتى اخذ معه ابا اسماعيل وهو حسني ، واخذ معه قاضي المسلمين ، وأخذ رجلا عباسيا ، هذا وابو جعفر مسلم ساكت لم يزد على اكثر من قوله : خار الله لكم ، واشتغل بمساررة ابن الفرات ، والكافورية مع الأخشيدية في خوض ، وقالوا كلهم: ما بيننا وبين جوهر الا السيف ، فقال ابو منجل : فتكون حرب بغير أمير ؟ فقالوا : هو كذلك ، فقال : ترضوا بمن ارضى؟ فقالوا: (٩٣) نعم ، فقام قائما واستقبل نحرير شويزان وقال : السلام عليك ايها الأمير ، وقاموا كلهم فسلموا عليه ، وخرجوا يحجبوه الى داره ، فانعقد له الأمر ، وأحمد بن الأمير علي بن الأخشيد لايفكر فيه ولايعتد به ، واستعد القوم للقتال ، وساروا في عاشره ونزلوا بالجزيرة ، وضبطوا الجسرين ، فلما راى ذلك جوهر عاد الى منية شلقان (٩٤) ليعبر من هناك ، وبعث جعفر بن فلاح لاستقبال المراكب الواردة من تنيس (٩٥) ودمياط أسفل الأرض ، فأخذها ،فبعث الأخشيدية نحرير الأزغلي ويمن الطويل ، ومبشر وبلال الطائي في خلق ليمنعوا من العبور فابتدي القتال في يوم الخميس حادي عشر شعبان ، فقتل من المصرين كثير ، وانصرف الناس عشية الأحد النصف من شعبان ، فلما كان نصف الليل انصرف من كان بالجزيرة الى دورهم ، وأصبحوا فارين الى الشام وكان ممن قتل نحرير الأزغلي ومبشر (٣٠٩ ـ و) الأخشيدي ، ويمن الطويل ، وبلال الطائي في خلائق ، فلما كان يوم الاثنين اجتمع أحمد بن محمد الرودباري الكاتب ، وعبد الله بن أحمد الفرغاني وغيره من الوجوه عند الشريف ابي جعفر مسلم ، وسالوه أن يكتب الى جوهر في اعادة الامان ، فكتب كتابا باملاء الرودباري وبعثه ، وكتب مع غلامه سعادة الأسود كتابا أخر وجلس الناس عنده لانتظار الامان نهارهم فطاف علي بن الحسين بن لؤلؤ صاحب الشرطة ومعه رسول لجوهر ومعه جابر بن محمد الداعي ، ومعهم بند عليه المعز لدين الله وبين أيديهما الأجراس : بأن لامؤنة ولا كلفة ، وأمن الناس ، وكان جابر قد فرق البنود التي عنده ، فنشر كل من عنده بند في دربه ، فلما

كان وقت العصر وأتى سعادة بجواب جوهر ونصه بعد البسملة :

وصل كتاب الشريف الجليل ، اطال الله بقـاءه ، وأدام عزه وتـأييده وعلوه ، فهو المهنى بما هنأ به من الفتح الميمون ، ووقفت على مـا سأل من اعادة الامان الأول ، وقـد أعدتـه على حـاله ، وجعلت الى الشريف أيده الله ان يؤمن كيف رأى وكيف أحـب ، ويزيد على مـا كتبته كيف شاء ، فهو اماني وعن اذني واذن مـولانا وسـيدنا (٩٦) أمير المؤمنين صـلوات الله عليه ، وقـد كتبـت الى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين الى أن يرجعـوا الى الطـاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ، ويعمل الشريف ايده الله على لقائي في يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان .

فاستبشر الجماعة ، وعملوا على الغـدو الى الجيزة ، ثـم سـأل الشريف غلامه عمـن قتـل ؟ فقـال : نحـرير الأزغلي ، ومبشر الأخشيدي ، ويمن الطويل وبلال ، فقال له : تدري ويلك مـا تقـول ؟ فقال : رأيت رؤوسهم في طشيت فضة فقال له : ومن ؟ فقـال : وخلق كثير قد جمعت رؤوسهم ، فبات الناس على هدوء وطمأنينة

ولما كان في غداة يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت مـن شـعبان خـرج الشريف أبو جعفر مسلم ، والوزير ابو الفضل جعفر بـن الفـرات ، وسائر الاشراف والقضاة وأهل العلم والشـهود ، ووجـوه التجـار والرعية الى الجيزة ، فلما تـكامل الناس اقبـل القـائد جـوهر في عساكره ، فصاح بعض حجابه الأرض الا الشريف والوزير ، وتقدم الناس وابو جعفر أحمد بن ناصر التاجر يعرفه بالناس واحدا واحدا فلما فرغوا من السلام عليه مضى الى فسـطاطه ، فـأقام الى زالت الشمس فسارت العساكر ، وعبرت الجسر افواجا افواجا ، ومعهـم صناديق بيت المال على البغال ، واقبلت القباب ، ثم جاء القائد جوهر في حلة مذهبة ، مثقل يحف به فرسانه ورجالته ، ومد العسكر بأسره الى المناخ الذي رسم به المعز ، وهو موضع القاهرة .

فلما استقرت به الدار جاءته الالطاف (٩٧) والهدايا ، فلم يقبل من احد شيئا الا طعام الشريف مسلم وحده ، فلما أصبح انفذ علي بن الوليد قاضي عسكره وبين يديه احمال مال ومنادي ينادي : من أراد الصدقة فليصر الى دار ابي جعفر احمد بن نصر فاجتمع خلق من المستورين والفقراء فصار بهم الى الجامع العتيق لصلاة الجمعة وخطب بالناس (٩٨) هبة الله بن أحمد خليفة عبد السميع بن عمرو العباسي ببياض حتى بلغ الى الدعاء قرأ من رقعة ما نصه : اللهم صلي على عبدك ووليك ثمرة النبوة وسليل السادة المهدية ، عبدك معد أبي تميم المعز لدين الله ، امير المؤمنين ، كما صليت على أبائه الطاهرين وأسلافه الائمة الراشدين .

اللهم ارفع درجته واعلي كلمته ، وأوضح حجته ، وأجمع الأمة على طاعته ، والقلوب على موالاته ومحبته ، واجعل الرشاد في موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، واحمده مبادىء الأمور وعواقبها ، فانك تقول وقولك الحق: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» (٩٩) فقد أمتعض لدينك ولما انتهك من حرمتك ودرس من الجهاد في سبيلك ، وأنقطع من الحج الى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه وسلم ، فأعد للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب أهبته ، فسير الجيوش لنصرتك ، وأنفق الأموال في طاعتك ، وبذل المجهود في مرضاتك ، فارتدع الجاهل ، وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل.

فانصر اللهم جيوشه التي سيرها وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين ، وجهاد الملحدين ، والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرمين ، وازالة الباطل ، وبسط العدل في الأمم ، اللهم فاجعل راياته عالية مشهورة ، وعساكره غالبة منصورة ، واصلح به وعلى يديه.

وضرب السكة الحمراء ونقشها: دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد ، في سطر ، وفي السطر الآخر: المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وفي السطر الثالث ، ضرب هذا الدينار بمصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وفي الوجه الآخر لا اله الا الله محمد رسول ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. علي(١٠٠) أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين.

وجلد متزاديين وطاف بهما وظهر المرأة مكشوف.
وكاتب مزاحم بن محمد بن رائق ، وكان قد سافر فيمن سار يريد الشام ، فرجع عن الحوف (١٠١) في عسكر كبير.

وفي هذا الشهر ابتدأ بنيان القصر ، وبني المصلى الذي للعيد ، وأفطر جوهر في عيد الفطر على عدد بغير رؤية ، وصلى صلاة العيد بالقاهرة ، صلى به علي بن الوليد الاشبيلي قاضي عسكره ، وخطب ، فلم يصل أهل مصر ، وصلوا من الغد في الجامع العتيق وفيهم القاضي أبو طاهر ، وكان قد التمس الهلال على عادته في سطح الجامع ، فلم يره ، فلما بلغ ذلك جوهر انكره وعاتب عليه وتهدد فيه.

وجلس المظالم في كل سبت ، ثم رد المظالم الى أبي عيسى مرشد ، وصرف علي بن الحسين عن الشرطة وردها الى شبل المعرضي وإلى ابن عروبة المغربي. ، وأشرك بين علي ين يحيى بن العرمرم وبين رجاء بن صولات في الخراج ، وأشرك بين محمد بن احمد الشداني وبين موسى بن الحسين الصنهاجي في ديوان الضياع الاخشيدية ، واشرك بين محمد بن سالم وبين أبي اليمن قزمان بن مسهناخي في الضياع الكافورية

ووردت كتب الاخشيدية والكافورية من الشام بطلب الأمان فأمنهم ، ووافى منهم في ذي الحجة ستة آلاف فأنزلهم جوهر خارج القاهرة.

وفي يوم الجمعة ثامن ذي القعدة زيد في الخطبة: اللهم صلي على النبي محمد المصطفى وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا. اللهم صلي على الأئمة الراشدين أباء أمير المؤمنين الهادين.

ونودي على التوابيت في الجامع العتيق برفع البراطيل وقائم الشرطيين ، وكذلك نودي في سائر البلد.

وورد الخبر بقدوم القرامطة الى الرملة.

وقدم كتاب المعز لدين الله من المغرب بوصول راس نحرير ومبشر ويمن وبلال.

وفي ذي الحجة فر فاتك الهنكري الى الشام ، وبلغ جوهر أن المستأمنة من الاخشيدية والكافورية قد عزموا على القيام ، فحضر جنازة في خامسه ، وانصرف منها وهم معه ، فلما بلغ القصر من القاهرة قال للاخشيدية والكافورية: انزلوا ، فنزلوا ، فقبض على ثلاثة عشر من وجوههم ، واعتقلهم ستة اشهر حتى سيرهم الى المعز بالمغرب مع الهدية ، وقبض على اموال نحرير الأزغلي وغيره.

ودخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، فضرب اعناق جماعة وصلبهم ، وندب جعفر بن فلاح لأخذ الشام ، فسار في ثاني عشر المحرم وملك الرملة ، وبعث علي بن عقبايا (١٠٢) الى الصعيد في البر ، وعلي بن محمدالخازن في البحر.

وفي ربيع الأول قبض على دواب الاخشيدية والكافورية وصرفهم مشاة ، وامرهم بطلب المعيشة.

وتعذر الخبز لغلاء السعر ، فضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم.

وفي يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى صلى في جامع أحمد بن طولون ، وخطب به عبد السميع بن عمر العباسي بقلنسوة وشي وطيلسان وشي ، واذن المؤذنون حي على خير العمل ، وهو أول ما أذن به مصر ، وصلى به عبد السميع فقرأ سورة الجمعة وإذا جاءك المنافقون ، وقنت في الركعة الثانية وانحط ساجدا ، ونسي أن يركع ، فصاح به علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر: بطلت الصلاة ، أعد ظهرا أربع ركعات. ثم أذن بحي على خير العمل في سائر مساجد العسكر ، وانكر جوهر على عبد السميع انه يقرأ البسملة في كل سورة ، ولا قرأها في الخطبة فصلى به الجمعة الأخرى ، وفعل ذلك، وكان عبد السميع قد دعا لجوهر في الخطبة ، فأنكر جوهر عليه ، ومنعه من الدعاء له.

وقبض على الأحباس من يد القاضي ابي طاهر وردها الى غيره ، ولأربع بقين منه أذن في الجامع العتيق بحي على خير العمل ، وجهروا فيه بالبسملة في الصلاة ، وكانوا لا يفعلون ذلك بمصر ، وأمر في المواريث بالرد على ذوي الأرحام ، وان لا يرث مع البنت اخ ولا اخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ، ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد ذكر كان أو أنثى الا الزوج والزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم الا من يرث مع الولد.

وخاطب ابو الطاهر القاضي القائد جوهر في بنت واخ وانه قد كان حكم قديما للبنت بالنصف وللأخ بالباقي ، فقال: ما أفعل ، فلما الح عليه قال: يا قاضي هذه عداوة لفاطمة عليها السلام ، فأمسك ابو الطاهر ولم يراجعه بعد ذلك ، واشار الشهود على القاضي ابي الطاهر أن لا يطلب الهلال لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال ، فانقطع طلب الهلال وصام القاضي في هذه السنة مع القائد جوهر كما يصوم ، وافطر كما يفطر.

ولسبع عشرة خلت من جمادى الآخرة انفذ جوهر أبنه جعفر بن جوهر بهدية الى المعز فيها تسع وتسعون بختية ، وإحدى وعشرون قبة بأجلة الديباج المنسوجة بالذهب ، ومناطق الذهب المكللة

بالجوهر ، ومائة وعشرون جملا عرابا ، وستة وخمسون جلا ، وثمانية وأربعون فرسا عليها اجلة (١٠٣) الديباج المنقوش ، والسروج على جميعها أصناف الحلية من الذهب ، ومنها ماهو من الفضة مموه بالذهب ، ولجمها منها ماهو بالذهب ومنها ماهو بالفضة مموه بالذهب ، وعودان عظيمان من عود كأطول مايكون من الصواري كان جوهر قد وجدهما فيما وجد لنحرير الأزغلي ، وأنفذ مع الهدية جماعة من قواد الاخشيدية ، وقواد الكافورية ، ومن أنفذه جعفر بن فلاح من الشام وهم : الحسن بن عبيد الله بن طغج ، وجعفر بن غزوان صاحب القرامطة ، وفاتك الهنكري ، والحسن بن جابر الرياحي ـ كاتب الحسن بن عبد الله ـ ونحرير شمويزان ، ومفلح الوهباني ، ودري الخازن ، ودرامك ، وقيلغ التركي الكافوري ، وأبو منجل ، وجكل الاخشيدي ، وفرج العجمكي ، ولؤلؤ الطويل ، وفنك الخادم ، فخرجوا في القيود وساروا إلى رشيد ففكت قيودهم هناك ، وأركبوا المحافل في البر إلى القيروان .

ومنع جوهر من (١٠٤) الدينار الأبيض ، وكان بعشرة دراهم ، وأمر أن يجعل الدينار الراضي ، وهو الذي عليه اسم الخليفة الراضي بالله ـ هو محمد بن المقتدر العباسي ـ بخمسة عشر (٣١٠ ـ ظ) درهما ، والدينار المعزي بخمسة وعشرين درهما ونصف ، فلم يرض الناس بذلك فرد الأبيض إلى ستة دراهم ، فتلف بعد ذلك إلى آخر الدهر ، وافتقر خلق كثير .

وضرب أعناق عدة من الأخشيدية والكافورية ، وصلبهم عند كرسي الجسر ، فأقاموا إلى أن دخل المعز إلى مصر .

وفي ذي الحجة أنفذ عسكرا وعشرين حمل مال وأحمال متاع إلى الحرمين بمكة والمدينة .

وفي المحرم سنة ستين وثلاثمائة اشتدت الأمراض والوباء بمصر والقاهرة ، ومنع جوهر من بيع الشواء إلا بعد سلخ الغنم ، وكان يباع مسموطا بجلده .

وفي جمادى الآخرة نقل مجلس المظالم عن يوم السبت إلى يوم الأحد واطلق لأصحاب الراتب الف دينار فرقت فيهم .

وورد الخبر بقدوم الحسن بن أحمد الأعصم القرمطي (١٠٥) إلى دمشق وقتل جعفر بن فلاح واستيلاء القرامطة على دمشق وقصدهم مصر ، فتأهب جوهر لقتالهم ، وحفر جوهر خندقا ، وعمل بابين من حديد وبنى القنطرة على الخليج ظاهر القاهرة ، وحفر خندق السري ابن الحكم ، وفرق السلاح على العساكر فوجد رقاعا في الجامع العتيق فيها التحذير منه ، فجمع الناس ووبخهم فاعتذروا له فقبل عذرهم ، ونزل القرامطة عين شمس في المحرم سنة إحدى وستين فاستعد جوهر وضبط الداخل والخارج .

وفي مستهل ربيع الأول التحم القتال بين القرامطة وبينه على باب القاهرة ، فقتل من الفريقين جماعة واسر كثير ، ثم استراحوا في ثانيه ، والتقوا في ثالثه فاقتتلوا قتالا كثيرا قتل فيه ماشاء الله من الخلق ، وانهزم القرمطي يوم الأحد ثالث ربيع الأول ، ونهب سواده ومر على طريق القلزم ، ونودي في مدينة مصر: من جاء بالقرمطي أو براسه فله ثلاثمائة الف درهم وخمسون خلعة ، وخمسون سرج محلى على دوابها ، وثلاث جوائز .

وقبض جوهر على تسعمائة رجل من جند مصر في ساعة واحدة وقيدهم وسجنهم بالقاهرة في دار ، ووجد عدة ودائع لقواد الاخشيدي فأخذها .

ورفع المعاملة بالدنانير المتقية وهي التي عليها اسم المتقي لله ابراهيم بن المقتدر العباسي، وجعل قيمة الدينار الأبيض ثمانية دراهم .
وامر الا يظهر يهودي إلا بغيار ، فاعتمد ذلك .

وفي شعبان منها دخل أبو محمود ابراهيم بن جعفر الرملة ، وفيه مرض الشريف أبو جعفر مسلم ، فأرسل إليه القائد جوهر ابنه حسينا لعيادته ، ولتسع خلون من رمضان فرغ القائد جوهر من بناء

الجامع بالقاهرة وجمعت فيه الجمعة.وفي شوال ابتدأ القائد جوهر بحفر الخندق بالقرافة ، وبدايته من بركة الحبش (١٠٦) والقى الأموات حتى تلقى (١٠٧) إلى قبر الشافعي فعدل به عنه ثم شق مشرقا إلى الجبل على المقابر إلى قبر كافور الاخشيدي ليحفظ طريق مصر من السفح حتى لايرد أحد من القلزم .

وفي ربيع الآخر سنة إثنتين وستين وثلاثمائة تواترت الأخبار بقدوم المعز لدين الله إلى مصر ، فتأهب جوهر وأخذ في عمارة القصر ، وفي أول رجب تقدم إلى الناس بلقاء المعز ، فخرجوا في ثامنه ، وقدم المعز في سابع رمضان فنزل قصره من القاهرة ، وجلس على سرير الذهب في الايوان وجوهر قائم بين يديه يقدم الناس قوما بعد قوم حتى انقضى السلام ، ومضى وأقبل بهدية وهي : من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها بذهب ، ومنها مرصع ومنها بعنبر ، وإحدى وثلاثون ناقة من البخاتي عليها قباب بالثياب والديباج والمناطق والفرش ، منها تسعة بديباج مثقل ، وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل ، وثلاثة وثلاثون بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة ومائة وثلاثون بغلا للحمل ، وتسعون نجيبا ، واربعة صناديق مشبكة (٣١١ ـ و) يرى مافيها ، وتحتوي على أواني ذهب وفضة ، ومائة سيف محلى بذهب وفضة ، وتسعمائة مابين سفط وتخت فيها سائر ما أعده من ذخائر مصر .

ولما خطب المعز يوم العيد كان جوهر معه على المنبر ، وخلع عليه في سابع شوال خلعة مذهبة وعمامة حمراء ، وقلده سيفا ، وقاد بين يديه عشرين فرسا مسرجة ملجمة ، وحمل بين يديه خمسين الف دينار ومائتي الف درهم ، وثمانين تخت ثياب ، وكان إذا ركب المعز سار خلفه ، واستقر خليفة للمعز بديار مصر محكم في القاهرة ومصر ، ثم صرفه عن الخراج في سادس عشر المحرم سنة ثلاث وستين ، فكانت مدة تدبيره أمور مصر اربع وعشرين يوما ما صدر عنه فيها بخطه توقيع ملحون .

وأقام بالقاهرة حتى مات المعز في ربيع الآخر سنة خمس وستين

واستخلف بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، فانتدبه إلى الخروج إلى الشام ، وحمل إليه خزائن السلاح والأموال ، وسار من القاهرة في عسكر لم يخرج إلى الشام قبله مثله ، بلغت عدتهم عشرين ألفا ، فبلغ هفتكين(١٠٨) الشرابي وهو على عكا مسير جوهر ، والقرامطة على الرملة ، فولت القرامطة منهزمين عجزا عن مقاومته ، وسار هفتكين إلى دمشق وجوهر في إثره إلى أن نزل بين داريا وبين الشماسية ظاهر دمشق يوم الأحد لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس وستين ، وحفر على عسكره خندقا عظيما وجعل له أبوابا ، وبنى البيوت من داخل الخندق ، وكان قد انضم إليه ظالم ابن مرهوب العقيلي ، فأنزله خارج الخندق ، وجمع هفتكين الذعار وحمال السلاح من عوام دمشق ، وقدم عليهم قسام السناط(١٠٩) التراب ، وأجرى له الأرزاق ، وأخرجه إلى قتال جوهر ، فاستمرت الحرب بين جوهر وهفتكين من يوم عرفة ، فجرى بينهم ثنتي عشرة وقعة إلى سلخ ذي الحجة ، ولم تزل الحرب إلى يوم الخميس حادي عشر ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، فانهزم هفتكين ، وعزم على الفرار إلى انطاكية ، ثم ثبت عندما بلغه قدوم الحسن بن أحمد القرمطي إليه فاستظهر ، وبلغ ذلك جوهر فدعا إلى الصلح ، وكان الشتاء قد هجم عليه وهلك أكثر ما معه من الكراع ، وصار معظم أصحابه رجالا بغير خيل ، وقلت العلوفات عنده ، واشتد وقوع الثلوج فامتنع هفتكين من إجابته ثم أذعن وأنفذ إلى جوهر بجمال ، ورحل عن دمشق بعدما أحرق ما عجز عن حمله من الخزائن والأسلحة، وسار يوم الخميس ثالث جمادى الأولى مجدا لخوفه أن يدركه القرمطي، فهلك كثير من عسكره لشدة الثلج، وأخذ القرمطي يسير خلفه من طبرية الى الرملة، فتحصن جوهر بزيتون الرملة، وخرج هفتكين من دمشق ولحق بالقرامطة ، واجتمعوا على قتال جوهر فجرت بينهم حروب طويلة شديدة آلت الى التجاء جوهر الى عسقلان وقد فني معظم عسكره ونهبت أثقاله، فنزل هفتكين عليه وحصره حتى بلغ منه الجهد الشديد، وغلت عنده الأسعار بعسقلان فبلغ قفيز القمح اربعين دينارا، وتنكر عليه من معه من الكتاميين واحتقروه وتنقصوه وشتموه، وكانوا قبل ذلك تخاذلوا ولم

يصدقوا في القتال، وكايدوا القائد جوهر، فضاقت بجوهر ومن معه الأرض، ولاذ الى الصلح، فبعث اليه هفتكين:إن اردت الخروج بمن معك فأنا أومنك حتى تنصرف الى صاحبك، فتعاقدوا على ذلك، وصالح هفتكين على مال، وخرج وقد علق هفتكين سيفه على باب عسقلان حتى يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه، فسار(٣١١ ــ ظ) الى القاهرة وقد بلغ العزيز ما هو فيه من الجهد، فبرز يريد السفر الى الشام، فسار معه، وكانت مدة قتال القرامطة وهفتكين لجوهر على الزيتون ظاهر الرملة وعلى عسقلان سبعة عشر شهرا، فلما قدم جوهر على العزيز وبلغه تخاذل الكتاميين غضب من ذلك غضبا شديدا، وعذر جوهر واظهر انه قد تنكر له وعزله عن الوزارة وصير مكانه يعقوب بن كلس •

فلما فرغ العزيز من قتال هفتكين وعاد الى القاهرة لم يزل جوهر بها الى ان مات يوم الخميس لاحدى عشرة بقيت، وقيل بل مات لسبع بقين من ذي القعدة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، فبعث العزيز بالله إليه بالحنوط والكفن، وبعث إليه الأمير المنصور بن العزيز، وبعثت إليه السيدة العزيزة أيضا ، فكفن في سبعين ثوبا ما بين مثقل ووشي مذهب، وصلى عليه العزيز،

وكان له من الولد: حسين، وحسن، وابو احمد جعفر، فأما الحسين بن جوهر فإن العزيز خلع عليه وجعله في مرتبة ابيه، وله ترجمة كبيرة في هذا الكتاب، واما حسن فإنه مات بالمغرب، وصلى عليه المعز لدين الله في سنة ستين وثلاثمائة، واما ابو احمد جعفر فبعثه ابوه من القاهرة الى المغرب بهدية، وله ترجمة أيضا•

ولما مات جوهر لم يبق شاعر بمصر من أهلها ولا طارىء(١١٠) غريب إلا رثاه، ووصف مآثره وما فتحه من البلاد شرقا وغربا•

جيش بن الصمصامة
القائد ابو الفتح
(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

قدم الى القاهرة فيمن قدم اليها مع المعز ، وخرج مع خاله ابي محمود ابراهيم بن جعفر بن فلاح الى الشام ، فولاه مدينة دمشق لأيام بقيت في ربيع الآخر سنة اربع وستين وثلاثمائة ، وقتال اهلها فنزل عليها اياما ثم عبر اصحابه الى جهة باب الفراديس فثار بهم اهل دمشق وقتلوا منهم ، وساروا الى الجيش ففر منهم ، وغنموا ما كان له فاصبح جيش ونازل المدينة ومعه نفاطون فضرب مواضع بالنار وقتل من قدر عليه الى ان اهل جمادى الأولى ، فناصبه الناس وجدوا في قتاله يوما خلف يوم من بكرة النهار الى الليل والى ان صرف ابو محمود عن دمشق بريان الخادم ، وسار الى الرملة فسار معه .

ثم لما قدم هفتكين الشرابي الى دمشق وملكها بعثه أبو محمود (١١١) في نحو الألفين الى دمشق فسار حتى قرب من سنير (١١٢) وبها شبل بن معروف العقيلي في جمع من العرب فقاتله واسره واسلمه الى هفتكين فاسلمه هفتكين الى الدمستق ملك الروم وهو يومئذ نازل على دمشق ينتظر ما يجبى اليه اهلها من المال ، فما زال عنده حتى رحل عن دمشق بالمال ونزل طرابلس فهلك في طريقه ونجا جيش وصار الى خاله ابي محمود ، وقدم القاهرة فاقام بها الى أن ورد على العزيز كتاب منجوتكين بنزول بسيل (١١٣) ملك الروم على حلب فسيره على عسكر كبير في اول شهر رجب سنة خمس وثماني وثلاثمائة الى الشام فمات العزيز بعد(٣١٣ ـ و) قليل وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله وصرف منجوتكين عن الشام بسلمان (١١٤) بن جعفر بن فلاح ثم عزل سلمان بن جعفر بعد تسعة اشهر بجيش بن الصمصامة.

فسار من القاهرة في تاسع ذي القعدة سنة سبع وثمانين ونزل على دمشق بعدما اقام بالرملة مدة في يوم الجمعة لأربع خلون من رجب سنة ثمان وثمانين وقدم اليه بشارة متولي طبرية وسارا بالعساكر الى فامية يوم الاثنين رابع عشره ، وقد نازلها الروم فقاتلاهم قتالا كثيرا قتل فيه من الروم نحو خمسة آلاف وانهزم باقيهم في يوم الثلاثاء لتسع بقين من رجب.ومضى جيش الى نحو مرعش يحرق ويهدم،ونزل على انطاكية وبها الروم وقاتلهم اياما،ثم سار الى شيزر وعاد الى دمشق فنزل المزة يوم الثلاثاء لتسع بقين من ذي القعدة ونزل بشارة القصر الذي بدمشق على انه ولي دمشق فقدم الكتاب من مصر باستقرار جيش على امارة دمشق .

وكانت دمشق قد خربت وقل ناسها وضعفوا وثار قوم من الجهال وصاروا يأخذون الخفارة من الناس فكثرت اموالهم ، وركبوا الخيل ومشت الرجالة بين ايديهم وزاد عجبهم واظهروا انهم تحت طاعة السلطان وفي خدمته ، فأمنهم جيش ووعدهم بالأرزاق حتى اطمأنوا اليه فقبض عليهم وقيدهم وحبسهم وشدد العقوبة عليهم حتى استصفى اموالهم وتتبع من استتر منهم وضرب اعناقهم وصلبهم على ابواب المدينة حتى خلا البلد منهم .

ثم طمع في بقية الناس من اهل المدينة والقرى وجبي منهم الأموال الى ان(١١٥)شمل ضرره الكافة فكثر الدعاء عليه وهو يطرح الأموال على القرى وعلى اهل المدينة ويعدهم ببذل السيف فيهم .

وبينما هو في ذلك اذ ورد الخبر بمسير الروم اليه في طلب ثارهم بفامية ، فجمع العربان وغيرهم وانزلهم في حرستا الى القابون ونزل الروم على شيزر وقاتلوا اهلها وملكوها ثم اخذوا مدينة حمص وسبوا وحرقوا ، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وهي دخلة الروم الثالثة حمص ،ثم ساروا الى طرابلس ونازلوها مدة ، ثم افرجوا عنها وتوجهوا الى الثغور الجزرية فاشتد بأس جيش عند رحيلهم وزاد ضرره لأهل دمشق .

وكان به طرف جذام فتزايد به حتى تمعط (١١٦) شعره ورشح

بدنه واسود ته انحتت سحنة وجهه وداد كله ، ونتن جميع جسده فصار يصيح: ويحكم اقتلوني اريحوني الى أن هلك [١١٧] يوم الأحد لسبع خلون من ربيع الأخر سنة تسعين وثلاثمائة ، وكان مقامه على دمشق ستة عشر شهرا وستة عشر يوما.

ووصل ابنه عبد الله بتركته في جمادى الآخرة ، ودفع درجا الى زيدان الصقلبي حامل المظلة بخط ابيه جيش يتضمن وصيته وتعيين ما خلفه مفصلا مشروحا ، وفيه ان ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله . لايستحق احد من اولاده في ذلك درهما واحدا فما فوقه وتبلغ قيمة ذلك زيادة على مائتي الف دينار ما بين عين ورحل ومتاع، فلما مثل ابنه عبد الله بن جيش بحضرة الحاكم قال زيدان: ان التركة كلها قد حزتها وهي على البغال محمولة تحت القصر واستاذن الحاكم فيمن يتسلمها فاخذ الحاكم منه الدرج واوصله الى ابني جيش بن الصمصامة وقال لهما بحضرة اوليائه ووجوه دولته: قد وقفت على وصية ابيكما رحمه الله من عين ومتاع مما وصى به فخذوه هنيئا مباركا لكما فيه، وخلع عليهما فانصرفا بجميع التركة

الحسن بن الصباح

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

الحسن بن صباح ، الرازي، رئيس الاسماعيلية، المعروف بالكيال •

كان رجلا شهما كافيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك • فمال الى دعوة الباطنية ، وصار تلميذا لأحمد بن عبد الله بن عطاش الطبيب • وكتب للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالري • فاتهمه أبو مسلم رئيس الري بدخول جماعة من المصريين عليه ، فخافه ابن الصباح وخرج من الري ، فطلبه ابو مسلم فلم يدركه •

ومضى ابن الصباح فطاف في البلاد • فقدم الى مصر في سنة تسع وسبعين واربعمائة في زي تاجر واجتمع بالخليفة المستنصر بالله ، وحدثه في إقامة دعوته ببلاد خراسان، فوصله بمال ، واقام عنده مدة • فبلغه عنه ما أوجب اعتقاله • ثم اخرجه وانعم عليه ، وكتب له بخطه جوابا عن مسائل سأله عنها على مذهب الاسماعيلية •

وخرج من القاهرة الى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم • ورجع الى خراسان ودخل كاشغر وماوراء النهر ، وهو يطوف على الناس ويدعو الى المستنصر وينشر الدعوة ببلاد الجبل وقزوين واصبهان حتى شاعت • وسير دعاته ورسله الى بلاد العجم والقى عليهم مسائلهم التي منها :

لم كانت الأيام سبعة ؟

والبروج اثني عشر ؟

والسماوات سبعا ؟

والأرضون سبعا ؟

والشهور اثني عشر ؟
وفي كل كف من الانسان خمس اصابع ؟
وفي كل إصبع ثلاثة شقوق ؟
وفي ظهر الانسان اثنتا عشرة خرزة ؟
وفي عنقه سبع خرزات ؟
ونحو ذلك ٠

وادعى انه استأثر من إمامه بغوامض علوم وبديع أسرار ٠ وكانت الدعوة الاسماعيلية هناك قديمة فقبلها كثير من الناس ٠ واخذ في ابتياع الاسلحة والعدد الحربية سرا ٠ وواعد أصحابه ممن استجاب له على ليلة عينها لهم من شعبان سنة ثلاث وثمانين واربعمائة ٠ والسلطان يومئذ ملك شاه بن الب ارسلان ٠ وأخذ قلعة المَوت (١١٨) وهي بنواحي قزوين ، ولها بلاد كثيرة بأصبهان وقلاع عديدة ٠ وكانت قديما قبل الاسلام وفي صدر الاسلام لملوك الديلم ، وهي من الحصانة والمناعة على غاية ، لاترقى الهمم الى بلوغها وتحيط بها بحيرة ٠ فبعث نظام الملك عسكرا الى قلعة الموت فحصر ابن الصباح الى أن ضاق ذرعه بالحصر ٠ فأرسل من قتل نظام الملك ، فلما قتل رجع العسكر عنه ٠

ولما ملكها اجتمع باطنية اصبهان ونواحيها مع رئيس دعاتهم احمد بن عطاش ، واخذوا قلعتين عظيمتين فعظم أمرهم وكثر عملهم بالسكين ٠ وكان اول عملهم بالسكين أن الحسن بن الصباح لما بث دعوته وصار معه طائفة اظهر التدين والزهادة وقال لأصحاب قلعة الموت : نحن قوم ضعفاء زهاد نريد عبادة الله عندكم ٠ فبيعونا نصف هذه القلعة !

فباعوها منهم بتسعة الاف دينار وسكنوا فيها ٠ فاستولى عليها ، وبلغ خبره ملك تلك الناحية فقصده بعسكره ليحاربه ٠ فقال علي اليعقوبي للحسن بن صباح ولمن معه : أي شيء يكون لي عندكم إن كفيتكم أمر هذا العسكر ؟

فقال : نذكرك في تسابيحنا •

فقال : رضيت •

ونزل بهم • وقسمهم ارباعا في ارباع العسكر : وجعل معهم طبولا وقال : إذا سمعتم الصائحة فاضربوا الطبول •

ثم هجم على صاحب العسكر في الليل وقتله • فوقع الصياح في العسكر ، فضرب أولئك الطبول ، فلم يثبت العسكر لما ملأ قلوبهم من الخوف وفروا بأجمعهم وتركوا خيامهم ، فنقلها اصحاب ابن الصباح الى قلعة الموت •

ومن ذلك الوقت سنوا سنة السكين ، واغتالوا الملوك والرؤساء ، وكثر قتلهم للناس •

فاستدعي الامام ابو حامد الغزالي الى نيسابور واقام بالمدرسة النظامية فيها واشتغل بمناظرة اصحاب ابن الصباح والف كتاب « المستظهري (١١٩)وأجاب عن مسائلهم • وجد السلطان ملك شاه في قلعهم فلم يتمكن من ذلك •

فلما مات المستنصر بالله في ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعمائة ، ادعى الحسن بن الصباح انه قال للمستنصر لما كان عنده :« من الامام بعدك ؟ قال : ولدي نزار » • وأنكر إمامة المستعلي ودعا لنزار بن المستنصر • فلما قتل نزار في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين قال أصحاب ابن الصباح له : إنك تدعي حضوره •

فقال لهم : الآية في ذلك أن يطلع القمر في غير وقته من غير مطلعه •

ثم عمد الى جبل بجانبهم شديد الارتفاع • وعمل بعض مخاريقه فصار يرى كالقمر قد طلع من وراء الجبل • فعند ذلك صار بعضهم يبشر بعضا بالامام نزار • وأقرفوا(١٢٠)من اهل مصر وشرعوا في افتتاح الحصون فأخذوا قلاعا ، واشتغلوا بعمل السكين التي سنها لهم علي اليعقوبي • وأخذ ابن الصباح يقول لأصحابه : إن الامام نزارا بين أعداء كثيرة ، والأعداء محيطة به ، والبلاد بعيدة ، ولم

يتمكن من الحضور ، وقد عزم على أن يستخفي في بطن امرأة ويستأنف الولادة ليجيء سالما •

فصدقوه في ذلك ، وأخرج إليهم جارية حبلى وقال لهم :« إن الامام قد اختفى في هذه » • فعظموها حتى ولدت ذكرا وسماه حسنا وقال :قد تغير الاسم بتغيير الصورة •

وفي المحرم سنة ثلاث وخمسمائة سير السلطان محمد بن ملك شاه وزيره أحمد بن نظام الملك الى قلعة الموت لقتال الحسن بن الصباح ، فحصره وهجم عليه الشتاء فعاد بغير طائل •

وفي سنة خمس وخمسمائة ندب ايضا لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب ساوة فملك عدة قلاع للحسن بن الصباح ونزل على قلعة الموت بعساكره ، وامده السلطان محمد بعدة من الأمراء ، فجد في قتال الحسن وبنى له مساكن يسكنها هو ومن معه • فضاق الأمر على الحسن وقلت الأقوات عنده حتى كان يجري لكل من أصحابه رغيفا وثلاث جوزات في اليوم • فبينماهم في ذلك إذ مات السلطان فرحل العسكر وغنم الحسن ما تخلف عنهم •

ثم إن ابن صباح ندب لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش من أصحابه ، فلما قتل في شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة وولي القائد ابو عبد الله محمد بن فاتك المعروف بالمأمون البطائحي وزارة الخليفة الآمر بأحكام الله بعد قتل الأفضل ، اتصل به أن النزارية والحسن بن الصباح فرحوا بموت الأفضل ، وأن أمالهم امتدت إلى قتل الآمر والمأمون (١٢).وقد بعث ابن الصباح رسلا لمن في مصر من أصحابه بأموال تفرق فيهم •

فضبط حينئذ المأمون امر مصر ضبطا عظيما حتى قبض على جماعة كثيرة من اصحاب ابن الصباح • وعقد مجلسا بالقصر للنظر في أمر النزارية • وكتب الى الحسن بن الصباح يعظه ويأمره بالرجوع عن القول بإمامة نزار ، فلم يقنع بذلك ، واقام على دعوته الى أن مات بناحية الموت في سنة ثماني عشرة وخمسمائة

وكان ذا سمت وزهد ، وله اتباع من جنسه •

وقام من بعده بألموت ديلمي يعرف بـــزرك أميد، وهـــذه الطـــائفة الاسماعيلية يقال لها أيضا الباطنية ، وأصـــل دعوتهـــا مـــأخوذ عن القرامطة •

واول ما عرف أمرها أنه اجتمع منها ثمانية عشر رجلا يوم العيد في مدينة ساوة ، وقد فطن بهم الشحنة ، واخذهم وسجنهم ثم سـئل فيهم فخلى عنهم ، وكان ذلك في سلطنة ملك شـــاه •ثـــم إنهـــم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان بأصبهان فلم يجبهـــم فقتلوه فـــأمر الوزير نظام الملك بتتبعهم • فأخذ رجل نجار اسمه طاهر وقتل ومثـــل بـــه وجرت العامة برجله في الأسواق •

فحنق الباطنية ودسوا على نظـــام الملك حتـــى قتلوه بـــالنجار ، ثـــم اجتمعوا في موضع بالقرب من قاين واخذوا قافلة عظيمة مرت بهـــم من كرمان ، وقتلوا سائر من بها إلا رجلا تـــركمانيا ، فإنه فـــر الى قاين وأعلم الناس فخرجوا إليهم فلم يقدروا عليهم • وعظم أمـــرهم واشتدت شوكتهم بنواحي أصبهان ، وصار دعاتهم يسرقـــون مـــن قدروا عليه ويقتلونه حتى أتلفوا خلقا كثيرا ، وانتشرت دعوتهم •

ثم إن الفقيه ابا القاسم مسعود بن محمـــد الخجندي الشـــافعي تجرد لهم بمدينة أصبهان ، وجمع الجمع الغفير بالأسلحة وتـــطلبهم وأخذ منهم عالما كبيرا ، وحفر لهم اخاديد واضرمهـــا نارا ، وجعلت العامة تأتي بالباطنية أفواجا وفرادى وتلقيهم في النار ، وقد أوقفوا على رأس الأخاديد رجلا سموه مـــالكا • فقتـــل منهـــم خلق كثير في شعبان سنة اربع وتسعين واربعمائة •

وكان الباطنية قد اجتمعوا على احمد بن عبـــد الملك بـــن عطـــاش والبسوه التاج وجمعوا له الأموال وقدموه عليهـــم ، مـــع جهله ، لأن اباه كان مقدما فيهم • فاتصل بدزدار قلعة أصـــبهان التـــي بناهـــا السلطان ملك شاه ، وبقي معه فوثق به الدزدار وقلده الأمور • فلما مات الدزدار بعد موت ملك شاه في ايام خاتون الجلالية ام الســـلطان محمد بن ملك شاه ، استولى احمد بن عبد الملك بـــن عطـــاش على

القلعة بعده ، ونال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل الأنفس وقطع الطريق والخوف الدائم •

☆ ☆ ☆

وفي الحسن بن الصباح يقول الشريف أبو يعلى محمد بن محمد ابن الهبارية العباسي ، وكتب بها من كرمان في سنة ست وسبعين وأربعمائة إلى أمين الدولة أبي سعد ابن الموصلايا نائب الديوان ببغداد ، فعرضها على الخليفة المستظهر بالله ، وهي :

عز على المنصور والسفاح
ظهور أمر الحسن الصباح

يدعو الى ميمونه القداح
بألسن الصفاح والرماح

أنائم أنت أبا العباس؟

ناحت دعاة القوم في النواحي
فدعوة الصباح كالصباح

قد صرحت بشرها الصراح
قائلة بألسن فصاح :

حي على قتل بني العباس!

فأكثر العالم مستجيب
إلا امرؤ محقق نجيب

بقلبه من خوفهم وجيب
وذاك في هذا الورى عجيب

وكلهم شارب هذا الكأس

لم يبق في ظهورهم خفاء
قد ذهب النفاق والرياء

ولعبوا بالملك كيف شاؤوا
واستذابت للجرة الجماء
إذ غلبت اسد عن الأخياس
فالباطل اليوم جهارا ظاهر
شيطانه للمسلمين قاهر
بكذبه معالن مجاهر
سيفه على العباد شاهر
مفتخر بمكره في الناس
حذار من شرهم حذار
فإنهم كالأسد الضواري
قاذية الأنياب والأظفار
ليس لها في الغاب من قرار
شوقا الى العراك والمراس
فنارهم تستعر استعارا
ترمي إليك الجمر والشرار
ترى فراش ضوءها الأعمارا
فاحذر أبيت اللعن ثارا
فهي بلا اس ولا نحاس
حقرتم الشرار في الرماد
فعاد كالجمر في الاتقاد
وحره والله في فؤادي
وسائر القلوب والاكباد
قلوب اهل السنة الأكياس
كأننا نبصر ما يكون
إن اللبيب ظنه يقين

هونه قوم وما يهون

والاحتقار لهم جنون

واحزنا ليس لجرحي أس!

إن تم أمر القوم في كرمان

دب إلى الأقطار والبلدان

وانكشفت سريرة السلطان

وجاء بغداد بلا احتباس

نظام الملك
أحد أفراد الدنيا

(من بغية الطلب لابن العديم)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

الحسن بن علي بن اسحق بن العباس ابو علي الطوسي، الوزير المعروف بنظام الملك ويعرف بخواجا بزرك ، وخواجا بالفارسية الوزير ، وبزرك العظيم ، وزر للسلطان العادل الب ارسلان بن جغري بك ، وقدم معه حلب في سنة ثلاث وستين وأربعمائة حين قدمها محاصرا لها .

ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه أبي الفتح ، وقدم معه حلب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وسمع بحلب أبا الفتح عبد الله بن اسماعيل بن الجلي الحلبي ، وروى عن أبي عبد الله بن محمد الطوسي ، وأبي بكر محمد بن يحيى بن ابراهيم المزكي ، وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، وأبي حامد احمد بن الحسن الأزهري ، وأبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الصفار ، وأبي بكر محمد بن أحمد بن الحسن الطاهري ، وابوي منصور شجاع بن علي بن شجاع المصقلي الشيباني ، ومحمد بن احمد بن علي القاضي وأبي نصر علي بن عبد الله الكاغدي ، وابي بكر احمد ابن منصور بن خلف المقرىء ، وأبي القاسم اسماعيل بن زاهر الطوسي ،وابي الحسن علي بن عبد الله بن محمد ، وابي مسلم محمد ابن علي بن مهر برد الأديب ، وأميرك بن احمد ، وأحمد بن عبد الرحمن الصائغ ، وابي عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله المذكر ، وابي الحسن علي بن محمد بن يحيى المرندي ، و غيرهم

روى عنه أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف بن عمر الأرموي ،

وأبو الصمصام (٢٨٥ -ظ) ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني

وأبو الفتح نصر الله محمد بن عبد القوي اللاذقي ، وابو نصر محمد بن محمود الشجاعي ، وابو محمد الحسن بن منصور السمعاني ، وابو القاسم نصر بن نصر الواعظ العكبري ، وابو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ، وابو الفتح محمد بن محمد ابن عبد الله البسطامي ، وابو سفيان محمد بن أحمد العبدوسي، وابو بشر مصعب بن عبد الرزاق المصعبي ، وابو الحسين محمد بن محمد ابن محمد السهلكي ،وابو القاسم :علي طراد الزينبي ،واسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ ، وابو الفضل محمد بن أبي نصر ابن المسعودي ، وابو غالب محمد بن ابراهيم الصيقلي ، وأبو نصر علي ابن هبة الله بن ماكولا ، وغيرهم .

وعقد مجلس الاملاء لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان وزيرا عادلا سائسا قيما بأمور المملكة فاضلا ، عالما ، جوادا ، حليما ، كثير الصدقة والمعروف ، ووقف عدة مدارس لطلبة العلم ، وكان كثير المخالطة لأهل العلم ، مكرما لهم ، حسن الأخلاق .

أخبرنا ابو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي قراءة عليه بدمشق قال : أخبرنا القاضي ابو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموي ، ح.

وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن عبد الله بن موهوب ابن البناء بدمشق قال : اخبرنا ابو القاسم نصر بن نصر الواعظ العكبري قال : حدثنا الصاحب الأجل العالم العادل نظام الملك قوام الدين غياث الدولة وشمس الملة اتابك أبو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي (٢٨٦ -و) امير المؤمنين إملاء في يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم من سنة ثمانين وأربعمائة بالمدرسة ببغداد قال : أخبرنا الشيخ أبو بكر احمد بن منصور بن خلف المقرىء بنيسابور قال : حدثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن اسحق بن خزيمة قال، حدثنا أبو العباس محمد بن اسحاق السراج قال : حدثنا قتيبة ابن سعيد قال : حدثنا مالك بن انس عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن

عمرو بن سليم الأنصاري عن ابي قتادة السلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس.

اخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا أبو سعد المروزي قال : أخبرنا أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق قال : أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير بأصبهان قال : حدثنا ابو عبد الله أحمد بن محمد الطوسي قال : حدثنا أبو عبد الله بن محمد الخازمي قال : حدثنا عبد الله بن عمر بن علك قال : حدثنا عبدان بن محمد الزاهد قال: حدثنا علي بن عيسى قال : حدثنا خلف بن تميم قال : حدثنا عبد الله بن السري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اذا لعن آخر هذه الأمة أولها ، فمن كان عنده علم فليظهره ، فان كاتم العلم يومئذ ككاتم ما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم »(٢٨٦ - ظ).

اخبرنا عمي ابو غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة بقراءتي عليه قال : اخبرنا والدي أبو الفضل هبة الله بن محمد ، ح .

وأخبرنا أبو هاشم الحلبي قال :أخبرنا عبد الكريم بن أبي المظفر قالا: اخبرنا أبو الصمصام ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني بقراءتي عليه بالموصل قال : أخبرنا ابو علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير بأصبهان قال : حدثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن ابراهيم المزكي قال : حدثنا أبي قال :حدثنا محمد بن داود بن سليمان قال : حدثني أبراهيم بن عبد الواحد قال : حدثنا وريزة بن محمد الغساني قال : حدثنا الفضل بن محمد عن أبيه عن جده قال: قيل لعبد الله بن عباس: كم تكتب العلم ؟ فقال : إذا نشطت فهو لذتي واذا اغتممت فهو سلوتي .

قرأت في كتاب زينة الدهر لأبي المعالي سعد بن علي الحظيري الكتبي وذكر نظام الملك وقال : وبلغني انه كان يقول الشعر ، والذي وقع إلي من شعره ، وهو بديع ، وكأن عند كبره يتكيء على عصا :

بعد الثمانين ليس قوة
لهفي على قوة الصبوة

كانني والعصا بكفي
موسى ولكن بلا نبوة

قال الحظيري : وله :

اتذكرها وقد خرجت عشيا
باتراب لها كالعين رود

فمدت من اصابعها وقالت
خضبناهن من علق الوريد (٢٨٧ -و)

نقلت من مجموع بخط ولد أسامة بن مرشد بن منقذ ، وقال خواجه بزرك رحمه الله :

احبابنا لا شتت الدهر شملكم
ولا ذقتم من لوعة البين ما عندي

تحملتم لي كلكم شوق واحد
وحملتموني شوق كلكم وحدي

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا ابو سعد السمعاني قال : قرات بخط أبي محمد عبد الله بن احمد بن السمرقندي : مولده - يعني الصاحب نظام الملك - يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثماني واربعمائة .

انبأنا أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل القاضي عن ابي محمد عبد الكريم بن حمزة عن أبي نصر علي بن هبة الله بن ماكولا قال في كتاب الاكمال : بزرك بفتح الباء ، وبعدها زاي مضمومة ، ثم راء ساكنة ، فهو نظام الملك قوام الدين غياث الدولة رضي أمير المؤمنين ابو علي الحسن بن علي بن اسحق يعرف بين العجم بالبزرك ومعناه العظيم ، سمع الكثير ، وحدث ، واملى بخراسان جمعا ، وبالثغور ، وبقوهستان وغيرها من البلاد ،

وسمعت منه إملاء بالري ، وسمعت منه بنواحي خت ، وبقراءة غيري وكان ثقة ، ثبتا ، متحريا ، فهما ، عالما (١٢٢).

وقال ابن ماكولا في موضع آخر من الكتاب المذكور : اما نظام فهو نظام الملك ، قوام الدين ، غياث الدولة (٢٨٧ –ظ) وزين الوزراء ، ابو علي الحسن بن علي بن اسحق ، ولد بطوس ، وسمع الكثير ، وحدث بمرو ، ونيسابور ، والري ، واصبهان ، وبغداد ، وجميع بلاد خراسان ، وبلاد اران وهي جنزه وبرذعة ، وبيلقان ، وسائر البلاد (١٢٣).اخبرنا ابو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن ابي بكر السمعاني قال : الحسن بن علي بن اسحق ابن العباس الطوسي ابو علي الوزير نظام الملك العالم العادل ، كعبة المسجد ، ومنبع الجود ، ومعدن الكرم والأفضال ، ذو القلم الماضي ، واللسان القاضي ، والمعدلة ، والامانة ، والصلاح ، والديانة ، وكان صاحب اناة ، وحلم ، ووقار ، وصفح ، وصمت ، وكان مجلسه عامرا بالقراء والفقهاء ، وائمة المسلمين واعلام الدين ، واهل الخير ، والستر ، والصلاح ، وصار مثل الكعبة ، يقصده كل احد من الاقطار وأمر ببناء المدارس في الأمصار ، ورغب في العلم كل احد ، سمع الحديث الكبير ، واملى في البلاد ، وحضر مجلسه اكثر الحفاظ والمحدثين ، ورغبوا في السماع منه لعلو رتبته ، وارتفاع درجته .

واما ابتداء حالته : فإنه كان من أولاد الدهاقين : وارباب الضياع بناحية بيهق ، وقصبة الراذكان من نواحي طوس ، قيل انه نفي عن والدته رضيعا ، وان اباه كان يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة حتى شب ولم يدر احد مكنون سر الله في (٢٨٨ –و) أمره ، فنشأ ، وساقه التقدير إلى ان علق به شيء من العربية ، وقاده ذلك إلى الشروع في رسوم الاستيفاء ، فلم يزل الدهر يعلو به ، وينخفض حضرا وسفرا ، وكان يطوف في بلاد خراسان ، ووقع إلى غزنة في صحبة بعض المتصوفين إلى ان تنبه بخته ، وحان وقته ، ووقع في شغل ابي علي بن شاذان المعتمد عليه ببلخ من جهة الأمير جغري حتى حسن حاله عند ابن شاذان . وظهر اثر خدمته ،

ولاحت اثار كفايته ، وصار معروفا عند ذي أمره ، إلى أن توفي ابـو علي بن شاذان ، فذكر انه أوصى إلى الملك ألب ارسلان بـه ، وذكر له كفايته وأمانته واستصلاحه لشغله ، فنصبه مكانه ، وصار وزيرا له والحال بعد مستورة ، والدولة مغمورة إلى أن انتهت الدولة الركنية (١٢٤)نهايتها ، وكانت ولاية مـرو لألب أرسـلان ملكا ، وهـو الوزير المتمكن من الأمر ، فاتفقت وفاة طغرلبك ، ولم يكن له من الأولاد من ينوب منابه ، فتوجه الأمر إلى ألب ارسلان ، وتعين للسلطنة فتحرك عن مرو ، والوزير يرتب أمره ، ويرتب قواعد ملكه حتـى زحـف الى نيسابور ، والى العراق ، وخطب له على منابر خراسان ، والعراق .

وارتفع امر الصاحب . وصار سيد الوزراء ، صافيا له الورد مـن سنة خمس وخمسين واربعمـائة ، وانقضـت ايام فتـرة المذاهـب والرسوم الممقوتة في الدولة الماضية ، واظهر الله مـكنون سره في دولة نظام الملك (٢٨٨ ظ) فجرى له من الرسـوم المسـتحسنة ، ونفـي الظلم ، واسقاط المؤن والقسم ، وحسـن النظـر في أمـور الرعية ، وتقدير المعاملات على سنن الانصاف والعدل .

وضبط الأمور ، واستقامت الأحوال ، ورتبـت الدواوين أحسـن ترتيب ، وتزينت الأقطار بآثار العدل والانصاف ، وكان من اكفـى الكفاة والسـلطان مـن أعدل الولاة ، فصـفي العيش ، وأطــردت التجارات ، واهلت الطرق ، وقل أهل العيث والفساد ، وأخـذ الوزير في بذل الصلات ، وبناء المدارس والمسـاجد والربـاطات وتحصـين العمارات بالأوقاف الدارة ، وتزيين المدارس بخزائن الكتـب المودعة فيها ، المشتملة على نفائس الأعلاق ، ثم اسكان البقاع طلبـة العلم والمدرسين في كل فن من الفنون ، وكل ذلك من الأسباب الموثقة للملك والبذور .

حتى انقضت النوبة للسلطان الب ارسلان بعـد اسـتكمال عشر سنين ، إلى سـنة خمس وسـتين واربعمـائة ، وطلع نجـم الدولة الملكشاهية ، وظهرت كفاية نظام الملك بعد تقـدير الله في تقـرير تلك المملكة ، مع اتفاق الوقعة الهائلة للسلطان عند قصـدهم مـا وراء

النهر ، وطغـاء الخصـوم اللد مـن كل ناحية ، وتـزاحم الأولاد المستعدين للملك ، حتى توطدت أسـباب الدولة ، واسـتقام الأمـر ، فصار الملك حقيقة لنظامه ورسما واسما للسلطان ، فمـا كان له إلا إقامة رسم (٢٨٩ –و) التخت والاشتغال باللهو والصـيد ، وكان تحمل إليه الأحمال المجلوبة من الأقطار ، والدهر وسنان ، والسـعد جذلان ، والنحس خزيان ، واستمر على ذلك عشرون سنة اتفقت لهم فيها غزوات إلى الروم ، وظفر منهـا بـطرف الدنيا مـن الأمـوال ، والعبيد ، والدواب وغيرها ، ثم نهضـات الى الموصـل ، وحلب وتلك الديار ، وحـركات إلى مـا وراء النهـر ، وكان في اثناء ذلك ظهـور خصوم من الأطراف يتمنون أماني فلا يدركونهـا ، ويتحـركون عن مواضعهم ، وكانت عاقبتهم تـؤول إلى انهـم يتـركونها ، وكل ذلك بكمال كفاية نظام الملك ، وتمهيده القواعد ، وبركة أيامه ، وسـعادة جده .

إلى أن انتهى الحال الى الكمال ، فما رضيت تلك النوبة المباركة ، والدولة الميمونة إلا وأن تختتـم بعـاقبة تليق بهـا ، ومـا كانت إلا الشهادة ، فأدركه قضاء الله في شـهر رمضـان صـائما شـهيدا ، ووجيء في الطريق بين أصـبهان ومـدينة السـلام ليلة ، ومضى إلى رحمة الله سنة خمس وثمانين وأربعمائة وما كانت الا زوال بـركته وحشمته حتى تغيرت الأمور واضطربت المملكة ، وتشـوشت أمـور العالم ، ونسيت تلك الرسوم ، وما ركدت بعد سنين أثار تلك النائرة والظن أنها لا تعود إلى مثل ذلك والله اعلم .

قال أبو سعد : سمع بأصبهان ابا مسلم محمد بن علي بـن مهـر برد الأديب وابا منصور شجاع بـن علي بـن شـجاع المصـقلي ، وبنيسابور أبا القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وابا احمد بن أحمد بن الحسن الأزهري ، وخلقا يطول ذكرهم .

روى لنا عنه عمه الشهيد ابو محمد الحسن بن منصور السمعاني وابو بشر مصعب بن عبد الرزاق المصعبي بمرو ، وابو نصر محمد ابن محمود الشجاعي بسرخس ، وابو الحسين محمد بن محمـد بـن

محمد السهلكي ببسطام ، وابو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان ، وابو القاسم علي بن طراد بن محمد بن علي الزينبي ببغداد ، كتب عنه املاء بجامع الرصافة ، وابو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي اللاذقي بدمشق ، ، وابو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله البسطامي ببلخ .

انبأنا ابو اليمن زيد الحسن عن ابي منصور بن الجواليقي عن الخطيب ابي زكريا التبريزي أن فخر الملك بن نظام الملك حدثه أن والده كان يكتب (٢٨٩ -ظ) للأمير ياخر صاحب بلخ ، وفي رأس كل حول يصادره ، ويأخذ ما معه ، ويقول له: قد سمنت ، ويدفع اليه فرسا ومقرعة ، ويقول : هذا يكفيك ، فلما طال عليه هرب منه ، ولقيه اصحاب ياخر فأخذوه وهو على فرس بطيء فلقي ركابيا فأعطاه فرسه ، فقويت نفسه ، وهرب منهم ودخل إلى داود بن ميكائيل ، فلما رآه اخذ بيده ، وسلمه إلى ولده الب ارسلان وقال له : هذا حسن الطوسي فتسلمه ، واتخذه والدا ، ودخل ياخر في الحال وقال : هذا كاتبي وقد اخذ اموالي ، وكان قد ركب خلفه فقال له داود : لا خطاب لك معي ، والخطاب لولدي محمد ، فلم يتمكن من خطابه ، ولما خاطبه فيه لم يسمح به .

داود بن ميكائيل هو جغري بك ، ومحمد ابنه هو الب ارسلان ، ولكل واحد من الملوك السلجوقية اسمان ، اسم عربي واسم تركي .

اخبرنا عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا ابو سعد السمعاني قال : سمعت ابا منصور علي بن علي بن عبد الله الأمين يقول : سمعت الأمير ابا الحسن العبادي يقول : حين جاءنا نعي نظام الملك في شهر رمضان سنة خمس وثمانين - قال : كنت بسرخس في مجلس شيخي ابي علي الفارمذي فقال في اثناء كلامه : وهذا الحسن سد للفتن ، مشفق على المسلمين ، وكان يشير إليه ، فنظرت فإذا النظام جالس تحت سريره - ثم قال الأمير العبادي : اخاف بعد قتله ظهور (٢٩٠ -و) الفتن ، فان الشيخ قال : هو سد للفتن .

اخبرنا عبد المطلب قال : أخبرنا ابو سعد بن ابي بكر بن ابي

المظفر قال : قرات بخط والدي رحمه الله : سمعت الفقيه الأجل أبـا القاسم يعني عبد الله بن علي بن اسحق أخا نظام الملك يقـول : كان اخي نظام الملك يملي بالري ، فلما فرغ قـال : إني أعلم اني لسـت أهلا لما اتولاه من هذا الاملاء ، لكني اريد أن اربط نفسي على قـطار بغلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : قال والدي رحمه الله ، وسـمعته - يعني الفقيه الأجـل - يقول : سمعته - يعني نظام الملك - يقول : مذهبي في علو الحـديث غير مذهب اصحابنا ، انهم يذهبون إلى ان الحديث العالي مـا قـل رواته ، وعندي : إن الحديث العالي ما صح عن رسـول االله صـلى الله عليه وسلم ، وان بلغت رواته مائة .

قرات بخط الحسن بن جعفر بن عبد الصمد بن المتوكل ، وانبـأنا به الحسن بن المقير عنه ، قال : حدثني الشـيخ الامـام احمـد بـن محمود بن ابراهيم الضرير الآزجي المعروف بابن الصـياد صـاحب الشيخ أبي سعد المعمر بن علي بن المعمر الواعظ المعروف بابن أبي عمامة قال : سمعت من لفظ الشيخ الحسن بـن علي بـن اسـحق ، نظام الملك ، وفي سنة ثمانين واربعمائة ، قصـد الناس نظـام الملك ، واستجدوه ، وكثر عليه الناس والشعراء ، فلم يرد أحدا ممن قصده ، حتى قيل أنه لما خرج إلى(النهروان) تقدم بأن يثبـت مـا خـرج منه (٢٩٠ -ظ) مدة قبل مقامه ، فـكان مـائة الف ونيف وأربعين الف دينار .

اخبرنا ابو هاشم بن ابي المعالي الحلبي قال : اخبرنا عبد الكريم ابن محمد بن منصور قال : وقـرات بخـط والدي : سـمعت الفقيه الأجل يعني ابا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : كنت بمكة واردنا الخروج إلى عرفات ، فـأخبرني رجـل أن انسـانا مـن الخراسانية مـات في بعض الزوايا ، وانه انتفـخ وفسـد ، ولزمني القيام بحقه لما اديت من الأمانة إلي فيه ، فتمكثت لذلك .

قال : فرآني بعض من كان يأتمنه الصاحب نظام الملك على أمور الحاج فقال لي : ما وقوفك ها هنا والقوم قـد ذهبـوا ؟! فقلت : أنا

واقف لكذا وكذا ، فقال : إذهب ولا تهتم لأمر هذا الميت ، فـان عندي خمسين الف ذراع من الكرباس لتكفين الموتى من جهـة الصـاحب نظام الملك .

اخبرنا ابو هاشم بن ابي المعالي قال : اخبرنا تاج الاسلام ابـو سعد السمعاني قال : وكان اكثر ميله إلى الطـائفة المتصـوفية مـع الايمان بما كانوا يتوسلون به إليه مـن فنون الرؤيا ، فيقبلهـم على ذلك ، ويقربهم ، وينجح حوائجهم ، ويوصل إليهم مآربهـم ، ويقضي ديونهم ويدر عليهم الادرارات والمرسومات .

وحكي عن بعض المعتمدين انه قال : حـاسبت مـع نفسي وطـالعت الجرائد فبلغ ما قضاه الصدر من ديون واحد من المتنمسين المقبولين عنده في مدة سنين يسيرة ثمانين الف دينار حمر ، وكان صادقا فيما حكاه .

نقلت من خط عماد الدين ابي عبد الله محمد بن محمد بن حـامد الكاتب ، وانبأني عنه ابو الحسن محمد بن ابي جعفر وغيره ، قال : ومناقب نظام الملك اكثر من ان تحصى ، وحكى من احضر محـاسبة ابن اسمحا اليهودي بإحالاته وتـوقيعاته فـوجدها في اشـهر قـد اشتملت على ثلاثين الف دينار ، ليس فيها توقيع إلا لفقيه ، او فقير او شريف ، او لرجل من اهل بيت (٢٩٠ ـ و) .

اخبرنا أبو هـاشم قال : اخبرنا أبو سعد قال : سمعت ابـا الفضـل مسعود بن محمود الطرازي ببخارى يقول : سمعت شـيخنا الحسن بن الحسين الأندقي يحكي عن عبد الله الساوجي انه قـال : كان الوزير نظام الملك استأذن السلطان ملك شاه في سـفر الحـج ، فأذن له ، وكان ببغداد ، فعبر الدجلة ، وعبروا بالقماشات والآلات ، وضربت الخيام على شط الدجلة ، فكنت اريد ان ادخل إليه يومـا ، فرأيت على باب الخيمة واحدا من الفقراء يلوح مـن جبينه سـيماء القوم ، فقال لي : يا شيخ أمانة توصلها إلى الصاحب ، قلت نعـم ، فأعطاني رقعة مطوية ، فدخلت ، ولم انشر الرقعة ، وما نظرت فيها ، وحفظت الأمانة ، فوضعت الرقعة بين يدي الوزير فنظر فيها ، فبكى

بكاء كثيرا حتى ندمت ، وقلت في نفسي : ليتني كنت نظرت فيها ، فإن كان شيء يسوءه ما دفعته اليه ، ثم قال لي : يا شيخ ادخل علي صاحب الرقعة ، فخرجت فلم أجده ، فطلبته فلم اظفر به ، فأخبرت الوزير أني لم أجده ، فدفع إلي الرقعة ، فإذا فيها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وقال لي : اذهب الى الحسن وقل له اين تذهب إلى مكة ، حجك ها هنا أما قلت لك اقم بين يدي هذا التركي واغث أصحاب الحوائج من امتي ؟ فرجع النظام وما خرج .

قال : وكان يقول لي الوزير مرات :لو رأيت ذلك الفقير حتى نتبرك به ، فرأيته يوما على شط الدجلة وهو يغسل (٢٩١ -ظ) خريقات له ، فقلت له : إن الصاحب يطلبك ، فقال : ما لي وللصاحب كانت عندي أمانة فأديتها .

قال أبو سعد : وعبد الله الساوجي هو عبد الله بن حسنويه بن اسحق الساوجي من أهل ساوة ، نفق سوقه على الوزير نظام الملك حتى أنفق عليه وعلى الفقراء بإشارته واقتراحه في مدة يسيرة قريبا من ثمانين الف دينار حمر .

قرات بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وانبأنا عنه صديقنا ورفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار قال : وفيه - يعني محرم سنة خمس وثمانين وأربعمائة- مرض نظام الملك ، فلم يداو نفسه بغير الصدقة فعوفي .

اخبرنا أبو هاشم بن الفضل العباسي قال : أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال : وأما ميله - يعني نظام الملك - إلى أهل العلم ، ورغبته في أولي الفضل فهو انه لا يخلو مجلسه عنهم في اي قطر كان ، وكان بابه مجمع الأفاضل من الفقهاء للمناظرة بين يديه ، والشعراء والمترسلين يعرضون بضائعهم عليه ، فيقابل كل احد بما يليق به من خلعة او صلة . او إدرار على قدر حاله .

قال: سمعت ابا محمد عبد الله بن محمد بن حماد الطحان بقاسان يقول : سمعت عبد الله بن هرون البزاز يقول : كان نظام الملك في مجلس الشيخ أبي علي الفارمذي ، فبكى حتى ابتل ثيابه ،

فقال له : لا تبك كي ترشوي (٢٩٢ -و) يعني تصير ثيابك مبلولة : ثم قال بعد ساعة : لو كانت الدنيا بحذافيرها لانسان وانفقها في المصالح وسبل الخير لا يصل إلى الله بها ، ثم قال بعد ساعة : ينتقل من الدست إلى موضع الحساب ، وقال بالفارسية : اربيكشاه بحساب كاهت خواهند برد (١٢٥) .

وقال أبو سعد السمعاني : سمعت ابا البركات اسماعيل بن ابي سعد الصوفي ببغداد مذاكرة يقول : سمعت محمد الأصبهاني ، وكان مختصا بنظام الملك ، قال : كان النظام اذا دخل عليه الأستاذ أبو القاسم القشيري ، والامام ابو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو ، واذا دخل عليه ابو علي الفارمذي يقوم اليه ويجلسه في مكانه ، ويجلس بين يديه ، فقال لي ابو المعالي الجويني يوما ، قل للصدر عني : يدخل عليك الأستاذ ابو القاسم وهو إمام في كذا وكذا علم ، لا تكرمه هذا الأكرام الذي تكرم به هذا الشيخ يعني أبا علي الفارمذي ؟!

قال محمد الاصبهاني : وفي ضمن هذا الكلام تعريض بنفسه أيضا ، فاغتنمت خلوة من النظام وقلت يا مولانا إمام الحرمين قال لي : كذا على كذا ، وحكيت له ما قال لي ، فقال النظام :هو وأبو القاسم القشيري وأمثالهما اذا دخلوا علي يقولون لي أنت : كذا وانت كذا ، ويثنون علي ويطرونني بما ليس في ، فيزيدني كرمهم عجبا وتيها في نفسي ، واذا دخل علي هذا الشيخ - يعني أبا علي الفارمذي - (٢٩٢ -ظ) يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم ، فتتكسر نفسي وارجع عن كثير مما انا فيه ، ذكر لي هذا او معناه ، فإني كتبته من حفظي .

وقال السمعاني : قرات في بعض مسودات والدي رحمه الله بالري بخطه : سمعت : الفقيه الأجل ابا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : سمعت الصاحب نظام الملك يوصي ابني ويقول : انك شرعت في أمر - يعني الفقه - فلا تقنع فيه بالاسم ، واذا تناهيت فيه فلا تغرر بنفسك ، وايقن أن ما لا تعلم اكثر مما تعلم ، ثم حكى

الصاحب أن الامام ابا حامد الغزالي الصوفي كان رحل إلى أبي نصر الأسماعيلي بجرجان ، وعلق عنه ، ثم رجع الى طوس ، فقطع عليه الطريق ، وأخذ تعليقه ، فقال لمقدم قطاع الطريق : ردوا علي تعليقتي ، فقال : وما التعليقة ؟ قال : مخلاة فيها كتب علمي ، وقصصت عليه قصتي ، فقال لي : كيف تعلمت وانت تأخذ هذه المخلاة تتجرد من علمك ، وبقيت بلا علم ! فردها علي ، فقلت : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدني لأمري ، قال : فدخلت طوس ، واقبلت على امري ثلاث سنين حتى تحفظت جميع ما علقت ، فصرت بحيث لو قطع الطريق لا احرم علمي .

قال ابو سعد : قرات في كتاب سر السرور لصديقنا القاضي ابي العلاء محمد بن محمود الغزنوي أن نظام الملك كان في بعض أسفاره اذ صادف راجلا في زي (٢٩٣ -و) العلماء قد مسه الكلال ، واضجره التعب ، فقال له نظام الملك : أيها الشيخ أعَيِيت أم أُعْيِيْتَ ؟ فقال الرجل : أعييت يا مولانا فتقدم إلى حاجبه ليقرب إليه بعض الجنائب ويصلح من شانه ، واخذ في أصطناعه ، وانما أراد ليمتحن فضله وعلمه باللغة ، فان عيي في اللسان وأعيي في المشي.

قال : وذكر انه ولى رجلا قضاء سرخس فلم يرتض طرائقه فيه فصرفه بآخر وتوسل المعزول بشفاعة بعض الأكابر ، فوقع نظام الملك على ظهر كتاب الشفاعة قلدناه امرا عظيم الخطر ليوم الفزع الأكبر ، فأثاقل وتقاعد عن حسن القيام به ، ولم يبال بالتفريط في جنب الله ، الم يعلم انه المقلد لا المخلد !

اخبرنا ابو هاشم قال : اخبرنا ابو سعد قال : سمعت أبا الحسن علي بن احمد بن الحسين اليزدي الفقيه قال : سمعت أبا نصر محمود بن الفضل الأصبهاني يقول : سمعت نظام الملك ابا علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير برد الله مضجعه يقول : رأيت في المنام ابليس في صورة رجل طوال مصفار اللون كوسجا(١٢٦)فلما وقع بصري عليه عرفت أنه ابليس ، فقلت : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، فلم يبرح من موضعه ، فأعدت هذه الكلمة عليه مرات

بصوت ، وانا اقول في نفسي ما اعجب ذلك ، هذا ابليس ولا يهرب من قول «لا حول ولا قوة إلا بـالله العـظيم » فـكنت في ذلك وانا رافـع صوتي (٢٩٣ -ظ) بها اذ ترآى لي بيت خلف ظهره فدخل . فقلت له : يا لعين انت خلقك الله وامرك بسجدة واحدة ، فخـالفته ، حتـى لعنك ولعن متابعيك ، وانا الحسن بن علي بن اسحق امرني بالسجدة فاسجد له كل يوم سجدات ، لا جرم ما من حاجة ارفعهـا عليه إلا ويستجيبها لي وانا في كل نعمة وراحة منه ، فقال :

من لم يكن للوصال أهلا

فكل احسانه ذنوب

اخبرنا ابو هاشم قال : اخبرنا ابو سعد قال : قرات بخط والدي رحمه الله سمعت الفقيه الأجل ابا القـاسم عبـد الله بـن علي بـن اسحق يذكر أن الصاحب نظام الملك اخاه كان يقول : كنت أتمنى أن يكون لي قلاية خالصة ومسجد أتخذ فيه لطاعة ربي ، ثـم بعـد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة من الأرض بشربها ، ، أتقـوت بـريعها ، ومسجد أتخلى فيه لعبادة ربي في جبل ، ثـم الآن اتمنى ان يكون لي رغيف كل يوم ، ومسجد أتعبد فيه لربي .

قال ابو سعد : قال والدي رحمه الله وسمعته يقول : كنت ليلة من الليالي عنده وانا على أحد جانبيه ، والعميد خليفـة على الجـانب الأخر ، وبجنب العميد الخليفـة فقير مقـطوع اليد اليمنى ، قـال : فشرفني الصاحب بالمؤاكلة ، وجعل يلحظ العميد خليفـة كيف يؤاكل الفقير ، قال : فتنزه خليفة من مؤاكلة الفقير لما رآه يأكل بيساره ، فقال لخليفة : تحول (٢٩٤ -و)إلى هذا الجانب ، وقال للفقير : إن خليفة رجل كبير في نفسه يستنكف من مؤاكلتك ، فتقدم إلي ، وأخـذ يؤاكله .

وقال : قرات بخط الامام والدي رحمه الله : سـمعت الفقيه أبـا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق الطوسي يقول : دخل اخي نظـام الملك على الامام أبي الحسن الداوودي وقعد بين يديه . وتـواضع له

غاية التواضع . فقال له الامام ابو الحسن : أيهـا الرجـل إن الله سلطك على عبيده . فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم .

قلت : هذا ابو الحسن الداوودي هو عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود بن احمد البوسنجي كان من العلماء الأبرار ، وهـو يروي كتاب البخاري عن الحموي .

قرات بخط ابي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، وأخبرنا ابو الحسن بن ابي جعفر إجازة عنه . قال : وكان نظام الملك من طوس ، وأهل طوس ، يقال لهـم في اصطلاح الناس بقر طوس ، و كان للخزانة صائغ يقال له حسين ، حسن الصناعة في الصياغة ، قال : استدعاني يومـا نظام الملك . وقال : احضر لي قوالب لعمل سخوت ، فأحضرتها له فأول ما وقعت يده على قالب فيه صورة البقر ، وقد كنت غفلت عن الحديث ، فعجل وقال : يا استاذ ما تخلينا من يدك ، فلم يترك الظرف واللطف مع جلالة قدره ، وكبر سنه

اخبرني ابو علي الحسن بن اسماعيل القيلوي بحلب قال :قرات في بعض مطالعاتي ان الشريف ابا يعلى (٢٩٤ -ظ) بن الهبارية كان له رسم على الوزير نظام الملك فنظم قطعتين من الشعر ، احديهما يمدحه فيها ويقتضيه رسمه ، والأخرى يهجوه فيها ، وترك الورقتين اللتين فيهما الشعر في عمامته ، وحضر عند نظام الملك ، وأراد أن يدفع إليه الرقعة التي فيها الاقتضاء ، فدفع إليه الأبيات التي هجاه فيها ، واذا فيها مكتوب :

لاغرو أن ملك ابن اسحق وساعده القدر
وصفا لدولته وخص ابا الغنائم بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

يعني بأبي الغنائم تاج الملك ، وكان من أصحاب السلطان ملكشاه ، وكان بين نظام الملك وبينه عداوة .

قال : فلما قرأ نظام الملك الابيات وقع على رأسها: يطلق لهذا القواد رسمه مضاعفا ، وناوله إياها ، فأخذ ابن الهبارية الرقعة ، فلما

نظرها اخذ يعتذر ، فقال له النظام : لا تقل شيئا ، وخذ الرقعة ، وامضِ إلى الديوان ، فمضى وأخذ رسمه
قال : إن ابن الهبارية هجاه بعد ذلك بقوله :

لايشمخن بأنفه
غير الكريم المفضل

اهون بفقري والكلاب
على عيال ابي علي

فأهدر دمه ، ثم عفا عنه ، والقصة قد ذكرناها في ترجمة أبي يعلى بن الهبـارية (١٩٥ -و) ، وقيل إن الأبيات الرائية للأبيوردي ، والصحيح انها لابن الهبارية .

قرات بخط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة في دستور جمعة قال الفقيه الأبيوردي يهجو خواجا بزرك وزير السلطان ملك شاه رحمه الله ، وهو الوزير ابو علي الحسن بن اسحق :

لا غرو أن وزر ابن اسحق وساعده القدر
وصفت له الدنيا وخص ابو الغنائم بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

ولما تمت هذه الأبيات إلى الوزير رحمه الله استدعى الأبيوردي وكانت اياديه عنده جمة ، وله عليه رسوم في كل سنة لها قيمة كبيرة ، فلما مثل بين يديه قال له : يا هذا بـم استوجبن منك أن تهجوني تعصبا بعدوي علي ؟

وهذا ابو الغنائم الذي ذكره هو تاج الملك عدو الوزير ، فأنكر أن هذا شعره ، فقال له الوزير : إن لزمت الانكار احضرت من أنشدنيها ، فواقفك عليها ، ومع هذا فأنت تعلم ما لي عندك من الأيادي التي لا تذكر ، وما كنت تسألني فيه من الحوائج التي تؤخذ عليها الأموال مع الرسوم ، فلاذ الفقيه بالعذر ، واعترف انها من جملة غلطاته التي لا تستقال ، وعثراته القبيحة ، فقال له الوزير : لا شك أن الرسوم

التي لك لا تكف و لاتكفي ، وقد تقدمت باضعافها لك ، فـــاقبضـها ولا تغلط بعد ذلك .

ونقلت من خط العماد الكاتب ابي عبد الله محمد بن محمــد بــن حامد وذكر شعرا (٢٩٥ –ظ).... ١٢٦ العجم فيه – يعني في نظام الملك – :إن الله اقام الأرض على قرن ثور وملكها الثور

اخبرنا ابو هاشم الصالحي قال : اخبرنا عبد الكريم بن ابي بكر المروزي قال : انشدني كيخسره بن يحيى بن بــاكير الفـــارسي مــن حفظه أملاه علي قال : أنشدني ابو زكريا يحيى بــن علي التبــريزي للسيد العلوي البلخي :

تولى الأرض اعجاز لئام
وباد سوالف كرمت وهاموا(١٢٨.

كذاك الدور إن خربت واقوت
تولاهن اصداء وهام

قال عبد الكريم : قال لي كيخسره بن علي : قـــال لي ابــو زكريا التبريزي : قال السيد البلخي لما افضــت الوزارة إلى نظــام الملك في حقه ، فلما بلغ البيتان إليه ارسل بي إليه ، واستأذن في زيارته ، فاذن فزاره وحمل معه بمائة الف درهم اغراضـــا ودنانير ، واعتــذر إليه وكأنه هجاه بهذين البيتين ، ثم تعاهدا على أن يعود على شــغله في الاستيفاء فوفيا بالعهد إلى أن مات .

أخبرنا ابو هاشم قال : اخبرنا ابو سعد قال : سمعت محمد بــن يحيى بن منصور الجنزي الامام يقول : سمعت في حياة والدي رجلا يقول : اقام والدي في حجرة النظام الوزير ثلاثة أيام بلياليها ما اكل فيها ولا شرب ، وكان الفراش قد نسي أن يقدم له شيئا إلى أن تنبــه النظام لذلك ، فقام بنفسه وحمل إليه الطعام بنفسه .

قال الامام محمد بن يحيى : فحكيت هذه الحكاية لوالدي .فسكت.
قرات بخط ابي الحسن علي بن مــرشد بــن علي بـــن منقـــذ

(٢٩٦ -و) في تاريخه قال : حدثني ابي عنه - يعني نظام الملك - قال : كان رجلا يصوم الدهر ، وله في أصبهان اربع نسوة يعمل له في كل دار طعام ولأصحابه ومن يكون عنده بقيمة وافية ، فأي دار أراد ان يجلس بها كان الطعام الكثير معدا له - كما قال - : عشرة رؤوس غنم مشوية ، وعشرة الوان وعشرة جامات حلواء .

سمعت القاضي ابا عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر الحنفي قاضي العسكر رحمه الله ، وقد جرى ذكر نظام الملك وميله إلى اهل العلم ، يقول : كان نظام الملك يتعصب للشافعية كثيرا ، فكان يولي الحنفية القضاء ، ويولي الشافعية المدارس ، ويقصد بذلك ان يتوفر الشافعية على الاشتغال بالفقه ، فيكثر الفقهاء منهم ويشتغل القضاة بالقضاء ، فيقل اشتغالهم بالفقه ويتعطلون .

قرأت بخط ابي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، وانبأنا عنه ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن القاضي وغيره قال : كان عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك رئيس مرو ، وهناك شحنة مرو مملوك السلطان بردي فقبض عليه لأمر جرى منه ، ثم اطلقه ، فجاء مستغيثا ، فنفذ السلطان تاج الملك ، ومجد الملك وجماعة ارباب دولته وقال لهم : امضو إلى خواجه حسن وقولوا له : إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم، وإن كنت تابعي فيجب أن تلزم حدك ، وهؤلاء اراذل قد استولى كل واحد منهم على مملكة ، فواحد ببلخ ، وواحد بهراة ، وواحد ببلد كذا ، ثم لا يقنعهم ذلك حتى يتجاوزوا (٢٩٦ -ظ) حدودهم في سفك الدماء ، وقال للأمير بكبرد وكان من خواصه ، كن معهم حتى لا يحرفوا ما يقول .

فاتوا إلى نظام الملك وقالوا له ، فقال : نعم ، قولوا له : أما علم انني شريكه في الملك ، أو ما يذكر حين قتل أبوه كيف قمت بتدبير امره ، واعلموا أن ثبات القلنسوة معذوق بفتح هذه الدواة ، ومتى اطبقت هذه ، زالت تيك التي يقر ، فقال له الرسل : قد كبرت يا مولانا وقد ضجرت ، وقد أثر فيك الأمران وعدلا بك عن الراي الذي ما زالت الآراء معه ، فقال لهم : قولوا للسلطان عني ما أردتم ، فقد

دهمني ما لحقني من توبيخه فلما خرجوا من عنده قالوا : الصواب أن لا نذكر ما قاله ، وعرفوا بكبرد حرمة مكانه ، وسألوه أن لا يخبر بما جرى ، فلم يفعل ، ومضى بكبرد من حاله ، وأخبر السلطان ، وبكر الجماعة فوجدوا السلطان جالسا ينتظرهم فقال لهم : ما قال لكم ؟ قالوا : قال : أنا وأولادي عبيد دولته ، فقال السلطان : لم يقل هكذا ، ثم وقع التدبير في أمره .

وقال : في ليلة السبت عاشر شهر رمضان قتل نظام الملك في نهاوند ، بين نهاوند والسحنة وهو سائر مع العسكر إلى بغداد ، وذلك بعد أن فرغ من افطاره ، وتفرق من كان على طبقه من العلماء والفقراء والأجناد ، وحمل في محفة إلى مضرب حرمه ، فأتاه صبي ديلمي في صورة مستميح أو مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه ، وهرب ، فوقع في عثرة عثرها بطنب خيمة فأدرك (٢٩٧ -و)فقتل ، وركب السلطان ملك شاه إلى مخيم نظام الملك ، وسكن معسكره [٥٠] .

وحكي أن أحد الصالحين قال لنظام الملك وهم في الافطار : رأيت في بارحتنا كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاك وأخذك فتبعته ، فقال : ارجع أيها الرجل فلهذا أبغي ، فأولها .

نقلت من خط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وأنبأنا به عنه رفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار قال : وفي ليلة السبت عاشر شهر رمضان - يعني من سنة خمس وثمانين - قتل نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي الله عنه قريبا من نهاوند وهو سائر مع العسكر في محفة ، فضربه صبي ديلمي في صورة مستميح أو مستغيث ، بسكين كانت معه ، فقضى عليه ، وأدرك فقتل ، وجلس لعزائه عميد الدولة ابن جهير ببغداد .

وفضائله المشهورة في كل مكان وزمان تنوب عن لسان مادحه ، وأفعاله الصالحة من المدارس ، والربط ، والقناطر ، والجسور والصدقات الدارة باقية على الأيام .

وتحدث الناس ان قتل نظام الملك كان برضى من السلطان وتدبير تاج الملك ابي الغنائم ، واشارة تركان خاتون لأنهم كانوا عزموا على تشعيث خاطر المقتدي ، وكان نظام الملك يمنعهم من ذلك .

قال ابن الحصين : وبلغني انا ابا نصر الكندري لما عزل عن وزارة السلطان ، وفوضت الوزارة إلى نظام الملك ، وحبس وسعى (٢٩٧ –ظ) نظام الملك في قتله ، فلما هم الجلاد بقتله ، قال له : قل للوزير نظام الملك : بئس ما فعلت ، علمت الاتراك قتل الوزراء واصحاب الدواوين ، ومن حفر مغواة وقع فيها ، ومن سن سنة فله وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ، ورضى بقضاء الله المحتوم ، فكان الامر كما قال .

قرات بخط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه قال : سنة خمس وثمانين واربعمائة فيها : قفز باطنية على خواجا بزرك ببغداد وهو محمول في محفته التي كان يحمل فيها من ضعفه وكبره في تاسع شهر رمضان ، فجرحه وحمل الى داره التي ببغداد ، فجاء السلطان ملك شاه يفتقده ويتوجع له ، فقال له خواجا : ياسلطان العالم كبرت في دولة ابيك ودولتك ، كنت تمهلت علي فما بقي من عمري الا القليل ، او صرفتني ولا امرت ان يفعل بي هكذا ، فاخرج السلطان مصحفا في تقليده ، وحلف له بما فيه انه لم يأمر ولم يعلم ، ثم قال : وكيف استجيز هذا وانت بركة دولتي ، وبمنزلة ابي : وكان الذي اتهم بذلك متولي الخزانة تاج الملك ابا الغنائم . قال ابن منقذ : حدثني ابي عنه قال : فمات خواجا ، ومضى السلطان فمات في العشر الاخير من شوال .

قال : وذكر ان السلطان لما مات اجتمع مماليك خواجا بزرك ، وكانوا في سبعة الاف مملوك مزوجين الى سبعة الاف مملوكة ، فقتلوا تاج الملك على ما نذكر في ترجمة تاج الملك (٢٩٨ ـ و) . كذا قال ابن منقذ انه قتل ببغداد وحمل الى داره التي ببغداد . وهو وهم ، والصحيح انه قتل بقرب نهاوند وهو متوجه الى العراق . نقلت من كتاب الاستظهار في التاريخ على الشهور تاليف القاضي ابي

القاسم على بن محمد السمناني قال : في شهر رمضـان مـن سـنة خمس وثمانين واربعمائة قتل الشيخ الكبير قوام الدين نظـام الملك ابو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي امير المؤمنين رضي الله عنه في ظاهر نهاوند وهو سائر الى العراق ، قتله انسان ديلمي غيلة بعد الفطر ليلة الجمعة حادي عشر منه .

وكان مولده في ذي القعدة من سنة ثمان واربعمائة ، وبقي في الامر وزيرا ، وناظرا ، ومشرفا نحو خمسين سنة ° وبلغ في الوزارة مـا لم يبلغه احد من وزراء الدولتين . وكان يضرب له الطبل والقصـاع ثلاث صلوات حضرا وسـفرا ، وهـو الذي بنى الدولة السـلجوقية واسس قواعدها ، وتفتحت الدنيا على يديه . وكان صدوق اللسـان جيد الراي كبير النفس حليما وقورا يصلي بالليل . ويصوم في اكثر الاوقات .

وهـو اول وزير بنى المدارس في البـلاد . واجـرى على المدرسين ،والمتفقة ، والأدبـاء والشـعراء ، وأهـل البيوتـات ، والرؤساء ، ولم ينظر قط إلى ظهر محروم ، وما قصده أحد في أمـر إلا ناله أو معظمه ، فأما الحرمان فلا ، ولم يبق عليه مـن عظيم الملك غير ما فعله وبناه وخلد به ذكره في العالم ، وفاق بـه على جميع مـن تقدم ، رضي الله عنه وارضاه (٢٩٨ – ظ) واحسن له الجزاء عني فلقد وصلني في سبع سفرات بألف واربعمائة دينار من مـاله ،غير الثياب والنزلة والاقامة ، واجرى علي من بيت المال سبع مائة دينار وعشرين دينارا في كل سنة ، وولاني قضاء الرحبة والرقـة وحـران وسروج وحلب وأعمال ذلك كله ، وخاطبني بالقاضي السديد العـالم ، بحر العلماء ، عين القضـاة في مـكاتبته إلي ، فـأحسن الله له عني الجزاء .

وكان يكرم العلماء على اختلاف مـذاهبهم ، وله فضـل وكرم وبصيرة بالرجال ، قريب من القلوب ، لا يتشاغل إلا بتلاوة القـرآن وسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومناظـرة الفقهـاء بين يديه ، وتقدم في زمانه من لم يكن متقدما من الرجال ، وتأخر من

كان متقدما ، واسترجع الممالك كلها ، وقبضها إلى السلطان .

وهو اول من اقطع البلاد والضياع للعساكر والأجناد ، وكان يرعى لأهل البيوتات بيوتهم وللعلماء علمهم ، وللشعراء شعرهم ، وللأدباء ادبهم ، وللأشراف شرفهم ، وكان امر الدولة في الزيادة إلى ان شاركه في الراي غيره ، وداخل السلطان سواه ، فهلكت الدولة ، ولم يبق السلطان بعده إلا نيف وثلاثون يوما رضي الله عنه .

ذكر ابو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني في كتاب عنوان السير في محاسن اهل البدو والحضر وقال : نظام الملك ، ابو علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي، وزر للسلطان ألب أرسلان ، ولولده السلطان ملك شاه تسعا وعشرين سنة (٢٩٩ ــ و) وقتل بالقرب من نهاوند في الليلة الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، وعمره ست وسبعون سنة ، وعشرة اشهر ، وتسعة عشر يوما ، اغتاله احد الباطنية وقد فرغ من فطوره. وقيل ان السلطان ملك شاه ولف عليه من قتله لانه سأم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة ايام .

وتقدم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم ، وافضل على الخلق الافضال الكثير ، وعم الناس بمعروفه ، وبنى المدارس لاصحاب الشافعي ، ووقف عليهم الوقوف ، وزاد في الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء ، ولم يبلغ احد منهم منزلته في جميع اموره ، وعبر جيحون فوقع على العامل بانطاكية ما يصرف الى الملاحين ، وملك من الغلمان الاتراك الوفا عدة ، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

وتحدث ابو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي قال : سالته عن السبب في تعظيمه الصوفية ، فقال : اتاني صوفي وانا اخدم ابن ياخر الامير التركي ، فوعظني وقال : اخدم من تنفعك خدمته ولا تشتغل بمن تاكله الكلاب غدا ، فلم اعرف معنى قوله ، فاتفق ان ابن ياخر شرب من الغد ، واغتبق ، وكانت له كلاب كالسباع تفرس السباع بالليل ، فغلبه السكر وخرج وحده ، فلم تعرفه الكلاب ، فمزقته ،

فعلمت ان الرجل كوشف ، فانا اطلب أمثاله .(٢٩٩ ــ ظ).

اخبرنا ابو القاسم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن رواحة الحموي بحلب ، وابو يعقوب يوسف بن محمود الساوي بالقاهرة عن الحافظ ابي طاهر احمد بن محمد بن احمد الاصبهاني نزيل الاسكندرية قال : سمعت صواب بن عبد الله الخصي النظامي ببغداد يقول : قتل مولاي الوزير ابو علي الحسن بن علي بن اسحق شهيدا في رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، بقرب نهاوند ، وكان اخر كلامه ان قال : قل للعسكر : لاتقتلوا قاتلي فاني قد عفوت عنه ، وتشهد ومات ، فمضيت انا فاذا هو قتل ، ولو قلت لهم لما قبلوا قولي.

اخبرنا الشريف عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا الامام تاج الاسلام ابو سعد السمعاني قال : سمعت ابا الفضل محمد بن ناصر ابن محمد بن علي السلامي الحافظ يقول : استشهد ابو علي الحسن ابن علي بن اسحق الوزير وهو متوجه الى العراق بقرية يقال لها سحنة ، في شهر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة.
قلت: وزرت قبره باصبهان.

وقال ابو سعد : قرأت بخط والدي رحمه الله بالري : سمعت الشيخ الفقيه الأجل ابا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : حكى لي بعض من رآه ــ يعني اخاه نظام الملك ــ في المنام ، فسأله عن حاله ، فقال : لقد كاد أن يعرض علي جميع عملي لولا الحديدة التي اصبت بها .

اخبرنا ابو يعقوب يوسف بن محمود بن الحسين بالقاهرة قال : انبأنا الحافظ ابو طاهر أحمد بن محمد السلفي قال : سمعت أبا مسلم داود بن محمد بن الحسن القزويني ، بقزوين ، يقول : سمعت (٣٠٠ ــ ظ) ابا بكر الطحان الصوفي بهمذان يقول : راى الشيخ ابو عمر عثمان الكرجي الصاحب ابا علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي الوزير في المنام وكأنه في الجنة وهو متوج بتاج مرصع بالجواهر ، قال : فقلت : بأي شيء بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : بفضل الله وحده .

أخبرنا عبد المطلب بن أبي المعالي قال : أخبرنا عبد الكريم بن محمد قال : انشدنا ابو مضر طاهر بن مهدي الطبري املاء بنيسابور قال : وانشدني ابو عبد الله محمد بن الحسن الأرزني املاء من حفظه ، قال أبو مضر: بمرو ، وقال أبو عبد الله: بجبل تروع ، قالا : انشدني شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية البكري لنفسه في مرثية نظام الملك :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة

يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزت ولم تعرف الأيام قيمتها

فردها غيرة منه الى الصدف

الحسين بن علي بن ملهم

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي أبو علي الأمير مكين الدولة وأمينها أحد الأمراء في الأيام المستنصرية ، انتدبه الوزير الناصر للدين ابو محمد الحسن اليازوري للتوجه الى رياح وزغبة بخلع سنية وانعام كثيرة ليصلح بينهم ، وكانت تنزل بطرابلس المغرب وما والاها ، وقد حدثت بينهما حروب فسار وتلطف حتى تحمل ما بينهما من الديات وازال الضغائن من بينهما ، وكان رجلا سديدا عاقلا مستحكم الرجحان ، فلما تم له ما اراد من ذلك زاد في اقطاعاتهم وبعثهم على معاندة معز بن باديس صاحب افريقية (٣٧٠ ـ ظ) حتى ساروا اليه وحاربوه واخرجوه منها ، واخربوا القيروان الى اليوم .

ثم انه لماحدث الغلاء بمصر سنة سبع واربعين واربعمائة جهز ميخائيل متملك الروم بالقسطنطينية مائة الف قفيز غلة الى انطاكية حتى تحمل الى مصر توسعة للناس ، وجهز هدية الهدنة على العادة وهدية سنية من ماله فثار به الروم وقتلوه ، واقاموا بعده ابن سقلاروس (١٣٠) فمنع من ماله الهديتين والغلة من المسير الى مصر وقال انا انفق ذلك على حرب المسلمين فبلغ ذلك الوزير الناصر للدين ابا محمد الحسن اليازوري فسير مكين الدولة بن ملهم الى اللاذقية في عسكر كبير فحاصرها مدة ، فبعث اهلها الى ابن سقلاروس بما هم فيه ، وكاتب المستنصر في ذلك ، وما الذي اوجبه فاجيب بان المقتضى لهذا تعويق الغلة والهدية ، وطالت المكاتبات بينه وبين المستنصر فبعث الوزير جيشا ثانيا عليه الامير السعيد ليث الدولة ، ففتحت ا للاذقية ، ووقع العيث فيها ، وجال ابن ملهم في اعمال انطاكية ، ثم اردفه بجيش ثالث عدته ثلاثة الاف وعليهم الامير موفق الدولة حفاظ بن فاتك ، والامير ابو الجيش عسكر ، ومقادة جميع

الجيوش الى الامير مكين الدولة ، فساروا اليه ، واوغل في بلاد الروم يقتل ويأسر حتى أنكى النكاية البالغة ، وما زال على ذلك حتى قتل الوزير اليازوري ، فحمل ابن سقلاروس ثمانين قطعة في البحر ، فحاربت ابن ملهم واسرته ومن معه من اعيان العرب لليلتين بقيتا من شهر ربيع الاخر سنة خمسين واربعمائة : ثم انه تسلم قلعة حلب من معز الدولة ابي علوان ثمال بن صالح بن مرداس ، وسار ثمال الى مصر فلم يزل بحلب الى ان اخذ المدينة محمود بن نصر بن صالح في جمادى الاولى سنة اثنتين وخمسين فانحاز الى القلعة ، وكتب الى مصر يطلب نجدة ، ثم تسلم محمود القلعة في شعبان من السنة المذكورة .

جناح الدولة حسين

(من بغية الطلب لابن العديم)

حسين ، ويلقب باقي الدولة ، كان تاج الدولة تتش بن الب ارسلان قد ولاه حلب ومكنه فيها ، واستولى عليها حين قتل تاج الدولة ، فلما بلغ خبر قتله رضوان بن تتش ، وكان متوجها الى ابيه عاد الى حلب فسلمها اليه ، وتسلمها رضوان منه . ومن وزير ابيه ابي القاسم ابن بديع في سنة ثمان وثمانين واربعمائة .

انبانا ابو نصر القاضي قال : اخبرنا ابو القاسم علي بن الحسن قال كان بدمشق ، يعني رضوان بن تتش عند توجه ابيه الى ناحية الري ، فكتب اليه يستدعيه ، فخرج اليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير ابي القاسم وكان المستولي على امرها باقي الدولة (١٩٧ ـ ظ) حسين في سنة ثمان وثمانين واربعمائة .

كذا ذكر الحافظ الدمشقي(١٣١) وهو حسين جناح الدولة صاحب حمص اتابك رضوان بن تتش ومدبره ، كان تاج الدولة تتش حين قتل قسيم الدولة آق سنقر وتسلم البلاد ، سلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وجعله اتابك (١٣٢) عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة تتش كان حسين يدبر امر رضوان وهو صبي بحلب ، فاستشعر جناح الدولة حسين من رضوان فهرب وانفصل عنه ومضى الى حمص ومعه زوجته أم الملك رضوان ، وعند هربه في الليل كسر باب العراق وخرج منه ، وبعد وصوله الى حمص كبس عسكر رضوان على سرمين ، واسر ارباب دولته وديوانه ووزيره ابا الفضل ابن الموصول ، ومات صاحب الرحبة زوج امنة بنت قمار ، فخرج جناح الدولة اليها لياخذها ، فوجد دقاق قد سبقه اليها في سنة ست وتسعين ، فعاد منها ، ونزل نقرة بني أسد ، وخرج اليه رضوان الى النقرة ، واصطلحا واخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ،

واقام في ضيافته عشرة ايام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصــاحبه ، وسار جناح الدولة حسين الى حمص واقام بهــا الى ان نزل يومــا لصلاة الجمعة فهجم عليه جماعة من الاسماعيلية ، تقــربا الى الملك رضوان ، لما كان قد تجدد بينه وبينه مــن الوحشــة ، وكان حســين رجلا شجاعا باسلا ذا رأي سديد وفيه دين وخير .

انبأنا ابو الحسن محمد بن أبي جعفر بــن علي عن الأمير مــؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ قال : وتسلم قسيم الدولة آق ســنقر مدينة حمص ، يعني من خلف بن ملاعب ، وقلعتها ، فلما قتل قســيم الدولة ، قتله تاج الدولة ، وتســلم البــلاد ، وســلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وهو اتابك عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة بالري استشعر جناح الدولة حسين من الملك رضوان ، وانفصل عنه ووصل الى حمص فنزل من القلعة الى الجامع يوم الجمعة للصلاة فلما وصل مصلاه اتاه ثلاثة نفر من عجم (٢٩٧ ــ ظ) البــاطنية في زي الصوفية يستميحونه ، فوعدهم ، فهجموا عليه بســكاكينهم ، فقتلوه رحمه الله ، وقتلوا معه قوما من اصحابه ، وقتلوا وقتل نفــر كانوا في الجامع ، من الصوفية العجم بالتهمة وهم ابرياء ، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ست وتسعين واربعمــائة : واختبط البلد ، وخافوا من الافرنج ، فراسلوا شــمس الملوك [١٣٣] يلتمسون منه انفاذ من يتسلم حمص وقلعتها قبل أن يخــرج إليهــا ويتسلمها من الافرنج من تمتد اطماعهم ، فتوجه شمس الملوك إليها وتسلمها ، واحسن إلى أولاد جناح الدولة ، وسار بهم إلى دمشق ، فاقر عليهم إقطاع ابيهم .

قرات في تاريخ ابي المغيث منقذ بن مرشد بن منقــذ ، وفيهــا ، يعني سنة ست وتسعين واربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة حسين فقتلوه وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب ، وكان ذلك من تدبير أبي طاهر الصائغ ، وخدمة للملك رضوان ، واســتولى بعــده قراجا على حمص .

قرات في مدرج وقع إلي بالقاهرة بخط العضد مرهف بن اسامة بــن

مرشد بن منقذ يتضمن ذكر واقعات وقعت ذكرها على وجه الاختصار ، قال : سنة ست وتسعين ، يعني واربعمائة ، فيها قتل جناح الدولة بحمص في يوم الجمعة .

قلت : وكان قتله في الثاني والعشرين من شهر رجب بتدبير الحكيم أبي الفتح المنجم الباطني ، ورفيقه ابي طاهر ، وقيل كان ذلك بأمر رضوان ورضاه ، وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات .

انبانا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله العظيمي ، ونقلته من خطه قال :

سنة ست وتسعين واربعمائة فيها قتل الباطنية جناح الدولة بحمص في الجامع يوم الجمعة ، ستة نفر(١٣٤)، أحدهم يعرف من اهل سرمين .

وفيها مات الحكيم العجمي المنجم الباطني بحلب ، (١٩٨ ـ و) .

حميدان بن حواس العقيلي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

ويقال فيه حمدان ، والأول أشهر • ولي دمشق من قبل العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله سنة ثمان وستين وثلاثمائة ، بعد ظفره بهفتكين الشرابي • بعثه إليها في نحو مائتي رجل • وكان قسام إذ ذاك متغلبا على دمشق ، فلم يكن لحميدان مع قسام أمر • ولم تطل مدته حتى وقع بينه وبين قسام ، فأطرده العيارون من أصحاب قسام ، وخرج هاربا من البلد ،فنهبوا داره • وقوي أمر قسام • فجاءت القرامطة جعفر وإخوته ، فنزلوا على دمشق فمنعهم قسام من البلد وعمل على قتالهم فساروا الى الرملة •

فولي دمشق بعد حميدان أبو محمود •

ويقال إنه ولي دمشق في سنة واحدة ، وهي سنة ثمان وستين هذه ، ظالم بن مرهوب العقيلي ، والقرمطي ، ووشاح وحميدان وابو محمود •

حيدرة بن حسين

(من المقفى المقريزي ــ مجلدة برتو باشا)

حيدرة بن حسين بن مفلح ، الأمير المؤيد ، مصطفى الملك ،معز الدولة ذو الرئاستين ، ابن الأمير عضب الدولة ٠

ولاه المستنصر بالله إمرة دمشق ، فخرج من القاهرة في مستهل شهر رجب سنة إحدى وأربعين وأربعمائة وصرف بناصر الدولة ابي عبد الله الحسن ، ابن ناصر الدولة ابي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان في نصف رجب سنة خمسين وأربعمائة ٠

خلف بن ملاعب

(من بغية الطلب لابن العديم)

خلف بن ملاعب الأشهبي الملقب سيف الدولة ، كان كريما شجاعا ، جبارا ظالما ، يقطع الطريق ، ويخيف السبيل ، وإليه تنسب قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية ، وكان في يده حمص وافامية ، فكتب الولاة بالشام إلى السلطان ملك شاه ، وشكو إليه خلف بن ملاعب ، فكتب الى اخيه تاج الدولة تتش صاحب دمشق والى قسيم الدولة أق سنقر صاحب حلب ، وإلى (٢٢٠ ـ ظ) بزان صاحب الرها ، وإلى يغي سغان صاحب انطاكية يأمرهم بمحاصرته ، وانتزاع معاقله من يده وحمله إليه .

فاجتمعوا عليه وهو بحمص ، وسبقهم بزان فلم يمكنه من الخروج من حمص ، فافتتحوا حمص ، وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه ، فأطلق حمص لأخيه تتش ، وحبس ابن ملاعب : وبقي في حبسه إلى أن أطلقته خاتون امرأة السلطان ملك شاه .

فمضى إلى مصر ، إلى الأفضل أمير الجيوش جماعة من أهل افامية في سنة تسع وثمانين ، وقيل سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وكان ولائهم فيها (له) ، والتمسوا منه واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم على ابن ملاعب ٠

فوصل في ذي القعدة من إحدى السنتين ،ودخل افامية وملكها ،وتجددت وحشة بينه وبين ابن منقذ ،أظنه ابا المرهف نصر ابن علي بن منقذ ،وكان قسيم الدولة أق سنقر حين فتح أفامية جعله بها ،واتصلت غارات ابن ملاعب على شيزر ،وكفر طاب ،والجسر ،وزحف ابن منقذإليه ومعه خلق ورجالة ،فظفر بهم ابن ملاعب ،وكان في نفر يسير ،فقتل جماعة واسر جماعة ،وباعهم أنفسهم ،واستقرت الحال بينهم بعد ذلك ٠ثم عمل الباطنية حيلة

على القلعة وعليه حتى قتلوه في سنة تسع وتسعين واربعمائة ٠

قرأت في تاريخ ابي المغيث منقذ بن مرشد بن علي بن منقذ الذي ذيل به تاريخ ابي غالب همام بن المهذب المعري ،قال :سنة ثلاث وثمانين واربعمائة فيها : كتب ولاة الشام الى السلطان ملك شاه يشكون مايلقونه من خلف بن ملاعب(٢٢١ ــ و) بحمص من قطع الطريق ،واخافة السبيل ،فأمر السلطان أن يسير إليه بوزان ،وقسيم الدولة ، وتاج الدولة ،ويغي سغان ، فسبق إليه بزان فنزل قريبا من حمص فكتمه ما يريد حتى بلغ منه غرضا ، ودخل إليه رسوله ، فقال : عاش لك ملاعب ، ثم حضر بزان المدينة ، واجتمع عليها كل من في الشام ، فافتتحت ، وكل من الأمراء المذكورين طلبها ، فكتبوا جميعا الى السلطان فانعم بها على اخيه تاج الدولة ، وامر السلطان بحمل خلف بن ملاعب في قفص من حديد الى قلعة اصبهان ،فحمل وحبس بها حتى مات السلطان ٠

وقال : سنة اربع وثمانين فيها : نزل قسيم الدولة اق سنقر على افامية وملكها ، وسلمها إلى عمي عز الدولة ابي المرهف نصر بن سديد الملك ، وذلك في شعبان ٠

انبأنا أبو محمد بن عبد الله الأسدي قال :كتب إلينا ابو المظفر اسامة بن مرشد بن علي بن منقذ قال : كانت حمص في سنة اثنتين وثمانين واربعمائة لسيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي ، فنزل على سلمية ، واخذ الشريف إبراهيم الهاشمي فرماه في المنجنيق الى برج سلمية ،واخذ قوما من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم واستغاثوا عليه بالخليفة والسلطان ملك شاه فخرج امر السلطان الى امراء الشام : تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وقسيم الدولة صاحب حلب ، وبزان بن الب صاحب الرها ،ويغي سغان صاحب انطاكية ، بالنزول على حمص والقبض على سيف الدولة خلف بن ملاعب(٢٢٢ــب) وتسييره إليه ، فنزلوا على حمص وحاصروه ، واخذوه الى السلطان ، فأقام في الحبس إلى أن توفي ملك شاه في شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة ، فأطلقته خاتون امراة

السلطان ؛ وتسلم قسيم الدولة اق سنقر مدينة حمص وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة؛ قتله تاج الدولة ، تسلم البلاد ، وسلم حمص الى جناح الدولة حسين •

انبأنا أبو اليمن زيد بن الحسن قال : كتب إلينا أبو عبد الله محمد بن علي العظيمي وقال : سنة ثلاث وثمانين واربعمائة ؛ وفيها سار الأمير قسيم الدولة ، وبزان وغسيان وتاج الدولة ، ونزلوا حمص وفتحوها من يد ابن ملاعب ، وحملوا ابن ملاعب في قفص حديد الى عند ألسلطان فلما هلك السلطان ، خلص ابن ملاعب وصعد الى مصر ، وعاد منها تسلم قلعة افامية واقام بها سبعة عشر سنة وقتل •

وقال : سنة اربع وثمانين واربعمائة ؛ فيها : تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة افامية من يد ابن ملاعب ، وترك فيها بعض بني منقذ ، وعاد الى حلب في العاشر من رجب(١٣٥)

قلت هكذا ذكر العظيمي ونقلته من خطه في كتاب في التاريخ جمعه وسماه المؤصل على الأصل المؤصل ، وقال : « وعاد منها، يعني من مصر ، تسلم قلعة افامية سبعة عشر سنة »؛ وهذا وهم ، فإن قتل ابن ملاعب ظنه تسع وتسعين وعوده من مصر فيها ، وإن كان اراد ولايته الأولى ، فالكلام غير مستقيم لأنه اخبر (٢٢٢ـ و)أنه تسلم قلعة افامية واقام بها سبع عشرة سنة وقتل ، وقد خرجت عن يده في سنة اربع وثمانين واربعمائة ، وقتل سنة تسع وتسعين ،فبقيت خارجة عن يده قبل قتله اربع سنين وثلاثة اشهر ، وكانت افامية في يد ابن ملاعب مع حمص في ايام ابي المكارم مسلم ابن قريش؛ فانني قرات في كتاب العظيمي بخطه قال : سنة خمس وسبعين واربعمائة ، وفيها في صفر حاصر شرف الدولة ابن ملاعب بقلعة حمص ،وفيها عاد شرف الدولة الى حلب ، وقد صالح ابن ملاعب (١٣٦)

قرات في تاريخ ابي المغيث منقذ بن مرشد الذي ذيل به تاريخ ابن المهذب قال : في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفيها ، طلع قوم من

أهل افامية إلى الأفضل يسألونه أن يولي عليهم سيف الدولة خلف ابن ملاعب ، فنهاهم وقال : لاتفعلوا وحذرهم من فسقه ، فقالوا : نحن نجعل عيالاتنا لنا ليلة وله ليلة ،فسيره معهم ووصل افامية ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة •

قلت : هؤلاء أهل تلك الجبال اكثرهم دهرية د رية يستبيحون ذوات الأرحام ، ولا يعتقدون تحريم الحرام •

قرأت بخط عمر بن محمد العليمي المعروف بابن حوائج كش الحافظ ، وأخبرنا به إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن النسابة ، وذكر العليمي انه نقله من خط ابن زريق ، يعني أبا الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زريق ، وكان عالما بالتاريخ ، قال : وقدم الى افامية ، يعني خلف ابن ملاعب ، من مصر سنة تسع وثمانين واربعمائة ، لأن أهل افامية مضوا الى مصر(٢٢٢ ـظ) يلتمسون واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم عليه ، فوصل في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة ، ودخلها وملكها •

قال : ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ، قتله جماعة وصلوا من حلب من أصحاب ابي طاهر الصائغ القائم بمذهب الباطنية ، بعد موت المنجم المعروف بالحكيم بحلب ، وكانوا من أهل سرمين ، وقاموا فيها بموافقة رجل داع كان بأفامية يقال له ابن القنج أصله من سرمين ، واقام بأفامية يحكم بين أهلها ، وقرر ذلك مع أهلها ، وأحضر هؤلاء ، ونقب أهلها نقبا في سورها حتى قارب الوصول ، فلما وصل هؤلاء لقيهم ابن ملاعب ، فأهدوا له فرسا وبغلة كانوا أخذوها من افرنج لقوهم في الطريق ، فأعلموه انهم جاءوا بنية الغزو الى بلد الروم ، وباتوا بظاهر الحصن الى الليل ، ودخلوه من ذلك النقب ، ورتبوا بعضهم على دور أولاده لئلا يخرجوا ينجدونه ، وصعدوا ، فخرج إليهم فطعن في بطنه ، فرمى بنفسه من القلة يريد دار بعض أولاده ، فطعن اخرى ، ومات بعد ساعة ، وحين صاح الصائح على القلة ، ونادى

بشعار رضوان بن تاج الدولة ، ترامى اولاده وخاصته من السور ، فبعضهم قتل ، واخذ اكثرهم فيما بين افامية وشيزر ، وقتلوا ، وسلم الله مصبح ،ووصل الى شيزر وأقام عند ابن منقذ مدة ، واطلقه ٠

ودخل طنكلي إلى افامية عقيب هذا الحادث طمعا في الحصن ومعه اخ لهذا ابن القنج من سرمين (٢٢٣ـ و)كان مأسورا ، فقرروا له شيئا ، وعاد عنها ، فوصل بعض أولاد ابن ملاعب الذين كانوا بدمشق ، والذي كان بشيزر فذكروا لطنكلي قلة القوت بها ، فعاد في رمضان فنزل عليها ، فأقام إلى اخر السنة ، وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة ، واسر ابن القنج والصايغ ، وعاقب ابن القنج وقتله ، واطلق بعض اهل افامية ٠

انبأنا أبو الحسن محمد بن احمد بن علي الفنكي قال : أخبرنا مؤيد الدولة ابو المظفر اسامة بن مرشد بن منقذ الكناني في كتابه أن قوما من اهل افامية من الاسماعيلية عملوا على مالكها وتحيلوا عليه بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصانا وبغلة وعددا افرنجية وتراسا وزرديةوخرجوا من بلد حلب الى افامية بتلك العدة والدواب ، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب ـ وكان رجلا كريما شجاعا ـ جئنا قاصدين خدمتك ، فلقينا فارسا من الافرنج ، فقتلناه ، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته ، فأكرمهم وانزلهم في حصن افامية ، في دار مجاورة السور ، فنقبوا السور ، وواعدوا الفاميين الى ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين واربعمائة ، فطلع الفاميون من ذلك النقب ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وملكوا حصن افامية ـ ٠

قرأت بخط العضد أبي الفوارس مرهف بن اسامة بن مرشد بن منقذ :

سنة تسع وتسعين واربعمائة (٢٢٣ـ ظ) فيها قفز أهل افامية مع القاضي ابن القنج على سيف الدولة خلف بن ملاعب وقتلوه ، وقتلوا أولاده في الرابع والعشرين من جمادى الأولى ٠

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في تاريخه ، وأنبأنا به أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ، والمؤيد بن محمد الطوسي وغيرهما عنه قال : سنة تسع وتسعين وأربعمائة ؛ وفيها : عمل الباطنية على قلعة أفامية ، وقتلوا ابن ملاعب بها غيلة ، وملكوا القلعة ، فعاجلهم الفرنج ونزلوا عليهم ، وحصروهم بها الى أن أخذوها (١٣٧).

خلف بن ملاعب الاشبهي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

خلف بن ملاعب الأشهبي الكلابي ، الأمير أبو منصور ، سيف الدولة
أصله من قبيلة من بني كلاب يقال لها الأشهب .

استولى على مدنة حمص في ولاية معلي بن حيدرة على دمشق من قبل المستنصر بالله ابي تميم معد بن الظاهر ، في صفر سنة ست وستين وأربعمائة فلما صار نصير الدولة بعساكر امير الجيوش من مصر ، وفتح صور وصيدا ، ونزل بعلبك ، قدم عليه خلف بن ملاعب ودخل في الطاعة ووجه بابن عمه إلى أمير الجيوش ،فقبله ، وبعث إلى خلف بالخلع والطوق ، فأقام بحمص ، وكان الضرر به عظيما ، ورجاله يقطعون الطريق في جميع النواحي وكان في صحبته جماعة من اللصوص ، فشمل الناس في ايامه مضرة شديدة فلما سار تاج الدولة تتش بن الب ارسلان من دمشق ، ومعه الأمير أق سنقر صاحب حلب ، والأمير بوزان صاحب حران ، وعولوا على قصد مصر ، مضوا إلى حمص وقبضوا على خلف هذا وعلى ولديه ، وحصل في حيز الأمير أق سنقر فبعث به إلى تركان خاتون الجلالية زوجة السلطان ملك شاه ، فاعتقلته بأصبهان ، ثم افرج عنه بعد موت ملك شاه ، فورد بغداد على أسوا حال .

فاجتمع عليه التجار وادعوا عليه أموالا اخذها منهم فوكل به من دار الخلافة ، فتوصل القائد علي بن كتاش في إطلاقه وأدى عنه من ماله ثلاثمائة وخمسين دينارا ، ثم دبر له في الخروج من بغداد فتم له ذلك ولم يكافئه عنه ، وذهب ما أدى عنه ضياعا ، ومضى إلى مصر فلم يلتفت إليه ، وأقام بها ومعه اهله واولاده سنتين .

فكتب القائم بفامية من جهة الملك رضوان بن تتش الى المستنصر ، وكان يميل إلى مذهب المصريين ، يستدعي من يتسلم أفامية منه ، وكانت على غاية الحصانة .فواصل ابن ملاعب السعي في ذلك اليوم ،

ووعد أنه يحارب الفرنج رجاء المثوبة من الله تعالى . وكانت البلاد يومئذ اكثرها معهم ، فأجيب بأنه رجل كافر النعمة مخفر الأمانة لا يملك عنان فرسه فيرى لأحد عليه طاعة ، فقال : أنا أعطي أولادي رهينة وانصرف على السمع والطاعة لكم .

فوقع الاتفاق عليه وقلد افامية في سنة تسع وثمانين واربعمائة فلما وصل وتمكن منها خلع الطاعة . فكتبوا إليه يعرفونه حال رهينته وما يحل بولده عند معصيته .فأجاب بأني متمسك بمكاني مدافع عن تسليمه وانني أوثر أن تطبخوا أولادي وتنفذوا إلي بعض أعضائهم حتى أكله .

فيئسوا منه وأعرضوا عنه ، وأقام بأفامية على حالته من التخليط ، ومال اليه المفسدون ، وعظم قطع الطريق من جهته ، فاتفق أن استولى الفرنج على سرمين فتفرق من كان بها ، وكانوا غلاة في التشيع ، وصار اكثرهم إلى رضوان متملك حلب ، وفيهم شجاعة وقوة ، والغالب عليهم حمل السلاح ، ومضى قاضيهم أبو الفتح السرميني إلى ابن ملاعب في فريق منهم واقام عنده وحظي لديه وتقدم تقدما زائدا ، فصار يطلعه على سره ويشاوره في أموره ، والقاضي يدبر عليه ويكاتب أبا طاهر الصائغ بحلب ، وهو من خواص الملك رضوان ليستخدمه في تدبيرها ويرد إليه النظر في أمورها ، فاتفق أن أولاد ابن ملاعب تسللوا من مصر خفية ووصلوا إليه فأخبروه بأن القاضي أبا الفتح السرميني المقيم عنده قد اشتهر عندهم أنه يعمل عليه ويروم الفتك به ، وأشاروا بابعاده ، فاستدعاه ابن ملاعب فحضر وقد أيقن بالفتك به ومعه مصحف . فلما جلس اعترف بما أولاه ابن ملاعب من الجميل ، وانكر ما قيل في حقه وحلف بالمصحف على صحة ما يعتقده من جميل ولائه . وسأله أن يطلقه عريانا إن كان قد داخله فيه شك . فقبل قوله وانخدع له وتركه على حالته .

فأخذ القاضي من تلك الساعة في الجد ، وكاتب الصائغ بأن يوافق الملك رضوان على تسيير ثلاثمائة رجل من اهل سرمين وصحبتهم

شيء من خيل الفرنج وبغالهم وسلاح من أسلحتهم . وعرفه مكيدة يفهمها لهم ليقولوها عند حضورهم . ففعل ذلك الصائغ ، وحضر أولئك الخيالة وقالوا: كنا نخدم رضوان وفارقناه على حالة غير مرضية من قلة إنصافه ،وتوجهنا نحو الفرنج فأخذنا منها براءة للأمير إن رضينا له خدما – وقدموا له ما كان معهم من الخيل الفرنجية والبغال والسلاح ـ فتم ذلك عليه وظنه صحيحا ، واستخدمهم وقربهم وأسكنهم ربض القلعة . فاجتمعوا مع القاضي ابي الفتح على التدبير ، فواعدهم . فلما كانت تلك الليلة طاف العسس كجاري العادة ومضوا وناموا فثار من بالحصن من أهل سرمين ودلوا الحبال إلى الواصلين فرفعوهم . وقام السيف فقتل ابن ملاعب وأولاده، لأربع بقين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وملكت القلعة ، وافلت صبح ونصر ولدا خلف ابن ملاعب ، فتوجه صبح إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ .

وبعث القاضي ابو الفتح إلى ابي طاهر سعيد الصائغ ، فسار إلى افامية لا يشك أنها له ، فأكرمه القاضي وامتنع من تسليمها إليه وقال: هذا الموضع نحن محترمون ما دام لنا وإذا خرج إلى غيرنا امتهنا – فيئس منه .

وكان لخلف ابن يقال له مصبح في خدمة طغدكين بدمشق قد أعطاه حصنا بالبرية يحفظه فعرف بعده بقبة ابن ملاعب فأفسد هناك فهدده طغدكين .فلحق بالفرنج وأوى إلى طنكري متملك انطاكية ، وحسن لهم قصد افامية . فساروا معه ونازلوها فسير إليهم القاضي أبو الفتح عشرة آلاف دينار . فرحلوا فلامهم ابن خلف وما زال بهم حتى اقاموا عليها إلى أن مات من بها من الجوع ، فملكها الفرنج وقتلوا القاضي وأسروا الصائغ وحملوه إلى انطاكية معهم وقتلوه بها . فأخذ رضوان ماله وأولاده بحلب .

دقاق بن تتش

(من الجزء السادس من تاريخ دمشق لابن عساكر ـ مخطوط الظاهرية ٣٤٥٠)

دُقاق بن تُتُش بن الب ارسلان ابو نصر المعروف بالملك شمس الملوك.ولي إمرة دمشق بعد قتل ابيه تاج الدولة في سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وكان بحلب ، فراسله خادم لأبيه أسمه ساوتكين كان نائبا في قلعة دمشق ، سرا من أخيه رضوان بن تتش صاحب حلب ، فخرج دقاق الى دمشق وحصل بها ، وأجلسه ساوتكين في منصب أبيه ، ثم دبر هو وطغتكين المعروف بأتابك (١٣٨) زوج أم الملك دقاق على ساوتكين فقتل.

وأقام دقاق بدمشق ، وقدم أخوه رضوان فحاصرها فلم يصل منها الى مقصود فرجع الى حلب ، ثم عرض لدقاق مرض تطاول به وتوفي منه في الثاني عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة ؛ وإن أمه زينت له جارية فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ، ثقبته بأبرة فيها خيط مسموم ، وإن أمه ندمت على ذلك بعد الفوت ، وأومأت الى الجارية أن لاتفعل ، فأشارت إليها أن قد كان ، وتهرى جوفه فمات ٠٠٠(٥٠ـ ظ)٠

رضوان بن تتش

(من بغية الطلب لابن العديم)

رضوان بن تتش بن الب أرسلان بن جغري بن سلجوق بن دقاق ، ابو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين واربعمائة ، ونشا في دمشق في حجر ابيه ، وكانت امه ام ولد فزوجها ابوه من جناح الدولة حسين ، وجعله ابوه اتابكا له ومربيا ، ولما توجه ابوه تتش لمحاربة بركيارق ووصل الى همذان كتب الى ولده رضوان الى دمشق ، وكان قد تركه بها ، يستدعيه اليه من دمشق ، وامره ان يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل امر ابيه وخرج من دمشق بالعسكر متوجها الى ابيه ، ووصل الى عانة وقيل الى الانبار ، فبلغه قتل ابيه تتش ، فحط خيمه وسار مجدا عائدا ، فوصل الى حلب وتسلمها من وزير ابيه ابي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وتولى حسين زوج امه تدبير ملكه .

ووصل اخوه دقاق الى حلب ، ومضى سرا من رضوان الى دمشق فملكها وقدم يغي سفان ، ويوسف بن ابق بعسكرهما من انطاكية الى خدمة رضوان ، وسارا (٨٩ ـ و) معه الى الرها ليستلمها من نواب والده ، فارادا القبض على حسين لينفردا بتدبير رضوان ، فبلغ حسين ذلك ، فهرب الى حلب ، وتبعه رضوان اليها واستوحش رضوان منهما ، فرجعا الى انطاكية .

وسار رضوان الى دمشق لياخذها من اخيه دقاق ، ونزل جناح الدولة حسين بحلب ، وسار معه سكمان بن ارتق ، فلما وصل رضوان الى دمشق اعتقل دقاق نجم الدين ايلغازي بن ارتق ، ولم يستتب لرضوان امر دمشق فرجع الى حلب ، وتوجه سكمان الى البيت المقدس ، وتسلمه من نواب اخيه ايلغازي.

ووصل يوسف بن ابق الى رضوان الى حلب وسكنها فخاف منه

رضوان وحسين فتقدما الى المجن الفوعي (١٣٩) فهجم عليه فقتله .

وخرج رضوان وحسين فتسلما تل باشر ، وشيح الدير من نواب يغي سغان ، واغارا على بلد انطاكية ، ثم توجها الى دمشق ،وسار يغي سغان اليها منجدا دقاق ، فضعفت نفس رضوان عن دمشق ، فسار الى البيت المقدس فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سغان ، واشرف عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية الى حلب ، ووصل دقاق وطغتكين الى ناحية حلب ، واستنجد رضوان بسليمان ابن ايلغازي صاحب سميساط ، فوصل الى حلب بعسكر كبير واجتمع العسكران على نهر قويق ، وتحاربا ، فهرب دقاق وطغتكين الى دمشق ويغي سغان الى انطاكية .

وتغيرت نية رضوان على حسين فهرب من حلب الى حمص ومعه زوجته ام رضوان .

ثم تجدد بعد ذلك خروج الفرنج (٨٩ ـ ظ)الى انطاكية ، ووصل يغي سغان الى الملك رضوان الى حلب الى خدمة رضوان ، وتزوج رضوان بابنته خاتون جيجك ، ونزل الفرنج على انطاكية ، وشنوا الغارات على بلد حلب ، ووصل ابن يغي سغان الى حلب مستنجدا على الفرنج ، فسير رضوان معه عسكر حلب وسكمان ، فلقيهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم المسلمون الى حارم ، وغلب اهل حارم من الارمن عليها ، وعاد سكمان بن ارتق مفارقا رضوان ، وصار مع دقاق .

واستولى الفرنج على انطاكية ، وضعف امر رضوان ، واستمال الباطنية وظهر مذهبهم بحلب ، وشايعهم رضوان ، واتخذوا دار دعوة بحلب ، وكاتبه ملوك الاسلام في امرهم ، فلم يلتفت ، ولم يرجع عنهم ، ودام على مشايعتهم .

وقوي الفرنج عليه فباع من املاك بيت المال عدة مواضع للحلبيين ، وقصد بذلك استمالتهم ، وان يتعلقوا بحلب بسبب املاكهم فيها حتى انه باع في ساعة واحدة ستين خربة من مزارع حلب لجماعة من اهلها وكتب بها كتابا واحدا ، يذكر حدود كل خربة ومشتريها وثمنها

وكان الكتاب عندي في جملة الكتب التي كانت لوالدي رحمه الله .

وكان الملك رضوان بخيلا شحيحا يحب المال ، ولا تسمح نفسه باخراجه ، حتى ان امراءه وكتابه كانوا ينبزونه بأبي حبه ، وذلك هو الذي اضعف امره ، وافسد حاله مع الفرنج والباطنية . وجدد في حلب مكوسا وضرائب لم تكن ، ومع هذا كله كان فيه لطف ومحاسنة (٩٠ ـ و) للحلبيين حتى بلغني انه مر يوما راكبا ليخرج من باب العراق ، سمع امراة تنادي اخرى يازليخا تعالي ابصري الملك ، فامسك راس فرسه ووقف ساعة ، ثم نظر فلم ير احدا ، فقال : اين هي زليخا قولوا لها تأتي تبصرنا او نمشي ، وهذا من ابلغ اللطافة من ملك مثله .

وحدثني والدي قال : اخبرني ابي قال : وقع بين والدي ابي غانم وبين القاضي ابي الفضل بن الخشاب مشاجرة في التخم الذي بين قرية والدي اقدار وبين قرية ابن الخشاب عيطين ، وال الامر في ذلك الى مواحشة وغلظة ، فبلغ الملك رضوان فقال : انا اخرج بنفسي واقف معكما على التخم ، فخرجا مع الملك ووقف معهما وقال لاحدهما : الى اين تدعي فقال : الى ها هنا ، وقال للاخر : الى اين تدعي . فقال : الى ها هنا ، فقال لكل واحد منهما : اريد ان تهب لي نصف ماتدعي على صاحبك ، فأجاباه جميعا الى ذلك ، واصلح بينهما على ان نزل كل واحد عن نصف المدعى به ، وجعل بينهما تخما اتفقا عليه ، ورجع الى المدينة ، وهذا ايضا من المآثر التي ينبغي ان تكتب وتسطر وتنقل في التواريخ وتذكر .

قرات بخط الشريف ادريس بن الحسن الادريسي الاسكندراني قال الشيخ ابو الحسن بن الموصول ، واملانيه بدار الشريف امين الدين ابي طالب احمد بن محمد النقيب الحسيني الاسحاقي من تعليق لبعض (٩٠ ـ ظ)اسلافه قال : وفي شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسمائة وصل الى حلب رجل كبير فقيه تاجر يقال له ابو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل عليها احمال اصناف التجارات ، وكان شديدا على الاسماعيلية مسعدا لمن

يقصدهم ، مبالغا في بابهم ، انفق في المجاهدين لهم بسـببهم امـوالا جليلة ، فقام في غلمان له يستعرض احماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه ، وكان قد اصحب من خراسان باطنيا يقال له احمد بن نصر الرازي ، وكان اخوه قتله رجال هـذا الخجندي ، فـدخل الى حلب ، واستدل على ابي الفتح الصايغ رئيس الملاحدة بها ، وكان متمـكنا من رضوان ، فصعد الى الملك رضوان ، وعرفه ما جرى بينهـم وبين الفقيه ابي حرب ، واطمعه في ماله ، واراه انه بريء مـن التهمـة في بابه اذ كان معروفا بعداوة الملحدة ، فطمع رضوان وانتهز الفـرصة فيه ، وطار فرحا ، فبعث بغلمان له يتوكلون به ، فبرز الى ابي حرب عيسى الفقيه احمد بـن نصر الرازي وهجـم عليه ، فقـال لغلمـانه واصحابه : اليس هذا رفيقنا ؟! فقـالوا : هـو هـو ، فـوقعوا عليه فقتلوه ، وهجم جماعة من اصحاب ابي الفتح الباطني الحلبـي على ابي حرب فقتلوا عن اخرهم ، ثم قال ابو حرب : الغياث بـالله مـن هذا الباطني الغادر ، امنا المخاوف وراءنا وجـئنا الى (٩١ ــ و) الامنة ، فبعث علينا من يقتلنا ، فرجعوا الى رضوان ، فاخبروه بمـا قال ، فابلس ، وصار السنة والشيعة الى هـذا الرجـل ، واظهـروا انكار ما تم عليه ، وعبث احداثهم بجمـاعة مـن احـداث البـاطنية فقتلوهم ، وانهي ذلك الى الملك رضـوان فلم يتجـاسر على انكاره ، واقام الرجل بحلب ، وكاتب اتابك ظهير الدين(١٤٠)وغيره مـن ملوك الشام فتوافت رسلهم عند رضوان بكتبهم ينكرون عليه ما جـاءه في بابه ، فانكر وحلف انه لم يكن له في هذا الرجل نية ، وخـرج الرجـل عن حلب مع الرسل ، فخبروه في التوجه نحو الرقة ، وعاد الى بلده ، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ، ونقص في اعين الناس فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

انبانا زيد بن الحسن عن ابي عبد الله محمد بـن علي العـظيمي في حوادث سنة احدى وخمسمائة قال : وفي هذه السنة بلغ فخـر الملوك رضوان ما ذكر به عن مشايعة الباطنية واصطناعهم ، وحفظ جانبهم وانه لعن بذلك في مجلس السلطان ، فلما بلغه الخبر امر ابا الغنائم

ابن اخي ابي الفتح الباطني بالخروج عن حلب فيمن معه ، فانسل القوم بعد ان تخطف جانبهم ، وقتل منهم افرادا (١٤١)

قلت ولما ملك رضوان حلب قتل اخوين له كانا من ابيه ، فلما مات رضوان وملك ابنه الب ارسلان قتل اخوين له كانا من احسن الناس صورة فانظر (٩١ ـ ظ)الى هذه المؤاخذة العجيبة .

انبانا المؤيد بن محد علي الطوسي عن ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي قال :وفيها ـ يعني سنة تسعين واربعمائة ـ عصى المجن الموفق على الملك رضوان ، وتعصب معه الحلبيون ثم تخاذلوا عنه ، واختفى ، فقبض عليه الملك رضوان ، وعلى ذويه وبنيه ، واستصفى امواله في ذي القعدة وعذبهم بانواع العذاب ، ثم قتله بعد ذلك ، وقتلهم حوله .

قال : وفيها وصل رسول مصر الى الملك رضوان ، يعني من المستعلي بالتشريف والخلع ، وخطب للمصريين شهرا ، ثم عاد عن ذلك(١٤٢)

وقال : سنة ثلاث وتسعين ، وفيها كسرت الافرنج للملك رضوان على موضع يقال له كلا ، وكان المسلمون في خلق وكان الافرنج في مائة فرس ، فقتلوا خلقا من الناس ، واسروا خلقا ، وكانت الكسرة يوم الجمعة خامس شعبان(١٤٣)

وقال : سنة ثمان وتسعين واربعمائة ، فيها كسر الفرنج الملك رضوان على عين تسيلوا من ارض ارتاح ، وكان سبب ذلك حصن ارتاح ، خرجوا اليه لياخذوه ، وجمع الملك رضوان الخلق العظيم ، وخرج لنجدة الحصن ، ومعه من الرجالة الخلق العظيم ، وكان المصاف يوم الخميس ، فانهزمت الخيل ، واسلموا الرجالة ، فقتل منهم الخلق العظيم ، وفقد من الحلبيين جماعة كثيرة غزاة رحمهم الله ، وانهزم اكثر من به (١٤٤)

قلت : وبلغني انه قتل من المسلمين مقدار ثلاثة الاف ما بين فارس وراجل ، وهرب (٩٢ ـ و)من بارتاح من المسلمين ، وقصد الفرنج بلد حلب ، فاجفل اهله ، ونهب من نهب ، وسبي من سبي ،

واضطربت احوال بلد حلب من جبل ليلون الى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الامن والسكون وهرب اهل الجزر وليلون الى حلب ، فـادركتهم خيل الفرنج فسبوا اكثرهم وقتلوا جماعة ، وكانت هذه النكبة على اعمال حلب اعظم من النكبة الاولى على كلا ، ونزل طنكريد الفرنجي على تل اعذى من عمل ليلون واخذه ، واخذ بقية الحصـون التـي في عمل حلب ، ولم يبق في يد الملك رضوان من الاعمال القبلية الا حماه ، وليس في يده من الاعمال الغربية شيء ، وبقي في يده الاعمال الشرقية والشمالية وهي غير آمنة .

وضاق الامر باهل حلب ، ومضى بعضهم الى بغداد واستغاثوا في ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء مسـتصرخين بـالعساكر الاسـلامية على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ، فجهز السلطان محمد بـن ملكشـاه مودود صاحب الموصـل واحمـديل الكردي ، وسـكمان القـطبي في عساكر عظيمة ضخمة ، ومـات سـكمان قبـل وصـوله الى حلب ، ووصلت العساكر الى حلب ، فاغلق رضوان ابواب حلب بـوجههم ، واخذ الى القلعة رهائن عنده من اهلها لئلا يسلموها ، ورتب قـوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفـظ السـور ، ومنع الحلبيين من الصعود اليه ، وضبر(١٤٥)انسان من السور (٩٢ ــ ظ)فامر بـه فضرب عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه الى اخر ، فامر به فـالقى مـن السور الى اسفل ، وبقيت ابواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، واقام الناس ثلاث ليال لايجدون ما يقتاتونه ، وكثرت اللصوص ، وخـاف الاعيان على انفسهم ، وساء تدبير الملك رضـوان ، فـاطلق العـوام السنتهم بسبه وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه مـن الرعية ان يسلموا البلد ، وتـرك الركوب بينهـم ، وبـث الحـرامية تتخطف من ينفرد من العساكر فياخذونه ، وعاث العسكر فيما بقـي سالما ببلد حلب بعد نهب الفـرنج له ، ورحـل العسـكر الى معـرة النعمان بعد استيلاء الفرنج عليها في اخر صـفر مـن سـنة خمس وخمسمائة واقاموا عليها ، وقدم عليهم اتـابك طغتـكين ، فـراسل رضوان بعضهم حتى افسد مابينهم ،وظهر لأتابك طغتـكين منهـم الوحشة، فصار في جملة ممدود(١٤٦)وثبت له ممدود، ووفى له ، وحمل

لهم اتابك هدايا وتحفا ، وعرض عليهم المسير الى طرابلس والمعونة لهم بالأموال، فلم يعرجوا ، وسار احمديل وبرسق بن برسق ، وعسكر سكمان الى الفرات ، وبقي مودود مع اتابك ،فرحلا من المعرة الى العاصي ، فنزلا على الجلالي ، ونزل الفرنج افامية: بغدوين ، وطنكريد ،وابن صنجيل ، وساروا لقصد المسلمين ،فخرج ابو العساكر سلطان بن منقذ من شيزر(٩٣و)بأهله وعسكره ،واجتمعوا بمودود واتابك ،وساروا إلى الفرنج ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والاتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد ،فأصبحوا هاربين سائرين تحمي بعضهم بعضا •

ونزل طنكر يد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقطعة عن حلب ، عشرين الف دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، ورأى رضوان أن يستميل طغتكين اتابك اليه ، فاستدعاه الى حلب ، فوصل اليه وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال واستقر الأمر على أن اقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر من رضوان الوفاء بما تعاهدا عليه ، ووصل مودود الى الشام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان ، فتاخرت الى ان اتفق للمسلمين وقعة استظهر فيها الفرنج ، ووصل عقبيها نجدة للمسلمين من رضوان دون المائة فارس وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فاذكر اتابك ذلك وتقدم بابطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في اول شهر ربيع الاول سنة سبع وخمسمائة .

انبانا سليمان بن الفضل بن سليمان قال : اخبرنا الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن قال : رضوان بن تتش بن الب ارسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق التركي كان بدمشق (٩٣ ـ ظ)عند توجه ابيه الى ناحية الري ، فكتب اليه يستدعيه ، فخرج اليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله ، فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير ابي القاسم ، وكان المستولي على امرها جناح الدولة حسين في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، ثم قدم دمشق بعد موت اخيه دقاق ،

فحاصرها وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب امـوره وعاد الى حلب ، واقام بها ، وجرت منه امور غير محمودة في قتـال الفـرنج ، وظهر منه الميل الى الباطنية ، واستعان بهـم بحلب ، ثـم اسـتدعى طغتكين اتابك الى حلب ولاطفه ، واراد استصلاحه ، وقـرر بينهمـا امورا واقام له طغتكين الدعوة والسكة بدمشق ، فلم يظهر منه الوفاء بما وعد ، فابطلت دعوته .

وكان لما ملك حلب قد قتل اخويه ابا طالب وبهرام ابني تتش ، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة (١٤٧)

انبانا ابو اليمن الكندي عن ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، ونقلته من خطه ، قال : سنة سـبع وخمسـمائة ، فيهـا مـات الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب بحلب . وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان اخويه ملك شاه وابراهيم صبيين احسن الناس صورا (١٤٨)

كذا وجدته ، وابراهيم بقـي زمـانا ، ورايت ولده بحلب ، واظنه مبارك والله اعلم .

وقرات في كتاب تاريخ وقع (٩٤ ـ و) إلي بماردين جمعـه الرئيس ابو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وشاهدته بخطه ، قال : وفيها ، يعني سنة ثمان وخمسمائة مات الملك رضوان بن تتش بحلب وتولى ولده الاخرس .

وقرات في بعض ما علقته من الفوائد ، مرض رضوان بحلب مـرضا حادا ، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الاخـرة سـنة سـبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب امر حلب لوفاته ، وتأسف اصحابه لفقـده ، وقيل انه خلف في خـزانته مـن العين ، والآلات ، والعروض ، والاواني ما يبلغ مقداره ستمائة الف دينار .

قرات في كتاب عنوان السير تاليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وملكها ، يعني حلب بعده ـ يعني بعد قتل ابيه تتش ـ في سنة ثمـان وثمانين واربعمائة ابو المظفر رضوان بـن تتش تسـع عشرة سـنة وشهورا ، وتوفي في سحرة يوم الاربعاء آخر يوم من جمـادى الاولى

سنة سبع وخمسمائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وخلف عينا وعروضا تقارب الف الف دينار .

سابق بن محمود

(من بغية الطلب لابن العديم)

سابق بن محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس بن ادريس بن نصر ابو الفضائل الكلابي ، وتمام نسبة نذكره في ترجمة جد ابيه صالح بن مرداس ان شاء الله تعالى ، وامه بنت الملك ابي طاهر بن فناخسروه ابن بويه.

ملك حلب في الليلة الثانية من شوال سنة ثمان وستين واربعمائة ، وكان اخوه قد قتل يوم عيد الفطر بعد العصر على ما ذكرناه في ترجمته ، وكان قد فوض نصر اموره الى سديد الملك ابي الحسن علي بن منقذ بعد عوده من طرابلس ، وفوض اليه اموره ، وكان الوزير ابن النحاس بقلعة حلب ، وفي القلعة وال يقال له ورد وعندهما جماعة من الخواص ، فلما علموا بقتل نصر استدعوا اخاه سابق بن محمود ، وكان ساكنا في العقبة في الدار التي تنسب الى عزيز الدولة فاتك ، وكان قد شرب فيها وسكر ، فحمل من العقبة وهو سكران ، ورفع من السور (١٤٣ ـ ظ) بحبل الى القلعة وهو سكران ونادوا بشعاره وأطاعه الأجناد ، واشاروا عليه باطلاق احمد شاه من الاعتقال ، وكان نصر اعتقله ، فأطلقه ، وخلع عليه . فنزل احمد شاه الى العسكر بالحاضر فسكن الفتنة .

واستقرت قاعدة سابق ، ولقب عز الملك ابو الفضائل . ودخل عليه ابو الفتيان بن حيوس ، فمدحه بقصيدته التي اولها :

علي لها انْ احفظ العهد والودا
وان لم تفد إلا القطيعة والصدا (١٤٩)

فاطلق له سابق الف دينار ، وجعل له كل شهر ثلاثين دينارا .

وكان سابق من متخلفي آل مرداس ، وكان ينظم الشعر ، فانني

وقفت في ديوان شعر ابن النحاس على ابيات يخاطب بها سابق بن محمود وقد انشده شعرا لنفسه فيه :

كنت انشدتني من الشعر نظما

بحتريا يفوق لفظا ومعنى

لما ملك سابق وعرف بنو كلاب تخلفه اجتمعوا الى اخيه وثاب ، وحسنوا له اخذ حلب ، وانضاف اليه اخوه شبيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما : فسير سابق واستدعى احمد شاه امير الاتراك ، وكان في الف فارس ، واستعان به ، فانفذ الى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، ويضمن له مالا ، فوصل ابن دملاج في يوم الاربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان (١٤٣ ـ و) وستين واربعمائة ، وتحالفوا ، وخرجوا الى وثاب وبني كلاب في يوم الخميس مستهل ذي الحجة ، وكان بنو كلاب في جمع يقارب سبعين الف فارس ، وراجل ، وكانوا بقنسرين ، فعندما عاينوا الاتراك ، انهزموا من غير قتال وخلفوا حالهم ، وأموالهم. ونسائهم وأموالهم ، فغنم أحمد شاه وابن دملاج واصحابهما جميع ذلك ، فيقال انهم أخذوا لهم مائة الف جمل ، واربعمائة الف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر ، واماتهم وعبيدهم مالا يحصى كثره ، وعادوا بالأسرى الى حلب فأطلقهم سابق وانزل اخته زوجة مبارك بن شبل في دار واكرمها.

فسار وثاب ومبارك بن شبل الى السلطان ملك شاه بن الب ارسلان ، وشكوا حالهم ، وسألوا منه ان يعينهم على سابق ، فوعدهم واقطعهم في الشام ، واقطع الشام اخاه تتش ، فسار ومعه جموع الترك ووثاب ومبارك بن شبل ، ووصل اليه بنو كلاب ، فنزل على حلب سنة احدى وسبعين واربعمائة ، ووصل اليه ابو المكارم مسلم بن قريش ، ونزل معه عليها ، وكان هواه مع سابق ، فكان يسير اليه بما يقوي نفسه ، وينكر على بني كلاب خلطتهم ، ودام الحصار ثلاثة اشهر ، واحس ابو المكارم بتغير النية فيه ،

وتحقيق التهمة به من مراسلة سابق واهل حلب ، فاستاذن تاج الدولة في الرحيل ، ورحل . وجعل رحيله وعبوره بعسكره على باب حلب .

وباع (١٤٣ ـ ظ) اصحابه اهل حلب كلما كان في عسكره عصبية وتقوية لهم ، وقوى نفوسهم ونفس سابق ، وسار بعد ان قوي اهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضعف الشديد الى بلاده ، ورحل معظم بني كلاب ،وبقي مع تاج الدولة تتش من بني كلاب وثاب وشبيب اخو سابق ومبارك بن شبل في عدد يسير فاشار عليهم ابو المكارم بن قريش بالاحتياط على انفسهم او الهرب الى حلب وكاتبهم سابق ، وتالفهم ، وقال لهم : انما اذب واحامي عن بلادكم وعزكم . ولو صار هذا البلد الى تتش ، ازال ملك العرب وذلوا واستوحشوا من الاتراك ، فهربوا الى حلب ، وصاروا الى سابق ، وكتب سابق الى الامير ابي زائدة محمد بن زائدة قصيدة من شعر وزيره ابي نصر بن النحاس يعرفه ما هو فيه من الضيق ، ويسأله الاقبال عليه . والقيام بمعونته ، ويحذره من التخلف عنه فيكون ذلك سببا لزوال ملك العرب ويعتب عليه في التوقف عنه ، والقصيدة :

دعوت لكشف الخطب والخطب معضل
فلبيتني لما دعوت مجاوبا
ووفيت بالعهد الذي كان بيننا
وفاء كريم لم يخن قط صاحبا
وما زلت فراجا لكل ملمة
اذا المحرب الصنديد ضجع هايبا
فشمر لها وانهض نهوض مشيع
له غمرات تستقل النوائبا
وقل لكلاب بدد الله شملكم
او يحكم ما تتقون المعائبا (١٤٤ ـ و)
تستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون اذنابا وكنم ذوائبا

وما زلتم الاساد تفترس العدى

فما بالكم مع هؤلاء ثعالبا

ثبوا وثبة تشفي الصدور من الصدا

ولا تخجلوا احسابنا والمناقبا

ولا بد من يوم يحكم بيننا

وبين العدى فيه القنا والقواضبا

أرى الثغر روحا انتم جسد له

اذا الروح زالت اصبح الجسم عاطبا

وقد ندت عنه طالبا حفظ عزكم

اباء ولاقيت المنايا الشواغبا

وها انا لا انفك ابذل في حمى

حماكم مجدا مهجتي والرغائبا

اأنخر مالي عنكم ونخائري

اذا بت عن طرق المكارم عازبا

شكرت صنيع ابن المسيب اذ اتى

يجر مغاوير تسد السباسبا

منها :

ايا راكبا يطوي الفلاة بحسرة

هملعة لقيت رشدك راكبا

الا ابلغ ابا الريان عني الوكة

تريح من الايلاف ما كان واجبا

اخا شخصه لا يبرح الدهر حاضرا

تمثله عيني وان كان غائبا

متى تجمع الايام بيني وبينه

اشد عليه ما حييت الرواجبا

واهد الى شبل سلامي وقل له :

لك الخير دع ما قد تقدم جانبا

فتلك حقود لو تكلم صامت

لجاء اليها الدهر منهن نائبا

وقد امكنتكم فرصة فانهضوا لها

عجالا والا اعوز الدر جالبا (٤٤١ ـ ظ)

فاني رايت الموت اجمل بالفتى

واهون ان يلقي المنايا مجاوبا

وكان قد بلغ سابقا ان اميرا من امراء خراسان يقال له تركمان التركي قد توجه منجدا تاج الدولة تتش ومعه عسكر ، فاخرج سابق منصور بن كامل الكلابي ، احد امراء بني كلاب ، من حلب ليلا واعطاه كتابه الى ابي زائدة وفيه هذه الابيات ، ومعه بعض اصحاب سابق ، ومعهم مال فاتفق مع منصور ونائب سابق ، وجمعوا ما يزيد على الف فارس وخمسمائة راجل من بني نمير . وقشير ، وكلاب وعقيل بتدبير ابي المكارم بن قريش والتقوا تركمان التركي في ارض الفايا . فكبسوا عسكره وقتلوه .

وبلغ ذلك تاج الدولة تتش فرحل عن حلب الى الفرات وشتى بديار بكر . ثم عاد الى حلب وافتتح منبج في طريقه وبزاعا وعزاز ، وصبح حلب صباحا فخرج عسكر حلب فالتقوا على الخناقية ، وانهزم عسكر تتش بغير قتال .

وكان ابو زائدة وابن عمه شبل بن جامع بن زائدة في قدر خمسين فارسا مقابلهم فحملوا عليه واتفقت هزيمتهم فقتلوا من الغز جماعة وغنموا ؛ وتقدم محمد بن زائدة الى الشيخ ابي نصر منصور بن تميم السرميني المعروف بابن زنكل ان يجيب ابا الفضائل سابق بن محمود عن القصيدة التي انفذها اليه ، ويعرفه ما لبني كلاب من الايام المعروفة . ويذكر هذه الوقائع فعمل :

دعوت مجيبا ناصحا لك مخلصا

يرى ذاك فرضا لا محالة واجبا (٤٥ ـ و)

فلبيت لا مستنكفا جزعا ولا

هدانا اذا خاض الكريهة هائبا

قال فيها في ذكر هذه الوقائع :

ولما دعاني المدركي ابن صالح
شققت ولم ارهب اليه الكرائبا

اسابق صرف الدهر في نصر سابق
الى تركمان الترك ازجي النجائبا

فلما التقيناهم غدا البعض سالبا
لانفسهم والبعض للمال ناهبا

فيا لك من يوم سعيد بيمنه
عن الثغر اضحى عسكر الضد هاربا

وكان يرى في كفه الشام حاصلا
ويوم بزاعا رد ما ظن خائبا

وفي يوم خناقية قد خنقتهم
بعثير ذل رد ذا الشرخ شائبا

عطفت لهم اذ خام من خام منهم
بفتيان كالعقبان شامت توالبا

فلله قومي الصادرون لو انثنوا
معي او فريق كنت للجمع ناكبا

فولوا وقضبان المخافة فيهم
مسابقة ارماحنا والقواضبا

فكم فارسا منهم تركنا مجدلا
يباشر ترب القاع منه الترائبا

وإذ أيقنوا أن ليس للكسر جابر
تولوا وعن جبرين حثوا الركائبا

وخلوا بها كسبا حووه وابصروا
سلامتهم منا اجل مكاسبا

ورحل تاج الدولة تتش من جبرين ، وكان نازلا بعسكره عليهـا الى دمشق .

ولما جرى هذا الحادث طمع شرف الدولة . ابو المكارم ، مسلم بن قريش في الشام وكاتبة سابق بن محمود يبذل له تسليم حلب اليه . ووفدت (١٤٥ ــ ظ) عليه بنو كلاب باسرها ، فتوجه الى حلب ، ونزل عليها في السادس عشر من ذي الحجة من سنة اثنتين وسبعين واربعمائة ، فغلقت ابوابها في وجهه . وكان عند سابق اخواه شبيب ووثاب بحلب ، فلم يمكناه من التسليم ، فلم يقاتلها ، واهلها يحرصون على التسليم اليه لما هم فيه من الجوع ، وعدم القوت ، وسلم البلد اليه ولد الشريف الحتيتي ، على ما نذكره في ترجمة ابي المكارم مسلم بن قريش فانحاز سابق الى القلعة ، واخواه شبيب ووثاب في القصر لصيق القلعة ، وحصر ابو المكارم القلعة الى ان دبر شبيب ووثاب وهما في القصر على سابق ، وقفزا في القلعة وصاح الاجناد بها شبيب يامنصور ، فقبض سابق فحبس ، وتسلم شبيب ما كان بها من المال وسفر سديد الملك ابن منقذ بين مسلم بن قريش وبين شبيب الى ان تسلم القلعة في شهر ربيع الاخر من سنة ثلاث وسبعين واربعمائة ، وانقضى امر سابق بعد حصار القلعة اربعة اشهر . وانقضت دولة آل مرداس .

دفع إلي القاضي ابو محمد بن الخشاب جزءا بخطه وذكر لي انه نقله من خط ابي الحسن علي بن عبد الله بن ابي جرادة في ذكر ملوك حلب . وكتب الينا المؤيد بن محمد بن علي الطوسي عن ابي الحسن قال بعد ذكر نصر بن محمود وقتله بظاهر حلب ثاني عيد الفطر من سنة ثمان وستين : بعده اخوه سابق بن محمود اقام اربع سنين ، وسلم البلد الى شرف الدولة ابي المكارم مسلم (١٤٦ ــ و) ابن قريش العقيلي سنة اثنتين وسبعين واربعمائة ــ يريد البلد دون القلعة .

قرات بخط ابي عبد الله العظيمي . وانبانا ابو اليمن الكندي وغيره عنه : سنة ثماني وستين واربعمائة فيها : قتل نصر بن محمود صاحب حلب يوم الاحد ، يوم عيد الفطر . وجلس سابق بن محمود مكانه .

قال : وفي هذه السنة يعني سنة اثنتين وسبعين واربعمائة . وصل

شرف الدولة الى حلب وتسلمها من سابق بن محمود ، وامتنعت القلعة عليه ، وكان بالقلعة سابق واخوه شبيب ، فقبض شبيب على سابق يوم السبت ثاني عشر من صفر ، وتولى الأمر بنفسه يوما واحدا ، ثم عاد سابق فقبض على أخيه شبيب وتولى الأمر كما كان اولا ، وبقي الحصار اربعة اشهر ، ثم سلم القلعة سابق الى شرف الدولة يوم الأحد عاشر ربيع الآخر ، وقيل جمادى الآخر وهو الأصح ، يعني من سنة ثلاث وسبعين واربعمائة (١٥٠) .

نقلت من خط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه قال : واقام نصر مالكا الى سنة ثمان وستين ، فلما كان يوم عيد الاضحى عيد وخرج العصر لنهب الاتراك ابن خان واصحابه ، ويأخذ نساءهم فانه قال : « نريد الوجوه الملاح » فضربه واحد فقتله . واختبطت حلب ، وقفلت ابوابها ، وقفل باب القلعة ، فجاءالامير ابو الحسن سديد الملك ، وكان قد نزل لما مات محمود وقال له نصر : « ما يرب هذه الدولة غيرك » ؛ فلما قتل نصر لم يجسر ان يذكر للوزير ابن النحاس ، وكان صديقه ، ذلك ظاهرا فقال له وهو في القلعة من تحت السور : الامير نصر (١٤٦ . ظ) سالم كما تحب ولكن سألتني عن شيء قبل خروجي وهو : القيل فاد ، معناه :القيل الملك ، وفاد مات .

فاحتفظ ابن النحاس من القلعة ، واجلسوا بعدهاخاه سابقا ، وكان سابق كما قيل لي من احسن الناس محاضرة ، واصبحهم وجها ، واسوأهم فعلا في نفسه وافعاله .

حدثني مولاي رحمة الله قال : من طريف عمله انه مدحه الشريف ابو المجد بثلاث قصائد ، فتأخرت الجائزة ، فكتب اليه وقد ضاع له دنانير ثم وجدها .

قل للأمير ابي الفضائل سابق
قولا يفوه به لسان الناطق
فبحق من رد الدنانير التي
ضاعت بتقدير الاله الخالق

اردد علي مدائحا انشدتها

ذهبت لديك ذهاب خلب بارق

قال : فانفذ له قصيدة وكتب اليه على ظهرها نحن نسأل عن الباقي وننفذه اليك .

واقـام بحلب مستضعفا يغير بنو كلاب على بـاب حلب تـأخذ منه الغسالات والقوافل ، ولا يخرج احـد الا بخفـارة ، ولا يدخـل الا كذلك .

والامير سديد الملك مقيم بالجسر لعلمه ان الداء قد اعضـل : قـال : فاشتغل عنهم بحصنه وبلده كفر طاب ، يشتو بـالجسر ، ويصـيف بكفر طاب الى ان غلب سابق ، واستحكم يأسه ، انفذ اليه وقال : اشتهي ان تحضر ، تفصل بيني وبين اخوتي ، وما قـد دهمنا مـن شرف الدولة ، فمضى حينئذ وقد امن غائلتهم .

وقال : سنة ثلاث وسبعين واربعمـائة : فيهـا تسـلم شرف الدولة (١٤٧ ــ و) قلعة حلب . شهر ربيع الآخر ولم يكن فيها ما يؤكل . قلت انقطع ذكر سابق بعد اخـذ حلب منه . فلم نقـع له على ذكر ولا خبر والظاهر انه لم تطل مدته وانه توفي بعد ذلك بقليل .

سالم بن مالك

سالم بن مالك بن بدران بن مقلد بن المسيب بن رافع بن مقلد بن جعفر بن عمرو بن المهيا بن زيد بن عبد الله بن زيد بن قيس بن جوئة ابن طخفة ابن ربيعة بن حزن بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منضور بن خصفة بن عكرمة بن قيس بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ابو الذمام ، وقيل ابو الزمام ، العقيلي الامير ، كان ابو المكارم مسلم بن قريش حين ملك حلب ، ولاه زعامتها لحكم ما بينهما من النسب ، فلما قتل ابو المكارم ولي حلب مع الشريف الحتيتي في سنة ثمان وسبعين واربعمائة .

واقام سالم بالقلعة والشريف بالمدينة . واتفقا على ان كاتبا السلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب ويحثانه على الوصول ، او وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

ونزل سليمان على حلب وطال انتظار السلطان فاتفق الشريف الحتيتي ومبارك بن شبل الكلابي على استدعاء تاج الدولة تتش ، فوصل ، والتقى بسليمان وقتله ، ونزل على حلب وفتحها . وعصى (١٩٧ ــ ظ) سالم في القلعة ، فوصل الخبر بوصول ملك شاه . فتوجه تتش الى دمشق ، ووصلت مقدمة عسكر ملك شاه ، فسارع سالم بن مالك الى طاعة الواصل وخدمته .

ووصل ملك شاه الى قلعة جعبر بن سابق القشيري ، فتسلمها منه وقتله ، ووصل الى حلب ، فتسلم حلب وقلعتها من سالم بن مالك سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وعوض سالم بن مالك بقلعة جعبر ، واقطعه الرقة وعدة ضياع .

ويقال إن سالم بن مالك لم يذكرها للسلطان ، وانما سير اليه يقول:

ان لي ولدا وعائلة كبيرة وقد اردت ان ينظر السلطان لهم فوق نظري لهم ، فشاور في ذلك نظام الملك ، فقال له : ان قلعة جعبر تريد منا في كل عام جملة من المال وليس لها عمل جيد ، وهو يرضى بها ، فكتب نظام الملك يعرف سالم بن مالك ما جرى ، فطار سالم فرحا بما سمع فبعث الى نظام الملك بخادمه اقبال ، وكان احسن خادم يكون ، له في الفروسية اسم ، وفي الكتابة يد طولى ، الى خط بديع من طريقة ابن البواب ، يترسل عن مولاه وفي صحبته خمسون الف درهم . فقال نظام الملك ما اسديت اليك شيئا تعتاض به عن اقبال . ورد الدراهم عليه : وبعث بجاريتين بكرين احديهما افرنجية والاخرى اندلسية . ليس لهما نظير في الحسن والجمال والادب . والصنائع الحسنة ، فبعث بهما نظام الملك مع اقبال الخادم الى السلطان ، فلما دخل بهما على السلطان قال للحاجب : رد اقبال (١٩٨ – و)لا يدخل علي ،فعجب منه بطانته واستحسن ذلك منه : فبلغ نظام الملك قوله . فبعث به في عشرة من الخدم ، فقبلهم الا اقبال فانه اعادة بعد ان رمى بين يديه ، وكتب وتبذل في الحوائج ، فقال : ان بنظام الملك اليك اشد حاجة . فخدم اقبال واجاب السلطان احسن جواب عن قوله ، وانصرف .

نقلت من خط الرئيس ابي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سنة تسع عشرة وخمسمائة قال : وفي يوم الاربعاء العشرين من شوال مات شمس الدولة سالم بن مالك بقلعة جعبر .

قرات بخط حمدان بن عبد الرحيم : رايت في بعض التعاليق بحلب ان الامير سراج الدين سالم بن مالك بن بدران العقيلي مالك الدوسرية ، وهي قلعة جعبر : كانت وفاته فيها في العشرين من شهر شعبان سنة تسع عشرة – يعني – وخمسمائة .

انبأنا ابو الحسن محمد بن ابي جعفر عن ابي المظفر اسامة بن مرشد بن منقذ قال : ان الامير شمس الدولة كان نائبا للامير شرف الدولة مسلم بن قريش في قلعة حلب ، فلما قتل شرف الدولة في ربيع الاول سنة ست وثمانين واربعمائة حفظ الامير شمس الدولة قلعة

حلب وقال : لا اسلمها الا بامر ملكشاه ، فسار اليها السلطان مــن خراسان فسلمها اليه ، وكان السلطان لما اجتاز بقلعة جعبر وفيهــا سابق الدين جعبر القشيري فقبضه (١٩٨ ــ ظ) الســلطان وقتله لما بلغه عنه من الفساد . فلما سلم شمس الدولة سالم بن مالك قلعة حلب الى السلطان عوضه عنها قلعة جعبر . فــاقام مــالكها الى ان توفي فيها يوم الاربعاء العشرين مــن شــوال ســـنة تســـع عشرة وخمسمائة .

طغتكين أتابك دمشق

(من المجلد الثامن من تاريخ دمشق لابن عساكر

مخطوط الظاهرية ٣٣٧٢)

طغتكين ، ابو منصور ، المعروف بأتابك ، كان من رجال (تاج الدولة) (١٥١) وزوجه بام ابنه دقاق . وكان مع تاج الدولة لما ذهب الى الري لقتال ابن اخيه (١٥٢) ثم رجع (١٥٣) الى دمشق بعد قتل تاج الدولة وكان اتابك دقاق مدة ولايته ، فلما مات دقاق استولى على دمشق ، وكان شهما مهيبا ، مؤثرا لعمارة ولايته ، شديدا على اهل العيث والفساد ، وامتدت ايامه الى ان مات يوم السبت السابع ، ويقال الثامن من صفر . سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ودفن عند المسجد الجديد قبلي المصلى .... ٢٥٧ _]

علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ ابن نصر بن هاشم ، أبو الحسن الأمير الكناني

المعروف بسديد الملك ، صاحب شيزر

(من تاريخ دمشق لابن عساكر)

أديب فاضل. له شعر حسن سائر. ورد دمشق غير مرة ، وأقام بطرابلس سنوات ، وعمر حصن الجسر ثم اشترى حصن شيزر من الروم.

كان سديد الملك علي بن مقلد بن نصر بينه وبين ابن عمار مودة كبيرة ، وكان بينهما كاتب ، وكان سبب ذلك أنه كان له مملوك أرمني يسمى رسلان ، وكان زعيم عسكره ، فبلغه عنه ما أنكره ، فقال: اذهب عني ، وأنت آمن مني على نفسك ، فذهب الى طرابلس ، وقصد ابن عمار ، فنفذ الى سديد الملك وسأله في حرمه وماله ، فأمر باطلاقهم ، وما اقتناه من دوابه . فلما خرج لحقه سديد الملك ، فقال له الرسول: غدرت بعبدك ، ورغبت في ماله ، فقال : لا ، ولكن كل أمر له حقيقة ، حُطوا عن الجمال أحمالها ، وعن البغال اثقالها ، ففعلوا ، فقال: أثبتوا كل ما معه ليعرف أخي قدر ما فعلته ، فكان ما أخرج له من ذهب عين خمسة وعشرين الف دينار في قدور نحاس ، وكان له من الديباج والفضة ما يزيد على القيمة ، فقال للرسول: ابلغ ابن عمار سلامي ، وعرفه بما ترى لئلا يقول رسلان أخذته بغير علم مولاي ، ولو دري لم يمكني منه ، فزاره سديد الملك في بعض السنين. فلما فارقه كتب اليه:

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم
من الصبابة ما لاقيت في ظعني

لأصبح البحر من أنفاسكم نفسا
كالبر من أدمعي ينشق بالسفن

قال أبو الحسن ما عرفت أني أعمل الشعر حتى قلت:

يجني ويعرف ما يجني فأنكره
ويدعي أنه الحسن فأعترف

وكم مقام لما يرضيك قمت على
جمر الغضا وهو عندي روضة انف

ومابعثت رجائي فيك مستترا
إلا خشيت عليه حين ينكشف

وله:

في كل يوم من تجنيك لي
تعنت يعزب معناه

إني لأرثي لك من طول ما
تفكر فيما تتجناه

وكتب الى سابق بن محمود بن نصر بن صالح صاحب قلعة حلب شفاعة في أبي نصر بن النحاس الكاتب الحلبي:

إيها أبا النصر يقيك بنفسه
خل يجلك أن يقيك بماله

سل ما بقلبك عن ذخائر قلبه
فلسان حالك مخبر عن حاله

كيف استسر ضياء فضلك كاملا
مايستر البدر عند كماله

لاتجزعن اذا غربت فانه
ليل دجا سيضيء من أذياله

أتخاف من عز الملوك جناية
وخصيمه فيها كريم خلاله

حاشاه يسلب ماكسا احسانه
فكثير وجدك من قليل نواله

ملك يحب العدل في أحكامه
الا مع الراجي على أقواله

لو تنصف الدنيا لكان ملوكها
عماله والأرض من أعماله

ياأيها الملك الذي آياته
في المجد بين يمينه وشماله

فيد تشب النار في سطواته
ويد تصب الغيث من أفضاله

ارجع لعبدك صافحا عن جرمه
فالملك مفتقر الى امثاله

عقم النساء فما يلدن نظيره
في فضل صنعته وفضل مقاله

دع رتبة لم تلفه أهلا لها
وازدده في المعروف من أشغاله

توفي الأمير أبو الحسن سنة تسع وسبعين وأربع منه.

معركة منازكرد

(من تاريخ ميخائيل بسللوس ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦)

اما بالنسبة للامبراطورة فقد عاملها الامبـراطور وكأنهـا أمـة أسرت في الحرب ، وكان على استعداد للموافقة حتى على طـردها الى خارج القصر وكان يرتاب بالقيصر ، وسارع في عدة مناسـبات لالقاء القبض عليه ومن ثم اعدامه ، لكنه غير رأيه بعـد ذلك وتخلى عن الفكرة ، وكان قانعا في الوقت الحالي بـربطه مـع ابنه بحلف يمين بانهما سيبقيان مخلصين له ، وعندمـا وجـد نفسـه لايمتلك سببا مسوغا لتنفيذ خططه التي رعاهـا سرا ودبـرها ضـد القيصر، انطلق في حملته الثالثة ضد البرابرة ، الذي اتخذوا موقفا معاديا بكل وضوح ، فقد كانوا منهمـكين في الاغارة على الأراضي الرومية، وما ان حل الربيع حتى اجتاحوها ثانيةبقوات معتبرة ، ولهـذا غادر رومانوس مجددا العاصمة ليقاتلهم ، مصـطحبا بتشـكيلات كبيرة من الحلفاء والقوات المحلية كانت اكبر من ذي قبل

ووفقا لما اعتاد عليه في رفض جميع النصائح سواء حول المسائل المدنية او العسكرية انطلق بالحال مع جيشه واسرع نحو قيسـارية وبعدما وصل الى غايته وجد نفسه كارها لمتابعة الزحف وحـاول ايجاد عذر للعودة الى القسطنطينية ، واراد هذا لامن اجـل نفسـه فقط بل من اجل جيشه . وعندما شعر بالعار الذي سيتورط فيه اذا قام بهذا التراجع ، وان ذلك لايمكن التساهل به ، راى ان عليه ان يتوصل على الأقل الى اتفاق مع اعدائه فيوقف غاراتهم واعتداءاتهم السنوية ، لكنه عوضا عن ذلك زحف يريد الحرب ولاادري سبب ذلك هل كان مصدره اليأس او انه كان واثقا من نفسه اكثر مما ينبغـي. زحف دون ان يتخذ ما يكفي مـن اجـراءات لحمـاية سـاقته، وعندما راى العدو زحفه قرر التغرير به واجتذابه مسـافة ابعـد

وتصيده بالحيلة والخـديعة ، وبناء عليه ظهـر الأعداء أمـامه ثـم تراجعوا ثانية ، وكان واضحا ان هـذا التـراجع كان مخـططا له، واستطاعوا بتطبيقهم هذا التكتيك مرارا ان ينجحوا في عزل بعض قادته الذين اخذوهم اسرى .

وكنت الآن عارفا ـ مع انه لم يكن كذلك ـ ان السـلطان نفسـه، ملك الفرس والكرد كان موجودا شخصيا مع جيشـه وان معـظم انتصاراتهم يعود الفضل في حيازتها لقيادته ، ورفض رومانوس ان يصدق اي انسان حاول ان يبين له مدى تاثير السـلطان على هـذه النجـاحات ، في الحقيقـة انه لم ير السـلم ، وقـد خيل اليه انه سيتمكن من الاستيلاء على معسكر البرابرة بدون قتـال ، ولسـوء حظه وبسبب جهله بالعلوم العسكرية وزع قواته وفـرقها ، وفقـط تجمع حوله قلة منهم ، اما الآخرين فقد أرسلوا بعيدا ليتمركزوا في مواقع اخرى ، وهكذا قام بمواجهة اعدائه فعليا باقل مـن نصـف قواته بدلا من مواجهتهم بها موحدة جمعا واحدا .

ومع انني لاأستطيع ان امتدح تصرفاته المقبلة انه مـن الصـعب بالنسبة لي توجيه النقد له ، والحقيقة هي انه حمـل بنفسـه ثقـل المخاطر جميعها ، ويمكن تفسير عمله بـطريقتين ، ويمثـل رايي الشخصي طريقا وسطا بين طريقين متباعدين جدا ، فمـن الجـانب الأول اذا ما اعتبرته بطلا لم يهتم بالمخاطر وقاتل بكل شـجاعة فهنا انه لمن المنطقي مدحه ، ومن الجانب الآخـر عندمـا يقـدر المرء ان قائدا عسكريا متوجب عليه لدى تقبله لقوانين الاستراتيجية ان يبقى بعيدا عن خطوط القتال يشرف من عل على تحركات جيشه ويصـدر الأوامر الضرورية للرجال تحت قيادته ، وعلى هذا سيظهر ما قـام به رومانوس في هذه المناسبة حمـاقة الى ابعـد الحـدود لأنه عرض نفسه للمخاطر دون تفكير في النتائج ، واميل انا شخصيا الى المدح اكثر مني الى توجيه اللوم له على ما حصل .

ومهما يكن من امر لقد لبس سابغته وتسلح بشكل كامل مثله مثل اي عسكري عادي ،وامتشق حسامه ضد أعدائه ، وتبعا لما حـكاه

عدد من رواتي لقد قتل عددا كبيرا منهم وجعل بعضا منهم يلوذ بالفرار ،وفيما بعد عندما تعرف الذين كانوا يقاتلوه الى شخصيته وعرفوا من هو طوقوه من جميع الجوانب ،وقد أصيب بالجراح وسقط من على فرسه ،وطبعا اعتقلوه ،والآن اقتيد إمبراطور الروم بعيدا كأسير الى داخل معسكر العدو ،وتمزق جيشه وتفرق ،وكان عدد الذين نجوا ضئيلا بالنسبة للمجموع العام ،واخذ بعض الأكثرية اسرى ،وجرى قتل الباقين .

ليس في نيتي في هذه الساعة ان اكتب عن الوقت الذي قضاه الامبراطور فيما بعد ،وبعد عدة ايام من المعركة وصل احد الناجين الى المدينة ووقف امام رفاقه وروى لهم الأخبار المرعبة ، وما لبث ان وصل بعده رسول أخر ثم أخر ، ولم تكن الصورة التي رسموها واضحة ابدا ، لأن كل واحد منهم وصف الفاجعة بطريقته ، وهكذا قال بعضهم ان رومانوس قد مات ، وقال أخرون هو أسير فقط.

واكد أخرون ثانية انهم رأوه يصاب بالجراح ثم يجر الى الأرض ، وقال آخرون انهم رأوه يقاد مقيدا بالسلاسل بعيدا الى داخل معسكر العدو ، وفي ضوء هذه المعلومات عقد مؤتمر في العاصمة ، واتفق المؤتمرون وقرروا بالاجماع ان عليهم ان يتجاهلوا الآن مسألة فيما اذا كان الامبراطور سجينا او ميتا ، وان على يودوشيا وابنها تحمل مسؤوليات حكومة الامبراطورية .

معركة منازكرد

(من مرآة الزمان نقلا عن تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال الصابي ١٤٦ ـ ١٥١)

وضجر السلطان من المقام بحلب فكر راجعا فقطع الفرات وهلك اكثر الدواب والجمال وكان عبوره شبه الهارب ولم يلتفت الى ما ذهب من الأرواح والدواب وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه ...

وجاءه (اي السلطان الب ارسلان)خبر ملك الروم انه قد تجهز في العساكر الكثيرة وانه قاصد بلاد الاسلام ، وكان السلطان في قليل من العسكر لأنهم عادوا جافلين من الشام ، وتلك الجفلة استهلكت اموالهم ودوابهم فطلبوا مراكزهم وبقي السلطان في اربعة الاف غلام ولم ير الرجوع لجمع العساكر فتكون هزيمة ، فأنفذ بخاتون السفرية مع نظام الملك والأثقال الى همذان ، وامره بجمع العساكر وانفاذها اليه ، وقال لوجوه عسكره الذين بقوا ، انا صابر صبر المحتسبين وصائر في هذه الغزاة مصير المخاطرين فان نصرني الله فذاك ظني في الله تعالى ، وان تكن الأخرى فانا اعهد اليكم ان تسمعوا لولدي ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامي فقالوا : سمعا وطاعة ، وبقي في جريدة مع العسكر الذي ذكرنا ، ومع كل غلام فرس يركبه وأخر يجنبه ، وسار قاصدا ملك الروم ، وارسل احد الحجاب الذين كانوا معه في جماعة من الغلمان مقدمة له ، فصادف عند خلاط صليبا تحته مقدم للروم في عشرة آلاف فحاربهم فنصر عليهم واسر المقدم ، وكان من الروم ، واخذ الصليب وبعث به الى السلطان بذلك فاستبشر وقال : هذه امارة النصر ، وارسل بالصليب الى همذان وانف المقدم ، ثم امر بان يحمل الى الخليفة

ووصل ملك الروم الى منازكرد فـاخذها بـالأمان وقصـد ناحية السلطان في موضع يعرف بالزهرة بين خلاط ومنازكرد لخمس بقين من ذي القعدة ، فبعث اليه السلطان بان يرجـع الى بـلاده ويتمـم الصلح الذي توسطه الخليفة فقال : لاارجع حتى افعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم ، وقد انفقت الأموال العظيمة فكيف ارجـع وكان اليوم الأربعاء ، واقام السلطان الى نهار الجمعة وجمع وقـت الصلاة اصحابه وقال :

الى متى نحن في نقص وهم في زيادة اريد ان اطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التـي جميع المسـلمين يدعون لنا على المنابـر ، فـان نصرنا عليهم والا مضينا شـهداء الى الجنة فمـن احـب ان يتبعني فليتبع ، ومن احب ان ينصرف فلينصرف مصاحبا فما ها هنا اليوم سلطان وانما انا واحد منكم وقد فتحنا على المسلمين مـا كانوا عنه غناء فقالوا : ايها السلطان نحن عبيدك ومهما فعلت تبعناك ، وكان قد اجتمع اليه عشرة آلاف من الأكراد ، وانمـا اعتمـاده بعـد الله تعالى على اربعة الاف الذين كانوا معـه ، وملك الروم في مـائة الف مقاتل ومائة الف نقـاب ، ومـائة الف جـرخي ، ومـائة الف صانع ، واربعمائة عجلة تجرها ثمـانمائة جـاموس عليهـا نعـال ومسامير ، والفا عجلة عليها السلاح والمجانيق وآلة الزحف ، وكان في عسكره خمسة وثلاثون الف بطريق ومعه منجنيق يمده الف رجـل ومائتا رجل ، ووزن حجره عشرة قناطير ، وكل حلقة منه مائتا رطل بـالشامي ، وكان في خـزانته الف الف دينار ومـائة الف ثـوب ابريم ، ومن السروج الذهب والمناطق والمصاغات بمثل ذلك،وكان قد اقطع البطاركة البـلاد:مصر.والشـام.وخـراسان.والري.والعـراق واستثنى بغداد فقال : لاتتعرضوا لذلك الشيخ الصالح فانه صديقنا ـ يعني الخليفة ـ وكان عزمـه ان يشـتي بـالعراق ، ويصـيف بالعجم ، واستناب في القسطنطينية من يقـوم مقـامه ، وعزم على خراب بلاد الاسلام ، فلما كان يوم الجمعة وقت الصلاة وقد شـاور السلطان اصحابه قام قائما ورمى القوس والنشاب مـن يده وشـد ذنب فرسه بيده ، واخذ الدبوس ، وفعل اصحابه كذلك وبغتوا الروم

فقاتلوهم وما لحق الملك بان يركب فرسه ، وما ظن انهم تقدموا عليه فنصر الله المسلمين عليهم فانهزموا وتبعهم السلطان بقية نهار الجمعه . وليلة السبت يقتل ويأسر فلم ينج منهم الا القليل ، وغنموا جميع ما كان معهم ورجع السلطان الى مكانه فدخل عليه الكوهرائين فقال : ان احد غلماني قد اسر ملك الروم ، وكان غلامي هذا قد عرض على نظام الملك فاحتقره واسقطه ، فكلمته فيه فقال مستهزئا به ، لعله يجيئنا بملك الروم اسيرا فاجرى الله تعالى اسر ملك الروم على يده ، واستبعد السلطان لذلك وارسل خادما يقال له شاذي كان قد راسله به فلما رآه عرفه ، فرجع واخبر السلطان فامر بانزاله في خيمة ووكل به ، واستدعى الغلام وساله : كيف اسرته ؟ فقال : رأيت فارسا وعلى رأسه صلبان وحوله جماعة من الخدم الصقالبه فحملت علية لأطعنه فقال لي واحد منهم : لاتفعل فهذا الملك . فاحسن السلطان اليه وخلع عليه وجعله من خواصه فقال : اريد بشارة غزنة فاعطاه اياها .

ثم ان السلطان احضر الملك واسمه ارمانوس وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : الم ارسل اليك رسل الخليفة اطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فأبيت ؟ الم ارسل اليك بالأمس اسألك الرجوع فقلت : قد انفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت فكيف ارجع الا ان افعل ببلاد المسلمين مثل ما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رايت اثر البغي وكان قد جعل في رجليه قيدين وفي عنقه غلا فقال : ايها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس وانفقت الأموال لآخذ بلادك ولم يكن النصر الا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد فقال له السلطان :فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي ؟ فقال القبيح ، فقال: أه والله صدق ولو قال غير هذا لكذب ، هذا رجل عاقل ولا يجوز أن يقتل ، ثم قال له :ما تظن الآن ان افعل بك؟ قال احد ثلاثة اقسام :أما الاولى: فقتلي ، والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكره فانك لا تفعله ، قال : وما

هو ! قال :العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي الى ملكي مملوكا لك وبعض اسفهسلاريك ونائبك في الروم ، فإن قتلك لي لا يفيدك ، هم يقيمون غيري. فقال السلطان: ما نويت الا العفو عنك فاشتر نفسك ، فقال: يقول السلطان ما يشاء فقال: عشرة آلاف الف دينار فقال :والله انك تستحق ملك الروم اذ وهبت لي نفسي ولكن انفقت أموال الروم واستهلكتها منذ وليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وافقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد الى أن استقر الأمر على ألف الف وخمسمائة الف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة الف دينار وستين ألف دينار في كل سنة ، وأن ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة اليه وذكر أشياء فقال: اذا مننت علي عجل سراحي قبل أن تنصب الروم ملكا غيري فيفوت المقصود ، ولا اقدر على الوصول اليهم فلا يحصل شيء مما شرطته علي . فقال السلطان: أريد أن تعيد انطاكية والرها ومنبج ومنازكرد فانها اخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن أساري المسلمين.

فقال : اما البلاد فان وصلت سالما الى بلادي انفذت اليهم بالعساكر وحاصرتهم واخذتها منهم وسلمتها اليك ، فأما القوم فلا يسمعون مني واما اسارى المسلمين فالسمع والطاعة اذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ثم قال: أعطوه قدحا ليسقنيه ، فظنه له فأراد أن يشربه فمنع وأمر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح ، فأومأ الى تقبيل الأرض وناول السلطان القدح فشربه وجز شعره وجعل وجهه على الأرض وقال: اذا خدمت الملوك فافعل هكذا وانما فعل السلطان ذلك لسبب اقتضاه وهو: أن السلطان لما كان بالري عزم على غزو الروم فقال لفراموز بن كاكوية ها انذا امضي الى قتال ملك الروم وأخذه اسيرا واوقفه على رأسي ساقيا فحقق الله قوله ، واشترى جماعة من البطارقة ، وأستوهب اخرين ، فلما كان من الغد احضره السلطان وقد نصب له سريره ودسته الذي اخذ منه ، فأجلسه علية وخلع عليه قباءه وقلنسوته والبسه اياهما بيده ، وقال: قد اصطنعتك وقنعت بأمانتك وانا اسيرك الى بلادك واردك الى ملكك فقبل الأرض ، وكان لما بعث

الخليفة ابن المحلبان اليه أمره بكشف راسه وشد وسطه وان يقبل الأرض بين يديه فقال له السلطان: الست الفاعل بابن المحلبان رسول الخليفة كذا وكذا فقم الآن واكشف راسك وشد وسطك وأومىء الى ناحية الخليفة وقبل الأرض ، ففعل ، فقال السلطان: اذا كنت انا ,وانا اقل الملوك الذين في طاعته فعلت بك ما فعلت وانا في شرذمة من جندي وقد حشدت دين النصرانية ، فكيف لو كتب الخليفة الى ملوك الأرض يأمرهم فيك بأمر؟ وعقد له السلطان راية فيها مكتوب (لا اله الا الله محمد رسول الله) وانفذ معه حاجبين ومائة غلام فوصلوا به الى القسطنطينية ، وركب معه وشيعه قدر فرسخ فأراد أن يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه اليه وتعانقا وعاد السلطان عنه.

ثم حكى ملك الروم فقال: العادة جارية أن الملك الخارج من القسطنطينية اذا أراد الخروج الى حرب دخل البيعة الكبرى واستشفع بصليب ذهب بها مرصع بالياقوت ، قال: فدخلت البيعة لما عزمت على هذه السفرة واستشفعت اليه واذا بالصليب قد زال عن موضعه الى القبلة الاسلامية فعجبت من ذلك وسويته الى المشرق ، واتيته من الغد واذا به قد مال الى القبلة فأمرت بشده بالسلاسل ثم دخلت اليه في اليوم الثالث واذا به قد مال الى القبلة ، فتطيرت وعلمت أني مغلوب ، ثم غلبني الهوى والطمع ، فسرت الى بلاد الاسلام فكان مني ما كان.

معركة منازكرد

(من تاريخ العظيمي «مخطوطة بيازيد ١٨١ ظ»)

سنة ٤٦٣.

حصر السلطان العادل حلب ، وخطب بها محمود للمستنصر ، ثم انصلح امره ، وخرجت امه السيدة الى السلطان ، وخرج محمود ووطىء بساطه ، فأنعم عليه بالبلد.

ورحل ـ السلطان ـ قاصدا للقاء ملك ديجانس ملك الروم لأنه كان قد عاث في البلاد فلقيه بأطراف منازكرد فكسره السلطان وأسره وباعه بدينار ، واطلقه السلطان ورده الى بلاده ، فكحله الروم.

معركة منازكرد

(من كتاب المنتظم لابن الجوزي ٢٦٠ ـ ٦٥)

ثم دخلت سنة ثلاث وستين واربعمائة.

فمن الحوادث فيها ورد على السلطان خبر ملك الروم في جمعه العساكر الكثيرة ومسيره نحو البلاد الاسلامية ، وكان السلطان في فل من العساكر لأنهم عادوا من الشام جافلين الى خراسان للغلاء الذي استنفد أموالهم ، فطلبوا مراكزهم راجعين ، وبقي السلطان في نحو اربعة الاف غلام ، ولم ير مع ذلك أن يرجع الى بلاده ولم يجمع عساكره فيكون هزيمة على الاسلام ، واحب الغزاة والصبر فيها فأنفذ خاتون السفرية ونظام الملك والأثقال الى همذان وتقدم اليه بجمع العساكر وانفاذها ، وقال له ولوجوه عسكره: أنا صابر في هذه الغزاة صبر المحتسبين ، وصائر اليه مصير المخاطرين ، فان سلمت فذاك ظني في الله تعالى ، وان تكن الاخرى فأنا أعهد اليكم ان تسمعوا لولدي ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامي وتملكوه عليكم ، فقد وقفت هذا الأمر عليه ورددته اليه ، فأجابوه بالدعاء والسمع والطاعة. وكان ذلك من فعل نظام الملك وترتيبه ورأيه.

وبقي السلطان مع القطعة من العسكر المذكورة جريدة ومع كل غلام فرس يجنبه ، وسار قاصدا لملك الروم فحاربهم فنصر عليهم واخذ الصليب ، وهربوا بعد أن اثخنوا قتلا وجراحا ، وحمل مقدمهم الى السلطان فامر بجدع انفه وانفذ الصليب وكان خشبا وعليه فضة واقطاع من فيروزج وانجيلا كان معه في سفط من فضة ، الى همذان ، وكتب معه الى نظام الملك بالفتح وامر أن يحمل الى حضرة الخلافة .

ووصل ملك الروم فالتقيا بموضع يقال له الزهرة في يوم الأربعاء

لخمس وخمسين من ذي القعدة ، وكثر عسكر الروم ، وجملة من كان مع السلطان يقاربون عشرين الفا ، واما ملك الروم فانه كان معه خمسة وثلاثون الفا من الافرنج وخمسة وثلاثون.....في مائتين بطريق ومتقدم مع كل رجل منهم بين الفي فارس الى خمسمائة وكان معه خمسة عشر الف روز جاري ، واربعمائة عجلة عليها السلاح والسروج والعرادات والمجانيق منها منجنيق يمده الف رجل ومائتا رجل.

فراسل السلطان ملك الروم بأن يعود الى بلاده: وأعود انا وتتم الهدنة بيننا التي توسطنا فيها الخليفة ، وكان ملك الروم قد بعث رسوله يسأل الخليفة أن يتقدم الى السلطان بالصلح والهدنة ، فعاد جواب ملك الروم بأني انفقت الأموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول الى مثل هذه الحالة ، فاذا ظفرت بها فكيف اتركها ، هيهات لا هدنة الا بالري ، ولا رجوع الا بعد أن افعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم.

فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع ، وقال لهم: نحن مع القوم تحت الناقص وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر ، فاما أن ابلغ الغرض ، وأما أن أمضي شهيدا الى الجنة فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحبا عني فما هاهنا سلطان يأمر ، ولا عسكر يؤمر فانما انا اليوم واحد منكم وغاز معكم ، فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة والغنيمة ، ومن مضى حقت عليه النار. والفضيحة . فقالوا له : أيها السلطان نحن عبيدك ومهما فعلته تبعناك فيه واعناك عليه فافعل ماتريد ، فرمى القوس والنشاب ولبس السلاح وأخذ الدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وركبها ، ففعلوا مثله وزحف إلى الروم وصاح وصاحوا ، وحمل عليهم وثار الغبار واقتتلوا ساعة اجلت الحال فيها عن هزيمة الكفار ، فقتلوا يومهم وليلتهم القتل الذريع ونهبوا وسلبوا النهب والسلب العظيم ، ثم عاد السلطان إلى موضعه فدخل عليه الكهرائي الخادم فقال : ياسلطان

احد غلماني قد ذكر أن ملك الروم في اسره ، وهذا الغلام عرض على نظام الملك في جملة العسكر ، فاحتقره واسقطه ، فخـوطب في أمـره فأبى أن يثبته وقال مسـتهزئا : لعله أن يجيئنا بملك الروم أسـيرا فأجرى الله تعـالى أسر ملك الروم على يده ، واسـتبعد السـلطان ذلك ، واستحضر غلاما يسمى شاذي كان مضى دفعات مـع الرسـل إلى ملك الروم فأمره بمشاهدته وتحقيق أمره ، فمضى فرآه ، ثم عاد فقال : هو هو ، فتقدم بضرب خيمة له ونقله إليهـا وتقييده وغل يده إلى عنقه ، وأن يوكل به مائة غلام ، وخلع على الذي أسره وحجبـه وأعطاه ما اقترحه واستشرحه الحال ، فقال : قصدته ومـا اعرفـه وحوله عشرة صبيان من الخدم ، فقال لي احـدهم : لاتقتله إنه الملك فأسرته وحملته .

فتقدم السلطان بإحضاره ، فأحضر بين يديه ، فضربـه بيده ثـلاث مقارع أو اربعا ، ورفسه مثلها ، فقال له : الم أنفذ لرسل الخليفة في قصدك وإمضاء الهدنة معـك ، وإجـابتك في ذلك إلى ملمسـك ؟ الم ارسل لك الآن وابذل لك الرجوع عنك فأبيت إلا ما يشـبهك ، فـأي شيء حملك على البغي ؟ فقال : قد جمعت أيها السلطان واسـتكثرت واستظهرت وكان النصر لك فافعل ماتريد ، ودعني مـن التـوبيخ ، قال : فلو وقعت معك ماذا كنت تفعل بـي ؟ قـال : القبيح ، قـال : صدق والله ، ولو قال غير ذلك لكذب ، وهذا رجل عاقل جلد لاينبغـي أن يقتل . قال : وما تظن الآن أن يفعل بـك ؟ قـال : أحـد ثـلاثة أقسام : الأولى : قتلي ، والثانية : إشهاري في بـلادك التي كدت بقصدها وأخذها ، والثالثة : لافائدة في ذكره فإنك لاتفعله ، قـال : فاذكره ، قال : العفو عني وقبول الأموال والفدية مني واصـطناعي وردي إلى ملكي مملوكا لك نائبـا في ملك الروم عنك ، قـال : مـا اعتزمت فيك إلا هذا الذي وقع بأسـك منه وبعـد ظنك منه ، فهـات الأموال التي تفك رقبتك فقال : يقول السلطان ماشاء . فقال : أريد عشرة آلاف ألف دينار فقال : والله انك تسـتحق مني ملك الروم إذ وهبت لي نفسي ، ولكني قد أنفقت واستهلكت من أموال الروم عشرة آلاف ألف دينار منذ وليت عليهم في تجديد العساكر والحروب التـي

بليت بها إلى يومي هذا فأفقرتهم بذلك ، ولولا هــذا مــا اســتكثرت شيئا تقترحه ، فلم يزل الخطاب يتردد إلى أن استقر الأمر على ألف ألف دينار في كل سنة ، وإطلاق كل أسير في الروم ، وحمــل الطــاف وتحف مضافة إلى ذلك ، وأن يحمل من عساكر الروم المزاحــة العلل ما يلتمس أي وقت دعت حاجة إليها ، فقــال له : إذا كنت قــد مننت علي فعجل تسريحي قبل أن تنصب الروم ملكا غيري ، ولايمكنني أن أقرب منهم ، ولا أفي بشيء مما بذلته .

فقال السلطان أريد أن تعيد أنطاكية والرها ومنبج فإنها أخذت مــن المسلمين عن قرب وتطلق أسارى المسلمين ، فقال : إذا رجعــت إلى ملكي فأنفذ إلى كل موضع منها عســكرا ، وحــاصره لأتــوصل إلى تسليمها ، فأما أن ابتدىء بذلك فلا يقبل مني ، وأما الأسارى فــأنا أسرحهم وأفعل الجميل معهم .

فتقدم السلطان بفك قيده وغله ، ثم قال : أعطــوه قــدحا ليســقينيه فأعطي فظن أنه له فــأراد أن يشربــه فمنع منه ، وأمــر أن يخــدم السلطان ويتقدم إليه ويناوله إياه وأومأ إلى الأرض إيماءا قليلا على عادة الروم ، وتقدم إليه فأخذ السلطان القدح وجــز شــعره فجعــل وجهه على الأرض وقال : إذا خدمت الملوك فافعل هكذا ، وكان لذلك سبب اقتضاه وهو أن السلطان قال في الري:ها أنا أمضي إلى قتــال ملك الروم وآخذه أسيرا وأقيمــه على رأسي ســاقيا ، وانصرف ملك الروم إلى خيمته فاقترض عشرة آلاف دينار فــأصلح منهــا شــأنه وفرق في الحواشي والأتباع والموكلين بــه ، واشــترى جمــاعة مــن بطارقته واستوهب آخرين .

فلما كان من الغد أحضره وقد ضرب له سريره وكرسيه اللذان أخــذا منه فأجلسه عليهما وخلع قباءه وقلنسوته فألبسه إياهما وقــال له : قد اصطنعتك وقنعت بقولك وأنا أسيرك إلى بلادك وأردك إلى ملكك ، فقبل الأرض ، وقال له ، ألم ينفذ إليك خليفة الله تعــالى في أرضــه رسولا يجملك به ويقصد إصلاح أمرك فأمرت بــأن يكشــف رأســه ويشد وسطه ويقبل الأرض بين يديك ؟ وكان بلغه أنه فعل هذا بــابن

المحلبان فقـــال : أليس الأمـــر على مـــايقول ؟ وبـــان له منه تغير ، فقال : ياسلطان في أي شيء وفقت حتى أوفق في هذا ؟ وقام وكشــف رأسه وأومأ إلى الأرض ، وقال : هذا عوض عما فعلتــه بــرسوله ، فسر السلطان بذلك وتقدم بأن تعقد له راية عليهـــا مـــكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فرفعها على رأسه ، وأنفذ حـــاجبين ومـــائة غلام يسيرون معه إلى قسطنطينية وشيعه نحو فرسخ ، فلمـــا ودعه أراد أن يترجل فمنعه السلطان واعتنقا ثم افترقا .

وهذا الفتح في الاســـلام كان عجبـــا لانظير له فإن القـــوم اجتمعـــوا ليزيلوا الاسلام وأهله ، وكان ملك الروم قد حدثته نفسه بالمسير إلى السلطان ولو إلى الري ، واقطع البطارقة البلاد الاسلامية ، وقـــال لمن اقطعه بغداد لاتتعرض لذلك الشيخ الصالح فإنه صـــديقنا ، يعني الخليفة ، وكانت البطارقة تقول : لابد أن نشتو بـــالري ، ونصـــيف بالعراق ، ونأخذ في عودنا بلاد الشام .

فلما كان الفتح ووصل الخبر إلى بغداد ضربت الدبـــادب والبـــوقات وجمع الناس في بيت النوبة ، وقرئت كتب الفتح .

ولما بلغ الروم ماجرى حالوا بينه وبين الرجوع إلى بـــلادهم وملكوا غيره ، فأظهر الزهد ولبس الصوف ، وأنفذ إلى السلطان مائتي ألف دينار وطبق ذهب عليه جـــواهر قيمتهـــا تســـعون ألف دينار، وحلف بالانجيل أنه ما يقدر على غير ذلك ، وقصد ملك الأرمن مستضيفا به وكحله ، وبعث إلى السلطان يعلمه بذلك .

معركة منازكرد

(من تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الاصفهاني ـ الذي هذبه البنداري: ٣٧ ـ ٤٢)

وبلغ السلطان خروج ارمانوس ملك الروم في جمع لايحصى عدده ، فلما سمع هذا الخبر اغذ السير الى اذربيجان اذ شمع ان متملك الروم اخذ على سمت خلاط ، وكان السلطان في خواص جنده فلم ير ان يعود الى بلاده ليجمع عساكره ويستدعي من الجهات للجهاد قبائل الدين وعشائره ، فسير نظام الملك وزيره وخاتون زوجته الى تبريز مع اثقاله ، وبقي في خمسة عشر الف فارس من نخب رجاله ومع كل واحد فرس يركبه وآخر يجنبه ، والروم في ثلاثمائة الف ويزيدون ما بين رومي وروسي وغز ي وقفجاقي وكرجي وابخاتي وفرنجي وارمني ، ورای السلطان انه ان تمهل لحشد الجموع ذهب الوقت وعظم بلاء البلاد وثقلت اعباء العباد ، فركب في نخبته وتوجه في عصبته وقال : انا احسب عند الله نفسي ، وان سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي ، وان نصرت فما اسعدني وانا امسي ويومي خير من امسي .

ثم توكل على الله وسار بهذه العزيمة الماضية القوية والصريمة الصارمة الروية ، وكان متملك الروم قد قدم رؤساء مقدمين من الروس في عشرين الف فارس ومعهم عظيمهم الاصلب وصليبهم الاعظم ، وخالطوا بلاد خلاط بالبلاء والسلب والسباء ، فخرج اليهم عسكر خلاط ومقدمهم صندق التركي ، فصب صبح البيض على ليل النقع المظلم وخاض الى العز مشمرا نار الحريق المتضرم ، وقتل منهم خلقا كثيرا وقاد قائدهم في القيد اسيفا اسيرا فامر السلطان بجدع انفه وارجاء حتفه ، وذلك يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة

٤٦٣ وعجل الصليب السليب الى نظام الملك ليعجل انفـاذه الى دار السلام مبشرا لسلامة الاسلام ، وتـلاحق عسـكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ، واهلها واثقـون بـالله الذي لم يزل لدينه ناصرا ، ونزل متملك الروم على مناز كرد في انصـار نصرانيتـه وعمـــداء معموديته ، فانزعج سكانها وعلموا انه ليست لهم بما نزل بهم طاقة وان دماءهم لاشك بسيوف الكفر مهراقة ، فخرجوا بامان وسـلموا البلد فبيتهم تلك الليلة عند بلاطه تحـت احتياطـه ، فلمـا بـكر يوم الاربعاء سيرهم بامرهم في اسر ، واردفهم بعسـكر مجـر ، وخـرج ليشيعهم بنفسه وهو في جماعة حماته وحمسه ، ووافق ذلك وصـول اوائل العسكر السلطاني ووقعت العين في العين واجتمعت في المجالدة اجادل الجمعين وجرى الخيل وجرف السيل وانجر من الارض على السماء الذيل ، وصـحت على الروم كسرة اردتهـم وصـدفتهم عن مقصدهم وصدتهم فانعكسوا الى مجثمهم في مخيمهـم ، وانكشـفوا بما تم من عرس الاسلام بما تمهم ، وشرعت المنازكردية بـالتسلسل فقتل الروم منهم من ادركه اجله ونجا الباقون ، وعرف الروم انهـم للموت مـلاقون ، وعاد متملكهـم الى مضـاربه وبـات تلك الليلة والكوسات تصرخ والبوقات تنفخ ، ولما اصبحوا بكرة الخميس وصل السلطان الب ارسلان ونزل على النهر ومعه من المقاتلة خمسة عشر الف فارس لايعرفون سوى القتـل والقهـر ، وكلب الروم نازل بين خلاط ومنازكرد في موضع يعرف بالزهرة وهو في مائتي الف فـارس من ذوي القلوب المدلهمة والوجوه المكفهرة ، وبين العسكرين فـرسخ وبين مجرى التوحيد والتثليث برزخ ، فارسل الب ارسـلان رسـولا وحمله سؤالا ، ومقصوده ان يكشف سرهم ويتعرف امرهم ويقـول للملك ان كنت ترغب في هدنة اتممناها ، وان كنت تزهد فيها تـوكلنا على الله في العزمة وصممناها ، فظن انه انما راسله عن خور فـابى واستكبر ونبا وتعسر ، واجاب بـاني سـوف اجيب عن هـذا الراي بالري،وانتهى الى غاية الغي ، فاغتاظ السلطان وارتفعت بينهمـا المخاطبة وانقطعت المواصـلة ، ولبثـا يوم الخميس يعبيان ولداعي المنون يلبيان ، والشمس تشكو حر ما تصـاعد اليهـا مـن زفـرات

الاحقاد وكانما شعاعها دم اراقته على الافاق وخزات تلك الصعاد ، والطلائع على المطالع ، والنوايا على الثنايا ، والعزم السلطاني الى اللقاء مشرئب وللمضاء مستتب فقال له فقيهه وامامه محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : انك تقاتل عن دين الله الذي وعد باظهاره ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر ، فلما اصبحوا يوم الجمعة ارتجت الارض بالضجاج وارتجت السماء بالعجاج ولقد لقحت الحرب العوان بالمهندة الذكور والمسومة الفحول والكماة الحماة يحمون حمى الحمام ويحومون حول الدخول ، ووقعت الطوالع في الطوالع ، وقرعت القواطع ، وغنت الظبى ، ورقصت المران ومال القنا وجالت الفرسان ، ودارت الكؤوس وطارت الرؤوس ، وما فتئت الفتيان تجور وتجول والخرصان تصوب وتصول الى ان دنا وقت الزوال ، ودان لمقت الدين وقت النزال وصدحت اعواد المنابر بالخطباء وصدقت نيات اهل الجمعة للمجاهدين ، ثم ركب جواده وثبت فؤاده وقوى قلبه ، وفرق اصحابه اربع فرق كل فرقة منهم في كمين ، وراح له من الروح الامين مجير امين ، ولما علم ان الكمين مكين وان الضمير شاهد بما يشهده من النصر ضمين ، تلقى بوجهه الحر حر الحرب واستحلى طعم الطعن وضرب الضرب . وحمل متملك الروم بجمعه واخذ ببصر الدهر وسمعه ، واقبل كالسيل يطلب القرار والليل يسلب النهار ، وثبتت لهم خيل الاسلام ثم وثبت وجالت وما وجلت ، واستجرت الروم الى ان صار الكمين من ورائها ووقفت المنون بازائها ، ثم خرج من خلفها وذوو الاقدام من قدامها ووقعت نار البيض في حلفاء هامها فاذنت بانهزامها ، وانكسرت كسرة لاتقبل جبرا ، فطائفة لم تثبت للقتال ولم تصبر ، وطائفة ثبتت فقتلت صبرا فما نجت من اولئك الالوف احاد وما سلمت من اعداء الاسلام اعداد . وملك الملك وقيد وقيذا واسر ولم يجد له معينا ولامعيذا ، وركب المسلمون اكتافهم وقتل الاحاد آلافهم وطهرت الارض من خبثهم وفرشت بجثثهم وصارت الوهاد باشلاء القتلى اكما ، والمروت من قصد القنا اجما .

قال : وكانت مع الروم ثلاثة الاف عجل تنقل الاحمال وتحمل الاثقال

ومن المنجنيقات التي تحملها منجنيق هو اعظمها واثقلها له ثمانية اسهم ويمد فيها الف ومائتا رجل ويحمله مائتا عجل يرمي حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطي قنطار وكانه جبل له في الجو مطار .
قال : وشملهم باسرهم القتل والاسر ، وبقيت اموالهم منبوذة بالعراء لاترام معروضة لاتسام ، وسقطت قيمة الدواب والكراع والسلاح والمتاع حتى بيعت بسدس دينار اثنتا عشرة خوذة ، وبدينار ثلاثة ادرع .

ومن عجيب ما حكي في اسر الملك انه كان لسعد الدولة كوهرائين مملوك اهداه لنظام الملك فرده عليه ولم ينظر اليه ، فرغبه فيه كثيرا فقال نظام الملك : وما يراد منه عسى ان ياتينا بملك الروم اسيرا ، وذكر ذلك استهزاء به واستصغارا لقدره واحتقارا لامره ، فاتفق وقوع ممتلك الروم يوم المصاف في اسر ذلك الغلام ووافق تصديق قول النظام ، وخلع عليه السلطان وقال : اقترح من العطاء ما اعطيك فطلب بشاره غزنه .

قال : ودخل السلطان الى اذربيجان بملكه وايده والملك في قيده وصيده وهو اسيف جهده واسير جهله (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله)(سورة فاطر- الآية: ٤٣) .
فانه خرج وفي نيته فتح الدنيا وحتف الدين وقهر السلاطين ونصر الشياطين ، ثم ذل بعد العز وهان وتعرض للابتذال كل ما صان ، ثم تعطف عليه السلطان واحضره بين يديه وقال : اخبرني بصدقك في قصدك وما الذي قدرت لو قدرت ؟ فقال : كنت احسب اني احبس من اسرته منكم مع الكلاب ، واجعله من السبايا والاسلاب ، وان اخذتك ماسورا اتخذت لك،وقد ساء جوري،ساجورا . فقال السلطان : قد عثرت على سر شرك ، فماذا بك الان نصنع ونحن منك بما نويته فينا لانقنع ، فقال : انظر عاقبة فساد نيتي والعقوبة التي جرتها الي جريرتي ، فرق له قلب الب ارسلان وارسله وفك قيده ووصله ، وافرج عنه معجلا وسرحه مبجلا ، ولما انصرف الملك ارمنانوس مأنوسا رمى قومه اسمه ومحوا من الملك رسمه وقالوا : هذا من عداد الملوك ساقط ، وزعموا ان المسيح عليه ساخط .

معركة منازكرد

(من تاريخ دمشق لابن القلانسي ٩٩)

وفي هذه السنة ـ ٤٦٣ هـ ـ نزل السلطان العادل الب ارسلان بن داود اخي السلطان طغر لبك بن سلجوق رحمه الله على حلب محاصرا لها ، وبها محمود بن صالح ، في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الاخرة وضايقها الى ان ملكها بالامان ، فخرج محمود اليه فامنه وانعم عليه وولاه البلد . ورحل عنه ثالث وعشرين رجب قاصدا الى بلاد الروم طالبا ملكهم وقد توجه الى منازكرد فلحقه ، واوقع به وهزمه ، وكان عسكره على ما حكي تقدير ستمائة الف من الروم وما انضاف اليهم من سائر الطوائف ، وعسكر الاسلام على ما ذكر تقدير اربعمائة الف من الاتراك وجميع الطوائف ، وقتل من عسكر الروم الخلق الكثير بحيث امتلأ واد هناك عند التقاء الصفين وقد حصل الملك في ايدي المسلمين اسيرا ، وامتلئت الايدي من سوادهم واموالهم والاتهم وكراعهم ، ولم تزل المراسلات مترددة بين السلطان الب ارسلان وبين ملك الروم المأسور الى ان تقرر اطلاقه والمن عليه بنفسه بعد اخذ العهود والمواثيق بترك التعرض لشيء من اعمال الاسلام ، واطلاق الاسرى ، واطلق وسير الى بلده واهل مملكته ، فيقال انهم اغتالوه وسملوه واقاموا غيره في مكانه لاشياء انكروها عليه ونسبوها اليه .

معركة منازكرد

(من زبدة التواريخ للامير ابي الحسن علي بن الشهيد ابـي الفوارس ناصر بن علي الحسيني ٤٦ ـ ٥٣)

وفي سنة ثلاث وستين واربع مائة مر السلطان الب ارسلان بالشام ، وخلف ابنه مع فوج من عساكره بكورة حلب ، وعبـر مـاء الفـرات بسـنابك الجياد دون السـفائن والزواريق ، وورد نواحـي خـوي وسلماس ، فقرع سمعه ان ملك الروم قد فوض المملكة الى رجل من اولاد الملوك النصارى ، وجهز له جيشـا يربـى على ثـلاثمائة الف فارس وراجل ، ورمت الروم الى السلطان أفلاذ كبـدها واخـرجت الأرض اثقالها من عديدها وعددها ، واجتمـع على هـذا الملك مـن أوباش الروم والأرمن والفـرس والبجناك والغـز والفـرنج أقـوام اطالت الفتن بهم سواعدها ، واعلت النصرانية باجتماعهم قواعدها وحلفوا على انهم يزعجون الخليفة ويقيمـون مقـامه الجـاثليق ، ويخربون المسـاجد ، ويبنون البيع ، فـأنفذ السـلطان الى زوجتـه ووزيره نظام الملك وقال : اني صائر بهذا القدر الذي معي الى العدو فان سلمت فنعمة من الله تعالى ، فان استشهدت فـرحمة مـن الله تعالى فخليفتي ابني ملكشاه ، وهو في خمسة عشر الف فارس مـن الشجعان الرجال ومع كل واحد فرس يركبه . وتقارب السلطان من ملك الروم في موضع يعرف بـالزهرة بين خـلاط ومـلازكرد في يوم الاربعاء خامس عشر ذي القعدة سنة ثـلاث وسـتين واربـع مـائة فراسله السلطان في الهدنة فأجاب : ان الهدنة تكون بالري فـانزعج من ذلك السلطان ، فقال له امامه وفقيهه ابو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : انك تقـاتل عن دين الله وانا ارجـو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر على الكافـرين

والدعاء مقرون بالاجابة ، فتوقف السلطان الى يوم الجمعة عند خطبة الخطباء وقرأ قوله تعالى (وما النصر الا من عند الله) (سورة الأنفال ـ الآية: ١٠) وقال السلطان : ربما يكون في الخطباء من اذا قال في آخر خطبته: اللهم انصر جيوش المسلمين وسراياهم حقق الله ببركات دعائه مقاصد الغزاة ومبتغاهم.

وعاد الوزير نظام الملك الى همذان صيانة للعراق وخراسان ومازندران عن اهل العيث والفساد ، والقى السلطان نفسه في المهالك وقال السلطان : من اراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا السلطان يأمر وينهى غير الله ، ورمى بالقوس والنشاب ، واخذ السيف وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل جميع عسكره مثل فعله ، فلما التقى الجمعان حفر الروم الخندق حول العسكر فقال السلطان : انهزموا والله فان حفر الخندق لهؤلاء مع كثرة عددهم دليل على الجبن والفشل ، وضرب قيصر الروم فسطاطا من الاطلس الاحمر وخيمة مثلها واخبية من الديابيج ، وجلس على سرير من الذهب وفوقه صليب من الذهب مرصع بجواهر لاقيمة لها ، وبين يديه بشر كثير من الرهابين والقسيسين يتلون بالانجيل .

والتقى الفريقان يوم الجمعة عند طلوع خطيب المسلمين في المنبر وعلت الاصوات بالقرآن واصوات الكوسات من عسكر السلطان واصوات النواقيس من عسكر الروم ، وهبت اعصار عمت عيون المسلمين وكاد ينهزم عسكر السلطان ، فنزل السلطان من الفرس وسجد لله تعالى وقال : اللهم توكلت عليك وتقربت بهذا الجهاد اليك وعفرت وجهي بين يديك وضرجته بعصارة كبدي وعيناي نضاحتان من البكاء وسالفتاي رشاحتان من الدماء فان كنت من ضميري خلاف ماأقوله بلساني فأهلكني ومن معي من اعواني وغلماني ، وان كان سرا لعلانيتي فأمددني على جهاد الأعداء واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وصير العسير علي يسيرا ، وكان يردد هذا التضرع حتى انعكست مهاب الرياح وأعمت عيون الكفار واجتث التقدير شجرة البغي ، واصطلم أنف الغي ، ودرس اعلام النصارى

« وترى الناس سكارى وما هم بسكارى» (سورة الحج ـ الآية:

(٢) وانجلت عند اصفرار الشمس غبرة المعركة وأحاطت بملك الروم يد الأسر والهلكة.

وكيفية ذلك انه عار فرس لبعض غلمان السلطان فتبع ذلك الغلام أثر فرسه فوجد فرسا مع لجام مرصع وسرج من ذهب ورجلا جالسا عند الفرس وبين يديه مغفر من الذهب ودرع مسرودة من الذهب ، فهم الغلام بقتله فقال له الرجل : انا قيصر الروم فلا تقتلني فان قتل الملوك شؤم ، فشد الغلام يديه وجره الى معسكر السلطان ، فما رآه اسير من أسرى الروم الا الصق جبهته بالتراب فورد المبشر حضرة السلطان ، والسلطان يصلي المغرب ، فأدخلوه على السلطان والحجاب آخذوه من ضفيرته وجيبه يجرونه الى الارض بين يدي السلطان لما استهواه من زهو الملك والأبهة فقال السلطان : دعوه فحسبه معاينة هذا اليوم ، وكان لسعد الدولة كوهرائين مملوك اهداه الى الوزير نظام الملك فرد عليه ولم ينظر اليه ، ورآه حقيرا ، فرغبه فيه كثيرا ، فقال الوزير نظام الملك : وماذا يراد منه عسى ان يأتينا بملك الروم قيصر اسيرا فكان كما قال الوزير نظام الملك .

وحضر يوم الوقعة الغلام بين يدي السلطان وأحضر ملك الروم اسيرا فأمر بتقييده ، ومني الغلام فتمنى بشارة غزنين فبذل ذلك له .

سمعت من خواجا امام مشرف الشيرازي التاجر على شاطىء جيحون مقابل درغان ونحن منحدرون الى خوارزم قال : سمعت مشائخي انه لما تقابل عسكر السلطان الب ارسلان وعساكر الروم سير ملك الروم رسولا الى السلطان وقال له : انني قد اتيتك ومعي من العساكر مالا قبل لك فيه فان انت دخلت في طاعتي فانا أدفع لك من البلاد مايكفيك وتأمن سطوتي وبأسي ، وان انت لم تفعل ذلك فان معي من العساكر ثلاثمائة الف فارس وراجل ، ومعي اربعة عشر الف عجلة عليها خزائن الاموال والسلاح ، وليس يقف بين يدي احد من عساكر المسلمين ، ولايغلق بوجهي مدينة من مدائنهم ولاقلعة من

قلاعهم ، فلما سمع السلطان هذه الرسالة اخذته عزة الاسلام ، وتحركت في صدره نخوة الملك فقال للرسول : قل لصاحبك انك انت ماقصدتني ولكن الله سبحانه حملك الي وجعلك وعساكرك طعمة للمسلمين فأنت أسيري وعبدي ، وعساكرك بعضهم قتلاي وبعضهم اسراي وخزانتك كلها ملكي ومالي ، فاثبت للمقارعة وتهيأ للمكافحة فسوف ترى ان عساكرك هي رقاب تساق الى ضاربها ، وخزانتك هي اموال تحمل الى ناهبها ، وفي بكرة غد كان الحرب بينهما وجرى جميع ماقاله السلطان بعون الله وتوفيقه .

ولما احضر الملك امام سدة السلطان قال ملك الروم للترجمان : قل للسلطان ردني الى دار ملكي قبل ان تجتمع الروم الى ملك أخر يجاهرنا بالمكافحة ، ويدرس كتاب العدوان ويبرز صفحة العصيان وانا اطوع لك من عبيدك ، ولك علي كل سنة أن اودي على سبيل الجزية الف الف دينار ، فأجابه السلطان الى سؤاله بعد ماعرضه النخاسون على معرض البيع في الاسواق ثم اعتقه السلطان وخلع عليه وعلى من بقي معه من الاسارى ، وعاد الملك الى دار ملكه ووفى بما عاهد .

معركة منازكرد

(من بغية الطلب لابن العديم « ٣ ـ ٢٨٠ و ٢٨٥ ظ » من مخطوطة احمد الثالث)

الب أرسلان بن جفري بك بن سلجوق بن تقاق بن سلجوق وقيل سلجق ، ولكل واحد من آبائه اسم آخر بالعربية ، محمد بن داوود بن ميكائيل بن سليمان ... وقدم حلب محاصرا لها وفيها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس سنة ثلاث وستين واربع مائة ، فدام على حصارها الى ان خرج اليه مع والدته السيدة ، فأنعم عليه بحلب وسار الى الملك ديوجاذس وقد خرج من القسطنطينية فالتقاه واسره ثم من عليه واطلقه ...

وقرأت بخط ابي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم:وسمع ان ملك الروم ديوجاذس قد خرج من القسطنطينية على طريق الثغور والدرب فرحل عن حلب بعد خروج محمود اليه بخمسة أيام وقصده حتى لقيه على منازكرد فحاربه حتى هزمه واسر ملك الروم ، وغنم معسكره وكانت عدة الترك ستمائة الف رجل .

وقرأت في بعض التواريخ التي لم يسم جامعها ان الب ارسلان العادل .. رحل عنها ـ حلب ـ في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة قاصدا بلد الروم في طلب ملكهم وقد توجه الى منازكرد فلحقه في عساكره واوقع به فهزمه وقيل إن ملك الروم كان في ستمائة الف ، والب ارسلان في اربع مائة الف من الاتراك ، وحصل ملك الروم اسيرا في ايدي المسلمين وصار الى الب ارسلان فلم تزل المراسلات (بينهما) الى ان تقرر اطلاقه على مهادنة منها انه لايغرض لبلاد المسلمين ، ثم سيره الى بلاده .

وقرأت بخط الحافظ ابي الخطاب عمر بن محمد العليمي وانبانا به

ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد النسابة عنه قال : وجدت بخط ابي الحسن يحيى بن علي بن محمد زريق ، ذكرَ اخبار السلطان الشهيد المعظم الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود برهان امير المؤمنين نضر الله وجهه ...

وعاد السلطان منكفئا الى بلاده على طريق العراق معرجا منه نحو بلاد ارمينية ، واسرع في سيره بمن خف معه ، ووصل فالتقى متملك الروم بالقرب من خلاط وتلك البلاد ، فاعتبر من وصل معه من عسكره فكانت عدتهم ثلاثة عشر الفا ، وتصادف العسكران في يوم الجمعة ، ووقف السلطان عن قتاله انتظارا لوقت الصلاة والدعاء على منابر الاسلام وترقبا للاجابة في نصرة المسلمين ، فلما صلى الظهر ناجزهم الحرب فأظفره الله تعالى بعسكر الروم ، واجراه على جميل العادة في الظفر ، ومكنه ممن بغى وكفر ونهب العسكر بأسره ، واسر متملك الروم وأقامه بين يديه ومعه باز وكلب صيد ثم انعم عليه وخلع واكرمه واصطنعه ، وسيره مع قطعة من عسكره لتعده الى بلاده ومملكته ، فاختلت الأمور عليه ولم يتم له ماأراد ، وذكر انه كحل ومات بعد مدة ، ولم يجر في الاسلام منذ ظهر مثل هذا الظفر ، ولااسر للروم متملك قبل هذا في الاسلام ، وكان السلطان قد سأل متملك الروم عند حضوره بين يديه ما سبب خروجه وتعريضه نفسه وعسكره لهذا الأمر ؟ فذكر انه لم يرد الا حلب اذ كان كلما جرى على الروم كان محمود هو السبب فيه والباعث عليه لمن قصدها من الترك ، وغنم من هذا العسكر ما يفوق الاحصاء والعد وتجاوز الأمد والحد ، وبيع من غنائمه ما يساوي مائة دينار بدينار واحد فلله الحمد على ذلك كثيرا.

قرأت بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين . وغزا السلطان الب ارسلان بلاد الروم ، وخرج أمر الخليفة القائم الى الخطباء على المنابر بالدعاء له بما صيغته : اللهم أعل راية الاسلام وناصره وادحض الشرك بجب غاربة وقطع أواصره ، وأمدد المجاهدين في سبيلك الذين في طاعتك بنفوسهم سمحوا وعلى متابعتك

بمهجهم فازوا وربحوا بالعون ، الذي تطيل به باعهم وتمـلا بـالأمن والظفر رباعهم ، واحب شـاهنشاه الأعظـم بـرهان امير المؤمنين بالنصر الذي تنشر به أعلامه وتستنسر بمكانه من اختلاف الظـلال أيامه ، واوله من التأييد الضاحكة مباسمه القائمة أسواقه ومواسمه، ما تقوي به في اعزاز دينك يده ، ويقضي بأن يشفع يومه في الكفـار غده ، واجعل حدوده بملائكتك معضودة وعزائمه على اليمن والتوفيق معقودة ، فإنه قد هجر في كريم مرضاتك الدعة وتاجرك من بذل المال والنفس ما انتهج فيه مسالك أوامرك الممتثلة المتبعة فإنك تقول : - وقولك الحق - (يا أيها الذين امنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بـأموالكم وأنفسكم).(سورة الصف ، الآية ١٠)

اللهم فكما اجاب نداءك ولبـاه واجتنب التثـاقل عن السـعي في حياطة الشريعة واباه ، ولاقى أعداءك بنفسه وواصـل في الانتصـار لدينك يومه بأمسه ، انت أخصصه بالظفر واعنه في مقاصده بحسـن مجاري القضاء والقدر وحطه بحـوز يدرأ عنه مـن الأعداء كل كيد ، ويشمله من جميل صنعك بـأقوى أيد ، ويسر له كل مـرام يحـاوله ومطلب يرومه ويزاوله حتى تكون نهضته الميمونة عن النصر مسفرة، ومقلة احزاب الشرك مـع اصرارهـم على الضـلال غير مبصرة ، فابتهلوا معاشر المسلمين الى الله تعـالى في الدعاء له بنية صـافية وعزيمة صادقة وقلوب خاشعة وعقائد في رياض الاخلاص رائعـة ، وواصلوا الرغبة إلى الله في اعزاز جانبه وفـل غرب مجـانبه واعلاء رايته وانالته من الظفر اقصى حده وغايته .

وانفذ السلطان في مقدمته احد الحجاب فصادف عند خلاط صليبا تحته متقدم الروسية في عشرة آلاف من الروم ، فحاربوهم واعطـى الله المسلمين النصر عليهم فأخذ الصليب واسر المقـدم ، وتحـارب السلطان وعظيم الروم في مكان يعرف بالزهرة بين خـلاط ومنازكرد في يوم الأربعاء خامس ذي العقدة ، وكان السلطان في خمسـة عشر الفا وصاحب الروم في مائتي الف ، وراسل السـلطان ملك الروم في الهدنة ، فقال ملك الروم : لا هدنة إلا بالري فعزم الله على السلطان

على الرشد ، ولقيه يوم الجمعة وقت الزوال وهو سابع ذي العقدة واعطى الله المسلمين النصر ، فقتلوا منهم قتلا ذريعا واسر ملك الروم وضربه الب ارسلان ثلاث مقارع ، وقطع عليه الف الف وخمس مائة الف دينار ، واي وقت طلب السلطان عساكر الروم نفذها ملكهم اليه ، وان يسلم كل اسير من المسلمين عنده .

معركة منازكرد

(من كتاب زبدة الحلب لابن العديم ٢ / ٢٣ ـ ٣٠)

وقصد ـ السلطان ـ ملك الروم وأسرع في السير لانه بلغه ان ملك الروم خرج في جموع لاتحصى ، وأنه وصل الى قالقيلا وهي أرزن الروم ، فوصل السلطان الى أزربيجان حين بلغه أن ملك الروم قد أخذ علي سمت خلاط ، وكان السلطان في خواص جنده وجموع عساكره بعيدة عنه ولم ير العود الى بلاده فسير وزيره نظام الملك وزوجته الخاتون الى تبريز مع أثقاله ، وبقي في خمسة عشر ألف فارس من نخبة عسكره مع كل واحد فرسه وجنيبه ، والروم في زهاء ثلاثمائة الف أو يزيدون ما بين فارس وراجل ، من جموع مختلفة من الروم والروس والخزر واللان والغز والقفجق والكرج والأبخاز والفرنج والأرمن ، وفيهم خمسة آلاف جرخي وفيهم ثلاثون الف مقدم ما بين دوقس وقومس وبطريق ، فرأى السلطان أن الامهال للحشد والجمع مضر فركب في نخبته وقال : انا احتسب نفسي عند الله وهي اما السعادة بالشهادة واما النصر (ولينصرن الله من من ينصره)(سورة الحج ـ الآية : ٤٠) ثم سار مرتبا جيشه قاصدا جموع الروم.

وكان ملك الروم قد قدم مقدما في عشرين الف مدرع من شجعان عسكره ومعه صليبهم ، فوصل الى خلاط فنهب وسبى ، فخرج اليه عسكر خلاط معه صندق التركي الخارج الى بلاد حلب في سنة اثنتين وستين على ماقدمناه ذكره ، فكسر صندق وأسره وصادف ذلك وصول السلطان فأمر بجدع أنفه ، وعمل على انفاذ الصليب الذي كان في صحبته الى نظام الملك ، وأمر بتعجيل انفاذه الى دار السلام مبشرا بالفتح ، وتلاحق عسكر الروم فنزلوا على خلاط محاصرين ، ونزل الملك على منازكرد فسلموها اليه بالأمان خوفا من

معرة جيوشه ان استولوا عليهم وذلك في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة ثلاث وستين واربعمائة.

فلما كان يوم الأربعاء سير اهل منازكرد ، وخرج بنفسه ليشيعهم وهو في جموعه ، وحشوده ، ووافق ذلك وصول العسكر السلطاني ووقعت العين في العين فحمل المسلمون حملة رجل واحد فردوهم على أعقابهم ، وشرع اهل منازكرد يتسللون من بينهم ، فقتل الروم بعضهم ونجا الباقون وترك الروم طريقهم الذي كانوا سالكين وعاد ملكهم فنزل في مضاربه بين خلاط ومنازكرد وباتوا ليلتهم على أعظم قلق واشده .

فلما اصبحوا بكرة الخميس وصل السلطان الب ارسلان في بقية عساكره ، فنزل على النهر ، وملك الروم على موضع يعرف بالزهرة في مائتي الف فارس ، والسلطان في خمسة عشر الف ، فأرسل السلطان رسولا حمله سؤالا وضراعة ، ومقصوده أن يكشف أمرهم ويختبر حالهم ويقول لملك الروم : أن كنت ترغب في الهدنة أتممناها . وإن كنت تزهد فيها وكلنا الأمر الى الله عز وجل ، فظن الرومي أنه انما أرسله عن ضرورة فأبى واستكبر واجاب بأني سوف أجيب عن هذا الراي بالري ، فغاظ السلطان جوابه وانقطعت المراسلة بينهما ، واقام الفريقان يوم الخميس على تعبئة الصفوف ، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي فقيه السلطان وامامه : أنت تقاتل عن دين الله الذي وعد باظهاره على الأديان ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر في أقطار الأرض ، فلما أصبحوا يوم الجمعة ركب السلطان بجموعه وركبت الروم فتواقفوا فلما حان وقت الزوال نزل السلطان عن فرسه واحكم شد حزامه وتضرع بالدعاء الى الله تعالى ، ثم ركب وفرق أصحابه فرقا كل فرقة منهم لها كمين ثم استقبل بوجهه الحرب .

وحمل ملك الروم بجمعه فاستطرد المسلمون بين أيديهم ، واستجروا الروم إلى أن صار الكمين من ورائهم ، ثم خرج الكمين من خلفهم ، ورد المسلمون في وجوههم ، فأنزل الله نصره ، وكسرت

الروم وأسر الملك واستولى المسلمون على عساكرهم وغنمــوا مــالا يعــد كثــرة ولا يحصى عددا وعدة ، وقيد الملك أســيرا إلى بين يدي السلطان فأقامه بين يديه ومعه بازي وكلب صيد .

وكانت مع الروم ثلاثة آلاف عجلة تحمل الأثقــال والمنجنيقــات ، وكان من جملتها منجنيق بثمانية أسهم تحمله مائة عجلة ويمــد فيه الف ومائتا رجل وزن حجره بالرطل الكبير قنطار ، وحمل العســكر من أموالهم ما قدروا عليه ، وسقطت قيمة المتاع والســلاح والكراع حتى بيعت اثنتا عشرة خوذة بسدس دينار ، ولم يسلم مــن عســكر الروم إلا العسكر الذي كان محاصرا خلاط ، فلمــا بلغهــم الكسرة رحلوا عن البلد جافلين فاتبعهم المسلمون وتخطفوا أطــرافهم ، فلم يلو أولهم على آخرهم .

فمن عجيب الاتفاق ما حكي : انه كان لســعد الدولة كواهــرائين مملوك هداه لنظام الملك فرده عليه فجعل يرغبه فيه فقال نظام الملك : ومــاذا عسى أن يكون مــن هــذا المملوك يأتينا بملك الروم أســيرا ، مستهزئا به .

ثم انسي هذا الحديث الى أن كان في هذه الحادثة فاتفق وقوع ملك الروم في أسر ذلك الغلام ، فخلع السلطان عليه وبــالغ في إكرامــه ، وحكمه في طلبه واقتراحه فطلب بشارة غزنة فكتب له بذلك .

ثم رحل السلطان الى أذربيجان والملك في قيده ، فأحضره الســلطان بين يديه ، وسأله عن سبب خروجه وتعريضه نفسه وعســكره لهــذا الأمر ؟ فذكر انه لم يرد إلا حلب ، وكلمــا جــرى علي كان محمــود السبب فيه والباعث عليه ، فقال : اصدقني عما كنت عازمــا عليه ان لو ظفرت بي ؟ فقــال : كنت اجعلك مــع الكلاب في ســاجور ، فقــال السلطان : ما الذي تؤثر أن يفعل بك ؟ فقال انظر عاقبة فساد نيتــي واختر لنفسك ، فرق له قلب السلطان فمن عليه وأطلقه وأكرمه وخلع عليه بعد أن شرط عليه أن لايعترض لشيء من بــلاد الاســلام ، وأن يطلق أسرى المسلمين كلهم ، وسيره الى بلاده وسير معه قطعة مــن العسكر توصله فلما انصرف ديوجانس الى قسطنطينة خلعــوه مــن

الملك ، ولم يتم له ماأراد ، وقيل انه كحل ومات بعد مــدة ، ولم ينقــل أنه أسر للروم ملك في الاسلام قبل هذا .

معركة منازكرد

(من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ٨ / ١٠٧ - ١١٠)

في هذه السنة (٤٦٣ هـ) خرج ارمانوس ملك الروم في مائتي الف من الروم والفرنج والغز والروس والبنجاك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، فجاؤوا في تجمل كثير وزي عظيم وقصد بلاد الاسلام ، فوصل الى منازكرد من اعمال خلاط فبلغ السلطان الب ارسلان الخبر وهو بمدينة خوي من اذربيجان قد عاد من حلب ، وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع ، فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو ، فسير الاثقال مع زوجته ونظام الملك الى همذان ، وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر الف فارس وجد في السير وقال لهم : انني اقاتل محتسبا صابرا فان سلمت فنعمة الله تعالى وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي ، وساروا فلما قارب العدو جعل له مقدمة فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف من الروم فاقتتلوا. فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم ، وحمل إلى السلطان فجدع أنفه ، وانفذ بالسلب إلى نظام الملك وأمره أن يرسله الى بغداد ، فلما تقارب العسكران أرسل السلطان الى ملك الروم يطلب منه المهادنة فقال : لا هدنة إلا بالري ، فانزعج السلطان لذلك ، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الأديان وارجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة ، فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ، ودعا ودعوا معه وقال لهم : من

أراد الانصراف لينصرف فما ها هنا سلطان يأمـر وينهـى والقـى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط وقـال : اذا قتلت فهـذا كفني وزحف إلى الروم وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحمل وحملت العسـاكر معـه فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا ، وانزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم مـالا يحصى حتى امتلات الأرض بجثـث القتلى ، واسر ملك الروم واسره بعض غلمان كوهرائين ، فأراد قتله ، ولم يعرفه فقال له خـادم مـع الملك : لا تقتله فإنه الملك ، وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقارا له فاثنى عليه كوهرائين فقال نظام الملك : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك ، فلما أسر الغـلام الملك احضره عند كوهرائين ، فقصد السلطان واخبره بأسر الملك فـأمره بإحضاره ، فلما احضر ضربه الب أرسلان ثلاثة مقارع بيده وقال له:

الم ارسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد ، فقال السلطان ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟

فقال : افعل القبيح ، فقال له : فما تظن انني افعل بك قال : إمـا أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الاسلام والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك قال ما عزمت على غير هـذا ، ففـداه بـألف الف دينار وخمسـمائة الف دينار ، وأن يرسـل إليه عساكر الروم أي وقت طلبهـا وأن يطلق كل اسـير في بـلاد الروم ، واستقر الأمر كذلك .

وانزله في خيمة وارسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، فـأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد ، فقال ملك الروم أين جهـة الخليفة ؟ فدل عليها ، فقام وكشف رأسه واوما الى الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره الى بلاده ، وسير معه عسكرا اوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا.

معركة منازكرد

(من تاريخ ابن ابي الدم « مخطوطة البودليان ١٣٣ ـ و)

وفيها (٤٦٣ هـ) وصل الملك العادل الب ارسلان الى الرها راستدعى الأمير تاج الملوك أبا سلامة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، فلم يجبه ، فقطع الب ارسلان الفرات ، ونزل على حلب في جيش ما جر مثله في الليالي ، وقابلها يومين ثم كف عنها خوفا من الخراب والقتل ، ثم اتفق خروج ملك الروم أرمانوس يريد بلاد الب ارسلان بخراسان ، فلما سمع الب ارسلان بذلك رفق بتاج الملوك محمود بن نصر و راسله حتى خرج اليه فأكرمه وخلع عليه ، وفارقه. وتوجه الب ارسلان فلقيه ملك الروم ارمانوس بارض ملازكرد فأوقع به ونصره الله تعالى ، وقتل منهم خلقا عظيما ونهب من الأموال مالا يحصى ، وروي أنه أسر ارمانوس ملك الروم ، وقرر الف الف وخمسين الف دينار حمر ، وتسلمها منه وأطلقه ، ولما وصل الب ارسلان الى حلب وأناخ عليها لم يتأذ أحد من أهل الشام بعسكره ، ولاتعرضوا لمال أحد ، ولا لامرأة مع كثرتهم

معركة منازكرد

(من تاريخ الفارقي وهو أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق ١٨٩ ـ ١٩٠)

ثم إن السلطان سمع ان ملك الروم عاد ، فنزل الى الموصل ، فنزل خلفه جماعة كثيرة من اهل اخلاط ومنازكرد يعلمونه ان ملك الروم قد عاد الى البلاد ، فرجع السلطان وصعد الى ارزن وبدليس وكان معهم قاضي منازجرد ، فوصل اخلاط وملكها واقام بها اياما ، ثم وصل ملك الروم الى ولاية منازجرد فخرج السلطان وسار ونزل على باب منازجرد ، وحصلت المراسلات تمضي بينهما ، وكان ملك الروم في خلق لايحصى ، ومضى ابن المحلبان من عند السلطان الى ملك الروم فسأله عن البلاد وحالها وقال : أخبرني ايما أطيب اصفهان أم همذان ؟ فقال : اصفهان ، فقال له : قد بلغنا أن همذان شديدة البرد ، فقال : هو كذلك ، فقال الملك : نشتي نحن في أصفهان والكراع في همذان ، فقال له ابن المحلبان : أما الكراع صحيح يشتي في همذان ، واما انت فلا أعلم ذلك ، ثم ابتعد عنه ، والتقوا للقتال فعبأت الروم صفوفها في ثلاثمائة الف فارس والسلطان في نفر يسير فضيق الوقت للقتال ، وكان يوم الجمعة ، الى وقت ما علم السلطان أن الخطيب على المنبر وحان وقت نزوله ، فقال للناس : احملوا فحملوا كلهم وكبروا ، وقال السلطان : هذا وقت الدعاء على جميع المنابر لجيوش المسلمين وباقي الناس يؤمنون على دعائهم فلعل الله يستجيب من واحد منهم ، ثم حملوا وكبروا فأعطاهم الله النصر ، فانهزم ملك الروم وقتل من أصحابه خلق عظيم ، وغنموا اموالهم بحيث تقاسموا الذهب والفضة بالأرطال ، وغنم اهل اخلاط ومنازجرد من أموالهم ما استغنوا به الى الآن . فانهم خرجوا واقاموا مع الجيش وقاتلوا ونهبوا أكثر الذهب.

معركة منازكرد

(من أخبار مصر لمحمد بن علي بن يوسف بن جلب المعروف
بابن ميسر « ٢ / ١٩ ــ ٢٠ »)

فيها (سنة ٤٦٢ هـ) بعث ناصر الدولة ابن حمدان الفقيه ابا
جعفر محمد بن احمد البخاري رسولا الى السلطان الب ارسلان ملك
العراق . يسأله أن يسير اليه عسكرا من قبله ليقيم الدعوة العباسية
وتكون مصر له ، فتجهز الب أرسلان من خراسان في عساكر جمـة ،
وسير لصاحب حلب أن يقطع دعوة المستنصر ويقيم الدعوة العباسية
فقطع دعوة المصريين ولم تعد ، وسار الب أرسلان فوصل الى حلب
في جمادى الأخرة سنة ثلاث وستين واربعمائة وحـاصرها شـهرا،
فخرج اليه صاحبها محمود بن صـالح وكان قـد امتنع مـن لقـائه
فأكرمه وأعاده الى ولايته ، فقوي عزمه على المسير الى دمشـق ثـم
مصر ، فبينما هو على حلب اذ جاءه الخبر بأن ملك الروم قـد قـطع
بلاد أرمينية يريد خراسان فرجع الى بلاده ، والتقـى مـع عسـاكر
الروم على أخلاط وهزمهم اقبـح هـزيمة .

وأسر ملكهم ، وكان قد خلف طائفة من الأتراك ببلاد الشـام فملكوا
بلاد الشام ، وخرجت كلها من أيدي المصريين.

معركة منازكرد

(من تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع

" ٢ / ٣ / ١٨٩ ـ ٢٠١ ")

وفي سنة ستة آلاف وخمس مائة وستين للعالم ، وهي سنة سبع مائة وثمانية وثمانين للشهداء ، وصل الملك العادل الب ارسلان من المشرق في عساكر عظيمة عددها ستمائة الف فارس سوى أتباعهم فاضطربت البلاد وقلقت المملكة بمصر ، وفتح في الشام الفوقاني بلادا كثيرة ، وفي بلاد الروم ، الى أن حسن له أصحابه فتح المدينة الجليلة الرها ، وكان فيها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن اسار ابن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية آلاف أرمني وعشرين الف سرياني وستة آلاف رومي والف افرنجي ، فنزل عليهم في ستمائة الف مقاتل وضرب خيمته وأنفذ الى أهلها يخدعهم قائلا:

ما غرضي فتح بلدكم ، بل تقطعوا لي عليكم مال وأرحل عنكم ، فلما سمعوا هذا اهتموا بجمع المال وهو ينقب تحت حصن المدينة ، ومن بعد سبعة أيام كان في عسكره صبي سرياني ، فكتب رقعة يقول فيها لأهل الرها : هو يخادعكم وقد نقب تحت البرج الفلاني والموضع الفلاني حتى وصف لهم احد عشر موضعا فيها النقابين ينقبوا ، وقد بلغوا تحت الحصن وتجاوزوه ، وجعل الرقعة في نشابة ورماها الى المدينة فأخذوها ووقفوا عليها ، ونقبوا قبالة تلك المواضع ، وكان الوالي المذكور يأخذ البوق ويجعل رأسه فيما يلي خارج البلد على الأرض وطرفه عند أذنه فيسمع حس النقب ، فالتقوا النقابين بغتة في النقوب ، فقتل من نقابين الرها ثلاثة ومن نقابين الب أرسلان بن داود المنعوت بالعادل عشرون رجلا ، واستأسروا تسعة فقتلوهم ،

ورموا رؤوسهم اليه في المنجنيقات والعرادات ، وكان عندهم تسعين منجنيق وعرادة ، وشتموه وصاحوا عليه ياغدار يامكار يانكاث ، وأكثروا من شتمه بكل قبيح ، فنصب عليهم القتال الشديد ثمانية وثلاثين يوما ، وكان يقاتلهم بالأفيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد فاذا دنوا ليقربوا الحصن طرحوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم ، واستظهروا عليه بقوة السيد المسيح لأنها المدينة التي دعا لها توا التلميذ ولأبجر ملكها.

ثم أنه زحف اليها بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحم وزفت ونفط ، وطرحوا عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها وقتلوا كل من كان فيها .

ثم أمر الملك العادل بقطع الأشجار والأخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن حتى يمشي الخيل والرجال عليه الى الحصن ، فتوصلوا اليها من داخل المدينة من النقوب واطلقوا فيها النيران فتأجج النار حتى صار الخندق نيران تلتهب ، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فأنفذ اليهم رسول يقول لهم : ما يحسن بي أن ارحل عنكم بعد قتالكم ، وقد اطاعتني جميع البلاد ، الا بعد أن يستقر لي عليكم مال يسير ، وانا أرحل عنكم لئلا يصير علي فضيحة ، فأنزل الوالي رسوله في دار وأكرمه ، فلما كان بالغداة تخير عشرة الاف رجل أحداث مقاتلين من المدينة ، والبس جميعهم الحديد حتى لم يبق منهم الا جفون عينهم ، وأوقفهم صفين في الموضع الذي يعبر فيه الرسول الى باب الرها ، وقال للرسول : اركب عائدا الى صاحبك ، فركب ولم يزل سائر فيما بين أولئك الأحداث وهم يزعقوا ويصيحوا الى أن انتهى الى باب المدينة ، فقال له باسيل الوالي : قل لهذا الكلب الغدار الذي أرسلك : كنا نظن أن لك قولا صادقا واذ أنت غدارا كذوبا نكاثا ، وما عندنا الا السيف ، لأن كذبك وغدرك قد عرفناه ، وما تحتاج الى نقب ولادبابات ، هو ذا باب المدينة مفتوح ووحق سيدي يسوع المسيح لاأغلق باب هذه المدينة في هذا النهار الا بعد مغيب الشمس، فان أردت القتال فتقدم ، ولم يزل باب هذه المدينة مفتوح ، وأولئك

الاحداث قيام ، والحصن معمر بالرجال الى بعد الغروب ، وأغلقــوا الباب وصاحوا عليه من فوق السور.

وفي تلك الليلة رحل عنهم بعد أن اقام خمسة واربعين يومــا ، ومضى الى مدينة سروج والى حلب ، وحاصرها فكانوا يعيروه بما لقيه مــن اهل الرها ، وبعد هذا خرج اليه محمود بن صــالح ليلاً في زي الغــز حتى وصل الى خيمته فتطارح عليه ، فقبله واحسن اليه واخلع عليه وأعاده الى مدينته .

ثم عاد ايضا الى الرها في شهر بشنس واقام اربعة ايام بلا قتــال ، وكتب اليه نصر بن نصر الدولة يقول له : انت نازل على الرهــا ومــا تقدر تفتحها وديوجــانس ملك الروم قــد أهلك بلد الاســلام الى أن قارب بلاد خراسان ، فرحل ليلا وســار الى أن وصــل الى خــلاط مجــاور منازكرد بــلاد الأرمــن ، وبين المدينتين نهــر عظيم ، وكان ديوجانس ملك الروم نازل على نهر منازكرد بعسكره ، وهو ايضا في ستمائة الف فارس مقاتلة فالتقى الملكان في أيام من بــوونة ، فعمــل مقدمين عساكر ديوجانس الرومي عليه منصوبة بدسيسة من ميخائل ابن مارية الذي كان ملك قبله عمه قيصر ، فلما حمل الملك ديوجــانس على عسكر الغز وصار في وسطهم وهو يظن أن اصحابه وعســاكره يحملوا معه ، وهم طائعين له ومناصحين ، فلما خــذلوه وتخلوا عنه قتل بيده جماعة من الغز ، ولم يزل يقتــل ويدفــع عن نفســه الى أن قبضوه أسير وتفرقت عساكره بعد أن قبض منهم جمــاعة ، ودخــل بعضهم الى منازكرد فأحضره الملك العادل بين يديه وقال : أتريد أن ابيعك أو أقتلك أو أعتقلك ؟ فقال : له ديوجانس : ما ملكتني بقتــال وانما اجنادي خذلوني وتخلوا عني ولم ينصحوني ، والآن فان كنت جزارا فاقتلني ، وإن كنت صــيرفيا فبيعني ، وإن كنت ملكا فــاعف عني ، فقام اليه فاعتنقه واجلسه معه في مرتبته وخلا بــه ثــلاثة ايام يأكل ويشرب ويتحدث معه ويوادده ، وقرر معه عهود وهــدية وســير معه ثلاثة الاف فارس حتى أوصلوه المصيصة وعادوا.

معركة منازكرد

(من تاريخ العالم لابـن العبـري « متـرجم عن التـرجمة الانكليزية ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ »)

« ثم جمع الملك دايوجنيس قوات هائلة ومضى زاحفا من جهة ارمينية بأبهة عظيمة وجاء الى امام منازكرد ، فطرد قوات السلطان منها ، لكنه لم يقتلهم ، واستولى على المدينة ، وعندما علم السلطان بهذا ، مال بنظره نحو الأراضي الرومية ، وبسبب أن التركمان كانوا قلة ، كان السلطان الب ارسلان خائفا فأرسل رسولا الى دايوجينس اميرا اسمه ساوتكين لعلهما يصنعان سلما ويقولان لبعضهما سنمضي كل منا عائدا الى بلاده ، لكن دايوجنيس تبجح وقال : الآن وقد اخرجت جميع كنوزي وجمعت كل هذه العساكر ، والنصر لي ، انصرف ؟ ليس لكم معي الا السيف ، ثم إن الله له الحمد ، الذي يجلب الخفض الى الأرعن ، اعطى القوة للسلطان ، الذي هيأ عساكره وخاطبهم بكلمات التشجيع ، ورمى القوس والنبال من يده ، ولبس درعه ، وأخذ مجنه ورمحه بيده وعقد ذيل حصانه واعتلاه ، ومثله فعل جميع الترك ، وهجموا على الروم في اليوم السادس للاسبوع (الجمعة) عند الظهر في مكان بين خلاط ومنازكرد ، وصرخوا صرخة مدوية واندفعوا بينهم وسقط الرعب على الروم ، وبعد أن قتل الكثير منهم بدأوا يفرون وأخرون اخذوا أسرى . وعند المساء جاء مملوك اسمه كوهرائين من بين الأمراء الترك الى السلطان وقال له : لقد ذكر أحد عبيدي بأنه قد أخذ ملك الروم أسيرا وإنه معه ... ومع أن السلطان لم يصدق ذلك فانه لم يصر على قوله ، بل ارسل أحد الغلمان الذي كان اسمه شاذي الذي غالبا ما سافر مع الرسول الى ملك الروم ، ليذهب ويتأكد منه ، وعندما ذهب شاذي ورأى دايوجنيس سجد احتراما للملك ، ثم

ركض عائدا الى السلطان فأخبره بأن الأسير هـو الملك ، وأعطـى السلطان اوامره فنصبوا خيمة ملوكية لدايوجنيس وأخذوه الى هناك ووضعوا قيودا حديدية حول معصميه ورقبته ، وأرسل مئة من الترك ليقيموا الحراسة حوله.

وفي الصباح امر السلطان فـأحضر دايوجنيس أمـامه فضربـه بيده اربعة مقارع وخاطبه :

يا هذا كيف لم تصغ لي عندما خاطبتك مـن اجـل السـلام ؟ ثـم إن دايوجنيس الذي كان حكيما ورجلا حاذقا قال كلمات متـزنة : لقـد قصرت في كل هذه الأشياء التي هي ممكنة لرجل والتي يمكن للملك أن يصنع ، ولكن الله تمم ارادته ، والآن افعل ما تريده وجانب التـوبيخ فقال له السلطان : اصدقني ماذا كنت فاعل بي فيمـا لوسـقطت في يديك ؟ فأجابه (كل سوء لأن عدوا لايقابل عدوا الا ليعمل الشر له). فقال السلطان : لقد تكلم هـذا بـالصدق ، ولو انك أجبـت بـطريقة تختلف عن هذه كنت سأقطع راسك ، والآن اخبرني ايضا ماذا تظن اني صانع بك ؟ فأجابه الملك واحد من ثلاثة أمور :

اولها : أن تقتلني ، وثانيها يمكن لك أن تشهرني في ممـالكك حتـى يعلم كل انسـان بنصرك ويراه ، وثـالثهما ليس مـن الضروري لي قولها لأنها ضرب من الخيال وبعيدة عن كل شيء يمكنك أن تصـنع . فقال السلطان : ولماذا تمنع نفسك عن قولها ؟ فأجاب دايوجنيس تلك ان ترسلني الى المدينة الملكية ، وانا سأكون كأحد اتبـاعك وعندمـا تطلبني سآتي ، وعندما تقول لي اصـنع هـذا سـأصنعه . فـأجاب السلطان : ليس لي نية في أن أصنع غير ذلك لأنك لم تكن جازعا.

ثم طلب السلطان منه دفع عشرة آلاف الف دينار حتى يفدي نفسـه. فقـال دايوجنيس لو انى أعطـي كل مملكة الروم ذلك شـيئا قليلا بالنسبة لما سأربحه ، لكن منذ أن أصبحت ملكا للروم قمـت بصرف أموال مملكة الروم على الجيوش التي قدتها.
ثم أطلق سراح دايوجنيس على شرط أن يدفع الف الف دينار كفدية وجزية سنوية قدرها ثـلاثمائة وسـتين الف دينار . وهـكذا امـر

السلطان أن تنزع القيود الحـديدية عنه، وجلسـا معـا على مـرتبة واحدة كانت قد انتزعت منه . واكل دايوجنيس وشرب مع السـلطان وطلب السلطان منه انطاكية والرها ومنبج ومنازكرد التي كان الروم قد أخذوها من العرب.

فأجاب دايوجنيس : عندما اعود الى مملكتي أرسل جيشا وقاتل من اجلهم وانا سأرسل لهم بأن يسلموا ، ولكن اذا ارسـلت لهـم الآن فانهم لن يصغوا لي ، ثم تابع قوله اذا كنت سترسلني ابعثني بسرعة قبل أن يعين الروم ملكا ، وافعل ذلك حالا حتى وان كنت لااسـتطيع أن انفذ واحدا من هذه الشروط . وفعلا حصل هذا ، وامر السلطان وعين مئة عبد واميرين ليركبوا معه حتـى القسـطنطينية ، ورافقـه السلطان مسافة فرسخ واحد وعندما أراد السلطان ان يعـود ، اراد دايوجنيس أن يترجل ، ولكن السلطان منعه من الترجل ، وهكذا قبلا بعضهما وهما راكبين جنبا الى جنب وافترقا.

معركة منازكرد

(من تاريخ المسلمين لابن العميد « مخطوطة المتحف البريطاني ١٤٧ ـ و.ظ »)

وفي سنة ثلاث وستين واربعمائة سار السلطان الب ارسلان نحو اخلاط في اربعين الف فارس للقاء الروم . فخرج اليه بطريق في جموع عظيمة ، فنصر عليهم السلطان وأسر مقدمهم فجدع انفه ، ثم وصل ملك الروم بنفسه فلقيه السلطان بمكان يعرف بالزهرة ، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة ، فقاتلهم السلطان يوم الجمعة فهزمهم ، وقتل المسلمون منهم يومهم وليلتهم مالا يحصى ، وأسر ملك الروم ، فاطلقه السلطان على أن يحمل الف الف وخمسمائة الف دينار ، وتقرر عليه قطيعة في كل سنة ثلاثمائة الف وستين الف دينار ، واطلاق كل اسير في الروم من المسلمين.

فلما وصل ملك الروم الى بلاده وجد الروم قد ملكوا غيره ، فأظهر الزهد ولبس الصوف ، وبعث الى السلطان مائتي الف دينار وجوهر قيمته تسعون الف دينار ، وحلف انه لايقدر على غير ذلك ، ثم قصد ملك الأرمن مستضيفا به فأجاره ملك الأرمن ، ونزل عليه ، فبعث الى السلطان اعلمه بذلك.

معركة منازكرد

(من كتـــاب البـــداية والنهـــاية لابـــن كثير « ١٢/ ١٠٠ ـ ١٠١ »)

وفيها (٤٦٣ هـ) اقبـل ملك الروم ارمـانوس في جحـافل أمثـال الجبال من الروم والكرج والفرنج وعدد عظيم وعدد ، ومعـه خمسـة وثلاثون الفا من البطارقة مع كل بطريق مائتا الف فارس ومعه مـن الفرنج خمسة وثلاثون الفا ومن الغز الذين يسكنون القسـطنطينية خمسة عشر الفا ، ومعه مائة الف نقاب وحفـار والف روزجـاري ، ومعه اربعمائة عجلة تحمل النعـال والمسـامير والف عجلة تحمـل السلاح والسروج والعرادات والمناجيق ، منهـا منجنيق عدتـه الف ومائتا رجل ، وكان من عزمه قبحه الله أن يبيد الاسلام واهله وقـد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد ، واستوصى نائبهـا بـالخليفة خيرا فقال له : ارفق بذلك الشيخ فانه صاحبنا ، ثم اذا اسـتوثق ممـالك العراق وخراسان لهـم مـالوا على الشـام واهله ميلة واحـدة فاستعادوه من أيدي المسلمين والقدر يقـول :« لعمـرك انهـم لفـي سكرتهم يعمهون» (سورة الحجر ـ الآية: ٧٢) فالتقاه السـلطان الب ارســلان في جيشــه وهم قريب من عشرين الفا بمكان يقال له الزهـرة في يوم الاربعـاء لخمس بقين من ذي القعدة ، وخاف السـلطان مـن كثـرة جند ملك الروم فأشار عليه الفقيه ابو نصر محمد بن عبـد الملك البخـاري أن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين ، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتـواجه الفتيان نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل ومرغ وجهـه في التـراب ودعا الله واستنصره ، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم اكتافهم ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وأسر ملكهم ارمانوس اسره غلام رومـي فلما أوقف بين يدي الب ارسلان ضربه بيده ثلاث مقارع وقـال : لو

كنت انا الأسير بين يديك ما كنت تفعل ؟ فقال : كل قبيح ، قال : فما ظنك بي ؟ فقال : اما أن تقتلني أو تشهر بي في بلادك واما أن تعفو عني وتأخذ الفداء وتعيدني قال : ما عزمت على غير العفو والفداء ، فافتدى نفسه منه بألف الف دينار وخمسمائة الف دينار ، فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض الى جهة الخليفة اجلالا واكراما ، واطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها وأطلق معه جماعة من البطارقة ، وشيعه فرسخا ، وارسل معه جيشاً يحفظونه الى بلاده معهم راية مكتوب عليها لا اله الا الله محمد رسول الله ، فلما انتهى الى بلاده وجد الروم قد ملكوا عليهم غيره ، فأرسل الى السلطان يعتذر اليه وبعث من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمائة الف دينار.

معركة منازكرد

(من تاريخ دول الاسلام للذهبي «مخطوطة المتحف البريطاني ٥٩ - و-ظ»)

وفيها تم مصاف لم يسمع مثله بين الاسلام والشرك خرج أرمانوس طاغية الروم في مائتي الف من الروم والفرنج والغز الكفرة والروس والكرج وهو في تجمل عظيم يقصد بلاد الاسلام، فوصل إلى اعمال خلاط، وكان الب ارسلان ببلد خوي فبلغه كثرة العدو وهو في خمسة عشر الفا فقال: انا التقيهم وأستعين بالله فإن سلمت بنعمة الله وان كانت الشهادة فالأمر لله وابني ملكشاه ولي عهدي، فوقعت طائفة على طلائع رومانوس فأسر المسلمون مقدمهم فأحضر إلى السلطان فقطع أنفه.

فلما إلتقى الجمعان بعث السلطان يطلب المهادنة فقال ارمانوس لا هدنة إلا بإعطاء الري، فإنزعج السلطان فقال له إمامه: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على الأديان وأرجو أن يكون الله قد كتب اسمك بهذا الفتح، فلما كان وقت الساعة التي يكون خطباء الاسلام يوم الجمعة على المنابر صلى السلطان وبكى وبكى الأمراء ودعا وأمنوا، فقال: يا أمراء من اراد أن ينصرف فلينصرف فما ها هنا سلطان يأمر وينهي، وألقى قوسه ثم جرد سيفه وعقد ذنب فرسه بيده وفعل الجيش مثله ولبس البياض وتحنط للموت، ثم زحف بجيشه فلما خالطوهم ترجل السلطان وعفر وجهه بالتراب واكثر الدعاء والبكاء، ثم ركب وحمل هو والجيش فحصلوا في وسط العدو وقتلوا فيه كيف شاؤوا، ونزل النصر وامتلأت الأرض بالقتلى فإنهزم العدو وأسر ملكهم الأعظم أرمانوس، فلما حضر بين يدي السلطان ضربه بالمقرعة وقال: الم ابذل لك في الهدنة؟ قال: دعني من التوبيخ، قال: فما كان عزمك أن تفعل بي لو أسرتني؟ قال: كل

قبيح ، قال : فما تظن أنني افعل بك ؟ فقال : إما أن تقتلني أو تشهرني في بلادك والثالثة بعيدة وهي العفو ، وقبول المال واصطناعي ، قال : ما عزمت على غير ذا ، ففدى نفسه بألف الف وخمسمائة الف دينار وأن يطلق كل اسير في ممالكه ، فأنزل في خيمة وخلع عليه وأطلق له جماعة من بطارقته ، فكشف ارمانوس رأسه وسجد إلى جهة الخليفة ، وهادنه السلطان خمسين سنة .

معركة منازكرد

(من كتاب اتعاظ الحنفا للمقريزي «حوادث سنة ٤٦٢ من مخطوطة احمد الثالث »)

فيها (٤٦٣ هـ) بعث ناصر الدولة حسين بن حمدان الفقيه ابا جعفر محمد بن أحمد البخاري رسولا إلى السلطان الب ارسلان ملك العراق ، يسأله أن يسير إليه العسكر ليقيم الدعوة العباسية بديار مصر وتكون له ، فتجهز الب ارسلان من خراسان في عساكر عظيمة وبعث الى محمود بن نصر بن صالح بن مرداس صاحب حلب أن يقطع دعوة المستنصر ، ويقيم الدعوة العباسية ، فقطعت دعوة المستنصر من حلب ولم تعد بعد ذلك.

وانتهى الب ارسلان إلى حلب في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين ، وحاصرها شهرا فخرج إليه صاحبها محمود بن صالح بن مرداس ، فأكرمه واقره على ولايته ، واخذ يريد المسير إلى دمشق ليمر منها إلى مصر ، واذا بالخبر قد طرقه بأن متملك الروم قد قطع بلاد ارمينية يريد أخذ خراسان ، فشغله ذلك عن الشام ومصر ورجع إلى بلاده ، فواقع جمائع الروم على خلاط وهزمهم ، وكان قد ترك طائفة من عسكره الأتراك ببلاد الشام فامتدت أيديهم إليها وملكوها كلها ، فخرجت – من – أيدي المصريين ولم تعد إليهم .

معركة منازكرد

(من الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية لابـن أيبـك الدواداري . « ٣٩٢ - ٣٩٦ »)

ثم وردت الأخبار على السلطان الب ارسلان أن ملك الروم خرج في جمـوع عظيمـة وورد الى منبـج وأرجيش ومنازكرد ، فـرجع السلطان وبلغ ملك الروم أن السلطان في عسكر خفيف فطمع في لقائه ووصل الخبر الى السلطان بما عزم عليه ملك الروم وطمعـه فيه لقلة جيوشه ، وكان قد بقي في اربعة آلاف فارس فقال لوجوه عسكره:
أنا صابر في هذه الغزاة صبر المحتسبين وصـائر إلى مصـير المخاطرين فإن سلمت فذلك ظني بالله تعالى وإن تكن الأخرى فـأنا اعهد إليكم أن تسمعوا وتطيعوا لولدي ملك شـاه وتقيمـوه مقـامي فقالوا : سمعنا واطعنا ، وقصد الروم جـريدة مـع كل غلام فـرس يركبه وآخر يجنبه ، وسـار بنية خـالصة لا يخـالطها كدر الغـزاة المشركين وقدم قدامه احد حجابه في جماعة من الجند ، فصادف عند اخلاط مقدمة الروم عشرة الاف من الروم ، فالتقاهم ذلك الحـاجب وكان في ثمان مائة فـارس فنصره الله عز وجـل على تلك الجمـوع بمعونة الله تعالى ، واسر مقدم الجيش وكان مـن الروس ، واخـذ صليبهم وانفذ الجميع إلى السـلطان فسره ذلك وعلم انهـا علامـة النصر .

وصل ملك الروم الى منازكرد في تلك الجموع العـظيمة ممـا يزيد عن مئة الف فارس ومئة الف جرخي واربع مـئة الف عجلة تجـرها ثمان مئة جاموسة عليها نعال ومسامير بـرسم الخيول والف عجلة أخرى عليها السلاح والمناجيق والات الحصار . وكان في خزائنه الف الف دينار ومئة الف ثوب أبرسيم وخرج في نية أنه يطأ الأرض ويفتح

مصر والشام واقطعها للبطارقة واوصى على بغداد وقال : لا يتعرض احد الى دار الشيخ الصالح يعني الخليفة فإنه صديقنا.

وكان قد اجتمع مع السلطان الب ارسلان تقدير عشرة الاف من الأكراد والمجتمعة من سائر الناس ، فلما كان نهار الجمعة قال السلطان وقد جمع وجوه أصحابه إلى متى هذا التأخير ؟ اريد أن أطرح نفسي عليهم هذا اليوم وقت الصلاة الذي الناس جميعهم من المسلمين يدعون لنا بالنصر على المنابر ، فإن نصرنا الله عز وجل عليهم وإلا متنا شهداء ، فمن احب أن يتبعني فليتبع ، ومن أحب الحياة فلينصرف و لا عتب عليه فما ها هنا اليوم سلطان وإنما أنا واحد منكم ، فقالوا جميعهم : لا حياة لنا بعدك ومهما اخترته لنفسك اخترناه لأنفسنا ، فلما كان وقت الصلاة اصطفت العسكران ، فعندها قام السلطان في سرجه ورمى القوس من يده وتناول لت حديد وفعل جميع أصحابه كفعله ، وصاح الله أكبر فتح الله ونصر ، وحمل على الروم حملة صادقة وحملوا جميع أصحابه بقلوب موافقة فلم يقف الروم قدامهم و لا طرفة عين لتلك الحملة المذكرة ، ونصر الله الاسلام وكسروا عبدة الصلبان والأشخاص والاصنام ، وركبوا أكتافهم قتلا وأسرا ، وتبعهم السلطان بقية يوم الجمعة مع ليلة السبت وهو يقتل ويأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل النادر وغنم جميع ما كان معهم ورجع إلى مكانه ، فدخل عليه بعض الأمراء الذي له ، وقال : إن احد مماليكي أسر ملك الروم ، وكان هذا المملوك قد أعرض على نظام الملك فاحتقره ولم يجز عرضه واسقطه وقال مستهزئا به : لعله يأتينا بملك الروم ، فأسر الله ملك الروم على يده لكسر قلبه ، فأمر السلطان بعض الخدام عنده ممن كان يعرف ملك الروم أن يتوجه ويكشف عن حقيقة امره ، فلما رآه عرفه ، فعاد إلى السلطان واخبره بذلك ، فأمر له ووكل به من يحفظه ، واحضر السلطان الغلام الذي أسره واخلع عليه واعطاه وقدمه واقطعه غزنة وجعله من خاصته .

ثم إن السلطان احضر ملك الروم يرفل بقيوده فرفسه برجله ثم

قال له : ما الذي تريدني أن افعل بك ؟ قال : إحدى من ثلاث ، الأولى قتلي واعدامي الحياة ، والثانية إشهاري وسجني والثالثة لا فـائدة من ذكرها فانك لا تفعلهاقال السلطان : وما هي ؟ قال : تعفـو عني وتصطنعني وتتخذني خادما ما بقيت من عمري فقال السلطان : إني لم انو الا العفو عنك فاشتر الآن نفسك فقال :يقول السلطان ما شاء فقال الف الف دينار ، ثم استقر بينهما الحال على ما احب السلطان الف الف دينار وان يتقدم إلى عساكر الروم بجميع مـا يحتـاج اليه المسلمون من سائر ما في بـلاد الروم ، ثـم حـل وثـاقه واخلع عليه ونصب له سرير إلى جانب سريره فقال ملك الروم : عجـل بـانفاذي قبل أن تقيم الروم لهم ملكا غيري.فقال له السـلطان : اريد ان تعيد الينا ما اخذته من بلادنا وهو الرها ومنبج ومنازكرد وتـطلق سـائر اسير عندك من المسلمين فقال : أما البـلاد فإذا وصـلت سـالما الى بلدي انفذت بتسـليمها اليكم فـانهم الآن لا يسـمعون مني ، وامـا اسارى المسلمين فاني قد كنت عاهدت الله عز وجل ونذرت من قبـل ان تعفو عني اني متى رديت الى بلادي سالما اعتقت كل أسير عندي وانا فاعل ذلك .

ثم أن السلطان رده الى خيمته ، ورتب له ما يصلح لمثله من سائر ما يحتاج اليه ، ثم انه اقترض عشرة آلاف دينار وفرقها على الحاشية فلما كان بعد ثلاثة أيام احضره السلطان وتلقاه ، وقـام له قـائما وأجلسـه على سريره الذي كان له وكسـب منه ، واخلع عليه ثـانيا بأحسن من الأولى وعقد له راية بيضاء مكتوب عليها بـالسواد لا إله إلا الله محمد رسول الله وانفذ معه حاجبين ومئة غلام مع سائر مـا يحتاج اليه الملوك من الآلات ، وركب معه بنفسه وشيعه مقدار فرسخ وتعانقا وتودعا وسار الى القسطنطينية .

الحواشي والهوامش

الفصل الأول

إن مهمة هذا المجلد لن تتجاوز الحديث عن قيام السلطنة السجلوقية بداية تاريخ التركمان ثم هجرتهم إلى خراسان واستيلاء السلاجقة على هذا الصقع .

١ ـ أخبار الدولة السجلوقية ، ٢ .

٢ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ٥٦ .

٣ ـ الغزالي ، التبر المسبوك ، ٦٤ ـ ٦٥ .

٤ ـ ما تزال بقايا هذا الاعتقاد قائمة وتظهر بشكل عفوي وتصدر من أفواه الكثيرين من مواطني هذا البلد ، ولكم سمعت بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ : «ان على العرب أن يتركوا محاولات التحرير والحرب ويسألوا الأتراك وتركية القيام بهذا العبء عنهم» ، بل أغرب من هذا ما يردد بين صفوف كثير من الناس حتى المثقفين منهم : «لو بقيت البلاد العربية قطعة من الامبراطورية العثمانية التركية لما قامت اسرائيل ولما عاشت» ، ناسين أن الذي أقام اسرائيل وأمدها بالحياة وما زال يمدها ـ يحكم تركية بشكل فعلي منذ أمد غير قصير .

٥ ـ صورة الارض لابن حوقل ، ٣٨٧ ، المسالك والممالك للاصطخري ، ١٦٣ ، وينصح بقراءة كتاب D.M.Dunlop, The History of the Jewish Khazars, New York, 1967.

٦ ـ هو أبو جعفر محمد بن أحمد البخاري ، أرسله ناصر الدولة الحمداني من مصر كي يستدعي ألب أرسلان ليقوم بالقضاء على الخلافة الفاطمية ، وهي مسألة سيتعرض لها في المستقبل بشكل أكثر تفصيلا ، انظر زبده الحلب ٢٠/٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٣/٣ و .

٧ ـ وصلنا كتاب الكاشغري كاملا وقد طبع في ثلاث مجلدات في الأستانة سنة ١٣٣٣ هـ ، ولم يصلنا كتاب ملك نامه سوى خلال بعض النقول عنه ، انظر بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٦/٣ . ظ .

٨ ـ لعل وجود الاعتقاد بالجن لدى المسلمين كان من الاسباب التي ساعدت على اعتناق التركمان لهذا الدين لتوفر هذه العقيدة لديهم ، ولربما استغلت هذه العقيدة من قبل الدعاة الصوفية الذي سببوا تحول التركمان إلى الاسلام .

٩ ـ انظر الكاشغري ، ٢٣٨/١ ، ٢٩٠ ، ٢١ ، ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٢٧١/٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، مختصر كتاب البلدان ، ٣٢٩ ، الكامل ، ٩٨/٨ ،

The Ghaznavids, 205

١٠ ـ هذه مسألة هامة تحتاج إلى مزيد من البحث ، وكتاب Mircea Elide بالفرنسية والمترجم إلى الانكليزية باسم Shamanism Archiac Techniques of Ecatasy, London 1964 هو خير كتاب أعرفه يعالج الديانة

الشامانية معالجة علمية جيدة ، وقراءة هذا الكتاب قد تساعد على فهم وحل بعض مشاكل التاريخ الفكري للاسلام ، كما تساعد أيضاً على فهم تاريخ المغول الذين تحركوا بزعامة جنكيز خان .

١١ ـ الكاشغري ، ١/٤١ ـ ٤٢ ، ٥١ ، ٧٦ ـ ٧٧ ، ٨٣ ـ ٨٥ ، ١٠١ ـ ١٠٣ ، ١٦٩ ، ٣٠٣ ، ٣/٣٠٤ ـ ٣٠٧ .

١٢ ـ مختصر الكتاب البلدان ، ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٣٦ ، صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨١ ، الاعلاق النفيسة ، ٢٩٥ ،

Hudud al- 'Alam 94,99; Turkestan, 64-65; The Lands of the Eastern caliphate 433-4.

١٣ ـ الشاهنامه ، الترجمة العربية ، ١/٤٢ ـ ٤٣ ، ١٠١ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ١٥ ـ ١٦ ، The Ghaznavida, 205 .

١٤ ـ رسالة في مناقب الترك ، ٥ ـ ٦ .

١٥ ـ تاريخ بخارى ، ١٩ ـ ٢١ .

١٦ ـ انظر أحسن التقاسيم ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، Hudud al-'Alam, 111-120

Turkestan, 235-8, 255-6 Four studies on the History of central Asia, 1, 19-20.

١٧ ـ الاعلاق النفيسه ، ٢٩٥ .

١٨ ـ مختصر كتاب البلدان ، ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٣٦ ، الاعلاق النفيسه ٢٩٥ .

١٩ ـ تاريخ بخاري ، ٨٦ ـ ٨٧ ، ١٠٥ ـ ١٤٩ ، .

Four studies on the History of central Asia 1,12-13, 21; Turkestan, 222-45; The Cambridge History of Iran, V, 10-11; The Ghaznavids, 27-34; the Islamic Dynasrties, 101-102.

٢٠ ـ تاريخ بخاري ١٤٣ ـ ١٤٩ ، الكاشغري ، ١/٣٩٣ ،

Four studies on the History of central Asia 21-26; Turkestan, 245-305; The Islamic Dynasties, 112-114; the Cambridge History of Iran, V, 11-12.

٢١ ـ تاريخ بخاري ، ١٣١ ـ ١٣٣ ،

Four studies on the History of central Asia 1, 25-26; Turkestan, 274-302; The Cambridge History of Iran, V. 11-16; The Islamic Dynasties, 181-183; ان كتاب C.E.Bosworth The Ghaznavids, Edinbergh, 1963, هو أحسن ما كتب حتى الآن عن تاريخ الغزنويين . Four studies on the History of central Asia 1,25 .

٢٢ ـ تاريخ بخاري ١٣١ ـ ١٣٣ ،

Four studies on the History central Asia 1,25-26; Turkestan, 274-302; The Combridge History of Iran, V. 11-16; the Islamic Dynasties, 181-183; The Ghaznavids .

٢٣ ـ مصادر الحاشية الماضية ، تاريخ البيهقي ، ٤٣٧ .

٢٤ ـ ابن فضلان ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ ،

The Combridge History of Iran, V. 16-17.

٢٥ ـ الكاشغري ، ٢/٢٤ ، ٣/١١٧ .

٢٦ ـ The Ghaznavids, 210; The Cambridge History of Iran, V. 16.

٢٧ ـ صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨٧ .

٢٨ ـ Hudud al'Alam, 44.

٢٩ - انظر المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ٢٧٤ .
٣٠ - الكاشغري ، ١/٢٧ - ٢٨ ، ٥٦ ، ٣٩٣ ، وفي ٣/٣٠٤ ، يقدم الكاشغري قصة اسطورية طويلة تذكر بأن الاسكندر ذي القرنين هو أول من أطلق هذا الاسم ، ويوحي هذا بقدم الاسم ، كما توحي القصة بشموله لعدد من طوائف الترك ، انظر أيضاً The Ghaznavids, 214 .
٣١ - الكاشغري ، ١/٥٦ - ٥٨ ،

The Ghaznavids, 219; The Cambridge History of Iran, V, 17.

٣٢ - بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٨٦ ظ ، ورسم ابن العديم في مكان آخر من كتابه ٣/٢٧٩ ظ اسم دقاق بالتاء «تقاق» ، وقال : تقاق بالتركية معناه القوس من الحديد ، وهذا ما نقله ابن الأثير ٨/٢٢ ، والحسيني في أخبار الدولة السلجوقية ، ١ ، انظر أيضاً راحة الصدور ، ١٤٥ - ١٤٦ وعنده أن يونس هو اسم الذي توفي في زمان شبابه ،

The Ghaznavids, 219; the Combridge History of Iran, V. 17.

٣٣ - دولة آل سلجوق ، ٥ - ٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١ - ٣ . الكامل ٧/٢٩٦ - ٩٧ ، ./٢٢ - ٢٣ ، راحة الصدور ، ١٤٥ - ١٥٣ .
٣٤ - راحة الصدور ، ١٤٨ - ١٥١ .
٣٥ - The Ghaznavids, 223-224. وقد شك المستشرق الفرنسي كلود كاهين بأن شيئاً من هذا القبيل قد وقع في مثل هذا التاريخ وقد فعل ذلك في معرض رده على مقال كان ابراهيم كافس أوغلو أستاذ التاريخ التركي في جامعة استانبول قد برهن فيه على صحة تاريخ هذا الحادث ولقد ذكر لي الاستاذ ابراهيم شخصيا بأنه مؤخراً على أدلة جديدة تثبت ما ذهب اليه وتدحض شكوك كاهين .
٣٦ - أخبار الدولة السلجوقية ، ٣ ، دولة آل سلجوق ، ٥ ، الكامل ، ٨/٢٢ - ٢٣ ، ياقوت معجم البلدان ، The Ghaznavids, 224 .
٣٧ - راحة الصدور ، ١٥٤ .
٣٨ - الكامل ، ٧/٢٣٧ - ٣٣٩ ، راحة الصدور ، ١٥٤ .
٣٩ - البيهقي ، ١٢ - ١٣ ، ٦٧ ، ٧٣ - ٧٤ ، ١٣٩ - ١٤١ ،

The Ghaznavids, 227-228.

٤٠ - البيهقي ، ٦٨ ، ٤٢١ - ٤٢٣ .
٤١ - البيهقي ، ٤٣٧ .
٤٢ - البيهقي ، ٤٧٤ - ٤٧٥ ، الكامل ، ٨/٢٣ ، راحة الصدور ، ١٥٤ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ ،
The Ghaznavids, 225-226 the Combridge History of Iran, V. 18-19.
٤٣ - البيهقي ، ٤٤٩ - ٥٠٢ - ٥٠٦ ، الكامل ٧/٣٣٨ - ٣٣٩ ٨/٢٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، راحة الصدور ، ١٥٤ - ١٥٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ ، رسالة ابن فضلان ٩٧ ، الكاشغري ، ٣/١٩ ، مفاتيح العلوم ، ٧٣ ،

The Ghaznavids, 225-226; the Combridge History of Iran, V. 19-20.

٤٤ - البيهقي ، ٥٠٢ - ٥٢٨ ، راحة الصدور ، ١٥٥ - ١٥٦ ، الكامل ، ٨/٢٣ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ - ٥ ،

The Ghaznavids, 241-242; the Combridge History of Iran, V. 19-20.

٤٥ - البيهقي ، ٥٢٨ - ٥٣١ ، راحة الصدور ، ١٥٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٥ ، الكامل ، ٨/٢٣ -

، ٢٥
The Ghaznavids, 242; the Combridge History of Iran, V. 20.

٤٦ - The Ghaznavids, 243.

٤٧ - البيهقي ، ٥٣٥ - ٥٣٦ ، راحة الصدور ، ١٥٧ .

٤٨ - البيهقي ، ٥٤٤ - ٥٤٥ ، أخبار الدولة السجلوقية ، ٧ ،
The Ghaznavids, 242-234.

٤٩ - البيهقي ، ٥٤٥ ، ٥٨١ - ٥٩٣ ، الكامل ١٧/٨ ، ٢٤ - ٢٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٥ - ٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦ ، راحة الصدور ، ١٥٨ ،
The Combridge History of Iran, V. 20.

٥٠ - هذه حادثة صارخة عن طبيعة العلاقات بين الحاكم والمحكوم والمحكوم في دول الخلافة العباسية ، وتبين النظرية والقاعدة السياسية للحكام ، وهي جديرة بالاهتمام والتعقب .

٥١ - ربما مما ربحوه من القوات الغزنوية ولاظهار الابهة فقط .

٥٢ - البيهقي ، ٥٩٤ - ٦٠٤ ، الكامل ، ٢٥/٨ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦ - ٧ ،
The Ghaznavids, 244-245; the Combridge History of Iran, V. 20.

٥٣ - البيهقي ، ٦٠٥ - ٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٦٢١ ، ٦٢٤ - ٦٢٥ ، ٦٨٠ - ٦٩١ ، راحة الصدور ، ١٦٢ - ١٦٥ ، الكامل ٢٥/٨ - ٢٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٩ - ١٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ ،
The Ghaznavids, 243-258; the Combridge History of Iran, V. 21-23.

٥٤ - يبدو أنه كان زوجا لامها ولم يكن أخا لوالدهما .

٥٥ - راحة الصدور ، ١٦٥ هذا وان مثل هذا النوع من القصص التي تحض على التوحيد كثيرة في الادب العربي منها ما قام به المهلب بن أبي صفرة مع أولاده قبيل وفاته وسوى ذلك ، ولعل الراوندي أو سواه قد اخترع هذه القصة !!

٥٦ - راحة الصدور ، ١٦٦ - ١٦٧ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧ - ٨ .

٥٧ - هناك خلاف بين المؤرخين حول تاريخ هذا الحادث فالبعض يجعله ٤٣٥ هـ . انظر : أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ، راحة الصدور ، ١٦٧ - ١٦٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ ، ابن القلانسي ، ٨٣ ، تاريخ العظيمي ، ١٧١ ظ - ١٧٣ ظ ، المنتظم ، ٩٩/٨ ، ١٠٧ ، ١٣٧ ، الكامل ، ٣٨/٨ ، ٤٤ ، مرآة الزمان - مخطوطة المتحف البريطاني - ، ٢٣٣ و ، البستان الجامع ، ٨٧ - ظ ، التاريخ المنصوري ، ٧٢ - ظ ، الاعلاق الخطيرة - قسم قنسرين مخطوطة المتحف البريطاني - ، ٨١ - ظ ، ابن العميد ، ٥٤٠ - ٥٤١ ، ابن جنغل ، ٢٢٠/٤ - ظ ، عيون اخبار الاعيان لاحمد البغدادي - مخطوطة المتحف البريطاني - ، ٢١٩ - ظ .

الفصل الثاني

١ - كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد المتوفي سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م ، مخطوطة لندن ١٩١ وظ ، نسخة تركية ، ١٢٢ ظ - ١٢٣و .

٢ - صورة الارض لابن حوقل ، ١٥٣ ، الاعلاق النفسية ، ١٠٧ ، مختصر كتاب البلدان ، ٩١ - ٩٢ ، الاصطخري ، ٤٢ ، أحسن التقاسيم ، ١٨٦ ، معجم البلدان ، مادة الشام .

٣ - انظر تاريخ خليفة ، ٣٢٦/١ ، الطبري ، ٥٤٠/٥ - ٥٤٢ ، ابن عساكر ، ٢١١/٦ و- ٢١٢ ظ .
Hudud al-'Alam 148; Nuzhat al-Qulub, 262.

٤ - ديوان ابن أبي حصينة ، ١٥٩/١ - ١٦٣ ، وخاصة قوله :

فـما رعت حقنا كلب ولا حفظت لنا الصنيعة قحطان ولا أدد
قصدت الشام اذ غابت فوارسه والذئب يرقص حتى يحضر الابند
وأطمعتم حماه في ممالكنا والمطمع السوء مقرون به الحسد

انظر أيضاً ، مرآة الزمان حوادث سنتي ٤٥٢ هـ و٤٧١ هـ (مخطوطة أحمد الثالث) ، سيرة المؤيد في الدين ، ١٠١ ، هذا وسنبحث ثورة البساسيري ودور المؤيد في الدين فيها في فصل مقبل بشيء كبير من التفصيل .

٥ - انظر ابن القلانسي ، ٢ - ٢٤ ، مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، ٨٧ - ٩٥ .

٦ - The Emirate of Aleppo, 37-42 96-101.
الحمدانية هم حكام حلب زمن العزيز الفاطمي ودغفل بن جراح كان أمير طيء وقد حاول أكثر من مرة أن يستقل بفلسطين وينفرد بحكمها دون الفاطميين .

٧ - ابن القلانسي ، ٩٦ - ٩٧ ، ١٢٠ ، الكامل ١٥٠/٨ .

٨ - انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، ٦٤ - ٧٦ .

٩ - ابن القلانسي ، ١٣٩ ، الكامل ، ١٩٩/٨ - ٢٠٠ .

١٠ - صبح الاعشى ، ٣٤٠/١ ، قلائد الجمان ، ١١٦ .

١١ - صورة الأرض ، ٢٠٥ ، انظر أيضاً جمهرة ابن حزم ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، بغية الطلب ، أياصوفيا ، ٤٨٢ - ٤٨٤ ، ابن خلدون ٥٤٥/٤ ، صبح الأعشى ، ٣٤٠/١ - ٣٤٣ .

١٢ - صورة الأرض ، ١٩١ - ١٩٢ ،

The Emirate of Aleppo, 69-84.

١٣ - The Emirate of Aleppo, 89.

١٤ - أحسن التقاسيم ، ١٣٥ - ١٣٧ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٩٤ - ٩٧ ، الاعلاق النفيسة ، ١٠٦ ، مختصر كتاب البلدات ، ١٢٨ ، الاصطخري ، ٥٢ ، صورة الارض ، ١٨٩ ، معجم البلدان ، آثار البلاد للقزويني ، ٣٥١ ، تقويم البلدان ٢٢٣ ، نخبة الدهر ، ١٩٠ . Hudud al-'Alam,140 .

١٥ - The Emirate of Aleppo, 97-101.

١٦ - ابن القلانسي ، ١٠٦ - ١٠٧ ، العظيمي ، ١٨٩ و ، تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، الكامل - طبعة ليدن - ٣٣٣/٩ - ٣٣٤ ، مرآة الزمان حوادث سنة ٤٣٣ هـ و٤٧٤ هـ اتعاظ الحنفاء حوادث ٤٣٣ هـ ، زبدة الحلب ، ٣٤/٢ - ٣٦ - ٤٠ - ٤١ ، ٧٥ - ٧٩ ، بغية الطلب - أحمد الثالث - ١٤٣/٧ و ، ابن

العميد ، ٥٦٨ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ـ ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي ـ OR 50 ـ ١١٧ ، النجوم الزاهرة ١١٣/٧ ـ ١١٤ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٧٤/١ .

١٧ ـ انظر The Emirate of Aleppo, 235-254 ومثال على ردات الفعل ما حدث في حلب سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م ، فلقد كان في حلب عدداً من الكنائس أشهرها واحدة ينسب أمر بنائها الى القديسة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الكبير المتوفية سنة ٣٢٧ م ، وفي سنة ٥١٨ هـ حوصرت حلب من قبل جيش صليبي ، وقام هذا بنبش بعض مقابر المسلمين التي كانت واقعة خارج أسوار حلب ، فما كان من قاضي حلب محمد بن يحيى الخشاب إلا أن استولى على أربعة كنائس من الست كنائس التي ملكها نصارى حلب وحولها جميعاً الى مساجد ، وما زالت هذه المساجد معروفة في حلب . انظر زبدة الحلب ، ٢٢٤/٢ ، الاعلاق الخطيرة ، ٣١/١ ، ٤١ ، ٤٥ ـ ٤٦ ، الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ، ٥٩ ـ ٦٢ ، ٦٧ .

١٨ ـ معجم الادباء (عثمان بن عبدالله الطرسوسي) ، بغية الطلب ، أيا صوفيا ، ٥١ و ٧١ ظ ، تاريخ أخبار القرامطة ، ٩٢ .

Encyolopaedia of Islam, hew Edn, London 1960, Ahdath.

١٩ ـ ابن القلانسي ، ٣ ـ ٥٤ ، مختارات من كتابات المورخين العرب ، ٨٧ ـ ٩٥ ، تاريخ أخبار القرامطة ، ٩٥ ـ ١٠٨ ، المقفى ، مخطوطة برتو باشا ، ٣٠٦ و ـ ٣١١ ظ ، ٣١٢ ظ ـ ٣١٣ و .

٢٠ ـ لقد بحثت أمر أحداث شمال بلاد الشام بشكل مفصل في كتابي بالانكليزية The Emirate of Aleppo pp. 255-261. فليراجع .

٢١ ـ انظر ذيل مسكوية ، ١٧٦ ـ ١٧٩ ، الكامل ٩٨/٧ . دولة بني عقيل في الموصل ، ٥٠ ـ ٥١ .

٢٢ ـ ذيل مسكويه ، ٢٨٠ ـ ٢٨٤ ، الكامل ١٨١/٧ ـ ١٨٢ .

٢٣ ـ ذيل مسكويه ، ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ، الكامل ٢٠٩/٧ ـ ٢١٠ .

٢٤ ـ دولة بني عقيل بالموصل ، ٥٧ ـ ٥٨ .

٢٥ ـ ذيل تجارب الامم ، ١٧٦ ـ ١٧٨ ، تاريخ الفارقي ، ٤٩ ـ ٥٨ ، الكامل ، ١٢١/٧ ـ ١٢٢ ، ١٤٢ .

٢٦ ـ صورة الأرض ، ١٩٥ ، ذيل تجارب الامم ، ١٧٨ ـ ١٨٠ ، الكامل ، ١٤٣/٧ ـ ١٤٤ ، تاريخ الفارقي ، ٥٩ . . . . ،

The Islamic Dynasties, 53-54.

٢٧ ـ المنتظم ، ١١٧/٨ ، العظيمي ، ١٧١ ظ ـ ١٧٢ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٥ ظ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ، الكامل ، ٣٤١/٧ ـ ٣٤٤ ، التاريخ المنصوري ، ٧٢ ظ ، تاريخ دول الاسلام للذهبي ، ١٩٩/١ ، البستان الجامع ، ٨٧ و ، حوادث السنين ، ١٤٢ و ، ابن العميد ، ٥٤٠ ـ ٥٤١ ، الدرة المضية ، ٣٥٥ .

٢٨ ـ المنتظم ، ١٣٦/٨ ، الكامل ٥٠/٨ ، ٩٣ .

The Buwayhid Dynasty of Baghdad, 112-13.

٢٩ ـ المنتظم ، ١١٩/٨ ، ١٢٧ ، ١٥٩ ـ ١٦٥ ، العظيمي ، ١٧٧ ظ ـ ١٧٨ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٦ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ ـ ٩ ، تاريخ الدولة العباسية ـ لمؤلف مجهول ـ ، ٩٤ ظ ـ ٩٦ و ، الكامل ، ٤٠/٨ ، ٤٢ ، ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٧٠ ـ ٧٢ ، العبر للذهبي ، ٢١٢/٣ ، النجوم الزاهرة ، ٥٧/٥ ، انظر أيضاً ترجمة البساسيري الملحقة في آخر الكتاب ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ـ ١٨ ، راحة الصدور ، ٦٩ ـ ١٧٠ ،

Bar Hebraeus, 207; The Buwayhid Dynasty of Baghdad, 113-115; Pre-Ottoman Turkey, 23-24;

History of the crusades, by, M.W. Balduin, I,143-145.

٣٠ - مسيرة المؤيد في الدين ، ١٠٠ - ١٢٩ ، العظيمي ، ١٧٨ و ، المنتظم ، ١٦٣/٨ ، ابن ميسر ، ٨/٢ ، الكامل ٦ ٨١/٨ ، ترجمة البساسيري الملحقة بهذا الكتاب ، مرآة الزمان ، سويم ، - ٥ ، النجوم الزاهرة ، ٥٧/٥ ، العبر ، ٢١٢/٣ ، ٢١٥ ،

The Emirate of Aleppo, 148-150.

٣١ - سيرة المؤيد ، ١٢٩ - ١٣٥ ، الكامل ، ٧٧/٨ ، مرآة ، سويم ، ٤ - ١٤ ، العبر للذهبي ، ٢١٥/٣ .

٣٢ - سيرة المؤيد في الدين ، ١٢٩ - ١٨٤ ، العظيمي ، ١٧٨ و - ظ ، ١٨٤ و ، ابن القلانسي ، ٨٦ ، المنتظم ، ١٦٤/٨ - ٢١٢ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٦ و - ١٢٧ و ، ابن ميسر ، ٧/٢ - ٨ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ - ٢١ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٩ - ١٧ ، راحة الصدور ، ١٧٢ - ١٧٦ ، تاريخ الفارقي ، ١٥٢ - ١٦٠ ، الكامل ، ٧٢/٨ - ٨٧ ، تاريخ الدولة العباسية ، ٩٥ و - ٩٦ و ، مرآة الزمان - سويم ، ٤ - ٦٧ ، زبدة الحلب ، ٢٧٣/١ - ٢٧٤ ، ترجمة البساسيري الملحقة في آخر هذا الكتاب ، ابن العميد ، ٥٤٤ - ٥٤٥ ، اتعاظ الحنفا ، حوادث سنة ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ هـ ، المقفى - مجلد برتو باشا ، ٢٩٢ و ، تاريخ الاسلام الذهبي ، OR 50 ٢٤ ظ ، دول الاسلام ٢٠٦/١ ، العبر للذهبي ، ٢١٥/٣ - ٢١٨ ، المختصر في أخبار البشر ، ١ - ١٤٩ ، ١٧٨ ، الدرة المضية ، ٣٦٩ - ٣٧٠ ، ابن خلدون ، ٥٨٥/٤ ، عقد الجمان ، ٥٧٨/١١ ، ابن جنغل ٢٠١/٤ ظ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ، البستان الجامع ، ٨٩ و ، النجوم الزاهرة ، ٦٧/٥ ،

Bar Hebraeus, 207, Pre-Ottoman Turkey, 24-25.

٣٣ - المنتظم ٨ - ١٨٥١ ، البداية والنهاية ، ٦٤/١٢ ، النجوم الزاهرة ، ٥٤/٥ - ٥٥ .

٣٤ - ارجع إلى كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء .

٣٥ - الكامل ، ٩٢/٨ - ٩٤ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ١٨ - ٢٧ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٢١ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٧٨ - ١٠٢ ، راحة الصدور ، ١٧٦ - ١٧٨ ، المنتظم ، ٢١٨/٨ - ٢٣٤ .

الفصل الثالث

١ - بغية الطلب ، أيا صوفيا ، ١٩٥ و ، ظ - ١٩٦ و .

٢ - ديوان ابن أبي حصينة ، ١/٣٤ - ٣٧ .

٣ - انظر تفاصيل هذه الأمور في .The Emirate of Aleppo, 155-162

٤ - ابن أبي الهيجاء ، ١٢٨ ظ ، ابن القلانسي ، ٩٢ - ٩٣ ، العظيمي ، ١٨٠ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩/١٦٤ - ١٦٥ ، زبدة الحلب ، ١/٢٩١ - ٢٩٧ ، ٢/٩ ، مرآة الزمان أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٥ - ٤٥٧ هـ ، الذهبي ، OR 50 ، ٣ ر ، ١١٢ و ، ابن كثير ، ١١/١١٣ ، المختصر في أخبار البشر ، ١/١٤٩ ، عقد الجمان ، ١١/٥٨٠ - ٥٨١ ، ابن خلدون ٤/٥٨٦ - ٥٨٧ ، منجم باشي ، ١/٣٢٨ ظ .

٥ - ابن القلانسي ، ٩٣ ، العظيمي ، ١٨٧ ظ ، زبدة الحلب ، ٢/١٠ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٧ هـ .

٦ - أخبرني أحد الاساتذة الاتراك في جامعة استانبول بأن أحد الباحثين الاتراك فسر كلمة ناوكي على أنها تعني خارجي . ولقد اعتبر السلاحقة جماعة التركمان العراقية والناوكية خوارج على سلطتهم ، هذا وفي معاجم اللغة الفارسية جاءت كلمة ناوك بمعنى القوس .

٧ - العظيمي ، ١٨٠ و - ظ ، ابن القلانسي ، ٩٢ - ٩٣ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ٩/١٦٤ - ١٦٥ ، ١٠/٤٠ - ٤١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢/١٦٥ ظ ، ١٦٦ و ، زبدة الحلب ، ١/٢٩٤ - ٢٩٧ ، ٢/١٠ ، ٣١ - ٣٢ ، ٥٥ - ٥٨ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، ابن خلدون ، ٤/٥٨٦ - ٥٨٧ مرآة الزمان ، سويم ، ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٤٣ - ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٤٣ ،

History of the crusades, setton, I,147-148; Pre-Ottoman Turkey, 27; sevim, 1,19; The Emirate of Aleppo, 168.

٨ - زبدة الحلب ، ٢/١٠ .

٩ - الكامل ، ط . ليدن ، ٩/١٦٥ ، المختصر في أخبار البشر ، ١/١٤٩ ، عقد الجمان ، ١١/٥٨١ ، ابن خلدون ، ٤/٥٨٧ ، منجم باشي ، ١/٣٢٨ ظ .

١٠ - مرآة الزمان ، سويم ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، زبدة الحلب ، ٢/١٠ ، النجوم الزاهرة ٥/٧٩ .

١١ - ابن القلانسي ، ١٠٦ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩/١٦٥ ، ١٠/٣٨ - ٣٩ ، العظيمي ١٨٢ و ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٩ هـ و ٤٦٨ هـ ، زبدة الحلب ، ٢/٣١ - ٣٢ ، المختصر في أخبار البشر ، ١/١٤٩ ، ابن أبي الدم ، ١٣٣ و ، ابن خلدون ، ١/٣٢٨ ، ٤/٣٢٨ .

١٢ - زبدة الحلب ، ٢/١١ - ١٢ .

١٣ - بسلوس ، الترجمة الانكليزية ، ٣٥٢ - ٣٥٦ ، ابن القلانسي ، ٩٤ ، تاريخ آل سلجوق ، ٣٥ ، العظيمي ، ١٨١ و - ط ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٨ ظ ، ابن العميد ٥٤ - ٥٥٥ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٦١ - ٤٦٢ هـ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، الذهبي ، OR 50 ، ٥ و ، دول الاسلام ١/٢٠٨ ، العبر للذهبي ، ٣/٢٣١ ، ٢٤٨ - ٢٤٩ . ابن كثير ، ١١/٩٩ ، ابن جنعل ، ٤/٢٢٤ ظ ، منجم باشي ، ١/٣٢٨ ظ ،

History of the crusades, setton, 148- 149, 192-193; Bar Hebiaeus, 218-219.

١٤ ـ أي الجزية .

١٥ ـ تاريخ آل سلجوق ، ٣٦ ـ ٣٧ ، ابن ميسر ، ١٩/٢ ـ ٢٠ ، المنتظم ، ٢٦٠/٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٩ ظ ، الكامل ـ ط ليدن ـ ٤٢/٩ ـ ٤٤ ، ابن العميد ـ ٥٥ ـ ٥٦ ، العظيمي ، ١٨١ ظ ، زبدة الحلب ، ١٦/٢ ـ ٢٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٠/٣ و ـ ٢٨٥ ظ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤٦ ، ٥٣ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٣ هـ ، راحة الصدور ، ١٨٨ ـ ١٩٠ ، تاريخ الفارقي ، ١٨٩ ـ ١٩٠ ، ابن القلانسي ، ٩٩ ، أتعاظ الحنفا ، حوادث سنة ٤٦٢ هـ ، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ، ١٩٨ ـ ٢٠١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٢ ظ ـ ١٣٣ و ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، ٣٨٨ ـ ٣٩٢ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، ابن كثير ، ١٠١/١١ ، المختصر ، ٥ ظ ـ ٦ و ، العبر OR 50 في أخبار البشر ، ١٩٦/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، للذهبي ، ٥٠/٣ ، دول الاسلام للذهبي ، ٢٠٩/١ ـ ٢١٠ ، النجوم الزاهرة ، ٨٦/٥ ـ ٨٧ ، ابن خلدون ، ٧٨٧/٤ ، Michael Psellus, 352-356; Bar hebraeus, 220; Setton, 1,148, 191; Pre-Ottoman Turkey, 29; Edessa, 220-21; هذا ولقد جمعت ما جاء حول منازكرد في المصادر العربية وغيرها من مطبوع ومخطوط ونشرته في كتاب مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، ٩٦ ـ ١٥١ . ومفيد أن ننبه هنا بأن ما شرحناه في النص عن السوقية لدى التركمان يمكن الاستفادة منه حين تدرس الفتوحات العربية وعلى الأخص معركة اليرموك .

١٦ ـ ابن حيوس ، ٥١١/٢ ـ ٥١٢ ، ابن القلانسي ، ١٠٦ ـ ١٠٧ ، العظيمي ، ١٨٢ و ـ ظ . مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٦٤ ـ ٤٦٧ هـ ، زبدة الحلب ، ٣٠/٢ ـ ٣٢ ، ٤٢ ، المنتظم ، ٣٠٤/٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ٧٢/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦١ ـ ٥٦٢ ، النجوم الزاهرة ، ١٠٠/٥ ـ ١٠١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ و ، حوادث السنين ، ١٥٤ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ و١١٢ و ، دول الاسلام للذهبي ، ٢/٢ ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، ٢٠٢ ، ابن كثير ١١٢/١١ ، ابن جنغل ، ٢٣٢/٤ ، عقد الجمان ، ٥٨٠/١١ .

١٧ ـ مرآة الزمان ، سويم ، ١٤٣ .

١٨ ـ الكامل ، ط ليدن ، ٤٠/١٠ ـ ٤١ ، ابن ميسر ، ٢٠/٢ . انظر أيضاً ترجمة بدر الجمالي مع ترجمة أتسز في ملاحق هذا الكتاب .

١٩ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٢٩ ظ ـ ١٣٠ و ، ابن ميسر ، ٢٠/٢ ، الكامل ، ط ليدن ، ٤٠/١٠ ـ ٤١ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٤ هـ (مخطوطة أحمد الثالث) .

٢٠ ـ انظر ترجمة بدر الجمالي المنشورة في آخر هذا الكتاب بين الملاحق .

٢١ ـ ابن القلانسي ، ٩٨ ـ ٩٩ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٠ ظ ، ابن الاثير ، ط . ليدن ، ٤٦/١٠ ، مرآة الزمان ، مخطوطة أحمد الثالث ، حوادث ٤٦٢ و٤٦٦ هـ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٦ ظ ، النجوم الزاهرة ، ٨١/٥ انظر أيضاً ترجمة أتسز في آخر الكتاب بين الملاحق .

٢٢ ـ مرآة الزمان ، سويم ، ١٧١ ـ ١٧٥ .

٢٣ ـ ابن القلانسي ، ١٠٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ـ ١٣١ و ، ابن ميسر ، ٢٤/٢ ، الكامل ، ١٢٢/٨ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٧٨ ـ ١٧٩ ، ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ابن العميد ، ٥٦٥ ـ ٥٦٧ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ و ، دول الاسلام للذهبي ٣/٢ ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٠١/٥ ـ ١٠٢ ، ابن كثير ١١٢/١١ ـ ١١٣ ، ابن خلدون ، ١٣٦/٤ ـ ١٣٧ . انظر أيضاً ترجمة أتسز في آخر الكتاب بين الملاحق .

٢٤ ـ زبدة الحلب ، ٤٦/٢ ـ ٤٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ، مرآة الزمان ، سويم ١٧٨ ـ ١٧٩ .
٢٥ ـ ابن القلانسي ، ١٠٩ ـ ١١٢ ، ابن عساكر ، ٤٣٣/١٠ ـ ٤٣٤ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢١ و ، الكامل ، ١٢٣/٨ ـ ١٢٤ ، ابن ميسر ، ٢٥/٢ ـ ٢٦ ، ابن أبي الدم ، ١٢٤ و ، زبدة الحلب ، ٦٥/٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٨٠ ـ ١٨٥ ، ١٩٧ ـ ٢٠١ ، ابن العميد ، ٥٦٥ ـ ٥٦٧ ، تاريخ الاسلام للذهبي OR 50 ، ١٠ و ـ ١١ و ، العبر للذهبي ، ٢٦٩/٣ ـ ٢٧٥ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ ـ ١١٩ . انظر أيضاً ترجمة بدر الجمالي مع ترجمة أتسز بين الملاحق في آخر الكتاب .
٢٦ ـ ابن القلانسي ، ١٠٨ ، المنتظم ، ٣٠٤/٨ ، الكامل ، ط ، ليدن ، ١٦٥/٩ ، ١٠/١٠ ، حوادث سنة ٤٦٧ هـ ، حوادث السنين ، ١٨٤ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ١١٢ و ، العبر للذهبي ، ٢٢٦/٣ ، المختصر في يخبار البشر ١٤٩/١ ، ٢٠٢ ، ابن العميد ، ٥٦٣ ـ ٥٦٥ ، النجوم الزاهرة ، ١٠٠/٥ ـ ١٠١ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، ابن جنغل ، ٢٣٣/٤ و .
٢٧ ـ انظر زبدة الحلب ، ٤٦/٢ ـ ٤٨ .
٢٨ ـ ابن حيوس ، ٢٠٥/١ ـ ٢٠٧ ، العظيمي ، ١٨١ ظ ، ١٨٣ و ، زبدة ، ٤٦/٢ ـ ٤٧ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٦٩/١٠ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٨ هـ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ و ، دول الاسلام للذهبي ، ٣/٢ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ ، ابن جنغل ، ٢٣٢/٤ و .
٢٩ ـ ابن حيوس ، ٢٧١/١ ـ ٢٧٣ ، زبدة ، ٤٦/٢ ـ ٤٨ ، مرآة الزمان حوادث سنة ٤٦٨ هـ .
٣٠ ـ ابن القلانسي ، ١٠٨ ـ ١٠٩ ، العظيمي ، ١٨٣ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ابن العميد ، ٥٦٣ ـ ٥٦٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ١٦٦ و ، ١٤٦/٧ و ـ ٣ ، زبدة الحلب ، ٤٩/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٦٨ هـ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، ٢٠٢ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ظ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١٢ و ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .
٣١ ـ ابن القلانسي ، ١٠٩ ، العظيمي ، ١٨٣ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ابن العميد ، ٥٦٢ ـ ٥٦٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ، ١٤٢/٧ ظ ـ ١٤٣ و ، ١٤٦ و ـ ١٤٧ و ، زبدة الحلب ، ٤٨/٢ ، ٥٣ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ظ ، البستان الجامع ، ٩١ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٢/١ . عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .
٣٢ ـ ابن حيوس ، ٤٨٢/٢ ـ ٤٨٣ ـ ٤٨٣ ، ٦٤٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ـ ١١٦ و ، ١٤٣/٧ ظ ـ ١٤٤ وظ زبدة ، ٥٣/٢ ـ ٥٥ .
٣٣ ـ بغية الطلب ، أحمد الثالث ١٦٦/٢ و ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ .
٣٤ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، ابن القلانسي ، ١١٢ ، المنتظم ، ٣١٣/٨ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٧١/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦٧ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٤٣/٧ و ـ ١٤٤ و ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ ـ ٥٦ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ، ٤٦٨ هـ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٣/١ ، ابن خلدون ١٣٧/٤ .
٣٥ ـ ابن حيوس . ١٣٩/١ ـ ١٤٠ ، المنتظم ، ٣٠٧/٨ ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ ـ ٥٦ .
٣٦ ـ ابن القلانسي ، ١٢ ، العظيمي ، ١٨٣ ظ ، إبن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، الكامل ط و ليدن ، ٧١/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦٧ ـ ٥٦٨ ، المنتظم ، ٣١٢/٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٦/٢ و ، ١٤٣/٧ ظ ـ

١٤٤ و ، زبدة الحلب ، ٢/٥٦ ـ ٥٨ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧١ هـ ، البستان الجامع ، ٩١ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ ، الدرة المضية ، ٤٠٥ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٣/١ ، ابن خلدون ١٣٧/٤ .

٣٧ ـ ابن حيوس ، ٥٢/١ ـ ٥٣ ، ابن القلانسي ، ١١٢ ، زبدة الحلب ، ٥٨/٢ ـ ٦٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٤/٧ هـ ـ ١٤٥ ظ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

٣٨ ـ ابن القلانسي ، ١١٢ ، ابن عساكر ، ٤٣٣/١٠ ـ ٤٣٤ ، زبدة الحلب ، ٦٢/٢ ـ ٦٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٥/٧ و ـ ظ ، الاعلاق الخطيرة ـ قسم قنسرين ، مخطوطة المتحف البريطاني ـ ٦٠ و ـ ظ ، ابن العميد ، ٥٦٦ ـ ٥٦٧ .

٣٩ ـ ابن حيوس ، ٥٢/١ ـ ٥٣ ، ٤٨٢/٢ ـ ٤٨٣ ، ٥٧٠ ـ ٥٧٥ ، العظيمي ، ١٨٣ ظ ، ابن القلانسي ، ١١٤ ، زبدة الحلب ، ٥٧/٢ ـ ٦٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٣/٧ ظ ـ ١٤٦ ظ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧٢ هـ ، أبي خلدون ، ٥٨٨/٤ .

٤٠ ـ زبدة الحلب ، ١١/٢ ـ ١٣ ، ١٦ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٩٧ ، المنتظم ، ٢٥٤/٨ ـ ٢٥٥ .

٤١ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ و ، العظيمي ، ١٨٣ ظ ، الكامل ، ط ، ليدن ، ٧١/١٠ ـ ٧٢ ، ابن ميسر ، ٢٦/٢ ، زبدة ، ٦٥/٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، ابن العميد ، ٥٦٦ ـ ٥٦٧ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ـ ظ ، دول الاسلام للذهبي ، ٤/٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١ و ، ابن كثير ، ١١٩/١١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٣/١ ، ابن خلدون ، ١٣٧/٤ ـ ١٣٨ .

٤٢ ـ زبدة الحلب ، ٦٥/٢ ـ ٦٧ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

٤٣ ـ ابن حيوس ، ٥٧٠/٢ ـ ٥٧٠ ، زبدة الحلب ، ٦٧/٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٦/٧ و ـ ١٤٨ ظ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ابن خلدون ، ٥٨٨/٤ .

٤٤ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، الكامل ، ط ليدن ، ٧٤/١٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٥/٧ ظ ، زبدة الحلب ، ٦٦/٢ ـ ٦٧ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٣٠١ ، ابن خلدون ، ٥٧١/٤ .

٤٥ ـ ابن القلانسي ، ١١٣ ، العظيمي ، ١٨٤ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ٧٤/١٠ ، المنتظم ، ٣٢٣/٨ ، ابن العميد ، ، ٥٦٨ ، زبدة الحلب ، ٦٧/٢ ـ ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٥/٧ ظ ـ ١٤٧ ظ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، تاريخ آل سلجوق ، ٦٦ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ظ ، المختصر في أخبار البشر ١٤٩/١٥ ـ ١٥٠ ، ٢٠٣ ، دول الاسلام للذهبي ، ٤/٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١ و الدرة المضية ، ٤٠٦ ، ٤٠٦ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، ابن خلدون ، ٥٧١/٤ ـ ٥٧٢ ، ٥٨٨ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .

٤٦ ـ العظيمي ، ١٨٤ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، ابن العميد ، ٥٦٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٧/٧ و ـ ظ ، زبدة الحلب ، ٧٥/٢ ، ٧٧ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧٤ هـ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ط ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١ ظ ، ابن أبي الدم ١٢٤ و ـ ظ ، دول الاسلام للذهبي ، ٤/٢ ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ ـ ١١٤ .

٤٧ ـ زبدة الحلب ، ٧٧/٢ ، مرآة الزمان ، سويم ٢١٥ .

٤٨ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٧٨/١٠ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٨ ، دول الاسلام ، ٤/٢ ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ .

٤٩ ـ الكامل ، ط . ليدن ، ٧٨/١٠ ، زبدة الحلب ، ٧٥/٢ ، ٧٨ ـ ٧٩ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٨ ، ٢١٦ .

٥٠ - ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، ابن القلانسي ، ١١٤ - ١١٥ ، العظيمي ، ١٨٤ ظ - ١٨٥ و ، الكامل ، ط : ليدن ، ٨٢/١٠ ، ٨٤ ، زبدة الحلب ، ٧٨/٢ - ٨٣ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٨ ، ٢١٥ - ٢١٦ ، ٢١٩ - ٢٢٣ ، وفيات الاعيان مسلم بن قريش ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٢ و ، ١٦٥ ظ ، العبر للذهبي ، ٣٨٣/٣ ، ابن خلدون ، ٥٧٢/٤ - ٥٧٣ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ - ٩٢ و ، ابن كثير ١٢٤/١١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ - ١١٥ .

٥١ - ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، العظيمي ، ١٨٥ ظ ، المنتظم ، ٧/٩ ، ١٤ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٨٣/١٠ ، ٨٦ ، ٨٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٩ - ٧١ ، زبدة الحلب ، ٨٤/٢ - ٨٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٦٣ - ٦٤ ، ابن القلانسي ، ١١٧ ، تاريخ الفارقي ، ٢٠٦ - ٢١٠ ، مفرج الكروب ، ١١/١ - ١٤ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٣ - ٣٢٩ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٤/١ - ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٢ ط - ١٣ و ، ١٦٥ ظ ، ابن كثير ١٢٤/١١ - ١٢٦ ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ٥٩/١ ، ابن خلدون ، ٥٧٣/٤ - ٥٧٥ ، Bar Hebraeus, 228 .

٥٢ - زبدة الحلب ، ٨٤/٢ - ٨٥ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٣٢٤ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ .

٥٣ - العظيمي ، ١٨٣ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن القلانسي ، ١٧ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٦٣ ، زبدة الحلب ، ٨٦/٢ - ٨٨ ، الكامل ، ١٣٦/٨ ، مفرج الكروب ، ١٤/١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٥/١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ظ ، ابن كثير ، ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٤/٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٣ و ، Bar Hebraeus, 229; Pre-Ottoman Turkey, 75-77.

٥٤ - العظيمي ، ١٨٥ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن العميد ، ٥٦٨ - ٥٦٩ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩٠/١٠ - ٩١ ، الباهر ، ٧ ، زبدة الحلب ، ٨٨/٢ - ٩٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، مفرج الكروب ، ١٥/١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٥ و ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٥/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٣ ظ ، ابن خلدون ، ٥٧٥/٤ - ٥٧٦ ، ابن كثير ، ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة ، ١١٩/٥ ، Bar Hebraeus, 229-230 .

٥٥ - العظيمي ، ١٨٥ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن العميد ، ٥٦٩ - ٥٧١ ، الكامل ، ٩٦/١٠ ، الباهر ، ٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧ و ١٩٨ ظ ، زبدة الحلب ، ٩٤/٢ - ٩٨ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٣٦ - ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ابن أبي الدم ، ١٣٥ و ، مفرج الكروب ، ١٥/١ - ١٦ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٦/١ - ٢٠٧ ، الدرة المضية ، ٤٢٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٤/٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٤ ظ ، ابن كثير ، ١٣٠/١١ ، ابن خلدون ، ٥٨٩/٤ ، Bar Hebraeus, 230 .

٥٦ - ابن أبي الهيجاء ، ١٣٣ و ، ابن العميد ، ٥٧٠ - ٥٧١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩٦/١٠ - ٩٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٧ ظ - ٩٨ ظ ، زبدة الحلب ، ٩٨/٢ - ٩٩ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٣٩ ، مفرج الكروب ، ١٦/١ - ١٧ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، ابن خلدون ، ٥٨٩/٤ .

٥٧ - الكامل ، ط . ليدن ، ١٠٥/١٠ ، الباهر ، ٨ ، العظيمي ، ١٨٦ ظ ، زبدة الحلب ، ١٠٠/٢ - ١٠١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٨/٧ و - ٣ ، مفرج الكروب ، ١٨/١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ١٥ ظ ، ابن خلدون ، ٥٩٠/٤ ، ابن كثير ، ١١ج ١٢١ ، البستان الجامع ، ٩٢ و .

٥٨ ـ العظيمي، ١٨٦ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٣ و ، الكامل ، ط . ليدن ٩٨/١٠ ، ١٠٧ ، الباهر ، ٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٣ ظ ، ٢٦٨ ظ ، ٢٧٢ و ، زبدة الحلب ، ١٠١/٢ ـ ١٠٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٤٠ ـ ٢٤١ ، مفرج الكروب ، ١٨/١ ـ ١٩ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٤ ظ ، ابن أبي الدم ، ١٢٦ ظ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، ابن كثير ، ١٣٠/١١ ـ ١٣١ ، ابن خلدون ، ٥٩٠/٤ ، الروضتين ، ٦١/١ ، . Bar Herbaeus, 231

الفصل الرابع

١ - ابن القلانسي ، ١٣٣ - ١٣٤ .

٢ - ابن القلانسي ، ١١٩ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١٠٧ ، الباهر ، ٨ ، زبدة الحلب ، ٢/١٠٢ - ١٠٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢/٢٦٧ ظ ، مفرج الكروب ، ١/١٩ ، مرآة الزمان ، سويم ٢٤٤ .

٣ - بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٦٨ و- ظ ، زبدة الحلب ، ٢/١٠٤ - ١٠٥ .

٤ - الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١٣٣ - ١٣٤ ، الباهر ، ٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧٥ ، مفرج الكروب ، ١/١٩ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٦٧ ظ - ٢٧٢ ظ .

٥ - مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٤ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/٧٨ - ٩٤ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٦٧ ظ - ٢٧٢ ظ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و- ١٣٦ ظ ، مفرج الكروب ، ١/١٩ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، النجوم الزاهرة ، ٥/١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٥ .

٦ - الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١١٦ - ١١٧ ، ابن ميسر ، ٢/٢٨ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٧ و ، النجوم الزاهرة ، ٥/١٢٨ .

٧ - ابن القلانسي ، ١٢٠ - ١٢١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١٣٦ - ١٣٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٥/٢٢٠ ظ - ٢٢٢ ظ ، زبدة الحلب ، ٢/١٠٦ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٢ - ٤٨٤ هـ ، مفرج الكروب ، ١/١٩ - ٢٣ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٩ و- ظ ، المختصر في أخبار البشر ، ١/٢١٢ ، ابن كثير ، ١١/١٣٩ - ١٤٠ ، النجوم الزاهرة ، ٥/١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ طرابلس الشام ، ٧٠ - ٧٢ .

٨ - ابن القلانسي ، ١٢١ ، العظيمي ، ١٨٧ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢ و ، ٥/٢٢١ ظ - ٢٢٢ و ، زبدة الحلب ، ٢/١٠٥ - ١٠٦ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨١ ، ٤٨٤ هـ ، مفرج الكروب ١/١٩ - ٢١ ، المختصر في أخبار البشر ، ١/٢٠٨ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٩ و- ظ ، النجوم الزاهرة ، ٥/١٣٢ .

٩ - الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١٣٣ - ١٣٤ ، الباهر ، ٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٦٩ و ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٨٥ و ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٥ - ٦ ، ٧٥ ، مفرج الكروب ، ١/١٩ ، النجوم الزاهرة ، ٥/١٢٢ .

١٠ - ابن القلانسي ، ١٢٥ ، تاريخ الدولة العباسية ، ١٠٥ ظ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٤ ، ٧٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٧١ ، زبدة الحلب ، ٢/١٠٦ ، مفرج الكروب ، ١/٢٣ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١٤٢ - ١٤٣ ، الروضتين ، ١/٦٥ .

Bar Hebraeus, 231-32.

١١ - زبدة الحلب ، ١٠٦ .

١٢ - ابن القلانسي ، ١٢١ - ١٢٤ ، تاريخ الفارقي ، ٢٣٠ - ٢٣٧ ، العظيمي ، ١٨٧ ظ - ١٨٨ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠/١٤٩ - ١٥١ ، الباهر ، ١٣ ، المنتظم ، ٩/٧٧ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٤ و- ظ ، ابن العميد ، ٥٧٤ ، زبدة الحلب ٤/١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢/٢٧٢ ظ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٦ هـ ، الروضتين ، ١/٢١٤ ، البستان الجامع ، ٩٢ ظ ، النجوم الزاهرة ، ٥/١٣٧ - ١٣٨ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٢٠ ظ - ٢١ و ، ابن كثير ، ١١/١٤٤ .

١٣ ـ ابن القلانسي ، ١٢٦ ـ ١٣٠ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٧٥ ـ ٧٦ ، ابن عساكر ، ٤٣٤/١٠ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧٦ ـ ٧٩ ، راحة الصدور ، ٢١٤ ـ ٢٢٠ ، العظيمي ، ١٨٧ ظ ـ ١٨٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٤ ، و ـ ظ ، الكامل ، ١٤٩/١٠ ـ ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، الباهر ، ١٣ ، المنتظم ، ٧٧/٩ ، ابن العميد ، ٥٧٤ ـ ٥٧٧ ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٢ ، ١٠٨ ـ ١١٠ ، ١١٩ ـ ١٢٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٣ ظ ، ٨٩/٤ و ـ ٩٥ و ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٣ ظ ، ٨٩/٤ و ـ ٩٥ و ـ مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٦ ـ ٤٨٨ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ظ ، مفرج الكروب ، ٢٢/١ ـ ٢٥ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٤/١ ـ ٢١٧ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ ـ ٩٢ ظ ، النجوم الزاهرة ، ١٣٧/٥ ـ ١٣٨ ، ١٥٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٢٠ ظ ، الروضتين ، ٦٥/١ ، ابن كثير ، ١٤٤/١١ ، Bar Herbraeus, 232 .

١٤ ـ ارجع إلى الدعوة الاسماعيلية الجديدة للمستشرق الكبير برنارد لويس الذي نقلته إلى العربية . ط . بيروت ١٩٧١ .

١٥ ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، الترجمة العربية ، ط . القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤١ .

١٦ ـ ابن القلانسي ، ١٣٠ ـ ١٣٢ ، ابن عساكر ، ٥٠/٦ ظ ، العظيمي ، ١٨٨ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٧٥/٨ ـ ١٧٦ ، زبدة الحلب ، ١١٩/٢ ـ ١٢٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٤ و ـ ظ ، ٨٩/٦ و ـ ظ ، اب أبي الهيجاء ، ١٢٤ ظ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ـ ظ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٦/١ ـ ٢١٧ .

١٧ ـ ابن القلانسي ، ١٢٤ ، ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ابن ميسر ، ١٩/٢ ، العظيمي ، ١٩٠ ـ و ـ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٦٨/٨ ، ١٧٩ ـ ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، زبدة الحلب ، ١٢٢/٢ ـ ١٢٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٨٩/٦ و ـ ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٢١ ـ و . انظر ترجمة خلف بن ملاعب بين الملاحق آخر الكتاب .

١٨ ـ ابن القلانسي ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، العظيمي ، ١٩٠ ـ و ـ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٨٤/٨ ـ ١٨٥ ، زبدة الحلب ، ١٢٧/٢ ـ ٩ ١٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٤ ظ ، ٨٩/٦ ـ ظ

١٩ ـ أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ ـ ٨٦ ، ٩٢ ـ ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٣٣ ـ ١٣٦ ، العظيمي ، ١٩١ و ـ ظ ، الكامل ، ، ط . القاهرة ، ١٨٦/٨ ـ ١٨٧ ، زبدة الحلب ، ١٢٩/٢ ـ ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٨٩/٦ ظ ـ ٩٠ و ، الحروب الصليبية لرفيق التميمي ، القدس ١٩٤٥ ، ص ٤٤ ـ ٥٠ ، الحركة الصليبية ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ٢٠٠/١ ـ ٢١٨ ،

The cursades, by A. Archer and C.L. Kingsford, London 1894, pp 65-75; H. Lamb, the crusades, London 1970, 138-162; S. Runciman, A History of the crusades, penguin, 1, 213-236; A History of the crusades, editor-in-chieh, K. Setton; vol.1, 308-326; the crusades, Edited by R. Pernoud, English translation, new york 1964, pp 64-73; crusading warfare, by R.C. Smail, Cambridge 1967, p. 118.

٢٠ ـ الفوعة الآن تتبع ناحية معر تمصرين التابعة لمحافظة ادلب ، وهي تبعد عن معر تمصرين مسافة ٤ كم وعن ادلب ١٣ كم ، انظر التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٥٨ ، ص ٢٥٠ .

٢١ ـ ابن القلانسي ، ١٣٥ ، العظيمي ، ١٩٠ ـ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٧٩/٨ ، زبدة الحلب ، ١٣٨/٢ ـ ١٤١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٩٢/٦ ـ و .

٢٢ ـ أعمال الفرنجة ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ابن القلانسي ، ١٣٧ ، ابن عساكر ، ٥٠/٦ ظ ، العظيمي ، ١٩١ و ـ ١٩٣ و ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٨٧/٨ ـ ١٩٠ ، زبدة الحلب ، ١٤١/٢ ـ ١٤٧ ، بغية الطلب ،

أحمد الثالث ، ٤/١٩٧ ظ - ١٩٨ و ، ٦/٩٢ - و ، الحروب الصليبية تأليف رفيق التميمي ، ٥٤ - ٦١ ، الحركة الصليبية ، ١/٢٣٨ - ٢٤٦ ،

The cursades, by Archer and Kingsford, 77-92; The History of the crusades by Charles Nills, 80-88; the crusades by Harold Lamb, 186-206; A History of the crusades by Steven Runciman, 1, 279-288; Pennsylvania History of the crusades, 1,326-337; the crusades, by Regine pernoud, 81-91.

٢٣ - ابن القلانسي ، ١٤٢ - ١٩٢ ، العظيمي ، ١٩٢ و١٩٧ و ، الكامل ، ط . القاهرة ، ٨/٢٢٢ - ٢٦٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٨٨ ظ - ٢٩٠ و٦/٨٩ - و- ٩٤ - ظ ، زبدة الحلب ، ٢/١٤٦ - ١٧٢ .

مصـــادر الكتــاب

ابن الأثير الجزري (ابو الحسن علي)
١ ـ الكامل في التاريخ . ط . ليدن ـ
. ط . القاهرة ١٣٤٨ هـ
٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ،
حققه عبد القادر طليمات .
القاهرة ١٩٦٣
ابن الأثير الحلبي (اسماعيل)
عبرة أولي الأبصار في ملوك الامصار
المتحف البريطاني رقم Add.23-334
الاصطخري (ابراهيم بن محمد)
المسالك والممالك .
القاهرة ١٩٦١ .
الأصفهاني (محمد بن محمد)
البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان
مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٥٩ .
Bulletin d'Etudes orientaes, tomes VII - VIII, Institut Francais de Damas, 1938.
الاصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب)
١ ـ تاريخ دولة آل سلجوق ـ هذبه الفتح البنداري ـ القاهرة ١٩٠٠ .
٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر . تحقيق شكري فيصل . دمشق ، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ .

ابن ايبك الدواداري (عبد الله)
الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية . حققه صلاح المنجد . القاهرة ١٩٦١ .
بدران (عبد القادر)
تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ دمشق ١٩١٣ .
البكري (ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز
معجم ما استعجم . حققه مصطفى السقا ،
القاهرة ١٩٤٥ .
البيهقي (أبو الفضل)
تاريخ البيهقي ـ صحائف مسعودي ـ الف بالفارسية وترجمه الى العربية : يحيى الخشاب وصادق نشأت . القاهرة . (بدون تاريخ) .
ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ .
ابن جنغل (محمد بن علي)
تاريخ ابن جنغل . المتحف البريطاني OR. 5912

ابن الجوزي (عبد الرحمن)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم . حيدر اباد ١٩٤٠ .
الجواليقي (ابـو منصـور مـوهوب بـن احمد)
المعرب من الكلام الاعجمي على حـروف المعجم .
تحقيق احمد محمد شاكر القاهرة ١٣٦١
حاجي خليفة .
كشف الظنون ليبزغ ١٨٣٧
ابن حزم الاندلسي (محمد بن علي)
جمهرة أنساب العرب . القاهرة ١٩٦٢ .
الحسيني (ابـو الحسـن على بـن ابـي الفوارس ناصر بن علي) .
اخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ)
تحقيق محمد اقبال . لاهور ١٩٣٣ .
ابن أبي حصينة . تحقيق اسعد طلس دمشق ١٩٦٥ .
الحموي (محمد)
التاريخ المنصوري ـ موسكو ١٩٦٠
الحموي (ياقوت بن عبد الله)
١ ـ ارشاد الاريب الى معـرفة الأديب (معجـم الادبـاء) القـاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩٢٧ .
٢ ـ معجم البلدان . بيروت ١٩٦٨ .
ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)
كتاب صورة الارض . بيروت . دار مكتبة الحياة .
ابن حيوس (محمد بن سلطان)
ديوان ابـن حيوس . تحقيق خليل مـردم بك .
دمشق ١٩٥١ .
ابن خرداذبه (ابو القاسم عبـد الله ابـن عبد الله) .
المسالك والممالك ليدن ١٨٨٩ .
خسرو (ناصر)
سفرنامه . نقله الى العربية يحي الخشاب القاهرة ١٩٤٥ .
ابن خلدون (عبد الرحمن)
العبـر وديوان المبتـدأ والخبـر بيروت ١٩٥٨ .
ابن خاكان (احمد بن محمد) .
وفيات الاعيان القاهرة ١٣١٠ .
الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف)
مفـاتيح العلوم المطبعـة المنيـرية في القاهرة .
ابن خياط (خليفة)
تاريخ خليفـة بـن خياط تحقيق سـهيل زكار .
دمشق ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .
ابن ابي الدم (ابراهيم)
تاريخ ابن ابي الدم .
مكتبة البودليان
الذهبي (محمد بن احمد)
١ ـ تاريخ الاسلام . المتحف البريطاني
٢ ـ العبر في خبر من غبر . تحقيق فؤاد السيد . الكويت ١٩٦١ .
٣ ـ دول الاسلام المتحف البريطاني
حيدر أباد ١٩١٩ .
الراوندي (محمد بن علي بن سليمان)
راحـة الصـدور وآية السرور في تـاريخ الدولة السـلجوقية . ألف بـالفارسية ، ونقله الى العربية : ابراهيم الشواربي ، وعبد النعيم حسنين ، وفـؤاد الصـياد .
القاهرة ، ١٩٦٠ .
ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر)
الاعلاق النفسية . ليدن ١٨٩١ .

ابن الزبير (القاضي الرشيد)
الذخائر والتحف – الكويت ١٩٥١ .
مختارات من كتابات المؤرخين العرب .
دمشق ١٩٧١ . زكار (سهيل)
سبط ابن الجوزي (ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي) .
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان . المتحف البريطاني
مكتبة احمد الثالث ٢٩٠٧ س .
المكتبة الوطنية بباريس ١٥٠٦ .
الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦ – ١٠٨٦ تحقيق علي سويم ٠ انقرة ١٩٦٨ .
السمعاني (عبد الكريم بن محمد)
الانساب . طبع بالتصوير ، لندن ١٩١٢ .

ابن سنان الخفاجي (عبد الله بن محمد بن سعيد)
ديوان ابن سنان الخفاجي . بيروت ١٨٨٦
ابن شاكر الكتبي (محمد)

١ – فوات الوفيات . حققه محي الدين عبد الحميد . الحميد القاهرة ١٩٥١ .
أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق محمد حلمي احمد القاهرة ١٩٥٦
ابن الشحنة (محمد)
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب . بيروت ١٩٠٩ .
الاعلاق الخطيرة ، قسم مدينة دمشق : دمشق
١٩٥٦ . قسم مدينة حلب : دمشق ١٩٥٣ .

شيخ الربوة (ابو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري)
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبزغ ١٩٢٣ .
الصابي (ثابت بن سنان مع ابن العديم والمقريزي)
تاريخ أخبار القرامطة . تحقيق سهيل زكار بيروت ١٩٧١ .
الصيرفي (على بن منجب)
الاشارة الى من نال الوزارة . القاهرة ١٩٢٣
الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الرسل والملوك ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١ .
ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد
١ – بغية الطلب في تاريخ حلب . مجلد في أيا صوفيا برقم ٣.٣٦ ، ٨ مجلدات في احمدالثالث برقم ٢٩٢٥ ، ومجلد في فيض الله برقم ١٤٠٤ . استانبول
٢ – الانصاف والتحري (نشر في داخل كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء) .
٣ – زبدة الطلب من تاريخ حلب حقق سامي الدهان دمشق ، ١٩٥١ ١٩٥٤ – ١٩٥٨ .
ابن عساكر (علي بن الحسن)
تاريخ مدينة دمشق ، مخطوطة المكتبة الظاهرية : ٣ / ٣٣٦٨ : ٦ / ٣٤٥٠ : ٨ / ٣٣٧٢
المجلد الاول والمجلد الثاني حققهما صلاح المنجد دمشق ١٩٥١ . المجلد العاشر حققه احمد دهمان دمشق ١٩٦٣ .
العظيمي (محمد بن علي)
تاريخ العظيمي . مكتبة بيازيد رقم ٣٩٨ .

العمري (أحمد بن يحي)
مسالك الابصار . أيا صوفيا ٣٤١٧
العمري (ياسين بن خير الله)
الدر المكنون في مآثر الماضية من القرون
المتحف البريطاني
ابن العميد (جرجس)
تاريخ المسلمين ليدن ١٦٢٥ .
العيني (البدر محمد بن احمد)
عقد الجمان في تاريخ الزمان مكتبة بيازيد
رقم ٢٣١٧ .
الغزالي (أبو حامد)
التبر المسبوك في نصيحة الملوك القاهرة
١٩٦٨ .
الفارقي (ابن الازرق)
تاريخ الفارقي . حققه الجزء الاكبر منه
بدوي عبد اللطيف عوض . القاهرة
١٩٥٩ .
أبو الفداء (اسماعيل بن محمد بن عمر)
١ ـ تقويم البلدان باريس ١٨٤٠
٢ ـ المختصر في اخبار البشر استانبول
١٨٦٩ .
الفردوسي (أبو القاسم)
الشاهنامه. ترجمها نثرا الفتح بن علي
البنداري .
حققها الدكتور عبد الوهاب عزام
القاهرة ١٩٣٢ .
ابن الفقيه (ابو بكر احمد بن ابراهيم
الهمذاني)
مختصر كتاب البلدان ليدن ١٣٠٢ .
ابن فضلان (احمد بن فضلان بن العباس
بن راشد بن حماد) رسالة من فضلان
حققها سامي الدهان .
دمشق ١٩٦٠ .

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود
اثار البلاد واخبار العباد بيروت ١٩٦٠
ابن القلانسي (حمزة)
ذيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨
الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد
كتاب ديوان لغات الترك استانبول ١٣٣٣
ابن كثير (اسماعيل بن عمر)

البداية والنهاية القاهرة ١٩٣٢ .
ابن ماكولا (أبو نصر علي بن هبة الله
الاكمال حيدر أباد ١٩٦٢ . ١٩٦٧
مجهول

اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس
ترجمة حسن حبشي القاهرة ١٩٥٨
مجهول
حوادث السنين مكتبة احمد الثالث ٢٩٨١

مسكويه (احمد بن محمد)
تجارب الامم القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٥
المقدسي (محمد بن أحمد)
احسن التقاسيم ليدن ١٨٧٧
المقريزي (أحمد بن علي)
١ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة
الفاطميين الخلفاء احمد الثالث ٣٠١٣ .
٢ ـ خطط المقريزي القاهرة ١٩٠٦ ـ
١٩٠٨
٣ ـ المقفى مجلد باريس مجلدات ليدن
مجلد برتو باشا .
ابن المقفع (ساويروس)
تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية القاهرة
١٩٥٩
منجم باشي (احمد بن لطف الله)
تاريخ رئيس المنجمين مكتبة نور عثمانية
٣١٧١ .
المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى)
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة تحقيق
محمد كامل حسين القاهرة ١٩٤٩ .

Anonymous Geographer, Hudud Al-Alam. English translation London 1937.

Bar Hebreausr (Abu'l-Faraj Son of Aron) History of the world English translation by Ernest A. wallis Budge, Oxford 1932

Comnena, Anna, the Alexiad, English translation by E Dawes London 1967 English translation by F. Sewter, London 1969.

Nustawfi (Hamd-Allah) Nuzhat-Al-Qulab. English Translation. London 1919

Nizam Al-Mulk, The book of Government. English Translation by Harbert Drabe. London 1960.

Psellus (Michael) Fourteen byzantine Rulers (Eng Trans Penguin Ed., London 1966).

Archer, T, A, The crusades, London 1894.

Atiya, Aziz, The crusades, Historiography and Bibliography 1962

Barthold (W)

1 — Four studies on the History of central Asia English Traaslation; Liden 1962.

2 — Turkestan down to the Mongol invasion, English Translation London 1968.

Bosworth (Clifford Edmend)

1 — The Ghaznavids. Edinburgh 1963.

2 — The Islamic Dynasties, Edinburgh 1967.

Cahen (Claude)

1 — Mouvements Populaire et Autonomisme Urbains dans l'Asie Musulmane du Moyen Age I, Arabica vol. V, pp 225-250, 1958

2 — Pre Ottoman Turkey (Eng. Trans) London 1969

3 — D. Souvaget's Introduction to the History of Muslim East, (Recast, California, 1965).

ابن ميسر (محمد بن علي)
أخبار مصر تحقيق هنري ماسيه
القاهرة ١٩١٩ .
النرشحي (أبو بكر محمد بن جعفر)
تاريخ بخاري . عربه عن الفارسيه : أمين
بدوي ونصر الله الطرازي . القاهرة
١٩٦٥ .
ابن الهبارية (أبو يعلي محمد بن محمد
ديوان الصادح والباغم القاهرة ١٢٩٢
ها .
ابن أبي الهيجاء
تاريخ ابن أبي الهيجاء المكتبة الاحمدية
بتونس رقم ٩٥١٤ .
ابن الوردي (عمر)
تتمة المختصر في أخبار البشر القاهرة
١٨٦٨
ابن واصل الحموي (محمد بن سالم)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب المجلد
الأول حققه جمال الدين الشيال
القاهرة ١٩٥٣ .
اليافعي (محمد بن عبد الله)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان . حيدر أباد
١٩١٩ .
(أمين حسين)
تاريخ العراق في العصر السلجوقي بغداد
١٩٦٥ .
تعريف القدماء بأخبار أبي العلاء القاهرة
١٩٤٤ .
التميمي (رفيق)
الحروب الصليبية القدس ١٩٤٥
الجندي (سليم)
تاريخ المعرة دمشق ١٩٦٣
الزركلي (خير الدين)
الاعلام الطبعة الثانية ــ القاهرة .

سالم (السيد عبد العزيز)
طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي
الاسكندرية ١٩٦٧ .
سرور (محمد جمال الدين)
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق
القاهرة ١٩٦٤
الضابط (شاكر صابر)
موجز تاريخ التركمان في العراق بغداد
١٩٦٠ الطباخ (محمد راغب)
أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء حلب
١٩٢٣ ــ ١٩٢٥ .
طلاس (محمد بن أسعد)
الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب .
دمشق ١٩٥٦ ١

عاشور (سعيد عبد الفتاح)
الحركة الصليبية القاهرة ١٩٦٢
العريني (السيد الباز)
مؤرخو الحروب الصليبية . القاهرة
١٩٦٢
غرايبة (عبد الكريم)
العرب والاتراك دمشق ١٩٦١
الغزي (كامل بن حسين)
نهر الذهب في تاريخ حلب . حلب ١٩٢١
كحالة (عمر) .

معجم المؤلفين دمشق ١٩٥٧ ــ ١٩٦١
المعاضيدي (خاشع)
دولة بني عقيل في الموصل بغداد ١٩٦٨
المكتب المركزي للاحصاء في سورية
التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية
السورية دمشق ١٩٦٨
ناجي (عبد الجبار)
الامارة المزيدية البصرة ١٩٧٠

1 — Cambridge Medieval History, vol IV, Ed Jaon M. Hussey. Cambridge, 1966-67.

2 — Cambridge History of Islam. Cambridge 1970.

3 — The Cambridge History of Iran, Vol. V, Cambridge 1968.

Cohn, Norman, The Pursuit of the Millezium, London 1970.

Dunlop (D.M.), The History of the Jewish Khazars, New York 1967.

Ederhard Wolfram, A History of Chaina, London 1967.

Ensyslopaedia of Islam, New Eden, London 1960.

Historians of the Middle East, Ed. B. Lewis and P.M Holt, Oxford 1964.

A History of the crusades, I, Ed. K M. Setton, Philadelphia 1955.

Kabir (Mafizullah), The Buwayhid Dynasty of Baghdad. Calcutta 1964.

Lam, Harold, The Crusades, Iron Nen and Saints, London 1970.

Lambton (A.K.S.), Landlord and peasant in Persia, Oxford 1969.

Lewis, B. The Assassins, London, 1967.

Millo, Clarles, The History of the crusades, Philadelphia, 1944.

Ostragosky, D, History of the Byzantine state, Eng. Trans., J. Hussey, Oxford 1968.

Pearson, J. D., Idex Islamicus, Cambridge 1961, 1962, 1967.

Pernoud, Régime, The crusades, Eng. Trans., New york 1964.

Rice (Tamara Talbot), The Sljuks, London 1966.

Rosenthal, F., A History of the Muslim, Histography, Leiden, 1968.

Runciman, Steven, A History of the crusades, Penguim Eden.

Segal, J. B., Edessa, The blessed city, Oxford 1970.

Sevim, Ali, Suriye Selcuklulari, I, Ankara, 1965.

Smail, R. C., Crusading warfare, 1097 - 1193. Cambridge, 1957.

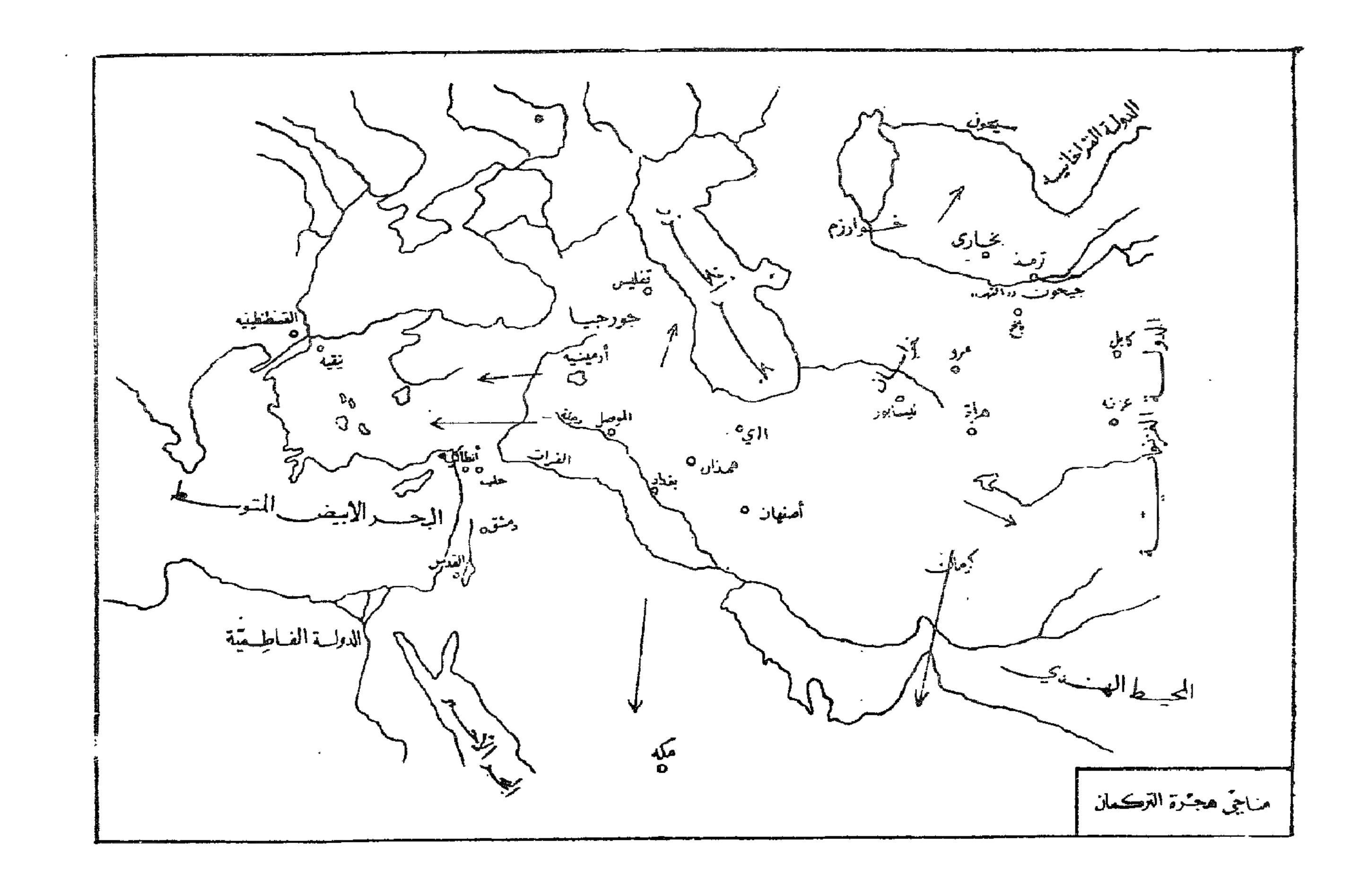
Le strage (Guy)

1 — The land of the Eastern Caliphate, London 1966.

2 — Palestine under the Muslim, Beirut 1965.

Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire, winsconsin 1964.

Zakkar, Suhayl, The Emirate of Aleppo, 1004 - 1094, Beirut 1971.



مناحي هجرة التركمان
الدولة القراخانية
سيحون
خوارزم
بخارى
ترمذ
جيحون
بلخ
مرو
نيسابور
هراة
كابل
غزنة
الدولة الغزنوية
تفليس
جورجيا
أرمينيه
القسطنطينيه
نيقية
الموصل
الفرات
الري
همذان
بغداد
أصفهان
كرمان
أنطاكية
حلب
دمشق
القدس
البحر الأبيض المتوسط
الدولة الفاطمية
مكه
المحيط الهندي

المحتـــــــــــــــــــــــــوى

المحتوى

ملاحق الكتاب

معركة منازكرد